



عناصر الموضوع

المجلد السابع

مفهوم البراء

أولًا: المعنى اللغوي:

برأ: الباء، والراء، والهمزة: يدل على أصلين في اللغة إليهما ترجع فروع الباب>

أحدهما: الخلق، يقال: برأ الله الخلق يبرؤهم براءً، والبارئ: الله جل ثناؤه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

والأصل الآخر: التباعد عن الشيء، يدل على التبرؤ، والتخلص، والتنزه، والتباعد، والتنصل والتزايل، وغير ذلك.

والبراء: مصدر برئت[١]؛ ولأنه مصدر فلا يجمع ولا يثنى ولا يؤنث، فتقول: رجلٌ براء، ورجلان براء، ورجالٌ براء، وامرأة براء [٢]، وقوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: ١]. أي: إعذار وإنذار وتنزه[٣]، وليلة البراء: ليلة يتبرأ القمر من الشمس، وهي أول ليلة من الشهر[٤].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لقد عرف العلماء البراء اصطلاحًا بتعريفات عديدة منها:

«هو البعد، والخلاص، والعداوة بعد الإعذار والإنذار»[٥].

«بغض أعداء الله من المنافقين وعموم الكفار، وعداوتهم، والبعد عنهم، وجهاد الحربيين منهم بحسب القدرة»[٦].

«بغض الطواغيت التي تعبد من دون الله تعالى (من الأصنام المادية والمعنوية: كالأهواء والآراء)، وبغض الكفر (بجميع ملله) وأتباعه الكافرين، ومعاداة ذلك كله»[٧].

---

(١) انظر: المقصور والممدود، الفراء ص ٢٦، المقصور والممدود، أبو علي القالي ص٣٥٩.
(٢) انظر: المصدرين السابقين، تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٢٦٩.
(٣) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٣٣٦.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٣٢، مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٣٦، مختار الصحاح، الرازي، ص ٤٥، القاموس المحيط ١/ ٨.
(٥) الولاء والبراء في الاسلام، القحطاني ص ٩٠.
(٦) تسهيل العقيدة الإسلامية، الجبرين ص ٥٥٢.
(٧) الولاء والبراء بين الغلو والجفاء، حاتم الشريف ص ١٣.



البراء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (برأ) في القرآن الكريم (٣١) مرة، وما يخص منها موضوعنا (٢٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٥	﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ [البقرة:١٦٧]
الفعل المضارع	٢	﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ [يوسف:٥٣]
الاسم	١٢	﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ﴾ [الممتحنة:٤]
المصدر	٣	﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ①﴾ [التوبة:١]
اسم المفعول	١	﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور:٢٦]

وجاء البراء في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو المفارقة والتباعد من الشيء ومزايلته[٢].

(١) انظر: المعجم الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبدالله جلغوم، ص٣١٤.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٣٦، مختار الصحاح، الرازي ص٣١.

الألفاظ ذات الصلة

١ البراءة:

البراءة لغةً:

مصدر (بريء) إذا تنزه وتباعد، وبريء إذا أعذر وأنذر، ومنه قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ قال ابن الأعرابي: بريء إذا تخلص من عهدة الرد به[١].

البراءة اصطلاحًا:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي، بل ينحدر منه.

الصلة بين البراء وبراءة:

لا يوجد فرق فهما بنفس المعنى، بل إن لفظة البراءة من اشتقاقات لفظة (برأ)، ويتضح ذلك من خلال تعريف البراء.

٢ الترك:

الترك لغةً:

بمعنى التخلية عن الشيء، أي: البعد عنه، وترك الأمر، أي: طرحه وأهمله[٢]، وهذا المعنى مشابه لمعنى البراء إلى حد كبير.

الترك اصطلاحًا:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

الصلة بين الترك والبراء:

هناك تشابهٌ إلى حد كبير مع مصطلح البراء، فالبراء يشتمل على معنى المفارقة والتجنب والإهلاك والامتحان.

٣ الولاء:

الولاء لغةً:

القرب والدنو والمحبة والنصرة[٣]، قال الراغب الأصفهاني: «ولي: الولاء والتوالي: أن

---

(١) انظر: لسان العرب، ١/ ٣٣، وذكر ذلك أيضًا الأزهري في تهذيب اللغة ١٥/ ٢٦٩.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٤٥.

(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٤٠٥، مقاييس اللغة، ابن فارس، ص ١١٠٣، مختار الصحاح، الرازي، ص ٣٧٦، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ٤/ ٤٠١.

يحصل شيئان فصاعدًا حصولًا ليس بينهما ما ليس منهمـا، ويستعار ذلك للقـرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقـة والنصرة والاعتقاد، والولاية: النصرة»[1].

الولاء اصطلاحًا:

التقرب إلى الله عز وجل والنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالمحبة والنصرة والطاعة، وغير ذلك من مظاهر الولاء[2].

الصلة بين الولاء والبراء:

معنى الولاء يأتي على النقيض تمامًا من معنى البراء، فالبراء يعني البعد والطرح والبغض، أما الولاء فيعني القرب والحب والنصرة

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٥٣٤.
(٢) انظر: الولاء والبراء في الإسلام، القحطاني ص ٨٧.

البراءة في حق الله تعالى

أولًا: براءة الله عز وجل من المشركين:

قال تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١].

والمعنى: إلى الذين عاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين؛ لأن العهود بين المسلمين والمشركين عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يكن يتولى عقدها إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من يعقدها بأمره، ولكنه خاطب المؤمنين بذلك لعلمهم بمعناه، وأن عقود النبي صلى الله عليه وسلم على أمته كانت عقودهم؛ لأنهم كانوا لكل أفعاله فيهم راضين، ولعقوده عليهم مسلمين، فصار عقده عليهم كعقودهم على أنفسهم، فلذلك قال: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، لما كان من عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده[١].

وقد جاء قوله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣].

معطوفًا على قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾

وموقع لفظ (أذان) كموقع لفظ (براءة) في التقدير، وهذا إعلام المشركين الذين لهم عهد بأن عهدهم انتقض[٢]، وكما أن هذه الآية تقرر حكمًا شرعيًا، والمشرع هو الله أضيف صدور البراءة إليه سبحانه ، وعطف عليه الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا المقام؛ لأنه هو المبلغ عنه، والمنفذ لما يبلغه[٣].

قال الامام الرازي: «لقائل أن يقول: لا فرق بين قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وبين قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ فما الفائدة في هذا التكرير؟

والجواب عنه من وجوه:

الوجه الأول: أن المقصود من الكلام الأول الإخبار بثبوت البراءة، والمقصود من هذا الكلام إعلام جميع الناس بما حصل وثبت.

والوجه الثاني: أن المراد من الكلام الأول البراءة من العهد، ومن الكلام الثاني البراءة التي هي نقيض الموالاة الجارية مجرى الزجر والوعيد، والذي يدل على حصول هذا الفرق أن في البراءة الأولى بريء إليهم، وفي الثانية: بريء منهم، والمقصود أنه تعالى أمر في آخر سورة الأنفال المسلمين بأن يوالي بعضهم بعضًا، ونبه به على أنه يجب عليهم أن لا يوالوا

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٩٦.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ١٠٧.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ١٩٦.

الكفار وأن يتبرءوا منهم، فههنا بين أنه تعالى كما يتولى المؤمنين فهو يتبرأ عن المشركين ويذمهم ويلعنهم، وكذلك الرسول؛ ولذلك أتبعه بذكر التوبة المزيلة للبراءة.

والوجه الثالث: في الفرق أنه تعالى في الكلام الأول، أظهر البراءة عن المشركين الذين عاهدوا ونقضوا العهد، وفي هذه الآية أظهر البراءة عن المشركين من غير أن وصفهم بوصف معين؛ تنبيهًا على أن الموجب لهذه البراءة كفرهم وشركهم»[1].

ثانيًا: تبرأة الله لموسى عليه السلام:

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾[الأحزاب: ٦٩]

لقد حكى القرآن الكريم ألوانًا من إيذاء بني إسرائيل لموسى عليه السلام، ومن ذلك قولهم له: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

وقولهم: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

ومن إيذائهم له عليه السلام ما رواه الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن موسى كان رجلًا حييًا ستيرًا، لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستر، إلا من عيب بجلده: إما برص وإما أدرة[2]: وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يومًا وحده، فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه، ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا، فذلك قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩])[3].

قال ابن عاشور: «معنى ﴿بَرَّأَهُ﴾ أظهر براءته عيانًا؛ لأن موسى كان بريئًا مما قالوه من قبل أن يؤذوه بأقوالهم، فليس وجود البراءة منه متفرعة على أقوالهم، ولكن الله أظهرها عقب أقوالهم، فإن الله أظهر براءته من التغرير بهم إذ أمرهم بدخول أريحا،

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٥٢٦.

(٢) الأدرة: بالضم: نفخةٌ في الخصية؛ يقال: رجلٌ آدر بين الأدر.
انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٣٤٢، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ١٥، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ١٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، رقم ٣٤٠٤، ٤/ ١٥٦.

فثبت قلوبهم وافتتحوها، وأظهر براءته من الاستهزاء بهم إذ أظهر معجزته حين ذبحوا البقرة التي أمرهم بذبحها فتبين من قتل النفس التي اداراؤا فيها، وأظهر سلامته من البرص والأدرة حين بدا لهم عريانًا لما انتقل الحجر الذي عليه ثيابه. ومعنى: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ برأه من مضمون قولهم لا من نفس قولهم؛ لأن قولهم قد حصل وأوذي به، وهذا كما سموا السبة القالة»[1].

واختتام الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ توضح سبب عناية الله عز وجل بتبرئة نبيه موسى عليه السلام، والوجيه: هو صاحب الجاه والمكانة، فكانت لموسى عليه السلام مكانة عظيمة عند الله تعالى، وهذا تسفيه للذين آذوه بأنهم آذوه بما هو مبرأ منه، وتنويه وتوجيه لتنزيه الله إياه بأنه مستحق لتلك التبرئة؛ لأنه وجيه عند الله تعالى[2].

وأولى الأقوال وأصوبها في قضية تبرئة موسى عليه السلام ما قاله الإمام الطبري: «أن يقال: إن بني إسرائيل آذوا نبي الله ببعض ما كان يكره أن يؤذى به، فبرأه الله مما آذوه به، وجائز أن يكون ذلك كان قيلهم: إنه أبرص، وجائز أن يكون كان ادعاءهم عليه قتل أخيه هارون، وجائز أن يكون كل ذلك؛ لأنه قد ذكر كل ذلك أنهم قد آذوه به، ولا قول في ذلك أولى بالحق مما قال الله إنهم آذوا موسى، فبرأه الله مما قالوا»[3].

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٢١.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٧٦.
(٣) جامع البيان ٢٠/ ٣٣٥.

براءة الأنبياء والصالحين من أقوامهم

أولًا: براءة إبراهيم عليه السلام والمؤمنين معه:

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة: ٤].

والمعنى: قد كان لكم - أيها المؤمنون- أسوة حسنة، وخصلة حميدة، ومنقبة كريمة، في قصة أبيكم إبراهيم عليه السلام ، وفي قصة الذين آمنوا معه، وقت أن قالوا لقومهم الكافرين، بشجاعة وقوة: إنا برآء منكم، ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله عز وجل، وإننا قد كفرنا بكم وبمعبوداتكم، وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغض على سبيل التأبيد والاستمرار، ولن نتخلى عن ذلك معكم، حتى تؤمنوا بالله - تعالى وحده-، وتتركوا عبادتكم لغيره تعالى[١].

قال صاحب الكشاف: «لقد كان في إبراهيم ومن آمن معه مذهب حسن مرضي، جدير بأن يؤتسى به، ويتبع أثره، وهو قولهم لكفار قومهم ما قالوا، حيث كاشفوهم بالعداوة، وقشروا لهم العصا، وأظهروا لهم البغضاء والمقت، وصرحوا بأن سبب عداوتهم وبغضائهم، ليس إلا كفرهم بالله، وما دام هذا السبب قائمًا، كانت العداوة قائمة، حتى إن أزالوه وآمنوا بالله وحده، انقلبت العداوة موالاة، والبغضاء مودة، والمقت محبة، فأفصحوا عن محض الإخلاص»[٢].

فيوضح القرآن الكريم كيف أعلن إبراهيم عليه السلام والمؤمنون معه بكل شجاعة وشدة، إيمانهم الكامل بالحق، وبراءتهم وكراهيتهم واحتقارهم، لكل من أشرك مع الله عز وجل في العبادة آلهة أخرى، وأنهم لم يكتفوا بالتغيير القلبي للمنكر، بل جاهروا بعداوتهم له، وبالتنزه عن اقترابهم منه[٣].

وفي موضع آخر يعلن إبراهيم عليه السلام براءته من شرك قومه صراحة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨].

قال الإمام الطبري: « فلما رأى إبراهيم الشمس طالعةً، قال: هذا الطالع ربي، ﴿هَٰذَا أَكْبَرُ﴾، يعني: هذا أكبر من الكوكب والقمر ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾، يقول: فلما غابت، قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي: من عبادة الآلهة والأصنام ودعائه إلهًا مع الله تعالى»[٤].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٨/ ١٢٨.

(٢) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥١٤.

(٣) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٤٨٢.

(٤) جامع البيان، الطبري ١١/ ٤٨٧.

ثانيًا: براءة نوح عليه السلام:

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [هود: ٣٢-٣٥].

والمعنى: قال قوم نوح له: قد طال منك هذا الجدال، وهو المراجعة في الحجة ومقابلة الأقوال ومناقشتها حتى تقع الغلبة، فأتنا بما تعدنا به من العذاب والهلاك المعجل في الدنيا، إن كنت صادقًا في ادعائك أن الله يعذبنا على عصيانه في الدنيا قبل الآخرة، أجاب نوح قومه عن اتهامه بكثرة الجدال قائلًا: ليس إنزال العذاب أو العقاب بيدي، وليس لي توقيته، وإنما ذلك بيد الله، وهو الآتي به إن شاء وإذا شاء، ولستم من المنعة بحال من يفلت أو يعتصم لتنجوا، وإنما أنتم في قبضة القدرة الإلهية، وتحت سلطان الملك الإلهي، وليس نصحي بنافع، ولا إرادتي الخير لكم مغنية إذا كان الله تعالى قد أراد بكم الإغواء والإضلال والإهلاك، الله ربكم، أي خالقكم والمتصرف في أموركم، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور، وإليه ترجعون في الآخرة، فيجازيكم بما كنتم تعملون في هذا العالم من خير أو شر.

وقوله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾

اختلف المفسرون في هذه الآية.

فقال الطبري: «أن هذه الآية معترضة في قصة نوح، وهي في شأن محمد صلى الله عليه وسلم مع كفار قريش، ويحتمل كون الكلام في شأن نوح عليه السلام، فإن قومه زعموا أن العذاب الذي توعدهم به أمر مفترى بقصد إرهابهم.

والراجح أن هذه الآية من محاورة نوح لقومه، كما قال ابن عباس؛ لأنه ليس قبل هذا الكلام ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه، والخطاب منهم ولهم، وهم يقولون: افترى ما أخبركم به من دين الله، وعقاب من أعرض عنه، ففي هذه الآية إعلان صريح من نوح أنه بريء من أعمال قومه وشركهم»[(١)].

وفي موضع آخر يتحدى نوح قومه بأنه لا يكترث بتهديد ووعيد قومه له.

قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: ٧١

---

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٠٤٠، تفسير الشعراوي ١١/ ٦٤٤٨.

- ٧٢].

يقول نوح عليه السلام لقومه: إن كان قد شق عليكم وعظم قيامي معكم للدعوة إلى عبادة ربكم، وتذكيري ووعظي إياكم بآيات الله أي بحججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وعبادته، فإني توكلت على الله وحده ووثقت به، فلا أبالي ولا أكف عن دعوتي ورسالتي، سواء عظم عليكم أو لا، فأجمعوا أمركم، أي اعزموا على ما تريدون من أمر تفعلونه بي، أنتم وشركاؤكم الذين تعبدونهم من دون الله من صنم ووثن، ولا تجعلوا أمركم الذي تعتزمونه خفيًا ملتبسًا عليكم، بل أظهروه لي، وتبصروا فيه، وافصلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إلى ذلك الأمر ونفذوه بالفعل، ولا تؤخروني ساعة واحدة عن تنفيذ هذا القضاء، فمهما قدرتم فافعلوا، فإني لا أبالي بكم ولا أخاف منكم لأنكم لستم على شيء[1].

ثالثًا: براءة هود عليه السلام:

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٣-٥٥].

بعد أن دعا نبي الله هود عليه السلام قومه لعبادة الله وحده، وحذرهم من الإعراض عنه سبحانه ، وناداهم بلفظ: -يا قوم- ثلاث مرات، توددًا إليهم، وتذكيرًا لهم بآصرة القرابة التي تجمعهم وإياه؛ لعل ذلك يستثير مشاعرهم، ويحقق اطمئنانهم إليه، كان جوابهم: ما جئتنا بحجة وبرهان على ما تدعيه أنك رسول من عند الله، ولن نترك عبادة آلهتنا بمجرد قولك: اتركوهم، وما نحن لك بمصدقين، فكان جوابهم متضمنًا أربعة أشياء كلها عناد وحماقة واستكبار، وهي المطالبة بالبينة والإصرار على عبادة الآلهة.

قوله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ قال الامام الزمخشري فيها ما ملخصه «أي: مسك بجنون لسبك إياها، وصدك عنها، وعداوتك لها، مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء، فمن ثم صرت تتكلم بكلام المجانين وتهذي بهذيان المبرسمين»[2].

ثم قال: «وقد دلت ردودهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد، لا يبالون بالبهت، ولا يلتفتون إلى النصح، ولا

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٢٤.

(٢) البرسام: أي بكسر الموحدة سريانيٌ معربٌ أطلق على اختلال العقل وعلى ورم الرأس وعلى ورم الصدر.
انظر: فتح الباري، ابن حجر ١/ ٣٣٨.

تلين شكيمتهم للرشد، وهذا الأخير دال على جهل مفرط، وبلهٍ متناه، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم...»[1].

وبعد أن استمع هود عليه السلام إلى ردودهم القبيحة، فما كان منه إلا أن يقف منهم موقف المتبريء من شركهم، والمتحدي لطغيانهم، والمعتمد على الله- تعالى وحده- في الانتصار عليهم، ولقد حكى القرآن رده عليهم فقال: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ أي: أشهد الله على نفسي واشهدوا علي أني بريء من شرككم ومن عبادة الأصنام، ولا يعني هذا أنهم كانوا أهلًا للشهادة، ولكنه نهاية للتقرير، أي لتعرفوا، ولم يقل: (إني أشهد الله وأشهدكم) لئلا يفيد التشريك بين الشهادتين والتسوية بينهما؛ فإن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم، ودلالة على قلة المبالاة بهم، وإذا كنت بريئًا من جميع الأنداد والأصنام، أي مما تشركون من دون الله، فإني أعلن ذلك صراحة، فاجمعوا كل ما تستطيعون من أنواع الكيد لي، جميعًا أي أنتم وآلهتكم، ولا تمهلوني طرفة عين، إني فوضت أمري كله لله ربي وربكم، ووكلته في حفظي، فهو على كل شيء قدير[2].

ويمكننا أن نخلص إلى أن رد هود عليه السلام على قومه تضمن عدة أمور وهي: التحدي والمعجزة الباهرة، وقلة المبالاة بهم وبتهديدهم، والبراءة من شركهم، وإشهاد الله على ذلك، وإشهادهم على براءته من شركهم، وطلبه المكايدة له، وإظهار قلة المبالاة بهم، وعدم خوفه منهم ومن آلهتهم.

رابعًا: براءة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾[الأنعام: ١٩].

قال الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل لهؤلاء المشركين، الجاحدين نبوتك، العادلين بالله، ربًا غيره: ﴿أَئِنَّكُمۡ﴾، أيها المشركون ﴿لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰ﴾، يقول: تشهدون أن معه معبودات غيره من الأوثان والأصنام»[3].

(١) الكشاف ٢/ ٤٠٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٣٦٠، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٢١٨، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٨٩.

(٣) جامع البيان ١١/ ٢٩٢.

قال الإمام الرازي: «واعلم أن هذا الكلام دال على إيجاب التوحيد والبراءة عن الشرك من ثلاثة أوجه:

أولها: قوله: ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ أي: لا أشهد بما تذكرونه من إثبات الشركاء.

وثانيها: قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ﴾ وكلمة إنما تفيد الحصر، ولفظ الواحد صريح في التوحيد ونفي الشركاء.

وثالثها: قوله: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ وفيه تصريح بالبراءة عن إثبات الشركاء، فثبت دلالة هذه الآية على إيجاب التوحيد بأعظم طرق البيان وأبلغ وجوه التأكيد.

قال العلماء: المستحب لمن أسلم ابتداء أن يأتي بالشهادتين، ويتبرأ من كل دين سوى دين الإسلام.

ونص الشافعي رحمه الله على استحباب ضم التبري إلى الشهادة؛ لقوله: وإنني بريء مما تشركون عقيب التصريح بالتوحيد»[1].

ومما يتصل بسياق الآية قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

قال الإمام الطبري: «وإن كذبك يا محمد، هؤلاء المشركون، وردوا عليك ما جئتهم به من عند ربك، فقل لهم: أيها القوم، لي ديني وعملي، ولكم دينكم وعملكم، لا يضرني عملكم، ولا يضركم عملي، وإنما يجازى كل عامل بعمله ﴿عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ﴾، لا تؤاخذون بجريرته ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لا أوخذ بجريرة عملكم»[2].

قال ابن تيمية: «فقد أمره الله أن يتبرأ من عمل كل من كذبه وتبريه هذا يتناول المشركين وأهل الكتاب»[3].

فقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة، أن يظهر البراءة من أعمال الكفار القبيحة إنكارًا لها، وإظهارًا لوجوب التباعد عنها، وبين هذا المعنى في سورة الكافرون[4].

ومن الآيات التي تحدثت عن تهديد النبي صلى الله عليه وسلم لعشيرته بالبراءة، قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤-٢١٦].

ومعنى هذه الآيات: فإن عصتك يا محمد صلى الله عليه وسلم عشيرتك الأقربون الذين أمرتك بإنذارهم، وأبوا إلا الإقامة على عبادة الأوثان، والإشراك بالرحمن، فقل لهم: (إني بريءٌ مما تعملون) من عبادة الأصنام ومعصية باريء الأنام[5].

(١) مفاتيح الغيب ١٢/ ٥٠٠.

(٢) جامع البيان ١٥/ ٩٤.

(٣) مجموع الفتاوى ١٦/ ٥٤٦.

(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ١٥٧.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤١١.

وهذه الآية تفريع على قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ أي: فإن عَصَوْا أمرك المستفاد من الأمر بالإنذار، أي: فإن عصاك عشيرتك فما عليك إلا أن تتبرأ من عملهم، فالتبرؤ إنما هو من كفرهم، وإنما أُمِرَ أن يقول لهم ذلك؛ لإظهار أنهم أهلٌ للتبرؤ من أعمالهم، فلا يقتصر على إضمار ذلك في نفسه[1].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٠٣.

براءة الشيطان من اتباعه

يعتبر الشيطان من ألد الأعداء للإنسان منذ بداية الخليقة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولقد أخذ الشيطان العهد على نفسه أمام الله عز وجل على إغواء بني آدم وإضلالهم، ولكن يأتي يوم على الشيطان يعلن براءته من الإنسان، وسوف نتعرف على بعض المواقف التي يتبرأ فيها الشيطان من أتباعه:

أولًا: براءة الشيطان من المشركين في بدر:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

ألقى الشيطان في روع المشركين أنهم لا يغلبون لكثرة عددهم، وعددهم، وأوهمهم أن اتباعهم إياه فيما يظنون أنها قربات تجعله مجيرًا لهم، وحافظًا إياهم عن السوء حتى قالوا: اللهم انصر أهدى الفئتين، وأفضل الدينين، ولكن حينما التقت الفئتان، فئة المؤمنين وفئة المشركين ولى الشيطان مدبرًا وقال للكافرين: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من عهدكم وجواركم ونصرتكم، إني أرى

من الملائكة النازلة لتأييد المؤمنين مالا ترونه أنتم، إني أخاف الله أن يعذبني قبل يوم القيامة، أو إني أخاف الله أن يصيبني بمكروه من قبل ملائكته[1].

ثانيًا: براءة الشيطان ممن دعاهم للكفر يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

لقد قام الشيطان للكافرين في هذا اليوم مقامًا يقصم ظهورهم، ويقطع قلوبهم، فأوضح لهم أن مواعيده التي كان يعدهم بها في الدنيا باطلة معارضة لوعد الحق من الله تعالى وأنه أخلفهم ما وعدهم به، ثم أوضح لهم بأنهم قبلوا قوله بما لا يتفق مع العقل؛ لعدم الحجة التي لابد للعاقل منها في قبول قول غيره، ثم أوضح لهم بأنه لم يكن منه إلا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان، الخالية عن أيسر شيء مما يتمسك به العقلاء، ثم نعى عليهم ما وقعوا فيه، ودفع لومهم له، وأمرهم بأن يلوموا أنفسهم؛ لأنهم هم الذين قبلوا الباطل البحت الذي لا يلتبس بطلانه على من له أدنى عقل، ثم أوضح لهم بأنه لا نصر عنده ولا إغاثة، بل هو مثلهم في الوقوع في البلية، ثم صرح لهم بأنه قد تبرأ مما اعتقدوه فيه وأثبتوه له، وهو إشراكه مع الله تعالى فتضاعفت عليهم الحسرات، وتوالت عليهم المصائب[2].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٣٤.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٤٥.

من صور البراءة يوم القيامة

أولًا: براءة الرؤساء والكبراء من أتباعهم:

قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[البقرة: ١٦٦].

يوم القيامة يتبرأ الرؤساء والكبراء من مرءوسيهم، حين يجمع القادة والأتباع، فيتبرأ بعضهم من بعض من حال رؤيتهم جميعًا للعذاب وأسبابه ومقدماته، وما أعد لهم من شقاء وآلام، وقد ترتب على كل ذلك أن تقطع ما بين الرؤساء والأذناب من روابط كانوا يتواصلون بها في الدنيا، وصار كل فريق منهم يلعن الآخر ويتبرأ منه[١].

قال الطبري: «أخبر تعالى أن المتبعين على الشرك بالله يتبرءون من أتباعهم حين يعاينون عذاب الله. ولم يخصص بذلك منهم بعضًا دون بعض، بل عم جميعهم. فداخلٌ في ذلك كل متبوع على الكفر بالله والضلال أنه يتبرأ من أتباعه الذين كانوا يتبعونه على الضلال في الدنيا، إذا عاينوا عذاب الله في الآخرة»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ يشمل الكل، ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ أي: عنهم، مثل قوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

وفي الأسباب أربعة أقوال:

أحدها: أنها المودات، وإلى نحوه يذهب ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.

والثاني: أنها الأعمال، رواه السدي عن ابن مسعود، وابن عباس، وهو قول أبي صالح وابن زيد.

والثالث: أنها الأرحام، رواه ابن جريج عن ابن عباس.

والرابع: أنها تشمل جميع ذلك[٣].

ثانيًا: تمني التابعين للرؤساء العودة للدنيا للتبرؤ منهم:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

يقول الذين كانوا تابعين لغيرهم في الباطل: ليت لنا رجعة إلى الحياة الدنيا، فنتبرأ من هؤلاء الذين اتبعناهم وأضلونا السبيل، كما تبرءوا منا في هذا اليوم العصيب، ولنشفي غيظنا منهم؛ لأنهم خذلونا وأوردونا موارد التهلكة والعذاب الأليم، مثل ذلك الذي رأوه من العذاب، يريهم الله جزاء أعمالهم حسرات عليهم،

(١) انظر: الدر المنثور، السيوطي ١/ ٤٠٢.
(٢) جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٨٨.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ١٣١.

أي أن الله يظهر لهم أن أعمالهم كان لها أسوأ الأثر في نفوسهم؛ لما ورثته فيها من حسرة وشقاء وخسران، فهي تذهب وتضمحل، ولن يخرجوا من النار إلى الدنيا لشفاء كيدهم وغيظهم من رؤسائهم، وهذا ما يؤكده قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: أنهم خالدون في النار ولن يخرجوا منها أبدًا[1].

الأسلوب القرآني في عرض البراء

نـزل القرآن بلسان عربي مبين، على أفصح العرب وأقومهم لسانًا، وكان القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للرسول صلى الله عليه وسلم حيث تحداهم الله أن يأتوا بمثله، بل أن يأتوا بسورة منه، فهذا القرآن المعجزة يقف المسلم أمامه منبهرًا، بين الإعجاز وبين سلاسة الأسلوب وسهولة العبارة، وستتعرف على أسلوب القرآن الكريم في عرض موضوع البراء.

أولًا: أسلوب الطلب:

أساليب الطلب في اللغة تأتي على عدة صور، منها:

١ . صيغة الأمر.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦].

أي: إن أبوا قبول دعوتك إلى التوحيد، ورفضوا ما تدعوهم إليه، فأخبرهم يا محمد صلى الله عليه وسلم بأنك بريء مما يعملون[2].

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ٢/ ٦٩٦.

(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٦٨٧.

[الكافرون ١-٦].

والمعنى: قل يا محمد صلى الله عليه وسلم: يا أيها الكافرون، لا أعبد على الإطلاق ما تعبدون من الأصنام والأوثان، فلست أعبد آلهتكم بأية حال، والآية تشمل كل كافر على وجه الأرض، ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي: ولستم أنتم ما دمتم على شرككم وكفركم عابدين الله الذي أعبد، فهو الله وحده لا شريك له، فهذه الآيات تنفي الاتحاد في العبادة، والمقصود من ذلك المبالغة التامة في البراءة من معبوداتهم الباطلة، ومن عبادتهم الفاسدة.

فنرى السورة الكريمة، قد قطعت كل أمل توهم الكافرون عن طريقه الوصول إلى مهادنة النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلى الاستجابة لشيء من مطالبهم الفاسدة، وإنما هو صلى الله عليه وسلم بريء براءة تامة منهم ومن معبوداتهم وعباداتهم[١].

قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

أي: أخبرهم بأنهم لا يؤاخذون بعملك ولا تؤاخذ أنت بعملهم، فهم بريئون منك وأنت بريء منهم[٢].

٢. صيغة النهي.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١].

أي: يا أيها المصدقون بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم لا تتخذوا عدوي وعدوكم أنصارًا وأصدقاءَ وأعوانًا لكم، بل لابد أن تتبرؤوا منهم ومن أعمالهم[٣].

وبنفس المعنى في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [التوبة: ٢٣].

ثانيًا: أسلوب الخبر:

قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨].

بعدما تعرف إبراهيم عليه السلام على الإله الحق، أخبر قومه بأنه بريء من كل الألهة التي يعبدونها من دون الله تعالى[٤].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

أي: فلما رأى إبليس الملائكة ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾[٥].

(١) انظر: التفسير الوسيط، محمد طنطاوي ١٥/ ٥٢٦.
(٢) انظر: تفسير المراغي ١١/ ١١٠.
(٣) انظر: أوضح التفاسير، الخطيب ١/ ٦٨٠.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٦٢.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، محمد طنطاوي

ومن الأساليب الخبرية ما يكون مؤكدًا بإن، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦].

أي: بريء مما تعبدون من أصنام لا أعبدها[1].

وبنفس المعنى في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ﴾.

ثالثًا: أسلوب الحوار:

١ . حوار نوح عليه السلام مع قومه.

قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾ [هود: ٣٢-٣٥].

والمعنى: قال قوم نوح له: قد طال منك هذا الجدال، وهو المراجعة في الحجة ومقابلة الأقوال ومناقشتها حتى تقع الغلبة، فأتنا بما تعدنا به من العذاب والهلاك المعجل في الدنيا، إن كنت صادقًا في ادعائك أن الله يعذبنا على عصيانه في الدنيا قبل الآخرة، أجاب نوح قومه عن اتهامه بكثرة الجدال قائلًا: ليس إنزال العذاب أو العقاب بيدي، وليس لي توقيته، وإنما ذلك بيد الله، وهو الآتي به إن شاء وإذا شاء، ولستم من المنعة بحال من يفلت أو يعتصم لتنجوا، وإنما أنتم في قبضة القدرة الإلهية، وتحت سلطان الملك الإلهي، وليس نصحي بنافع، ولا إرادتي الخير لكم مغنية إذا كان الله تعالى قد أراد بكم الإغواء والإضلال والإهلاك، الله ربكم، أي خالقكم والمتصرف في أموركم، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور، وإليه ترجعون في الآخرة، فيجازيكم بما كنتم تعملون في هذا العالم من خير أو شر[2].

٢ . حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٦٣٥ ـ ٦/ ١١٩.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٠٤٠، تفسير الشعراوي ١١/ ٦٤٤٨.

رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٤ - ٧٨].

والمعنى: اذكر أيها النبي حين قال إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر: أتتخذ هذه الأصنام والأوثان الجمادات آلهة، تعبدها من دون الله، مع أن الله هو الذي خلقها وخلقك، فهو المستحق للعبادة دونها، إني أراك وقومك الذين يعبدون هذه الأصنام في ضلال واضح، أي تائهين حيارى جهلاء، وأي ضلال أوضح من عبادتكم صنما من حجر أو شجر أو معدن، تنحتونه بأيديكم، ثم تعبدونه وتقدسونه، ثم أوضح الله تعالى ما رآه إبراهيم من ملكوت السماوات والأرض، أي تبيان وجه الدلالة في خلقهما على وحدانية الله في ملكه وخلقه، فلما أظلم عليه الليل، رأى كوكبًا عظيمًا متميزًا عن سائر الكواكب بإشراقه ولمعانه، وهو كوكب المشتري أو الزهرة، فقال موهمًا قومه في مقام المناظرة والحجاج: هذا ربي، على سبيل الفرض.

فلما غرب هذا الكوكب، قال إبراهيم: ما هذا بإله، ولا أحب ما يغيب ويختفي؛ لأن للإله السيطرة على الكون، فكيف يغيب الإله ويستتر، ثم انتقل إبراهيم من إبطال ألوهية الكوكب إلى إبطال ألوهية القمر الأكثر إضاءة، فلما رأى القمر بازغًا طالعًا عم ضوءه الأرض، قال: هذا ربي، فلما غاب كما غاب الكوكب في الليلة الماضية، قال إبراهيم مسمعًا قومه: ما هذا أيضًا بإله، ولئن لم يهدني ربي ويوفقني لإصابة الحق في توحيده، لأكونن من القوم الضالين المخطئين الطريق، فلم يصيبوا الهدى، وعبدوا غير الله.

ولما رأى إبراهيم الشمس بازغة طالعة، وهي أعظم الكواكب المرئية لنا، قال إبراهيم: هذا هو الآن ربي، هذا أكبر من الكواكب والقمر قدرًا، وأعظم ضوءًا ونورًا، فلما غابت الشمس كما غاب غيرها، صرح إبراهيم بعقيدته، وتبرأ من شرك قومه، قائلًا: إني توجهت في عبادتي لخالق الأرض والسماء، وخالق هذه الكواكب، إني بريء مما تشركون، باتخاذ إله آخر مع الله، وإنما أعبد خالق هذه الأشياء ومدبرها الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء. ومثل إبراهيم لقومه بهذه الأمور؛ لأنهم كانوا أصحاب علم نجوم ونظر في الأفلاك، قال إبراهيم: إني أقبلت بقصدي وعبادتي وتوحيدي وإيماني للذي أبدع السماوات[1].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٧/ ٢٥٩.

ما يتبرأ منه

أولًا: الأوثان والمعبودون من دون الله:

قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

الطاغوت: كل ما صرف عن عبادة الله تعالى من إنسان أو شيطان أو غيرهما[١]، والمعنى: فمن تبرأ وخلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة غير الله، وآمن بالله تعالى إيمانًا خالصًا صادقًا فقد ثبت أمره واستقام على الطريقة المثلى التي لا انقطاع لها، وأمسك من الدين بأقوى سبب وأحكم رباط[٢].

وفي الموضع التالي يبين الله تعالى سبب براءة إبراهيم عليه السلام والمؤمنين معه من القوم في ذلك الزمان، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة: ٤].

والمعنى: قد كانت لكم قدوة طيبة حميدة تقتدون بها في إبراهيم خليل الرحمن أبي الأنبياء والذين آمنوا معه من أتباعه حين قالوا لقومهم: إنا بريئون منكم؛ لكفركم بالله، وبريئون من كل ما تعبدون من غير الله من الأصنام والأنداد، فقد جحدنا بما آمنتم به من الأوثان، أو بدينكم، أو بأفعالكم، فإن تلك الأوثان لا تنفع شيئا، فهي لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر[٣].

ثانيًا: المشركون عامة وذوو الأرحام منهم خاصة:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

لما وعد إبراهيم من أبيه أنه سيؤمن، كان بمنزلة المؤلفة قلوبهم بالاستغفار له؛ لأنه ظنه مترددًا في عبادة الأصنام لما قال له: ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦].

فسأل الله له المغفرة لعله يرفض عبادة الأصنام، ولكن لما علم يقينًا أنه مصرٌّ على الكفر أعلن براءته منه علانية وبشكل صريح في قوله تعالى -كما يدل عليه قوله-: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[٤].

وفي موضع آخر يعلن إبراهيم براءته من قومه عامة ومن أبيه خاصة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦].

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٩، تاج العروس، الزبيدي ٣٨/ ٤٩٥.
(٢) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ١/ ٥٠٤.
(٣) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٤٦٨.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٧٤.

أي: واذكر أيها الرسول لقومك قريش المعتمدين على تقليد الآباء والأجداد في عبادة الأصنام، حين تبرأ إبراهيم عليه السلام مما يعبد أبوه آزر، وقومه من الأصنام، إلا من عبادة خالقه وخالق الناس جميعًا، والذي قال بأنه سيرشدني لدينه، كما أرشدني في الماضي، ويثبتني على الحق[1].

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

أي: من شأن المؤمنين الصادقين أن يبتعدوا عن موالاة أعداء الله ورسوله، ولو كان هؤلاء الأعداء، آباءهم الذين أتوا إلى الحياة عن طريقهم أو أبناءهم الذين هم قطعة منهم، أو إخوانهم الذين تربطهم بهم رابطة الدم أو عشيرتهم التي ينتسبون إليها، بل يجب إعلان البراءة منهم؛ وذلك لأن قضية الإيمان يجب أن تقدم على كل شيء، ثم أثنى سبحانه على هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين لم يوالوا أعداء الله مهما بلغت درجة قرابتهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ أي: أولئك الذين لا يوادون أعداء الله، مهما كانوا، هم الذين كتب الله تعالى الإيمان في قلوبهم، فاختلط بها واختلطت به، فصارت قلوبهم لا تحب إلا من أحب دين الله، ولا تبغض إلا من أبغضه[2].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۞ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٣ - ٢٤].

والمعنى: يا أيها المصدقون بالله ورسوله، لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء تنصرونهم في القتال، وتؤيدون الكفار لأجلهم، أو تطلعونهم على أسرار المسلمين العامة أو الحربية، إن اختاروا الكفر على الإيمان، وآثروا الشرك على الإسلام، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون لأنفسهم وأمتهم لأنه خالفوا الله ورسوله، بموالاة الكافرين بدلًا من التبرؤ منهم، فبعد أن

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٥.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٥١.

نهى عن مخالطتهم، أوضح أن هذا النهي للتحريم لا للتنزيه، بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

قال ابن عباس: هو مشرك مثلهم؛ لأنه رضي بشركهم، والرضا بالكفر كفر، كما أن الرضا بالفسق فسق.

ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله، مصدرًا ذلك بكلمة (إن) المفيدة للشك؛ لأن حب الكافرين مشكوك فيه من المؤمنين، والمقصود هو تفضيل حبهم على حب الله، أما أصل الحب فهو أمر فطري طبعي لا لوم عليه، ولا مؤاخذة فيه؛ لأن التكليف يتوجه على الأمور المقدورة للإنسان، لا على الأمور الجبلية الفطرية كالحب والبغض.

فقال له: قل: إن كنتم تؤثرون هذه الأشياء الثمانية، وتفضلون الآباء، والأبناء، والإخوان، والأزواج، والعشيرة (القرابة القريبة) والأموال، والتجارة، والمساكن، على حب الله ورسوله، أي طاعتهما، والجهاد في سبيله الذي يحقق السعادة الأبدية في الآخرة، فانتظروا حتى يأتي الله بعقابه العاجل أو الآجل[1].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٧٧، تفسير النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٣٤٩.

ثمرات البراءة ونتائجها

البراءة هي جزء أساس من عقيدة المسلم، وإذا التزم المسلم بهذه العقيدة فسيكون لها ثمرات ونتائج كثيرة في الدنيا والآخرة، وستتعرف على أهم هذه الثمرات:

أولًا: الفوز بمرضاة الله، والنجاة من سخط الجبار جل جلاله:

ما قال سبحانه: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

وبعقيدة البراء تتحقق أوثق عرى الإيمان: جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم لأبي ذر رضي الله عنه: (أي عرى الإيمان أوثق ؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: (الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله)[2].

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٤/ ٢٨٦، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٨٠، والطبراني في المعجم الكبير ١١/ ٢١٥.
قال الألباني في السلسلة الصحيحة ٩٩٨، ١٧٢٨: «فالحديث بمجموع طرقه يرتقي إلى

وجاء في الحديث الآخر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان)[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله يقتضي أن لا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يوالي إلا لله، ولا يعادي إلا لله، وأن يحب ما أحبه الله، ويبغض ما أبغضه الله»[2].

ثانيًا: السلامة من الفتن والفساد في الأرض:

قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

يقول ابن كثير: «أي إن تجانبوا المشركين، وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت فتنة في الناس، وهو التباس واختلاط المؤمنين بالكافرين، فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل»[3].

ثالثًا: حصول النعم والخيرات في الدنيا، والثناء الحسن في الدارين:

ولنتأمل قول الله عز وجل - في حق إبراهيم عليه السلام-: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٩ - ٥٠].

يبين سبحانه ما ترتب على اعتزال إبراهيم عليه السلام للشرك والمشركين، والمعنى: حين اعتزل إبراهيم عليه السلام أباه وقومه وآلهتهم الباطلة لم نضيعه، وإنما أكرمناه وتفضلنا عليه بأن وهبنا له إسحاق ويعقوب ليأنس بهما بعد أن فارق أباه وقومه من أجل إعلاء كلمتنا وكلًا جعلنا نبيًا أي: وكل واحد منهما جعلناه نبيًا ووهبنا لهم أي: لإبراهيم وإسحاق ويعقوب من رحمتنا بأن جعلناهم أنبياء ومنحناهم الكثير من فضلنا وإحساننا ورزقنا[4]، فاعتزال الشرك والمشركين، والفسق والفاسقين، يؤدي إلى السعادة الدينية والدنيوية.

رابعًا: يكون من حزب الله تعالى، ويحقق الغلبة والنصر على الكافرين:

قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ

درجة الحسن على الأقل».

(١) أخرجه أبو داود رقم ٤٠٦١، والترمذي رقم ٢٤٤٠.

وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٣٠٢٩.

(٢) الاحتجاج بالقدر ص ٦٢.

(٣) تفسير ابن كثير، ٤/ ٩٨.

(٤) انظر: التفسير الوسيط، محمد طنطاوي ٩/ ٤٤.

﴿وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

أي: من شأن المؤمنين الصادقين أن يبتعدوا عن موالاة أعداء الله ورسوله، ولو كان هؤلاء الأعداء، آباءهم الذين أتوا إلى الحياة عن طريقهم أو أبناءهم الذين هم قطعة منهم، أو إخوانهم الذين تربطهم بهم رابطة الدم أو عشيرتهم التي ينتسبون إليها، بل يجب إعلان البراءة منهم؛ وذلك لأن قضية الإيمان يجب أن تقدم على كل شيء.

ثم أثنى سبحانه على هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين لم يوالوا أعداء الله مهما بلغت درجة قرابتهم فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: أولئك الذين لا يوادون أعداء الله مهما كانوا، هم الذين كتب الله تعالى الإيمان في قلوبهم، فاختلط بها واختلطت به، فصارت قلوبهم لا تحب إلا من أحب دين الله، ولا تبغض إلا من أبغضه[1].

خامسًا: تحفظ المسلم من الانقياد للكافرين:

قال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾[آل عمران: ١٠٠].

يحذر الحق تعالى المؤمنين من إطاعة أهل الكتاب والافتتان بفتنتهم إثر توبيخهم بالإغواء والإضلال ردعًا لهم عن ذلك، وتعليق الرد بطاعة فريق منهم؛ للمبالغة في التحذير عن طاعتهم، وإيجاب الاجتناب عن مصاحبتهم بالكلية، فإنه في قوة أن يقال (لا تطيعوا فريقًا).. الخ كما أن تعميم التوبيخ فيما قبله للمبالغة في الزجر[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

الركون إلى الشيء: الميل إليه. يقال: ركن فلان إلى فلان، إذا مال إليه بقلبه، واعتمد عليه في قضاء مصالحه[3].

والمراد بالذين ظلموا هنا: ما يتناول المشركين وغيرهم من الظالمين.

والمعنى: واحذروا -أيها المؤمنون- أن تميلوا إلى الظالمين، أو تسكنوا إليهم؛ لأن ذلك يؤدى إلى تقوية جانبهم، وإضعاف

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٥١.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٦٤.

(٣) انظر: تاج العروس ٣٥/ ١٠٩.

جانب الحق والعدل[1].

سادسًا: نيل ولاية الله:

قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

قال الإمام الطبري في هذه الآية ما ملخصه: «وليست اليهود، يا محمد، ولا النصارى براضية عنك أبدًا، فدع طلب ما يرضيهم و يوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق، فإن الذي تدعوهم إليه من ذلك لهو السبيل إلى الاجتماع فيه معك على الألفة والدين القيم. ولا سبيل لك إلى إرضائهم باتباع ملتهم؛ لأن اليهودية ضد النصرانية، والنصرانية ضد اليهودية، ولا تجتمع النصرانية واليهودية في شخص واحد في حال واحدة، واليهود والنصارى لا تجتمع على الرضا بك، إلا أن تكون يهوديًا نصرانيًا، وذلك مما لا يكون منك أبدًا؛ لأنك شخص واحد، ولن يجتمع فيك دينان متضادان في حال واحدة، وإذا لم يكن إلى اجتماعهما فيك في وقت واحد سبيل، لم يكن لك إلى إرضاء الفريقين سبيل. وإذا لم يكن لك إلى ذلك سبيل، فالزم هدى الله الذي لجمع الخلق إلى الألفة عليه سبيل»[2].

موضوعات ذات صلة:

الإيمان، التوحيد، الشرك، الولاء

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٢٦.

(٢) جامع البيان، الطبري، ٢/ ٥٦٣.



عناصر الموضوع

مفهوم البر

أولًا: المعنى اللغوي:

الباء والراء في المضاعف أربعة أصولٍ: الصدق، وحكاية صوتٍ، وخلاف البحر، ونبتٌ. أما الصدق، فكالقول: فلانٌ بارٌ في يمينه، أي صادقٌ فيها، وأما حكاية الصوت، فالبر الصوت بالغنم إذا سيقت، والبربرة صوت المعز، وأما خلاف البحر، فيقال: أبر الرجل، أي صار على البر، وأبحر الرجل، أي صار في البحر، وخرج إلى البرية أي ذهب إلى الصحراء، وأما النبت، فالبر هو الحنطة[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

ذكر العلماء عدة معانٍ للبر، منها: التقوى والجنة والخير والإسلام والإيمان[2]، وقد عرفه أبو حيان الأندلسي بأنه: «الإتيان بما كلفه الإنسان من تكاليف الشرع، اعتقادًا وفعلًا وقولًا»[3]، وعرفه الشوكاني بأنه: «اسمٌ جامعٌ للخير»[4]، وعرفه أحمد المراغي بأنه: «الإيمان وما يتبعه من الأعمال باعتبار اتصاف البار بها وقيامه بعملها»[5].

وبالنظر في التعريفات السابقة يمكن القول بأنه يمكن دمجها في تعريف واحد هو: البر اسم جامع لكل ما يرضي ربنا جل وعلا.

مما سبق يظهر ترابط وثيق بين المعنى اللغوي لكلمة البر الذي بمعنى الصدق والطاعة، وبين المعنى الاصطلاحي لها، ولكن المعنى اللغوي أعم من الاصطلاحي، فالمعنى اللغوي يشمل الصدق مع أيٍ كان وطاعته، أما المعنى الاصطلاحي فيقتصر على الصدق مع الله تعالى، وطاعته جل وعلا، وهذا يتفق مع مفهوم العبادة.

---

(١) انظر: جمهرة اللغة، أبو بكر الأزدي ١/ ٦٧، مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٧٩،١٨١، المحكم، ابن سيده ١٠/ ٢٤٣،٢٤٠، مشارق الأنوار، السبتي ١/ ٨٤.

(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٢/ ٤٢٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٨٩، لباب التأويل، الخازن ١/ ٢٦٨.

(٣) البحر المحيط ٢/ ١٧٠.

(٤) فتح القدير ١/ ١٩٩.

(٥) تفسير المراغي ٢/ ٥٤.

البر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (بر) في القرآن الكريم (٢٠) مرة[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢	﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا﴾ [البقرة:٢٢٤]
صفة مشبهة	٩	﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ [الطور:٢٨]
اسم فاعل	١	﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾ [عبس:١٦]
اسم	٨	﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المجادلة:٩]

وورد البر في القرآن على ثلاثة أوجه[2]:

الأول: الصلة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا﴾ [البقرة: ٢٢٤]. لئلا تصلوا القرابة.

الثاني: الطاعة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]. أراد بالبر الطاعة وترك المعصية.

الثالث: التقوى: ومنه قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

يعني لن تنالوا التقوى.

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي ص ١١٧.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ١٣٠،١٢٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ التقوى:

التقوى لغةً:

من وقى. الواو والقاف والياء كلمة واحدة تدل على دفع شيء بشيء آخر.[(١)]

التقوى اصطلاحًا:

أصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقايةً تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه[(٢)].

الصلة بين البر والتقوى:

من خلال تعريف كلٍ من البر والتقوى يمكن القول بأن البر فعل ما يرضي الله تعالى، واجتناب معصيته، بينما التقوى هي الاحتراز والوقاية من عذاب الله تعالى بأعمال البر.

٢ الخير:

الخير لغة:

الخير ضد الشر[(٣)].

الخير اصطلاحًا:

الخير ما يرغب فيه الكل كالعقل والعدل والفضل والشيء النافع[(٤)].

الصلة بين البر والخير:

يفهم من تعريفي البر والخير السابقين أن بينهما فارقًا وهو أن البر هو اسم جامع لكل ما يرضي ربنا عن قصد، أما الخير فقد لا يكون عن قصد إرضاء الله تعالى فقد يقع الخير من كافر كأن يتبرع لبناء مستشفى، أو لعلاج مريض، أو لتعليم طالب فقير أو غير ذلك.[(٥)]

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٣١.
(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ص١٣٨
(٣) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١١/ ٢٣٨.
(٤) روح البيان، إسماعيل حقي ٧/ ٣٤٨.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ١/ ١٧٠.

٣ الإحسان:

الإحسان لغة:

مصدر حسن، والحسن: ضد القبح ونقيضه، والإحسان: ضد الإساءة[(١)]

الإحسان اصطلاحًا:

هو: إتقان الأعمال والتطوع بالزائد عن الفرائض، ومقابلة الخير بأفضل منه، والشر بأقل منه[(٢)].

الصلة بين البر والإحسان:

يظهر من خلال تعريفي البر والإحسان أن الإحسان أعلى درجة من البر فالبر هو اتيان العمل الصالح، بينما الإحسان هو اتقان العمل الصالح.

٤ الإثم:

الإثم لغة:

من أثم. الهمزة والثاء والميم أصل واحد، يدل على التأخر[(٣)]

الإثم اصطلاحًا:

عرفه الجرجاني بأنه:»ما يجب التحرز منه شرعًا وطبعًا«[(٤)]، وهو أيضًا التأخر عن فعل الطاعات[(٥)]، وقد عرفه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله:)والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس([(٦)]، وهذا يعني أن ارتكاب الآثام أمر يشعر صاحبه بالضيق.

الصلة بين البر والإثم:

البر من القربات التي حث عليها ربنا جل وعلا، أما الإثم فهو مما نفر منه الشارع الحكيم، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ١١٧.
(٢) التفسير المنير ١٤/ ٢١٢.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٦٠.
(٤) التعريفات ص ٩.
(٥) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٥/ ٢٦٤٨.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم ٤/ ١٩٨٠، رقم ٢٥٥٣.

٥ العدوان:

العدوان لغة:

التعدي في الأمر، وتجاوز ما ينبغي له أن يقتصر عليه[(١)].

العدوان اصطلاحًا:

التجاوز ومنافاة الالتئام، والإخلال بالعدالة في المعاملة[(٢)].

الصلة بين البر والعدوان:

البر اجتهاد في طاعة الله تعالى، أما العدوان فهو تجاوز لحدود ما شرع الله تعالى لعباده، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

٦ المعصية:

المعصية لغة:

من عصوى. العين والصاد والحرف المعتل أصلان صحيحان، إلا أن بينهما تباينًا فأحدهما يدل على التجمع، والآخر يدل على الفرقة، والمعصية هي المخالفة، والعاصي هو المخالف، والمعصية ضدها الطاعة.[(٣)]

المعصية اصطلاحًا:

هي «مخالفة الأمر قصدًا».[(٤)]

الصلة بين البر والمعصية:

يلاحظ من خلال تعريفي البر والمعصية أن هنالك اختلافًا بينهما فالبر هو الطاعة عن قصد، والمعصية هي المخالفة عن قصد.

(١) العين الفراهيدي ٢/ ٢١٣.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٥٣.
(٣) انظر: المصباح المنير، أحمد الفيومي ٢/ ٤١٤.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص٢٢٢.



صلة البر بالإيمان والتقوى

إن المتتبع لنصوص القرآن الكريم التي ورد فيها لفظ «البر» يجد أن هنالك اقترانًا بين البر وبين الإيمان والتقوى.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

يبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن حقيقة البر تكمن في الإيمان بالله، والآخرة، والملائكة، والقرآن، والأنبياء، وكذلك في الإنفاق في سبيل الله تعالى على المحتاجين من الأقارب، والأيتام، والمساكين، والمنقطع عن ماله وأهله في سفر، والسائلين، والعبيد، ويكمن الإيمان كذلك في المداومة على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، وبالصبر على الشدائد، وعند مواجهة العدو، ثم يعقب تعالى بالتأكيد على أن الملتزمين بما سبق من مكامن البر هم الأتقياء الصادقون.[١]

ويلاحظ أن الآية الكريمة قد بينت أن الذي يجمع بين العناصر التي يكمن فيها البر هو العبد التقي، وفي ذلك دلالة واضحة على أن لزوم البر يؤدي إلى الحصول على مرتبة التقوى.[٢]

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

يعلم الله تعالى عباده في هذه الآية أن الأهم في السؤال هو أن يكون سبيلًا للحصول على الجواب النافع لأمر الدين، فقد أوحى الله تعالى لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم إجابة للسؤال عن الأهلة تبين علاقة الأهلة بما ينفع الناس من أحكام الدين، وتحديدًا علاقة الأهلة بتحديد المواقيت الزمانية لأشهر الحج، ثم يبين الله تعالى أنه ليس من البر أن يدخل المحرم بيته من ظهره، ولكن البر بلزوم تقوى الله تعالى في السر والعلن، ثم يأمر الله تعالى عباده بالدخول إلى البيوت من أبوابها حتى في حال الإحرام، وبلزوم التقوى في القول والعمل.[٣]

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٢٨، ٢٢٤.

(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١٠/ ٤٤٩.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ١٢٠، ١٢١.

﴿وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

يأمر الله تعالى عباده في هذه الآية الكريمة بالتعاون على أداء الطاعات التي يتقى بها من العذاب الأليم[١].

ويلاحظ أن الآية الكريمة قد قرنت بين البر والتقوى؛ وذلك لبيان أن أعمال الخير لابد وأن يراعى فيها تقوى الله عز وجل[٢]، فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

أن الله تعالى يجعل ما عمله الكفار في الدنيا من أعمال البر باطلًا لا ثواب له[٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩].

ينهى الله تعالى عباده المؤمنين في هذه الآية الكريمة عن التناجي بالقبيح من الأقوال مما لا يتفق مع ما دعا إليه الإسلام، ثم يبين لهم جل وعلا أنه في حال لزمت النجوى فلتكن بما فيه الخير[٤].

ويلاحظ من الآية السابقة اقتران البر بالتقوى، ولعل السبب في ذلك هو أنه لابد عند التناجي من مراعاة أمرين، الأول: التناجي بما فيه المصلحة للمؤمنين، الثاني: الحذر من التناجي بالمعصية[٥].

مما سبق يتضح أن اقتران البر بالتقوى يرجع إلى الأسباب الآتية:

١ . بيان أن لزوم البر يرقى بالعبد حتى يصل إلى مرتبة التقوى.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فقدم الله تعالى في هذه الآية أمره لعباده المؤمنين بالصبر والمصابرة والمرابطة، على أمره لهم بالتقوى، وذلك لأن الأمور المتقدمة ترقى بالعبد المؤمن إلى مرتبة التقوى، وشرح ذلك أن أمر الله تعالى لعباده المؤمنين بالصبر يشمل الصبر على طاعة الله تعالى، والصبر عن معصيته، والصبر على المحن والشدائد، كما يتضمن أمر الله تعالى لعباده المؤمنين بالمصابرة الجلد مع الأعداء بحيث يفوق صبرهم صبر أعدائهم، وكذا يتضمن أمر الله تعالى لعباده المؤمنين بالمرابطة حماية حدود المسلمين من أذى المتربصين بهم من أعداء الإسلام والمسلمين[٦]، ويعد جميع ما سبق من

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢١٨.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ٥/ ٢٩٠٨.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣١١.
(٤) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ١٨/ ٥٣٩.
(٥) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٧/ ٣٤١.
(٦) انظر: التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي ٢/ ٣٨٢.

أعمال البر التي من شأنها أن تقي صاحبها من عذاب الله تعالى وسخطه.

٢. لابد من مراعاة تقوى الله تعالى عند القيام بالأعمال الصالحة، وذلك حتى ينتفع بها صاحبها يوم الدين.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠ - ٣١].

تبين هذه الآيات الكريمة أن جزاء الصالحين من عباده الأتقياء الأنقياء الذين يستشعرون مراقبة الله تعالى لهم في كل عمل يقومون به، ويجتهدون في التقرب إليه سبحانه بما يحب من الطاعات، ويحذرون من الوقوع فيما نهاهم عنه من المخالفات هو الدخول في جنان النعيم المقيم في الآخرة[1].

وقال تعالى أيضًا في بيان حسن عاقبة المؤمنين الأتقياء: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

٣. لبيان أنه لابد للمؤمن أن يكون بارًا فلا يقدم إلا على الطاعات، وأن يكون تقيًا ورعًا، فيحذر من الوقوع في المعاصي.

فائدة:

تختلف لفظتا البر والتقوى في المعنى إذا اجتمعتا في الآية، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

فالبر هنا بمعنى اتيان الطاعات، والتقوى الاحتراز عن المنهيات[2]، وتتفق اللفظتان في المعنى إذا افترقتا في الآية، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فمعنى البر هنا هو التقوى كما هو واضح من الآية الكريمة[3].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٣٩.

(٢) انظر: تفسير ابن عرفة ٢/ ٨٤.

(٣) انظر: الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري ص١٣٢.

مجالات البر

أكرم الله تعالى عباده بدين البر والرشاد، قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وكما يتضح من الآية الكريمة فإن الله تعالى قد ميز للناس طريق الهداية من طريق الضلال، وبعدها ترك لهم الخيار في سلوك أحد الطريقين، وبين أن المحق من العباد هو من سيختار طريق الهدى والرشاد، وذلك لما تميز به هذا الطريق من الدعوة إلى لزوم البر في كافة المجالات والتي منها ما يأتي:

أولًا: البر في الإيمان:

قرن الله تعالى أركان الإيمان بالبر في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ويتضح من الآية الكريمة أن الله تعالى قد بين أن ارضاءه والتقرب منه لا يكون بمجرد القيام بأداء بعض هيئات العبادات، وإنما يكون بإخلاص النية وسلامة المعتقد، ويتمثل ذلك بما يأتي:

١ . البر في الإيمان بالله تعالى.

الإيمان بالله تعالى هو الركن الأول من أركان الإيمان، وهو كذلك الركيزة التي استندت إليها دعوات الرسل عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

والمنادي الذي نادى للإيمان هو محمد صلى الله عليه وسلم [١]، ويفهم من دعاء المؤمنين الوارد في فاصلة هذه الآية الكريمة أن الذي يموت على الإيمان بالله تعالى فهو من الأبرار المقبولين عند الله تعالى، وقال تعالى أيضًا على لسان يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٧ - ٣٩].

---

(١) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ١/ ٣٢١.

ويفهم من هذه الآيات الكريمة أن ملازمة البر في المعتقد تتطلب الإيمان بالله تعالى وحده.

٢. البر في الإيمان باليوم الآخر .

الإيمان باليوم الآخر هو الركن الخامس من أركان الإيمان وقد تقدم على غيره من الأركان في آية البقرة؛ لأنه من أبرز ما أنكره الكفار والمنافقين من أركان الإيمان بعد الإيمان بالله تعالى، وهذا ما هون عليهم انكار باقي أركان الإيمان، وكما هو معلوم فإن الكفار والمنافقين أنكروا على المؤمنين تحويل القبلة، ورأوا أن ذلك أمر جلل، ومن شأنه أن يشوه أمر المسلمين ويقدح في دينهم، فكان الرد عليهم من الله تعالى: بأن صلاح أمر المسلمين وبرهم بخالقهم جل وعلا لا يكون بالتوجه بالصلاة إلى هذه الناحية أو تلك بالدرجة الأولى، وإنما يكون بالتجرد لله تعالى وسلامة المعتقد قبل كل شيء، لا كما فعلتم أنتم يا من أفسدتم معتقداتكم وأنكرتم ما هو أعظم من تحويل القبلة[1].

ومن الملاحظ أن القرآن الكريم قد قرن العديد من أعمال البر بالإيمان باليوم الآخر وذلك كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

ويأتي هذا الاقتران نظرًا لأن المكافأة على تلك الأعمال إنما يكون في الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [المطففين:٢٢].

كما أن الإيمان باليوم الآخر هو أحد أبرز الدوافع للقيام بأعمال البر.

٣. البر في الإيمان بالملائكة.

الإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان، وقد جعل الله تعالى الاعتقاد به من أصناف البر التي لا يصح إيمان عبد دونه، وهو من المعتقدات التي خالف فيها أهل الضلال النهج السليم الذي بينه ربنا جل وعلا في كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

وتظهر هذه الآية الكريمة أن المشركون وصفوا الملائكة بالأنوثة، وهذا أمر غير جائز كما هو معلوم؛ والعلة في عدم الجواز أن الملائكة عالم غيبي بالنسبة للبشر، والحديث عن تفاصيل تخص هذا العالم أمر يحتاج إلى دليل شرعي، وبما أنه لا دليل شرعي يصف الملائكة بالذكورة أو الأنوثة، فإن ادعاء المشركين بأن الملائكة إناثًا هو محض افتراء على الله تعالى، والأمر لم يقف عند هذا الوصف بل تعداه

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٤٨١.

إلى مناصبة أهل الشرك والضلال العداوة للملائكة، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٩٧- ٩٨].

وقد جاء عن أنس رضي الله عنه أنه قال: (سمع عبد الله بن سلام، بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في أرضٍ يخترف، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمهن إلا نبيٌّ: فما أول أشراط الساعة؟، وما أول طعام أهل الجنة؟، وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: (أخبرني بهن جبريل آنفًا) قال: جبريل؟: قال: (نعم)، قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

(أما أول أشراط الساعة فنارٌ تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوتٍ، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعت)، قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، يا رسول الله، إن اليهود قومٌ بهتٌ، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني، فجاءت اليهود، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أي رجلٍ عبد الله فيكم). قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، قال: (أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام). فقالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا، وانتقصوه، قال: فهذا الذي كنت أخاف يا رسول الله)[1].

والشاهد من الحديث الشريف أن اليهود كانوا يعادون جبريل عليه السلام من الملائكة، ومن المعلوم أن معاداة الملائكة إنما هي معاداة لله تعالى؛ وذلك لأن الملائكة لا تقوم بشيء حتى يأمرها ربها جل وعلا.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل:٤٩-٥٠].

وبالتالي فإن البر يقتضي الإيمان بالملائكة لا بإنكارها، أو وصفها بما لا دليل من القرآن أو السنة عليه، أو مناصبتها العداء خصوصًا وأن مناصبة الملائكة العداء من أعمال الكافرين الباطلة.

٤ . البر في الإيمان بالكتب .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (من كان عدوًا لجبريل)، ٦/ ١٩، رقم ٤٤٨٠.

الإيمان بالكتب السماوية هو الركن الثالث من أركان الإيمان، وتعتبر الكتب السماوية المصدر الأساس لمعرفة أعمال البر المطلوب من العباد لزومها سواءً بالاعتقاد أو بالقول أو بالعمل، وذلك نظرًا لما تحويه من قواعد وتشريعات إلهية يعد الالتزام بها من أعمال الخير والبر التي تقرب العباد من ربهم جل وعلا، وقد جاء تصديق ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ١-٢].

ومعنى قيمًا: أي مستقيمًا بذاته فلا اعوجاج فيه، مقومًا لغيره ممن لزمه واقعًا تطبيقيًا[١]، كما جاء في قوله تعالى أيضًا: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ - ٢].

وبالتالي فإن الإيمان بالقرآن من أعمال البر وهو النتيجة التي أدت إليها دعوة القرآن إلى الرشد كما يتضح من الآيتين الكريمتين، ويقال في باقي الكتب السماوية ما قيل في القرآن الكريم فالكل صادر عن الله تعالى، ولو لم يكن الإيمان بجميع الكتب من البر لما دعا إلى ذلك ربنا جل وعلا في كتابه العزيز في قوله: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

٥. البر في الإيمان بالرسل.

الإيمان بالرسل هو الركن الرابع من أركان الإيمان، ويعد الرسل هم الأساتذة الذين يعلمون البشرية الاستقامة على طريق الهدى والرشاد، وهم القدوة الحسنة التي يجب على العباد السير على خطاهم، ولو لم يكونوا كذلك لما أمر الله تعالى بطاعتهم وحسن اتباعهم في غير موضع من كتاب الله تعالى، منها قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وهذا يدل على وجوب الاقتداء بالأنبياء عليهم السلام فيما اتفقوا عليه من الأصول التشريعية والخلقية والتعبدية[٢].

ومما يدلل أيضًا على وجوب اتباع الأنبياء والاقتداء بهم قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ

(١) انظر: معجم وتفسير لغوي لألفاظ القرآن الكريم، حسن الجمل ٣/ ٤٢١.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٤٦٦.

﴿اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤١ - ٤٢].

وكلمة رسول هنا اسم جنس[(١)]، وبالتالي فالمقصود بها كل رسول يرسله الله تعالى إلى قوم من الأقوام.

ولو لم يكن الإيمان بالرسل واتباعهم من أعمال البر لما أثاب الله تعالى الرجل الداعية الذي دعا قومه للإيمان بالرسل واتباعهم بالجنة كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٠ - ٢٧].

ولما وعد الله تعالى المؤمنين بالرسل بالمغفرة والرحمة[(٢)]، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٣/ ٦٤٤.

(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٩/ ٥٤١.

٦ . البر بملازمة التقوى.

من أكثر ما حثت عليه الشريعة الإسلامية تقوى الله تعالى في السر والعلن، ففي القرآن الكريم جاء قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وجاء في السنة المطهرة عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (تدرون ما أكثر ما يدخل النار؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: الأجوفان: الفرج والفم، وأكثر ما يدخل الجنة؟ تقوى الله وحسن الخلق)[(٣)].

وتكمن أهمية التقوى في كونها الضابط الذي يلزم العباد بالقيام بأعمال البر التي تقرب صاحبها من نعيم الله تعالى وتبعده عن عذابه.

وبالتالي يكون المراد بالأمر الإلهي بالوقاية من عذاب النار الوارد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

هو الإقبال على أعمال البر وحث الأهل

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب المفرد، باب حسن الخلق إذا فقهوا ص١٠٨، رقم ٢٨٩.
قال عنه أبو عيسى الترمذي: حديث صحيح غريب.

عليها، والحذر من أعمال الفجور وتحذير الأهل منها[1].

كما أن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]. فيه الدعوة إلى ضرورة أن يتلازم كل من التقوى وأعمال البر في كل عمل يقوم به المؤمن، وكذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وكذا قوله صلى الله عليه وسلم:(**اتقوا النار ولو بشق تمرةٍ، فإن لم تجد فبكلمةٍ طيبةٍ**)[2]، فيه الدعوة إلى لزوم التقوى من خلال أعمال البر المتمثلة بالصدقة وإن كانت قليلة، وبالكلام الطيب.

ثانيًا: البر في العبادة:

كما بيَن الله تعالى أن حقيقة البر تكمن في سلامة المعتقد، بيَن أنها تكمن أيضًا في حسن العبادة.

فقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقد ذكرت الآية الكريمة أن البر يكون في صنفين أساسيين من أصناف العبادات هما الصلاة والزكاة، وتفصيل ذلك كما يأتي:

١ . البر في إقامة الصلاة.

الصلاة هي عمود الدين والركن الثاني من أركان الإسلام الخمسة وذلك كما بين المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فقد جاء عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فقال لي: (**إن شئت أنبأتك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه قال: قلت: أجل يا رسول الله، قال: أما رأس الأمر فالإسلام، وأما عموده فالصلاة، وأما ذروة سنامه فالجهاد**)[3].

وقد جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**بني الإسلام على خمسٍ: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان**)[4].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٩١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب طيب الكلام ٨/ ١١، رقم ٦٠٢٨.

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الجهاد ٢/ ٨٦، رقم ٢٤٠٨.
وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان،

ولهذا كانت الصلاة من أعظم أعمال البر التي تقرب العبد من ربه جل وعلا، وقد اهتم القرآن الكريم بعبادة الصلاة اهتمامًا بالغًا فأوجب إقامتها على وقتها، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣].

وشرع الطهارة قبل أدائها، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُ﴾ [المائدة: ٦].

وجعلها الواقي من اتيان الفواحش والمنكرات، فقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وما كان لهذا الاهتمام أن يكون إلا لأن الله تعالى عالم بما للصلاة من كبير أثر على من أقامها، كيف لا يكون ذلك وهي عبادة جامعة للعديد من أوجه البر التي دعا إليها الإسلام الحنيف كقراءة القرآن، والدعاء، والذكر وغير ذلك.

٢. البر في إيتاء الزكاة.

كثيرًا ما يقرن الله تعالى بين الركن الثاني من أركان الإسلام الصلاة، وبين الركن الثالث الزكاة، وذلك في آيات من الذكر الحكيم، كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

كما قرن الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك بين الصلاة والزكاة، في عدة مواطن منها ما جاء عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: **(بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم)**[1].

ويفهم من الآية الكريمة أن العبد إذا أقام الصلاة، وآتى الزكاة، ولازم جماعة المؤمنين فإنه يكون بذلك ملك الأسس التي من شأنها أن تقوده إلى الالتزام بباقي متطلبات الدين، كما يفهم من الحديث الشريف أن أخذ النبي صلى الله عليه وسلم البيعة على ثلاثة أمور منها إقام الصلاة وإيتاء الزكاة دليل على عظم مكانة هاتين العبادتين عند الله تعالى، ومدى تأثيرهما على حياة العباد، فالصلاة تطهر الأبدان، والزكاة تطهر الأموال، ولعل هذا من أبرز ما أدى إلى اقتران الصلاة بالزكاة في

باب قول النبي عليه الصلاة والسلام: «بني الإسلام على خمس» ١/ ١١، رقم ٨.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب البيعة على ايتاء الزكاة ٢/ ١٠٦، رقم ١٤٠١.

كثير من النصوص الشرعية.

ومن المعلوم أن الزكاة بتطهيرها للأموال تعين أيضًا على تطهير القلوب من البخل والكبر والحقد والحسد، ولهذا عظيم الأثر في توطين النفوس على طاعة الله تعالى وبره في اتيان كل ما أمر، واجتناب كل ما نهى، ولكي يتحقق البر في إيتاء الزكاة لابد من الالتزام بشروطها، وانفاقها في مصارفها الثمانية التي حددها القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وكذلك أن تحقق الغرض الذي شرعت من أجله وهو تحقيق التكافل والتعاضد، والحث على صدقة التطوع، وعلى غيرها من أعمال البر.

٣. البر في الصيام .

صوم رمضان هو الركن الرابع من أركان الإسلام، وقد شرعه الله تعالى لعباده المؤمنين ليكون بابًا من أوسع أبواب البر والطاعة، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فقوله تعالى في فاصلة الآية الكريمة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فيه بيان الغاية المرجوة من تشريع صيام شهر رمضان وهي الوصول بالعباد إلى درجة التقوى[(١)].

ومما يدلل على أن الصيام من أعظم أبواب البر ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في عدة أحاديث منها ما جاء عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: **(كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفرٍ، فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله أخبرني بعملٍ يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال: لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسيرٌ على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت)**[(٢)].

ومنها ما جاء أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(كل عمل ابن آدم له إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك)**[(٣)].

فهذان الحديثان وغيرهما من الأحاديث

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٣٧.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة ٤/ ٣٠٨، رقم [٢٦١٦]
وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب ما يذكر في المسك ٧/ ١٦٤، رقم ٥٩٢٧.

مما يبرز قيمة الصوم في تقريب العباد من رضوان الله تعالى، وابعادهم عن سخطه، ولو لم يكن الأمر كذلك لما خصص الله تعالى أحد أبواب الجنة الثمانية للصائمين، وسماه باب الريان.

وفي ذلك يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي يرويه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: (من أنفق زوجين في سبيل الله نودي في الجنة: يا عبد الله، هذا خيرٌ، فمن كان من أهل الصلاة، دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد، دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة، دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام، دعي من باب الريان)[1].

ومما يعزز مكانة الصيام كأحد أبرز أعمال البر ارتباطه بأوجه أخرى عظيمة من أوجه البر، ومن هذه الأوجه العظيمة الاجتهاد في قراءة القرآن الكريم.

والسر في ارتباط الصيام بقراءة القرآن هو أن نزول القرآن الكريم كان في شهر رمضان المبارك، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ومن الأوجه أيضًا الصدقة، ومن المعلوم أن زكاة الفطر واجبة في شهر رمضان، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حث المسلمين على التبرع للمحتاجين من خلال جوده في التصدق خلال شهر رمضان على ذوي الفاقة والعوز، حتى أن ابن عباس رضي الله عنهما وصفه قائلًا: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلةٍ من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة)[2].

ومن أوجه البر المرتبطة بالصيام العمرة، وصلة الأرحام، وقيام الليل وغير ذلك من الأوجه المباركة الخيرة.

٤ . البر في الحج.

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام، وله عند الله تعالى من القدر والجلال ما له؛ وذلك لأهميته في تقوية الإيمان، وتهذيب الأخلاق، وتكفير الذنوب والخطايا، وهذا الذي أهل هذه العبادة العظيمة لأن تكون من أهم وأعظم أوجه البر التي يتقرب بها المؤمن من ربه جل وعلا.

وتأصيلًا لذلك يقول الله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب من جمع الصدقة، وأعمال البر ٢/ ٧١١، رقم ١٠٢٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ١/ ٨، رقم ٦.

﴿وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

فقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ بعد نهيه عن فعل الشر لحث العباد على اغتنام الحج للاستزادة من الخير بفعل الخيرات، واجتناب المعاصي[1].

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: (من حج لله فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه)[2].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (رجع كيوم ولدته أمه) يعني أن الحاج الذي خلا حجه من الرفث والفسق يعود من حجه وقد حط الله تعالى عنه سائر ذنوبه وخطاياه[3].

ويعد الحج من الأعمال التي حث النبي صلى الله عليه وسلم على تكرارها بقوله: **(تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد، والذهب، والفضة، وليس للحجة المبرورة ثوابٌ إلا الجنة)**[4].

وبما أن ما ذكر في الحديثين الشريفين من الوعد بالمغفرة والنعيم هو الغاية الأسمى التي يسعى عباد الله تعالى الأبرار للوصول إليها من خلال محافظتهم على أعمال البر التي شرعها الله تعالى لهم.

ثالثًا: البر في الأخلاق:

يتميز الدين الإسلامي باهتمامه بالتحلي بالأخلاق الحميدة؛ وذلك لما لها من عظيم الأثر على الفرد في ضبط سلوكه وتقويمها، وعلى المجتمع في رقيه وزيادة تماسك أفراده، وقد مدح الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بسمو أخلاقه.

فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

كما نبه النبي صلى الله عليه وسلم على أهمية التحلي بالأخلاق الحسنة بقوله: **(إن خياركم أحاسنكم أخلاقًا)**[5].

كما فسر صلى الله عليه وسلم البر بأنه هو حسن الخلق بقوله: **(البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس)**[6].

---

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ١٣٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور ٢/ ١٣٣، رقم ١٥٢١.

(٣) انظر: الإفصاح عن معاني الإصحاح، ابن هبيرة ٦/ ٤١٠.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الحج، باب ما جاء في ثواب الحج والعمرة ٣/ ١٦٦، رقم ٨١٠.
قال: حسن صحيح غريب.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل ٨/ ١٣، رقم ٦٠٣٥.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم ٤/ ١٩٨٠، رقم ٢٥٥٣.

ومن الأخلاق الرئيسية التي لابد للبر أن يتوجها ما يأتي:

١ . الوفاء بالعهد.

الوفاء بالعهد من الأخلاق التي أمر الله تعالى بها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

والعقود هي أوثق العهود[1] كما جعل الله تعالى هذه صفة من الصفات التي يتحلى بها المؤمنون السائرون على طريق الصلاح والفلاح، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨﴾ [المؤمنون: ١ - ٨].

كما عد الله تعالى الاتصاف بالوفاء بالعهود من الأخلاقيات الملازمة للأبرار، فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقد رفع الله تعالى من قدر خلق الوفاء بالعهد لما له من أهمية بالغة في إعلاء شأن المؤمنين، وإعطاء الصورة المشرقة عن الإسلام، ولكي يعد الوفاء بالعهد من أوجه البر الأمور الآتية:

١ . الوفاء بالعهود مع الله تعالى.

والتي في مقدمتها الإيمان بوحدانية الله تعالى في ألوهيته وربوبيته وأسماءه وصفاته، وقد أخذ الله تعالى على بني آدم العهد والميثاق على ذلك، وهذا ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ويقود هذا العهد العباد إلى الإيمان بوحدانية الله تعالى في ألوهيته وأسمائه وصفاته، وبيان ذلك أن الآية ذكرت إقرار بني آدم عليه السلام جميعًا بربوبية الله تعالى، وتوحيد الربوبية لله تعالى أساس لتوحيد الألوهية؛ لأن توحيد الربوبية يشمل الاعتقاد بأن الله تعالى هو الذي خلق ورزق وأنعم، وهذا الفضل والإنعام يستوجب الطاعة والانقياد ممن انتفع وتنعم، وبعبارة أخرى فإن الرب جل وعلا الذي خلق العباد

(١) انظر: الوجيز، الواحدي ص٣٠٦.

ورزقهم وتكفل بجميع شؤونهم ليستحق منهم حسن الطاعة والانقياد وهذا هو جوهر توحيد الألوهية، كما من المعلوم أنه لا يليق لمن اتصف بالألوهية والربوبية إلا أن تكون أسماؤه حسنى، وصفاته صفات كمال، وبهذا يكون الإيمان بالله تعالى مكتمل الأركان، وبالتالي يعتبر من أعمال البر التي تقرب العباد من ربهم جل وعلا.

٢. الوفاء بالعهود التي تكون بين المؤمنين والمؤمنين.

وتشمل هذه العهود كافة أنواع التعاملات المشروعة التي يجريها المؤمنون مع بعضهم البعض.

٣. الوفاء بالعهود المشروعة التي تكون بين المؤمنين وغير المؤمنين.

والضابط لهذه العقود أن يلتزم بها الكفار، قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

ويلاحظ من الآية مجيء فاصلتها « إن الله يحب المتقين» جملة تعليلية عللت ما قبلها من تشريع، فتبين بذلك أن الاستقامة على العهود مع الملتزمين بها من غير المسلمين من التقوى التي يحب الله تعالى من اتصف بها.

٢. الصبر.

خلق الصبر من أجمل ما يتصف به العبد المؤمن، وسر جمال هذا الخلق الرفيع يكمن في أمرين، الأول: أن الله تعالى حث عليه وأعد الأجر العظيم لمن اتصف به، والثاني: أن الصبر من أبرز ما اتصف به الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، أما بالنسبة لحث الله تعالى.

فقد قرر سبحانه معيته وتأييده للصابرين، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وأما بالنسبة لعظم أجر الصابرين قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وأما بالنسبة لاتصاف الأنبياء بهذه الصفة الخلقية الرفيعة قال تعالى على لسان رسله عليهم السلام: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

وهذا القول من الرسل لأقوامهم يثبت صبرهم على ما جوبهوا به من قبل أقوامهم ردًا على دعوتهم لهم[1]، وحتى يكون الصبر من أعمال البر التي تقرب العبد من ربه جل

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٣٩.

وعلا لابد من الاتصاف بأنواعه الثلاثة وهي:

١. الصبر على طاعة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

والمعنى واصبر على أدائها على أتم وجه، والمداومة على إقامتها في مواعيدها، والدعوة إليها[١]، وينطبق على سائر الطاعات ما ينطبق على الصلاة.

٢. الصبر عن المعصية.

ومعلوم أن النفس الأمارة بالسوء والشيطان لا يكفان عن الدعوة لاقتراف ما نهى الله تعالى عنه.

وهذا يتطلب من العبد مجاهدة كبيرة لعدم الانجرار إلى تلك الدعوة، وفي هذا المضمار يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**)[٢].

وهذا الحديث يبث الأمل في نفس المؤمن فهو يعلم أن صبره على عدم الانجرار خلف الأهواء والشهوات لن يضيع هباءًا منثورًا، وإنما سيجزيه الله تعالى الجزاء الأوفى على صبره يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

٣. الصبر على المحن والمصائب.

وفي هذا المقام يقول الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

وبشارة الله تعالى للمؤمنين الصابرين تتضمن حسن الثواب في الآخرة.

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: (**إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي، فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده، فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة، وسموه بيت الحمد**)[٣].

٣. إتيان البيوت من أبوابها.

تعود قصة الأمر بإتيان البيوت من أبوابها إلى ما كان يقوم به الأنصار إذا أحرموا من الامتناع عن دخول البيوت من أبوابها، وإذا لزمهم دخول البيوت فإنهم يعمدون إلى ثقب في ظهر البيت فيدخلون من خلاله، ويعدون ذلك من البر.

فنبههم الله تعالى إلى أن ذلك ليس من

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٤٣٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٤/ ٢١٧٤، رقم ٢٨٢٢.

(٣) أخرجه الترمذي، أبواب الجنائز، باب فضل المصيبة إذا احتسب ٢/ ٣٣٢، رقم ١٠٢١، قال عنه الترمذي: حديث حسن غريب.

البر، والبر هو أن يأتوا البيوت من أبوابها سواء أكانوا محلين أو محرمين.

وذلك في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: (نزلت هذه الآية فينا، كانت الأنصار إذا حجوا فجاءوا، لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجلٌ من الأنصار، فدخل من قبل بابه، فكأنه عير بذلك، فنزلت: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾)[1].

ويفهم من سبب النزول أن البر في تقوى الله تعالى، وطاعته فيما أمر ونهى لا في العدول عن تشريعاته[2].

وقد وضع الإسلام لقبول العمل الذي يبتغى فيه وجه الله تعالى الكريم شرطين أساسيين:

الأول: الإخلاص لله تعالى[3].

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: (قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه)[4].

والشرط الثاني: موافقة العمل لما جاء به الشرع.

وفي ذلك يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه، فهو ردٌ)[5].

٤ . الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

جعل الله تعالى قيام الأمة بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أبرز أسباب خيرتها وأفضليتها على من سواها من الأمم، فقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب العمرة، باب قول الله تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾، ٣/ ٨، رقم ١٨٠٣.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٢٠٣.

(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٢٢٨.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله ٤/ ٢٢٨٩، رقم ٢٩٨٥.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ٣/ ١٨٤، رقم ٢٦٩٧.

﴿عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مهمة الأنبياء، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من التقاعس عن أداء هذه المهمة العظيمة فقال (والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم)(١).

وحتى يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم القربات إلى الله تعالى لابد أن تراعى فيه الأمور الآتية:

١. مراعاة أحوال المدعوين أثناء أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

وقد علم الله تعالى عباد المؤمنين كيف يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يظهر ذلك في عدة مواضع من كتاب الله تعالى منها:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وتبرز هذه الآية الكريمة أن الله تعالى قد راعى أحوال المؤمنين عندما أمرهم بالجهاد في سبيله، فالناس يميلون الراحة وعدم الخروج لملاقاة العدو، خصوصًا إذا كانت أوضاع الناس المعيشية في حالة من الرغد والسعة.

وقد نزلت هذه الآية في الحر الشديد حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهز لغزو الروم، فأراد الله تعالى أن يشحذ همم المؤمنين للجهاد في سبيله من خلال بيان أن النعيم الدنيوي الذي يثبطهم عن الخروج للجهاد في سبيل الله تعالى قليل بالنسبة لنعيم الآخرة(٢).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

تنهى الآية الكريمة المؤمنين عن رفع الأصوات فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن الجهر له بالقول كما يجهر الواحد من المؤمنين لغيره من الناس.

ويعبر هذا النهي من الله تعالى لعباده المؤمنين عن مدى المراعاة لأحوالهم فهم على مقربة شديدة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا التقارب إضافة إلى تواضع

(١) أخرجه الترمذي، أبواب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤/ ٣٨، رقم ٢١٦٩.
وقال: حديث حسن.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٦٠.

النبي صلى الله عليه وسلم في معاملته لهم، وطبيعة تعامل المؤمنين مع غيرهم من الناس أثناء محادثتهم قد يؤدي إلى اعتقاد المؤمنين بجواز رفع الصوت فوق مستوى صوته صلى الله عليه وسلم أثناء محادثته، أو الجهر إليه بالقول كما يجهر لغيره من عامة الناس، فجاء التنبيه الإلهي ليحول دون وقوع ذلك الأمر الذي يتسبب في إحباط أعمال المؤمنين الصالحة.[1]

٢. الحلم والتلطف مع المدعوين خلال أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

وقد أثنى الله تعالى على رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم لاتصافه باللين في تعامله مع الناس.

فقال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وبالتالي فلا يكفي الداعية أن يكون حاملًا للحق، وإنما يجب عليه أن يمتلك الوسيلة الحسنة ليقنع الناس بإتيان الحق، وترك الباطل، ومما يمثل لبراعة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في هذا الميدان، موقفه من الرجل الذي بال في المسجد فاجتمع إليه الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم ليزجروه، فينهاهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (لا تزرموه دعوه فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه فقال له: إن هذه المساجد لا تصلح لشيءٍ من هذا البول، ولا القذر إنما هي لذكر الله عز وجل، والصلاة وقراءة القرآن)[2].

وربما لو لم يتدخل الرسول صلى الله عليه وسلم حينها ليمنع الناس من زجره، لترك الإسلام أو لوقع في نفسه البغض للمسلمين، وهذا مالا يرضي ربنا جل وعلا.

٣. الشجاعة والجرأة في قول الحق.

وقد ذكر القرآن الكريم قصصًا لدعاةٍ أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر بكل جرأة وشجاعة فبذلوا في سبيل ذلك الغالي والنفيس، ومن هذه القصص، قصة الرجل المؤمن الذي دعا قومه لاتباع الرسل فقتلوه.

قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٧٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، وأن الأرض تطهر بالماء، من غير حاجة إلى حفرها ١/ ٢٣٦، رقم ٢٨٥.

﴿٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾ [يس: ٢٠ - ٢٧].

يتضح من الآيات الكريمة أن الرجل المؤمن قد تحلى بشجاعة وإقدام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأمر قومه باتباع الرسل عليهم السلام، وأظهر لهم إيمانه فقتلوه بسبب ذلك، فادخله الله تعالى الجنة.[1]

ويستفاد من تلك القصة أنه على الداعية الذي يقوم بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون شجاعًا جريئًا لا يخاف في الله لومة لائم، فيقول الحق مهما كان الثمن لقوله.

٥ . التناجي بالبر والتقوى.

يعمد الناس إلى التناجي في حال أرادوا التحدث بكلام لبعض الأشخاص دون غيرهم في جماعة واحدة، ونظرًا للأثر السلبي الذي تخلفه النجوى على المستثنين من سماع الكلام الذي يدور من خلال النجوى فقد وضعت الشريعة الإسلامية ضوابط وآداب تضمن لمن التزمها في نجواه تجنب التأثير السلبي للنجوى، وتتمثل هذه الضوابط والآداب بما يأتي:

١ . **عدم التناجي إلا بالبر والتقوى.**

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩].

وبناءًا على ما جاء في هذه الآية من النهي عن التناجي بالإثم والعدوان، فإن المؤمن لا ينزعج إذا رأى إخوة له يتناجون دون إشراكه في سماع ما يدور بينهم من حديث؛ لعلمه بأن ما يتناجون به خير ليس فيه شيء مما نهى الله تعالى عنه.

٢ . **إذا كانت الجماعة مكونة من ثلاثة أشخاص فلا يتناج اثنان دون الثالث.**

قال صلى الله عليه وسلم: (**إذا كنتم ثلاثةً، فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، أجل أن يحزنه**).[2]

٦ . التعاون على البر والتقوى.

من حكمة الله تعالى أن جعل الإسلام دين جماعة، يظهر ذلك جليًا في النصوص الشرعية الواردة في القرآن الكريم والسنة المطهرة، والتي يتوجه فيها الخطاب للجماعة كالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وغيرها، وتعزيزًا لذلك أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالتعاون على البر والتقوى، فقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ

(١) انظر: الوجيز، الواحدي ص٨٩٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا باس بالمسارة والمناجاة ٨/ ٦٥، رقم ٦٢٩٠.

عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

ويشمل التعاون على البر والتقوى جميع مجالات التعاون في ما أباح الله تعالى اتيانه والتعاون في تأديته كالبناء، وصناعة الأشياء المباحة، وعمل الشركات، وتصنيف الكتب النافعة ونشرها، وغير ذلك.

٧. الصدق.

أثنى الله تعالى على عباده الملازمين للبر في عقائدهم وعباداتهم وأخلاقهم بأنهم صادقون.

فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

كما أن خلق الصدق من الأخلاق الحميدة التي دعا إليها الله تعالى في كتابه العزيز، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وأمر الله تعالى المؤمنين بتقواه ولزوم الصدق في النية والقول والعمل فيه دلالة على رفعة منزلة الصدق في أخلاق المؤمنين الأتقياء.

وفي هذا الشأن يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب صديقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب كذابًا)[(١)].

والعبد إذا كتب عند الله تعالى من الصديقين لملازمته الصدق في القول والفعل والمعتقد، فإنه يكتب عند الله تعالى مع الذين أنعم عليهم.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله ٤/ ٢٠١٢، رقم ٢٦٠٧.

البر والصلات الاجتماعية

أنعم الله تعالى على البشرية بأن خلق آدم وخلق منه زوجه حواء؛ ليسكن إليها، ويأنس بها، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

كما أنعم الله تعالى على الناس بأن جعلهم يتناسلون ويتكاثرون، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ [النحل: ٧٢].

ومن المعلوم أن الله تعالى قد خلق الإنسان ليؤدي مهمة الخلافة في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

ولأداء هذه المهمة العظيمة لابد للفرد من أن يعمل ضمن الجماعة، ولإيجاد الجماعة لابد من ترابط الأفراد.

وقد ربط الله تعالى بين الأفراد بأمرين أساسيين:

الأول: العبادات.

والثاني: المعاملات.

ومما تتضمنه المعاملات الإسلامية الصلات الاجتماعية التي تقوي الروابط بين مكونات المجتمع، كما لم يغفل التشريع الإسلامي الروابط والصلات التي تربط المجتمع المسلم بغيره من المجتمعات، فشرع أنواع من التعاملات التي تربط المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى.

وقد جعل الله تعالى البر هو العنوان الرئيس لكافة العلاقات والروابط، سواء أكانت بين الأفراد في المجتمع المسلم، أو كانت بين المجتمع المسلم وغيره من المجتمعات الأخرى، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: البر وصلة الرحم:

من فضل الله تعالى على عباده أنه أوجدهم وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، ومن أعظم هذه النعم نعمة الوالدين والأقارب.

وتكمن عظمة هذه النعمة في أن كلًا من الوالدين والأقربين يمثلون الحاضنة التي توفر للإنسان ما يحتاجه من الرعاية التي لا غنى له عنها في أي مرحلةٍ من مراحل حياته.

وبالتالي فينبغي على الإنسان أن يشكر الله تعالى الذي من عليه بهذه النعمة العظيمة، وذلك من خلال أمرين:

الأول: بر الوالدين والإحسان إليهما.

الثاني: الإحسان إلى الأقارب.

أما الأمر الأول وهو بر الوالدين والإحسان إليهما، فقد قال الله تعالى فيه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ

﴿كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤].

والملاحظ من الآيتين الكريمتين أن الله تعالى قد شدد على ضرورة الإحسان إلى الوالدين في جميع أحوالهما وبالذات حين يضعفهما الكبر في السن.

وهذا يتطلب من الابن أن يشعر بأنه مدانٌ لوالديه بالكثير؛ فهما اللذان اعتنيا به حين كان صغيرًا لا يقوى على القيام بشيء من احتياجاته، هذا فضلًا عن أنهما كانا السبب في وجوده.

ومن الملاحظ أيضًا في الآية الأولى أن الله تعالى قد أمر بالإحسان إلى الوالدين بعد الأمر بإفراده بالعبادة، وهذا يدل على مدى أهمية الإحسان إلى الوالدين.

كما يلاحظ في الآية الثانية أن الإحسان إلى الوالدين لا يقتصر على فترة وجودهما في الحياة، وإنما يبقى مستمرًا إلى ما بعد وفاتهما.

وهذا ما فهمه الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، فهذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يلقى أعرابيًا فيسلم عليه، وينزل عن حماره ليحمل عليه الأعرابي، ويهديه عمامته، فيقول له حينها عبد الله بن دينار رحمه الله تعالى: أصلحك الله إنهم الأعراب ويرضون باليسير، فيرد عليه ابن عمر رضي الله عنهما قائلًا: إن هذا كان ودًا لعمر بن الخطاب، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه)[(١)].

ويقول الإمام القشيري: «أمر -أي الله تعالى- بالإحسان إلى الوالدين ومراعاة حقهما، والوقوف عند إشارتهما، والقيام بخدمتهما، وملازمة ما كان يعود إلى رضاهما، وحسن عشرتهما، ورعاية حرمتهما، وألا يبدى شواهد الكسل عند أوامرهما، وأن يبذل المكنة فيما يعود إلى حفظ قلوبهما... هذا فى حال حياتهما، فأما بعد وفاتهما فبصدق الدعاء لهما، وأداء الصدقة عنهما، وحفظ وصيتهما على الوجه الذي فعلاه، والإحسان إلى من كان من أهل ودهما ومعارفهما»[(٢)].

وبالتالي فإن بر الوالدين يعد من أعظم أبواب البر والخير التي يجب على الأبناء أن يتزاحموا ويتسابقوا لولوج الجنة من خلالها.

وأما الأمر الثاني الذي يشكر العبد ربه من خلاله على نعمة الرعاية فهو الإحسان إلى الأقارب.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة أصدقاء الأب والأم، ونحوهما ٤/ ١٩٧٩، رقم ٢٥٥٢.
(٢) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٣٤٤-٣٤٣.

وفيه يقول الله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦].

وتشمل حقوق ذوي القربى زيارتهم، وحسن التعامل معهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتقديم العون لهم، والإنفاق عليهم حال فقرهم، وغير ذلك من أوجه برهم.

وقد جعلهم الله تعالى في الدرجة الثانية بعد الوالدين نظرًا لكون الوالدين أعظم فضلًا على العبد من باقي أقاربه.

ثانيًا: البر بالمسلمين:

أكرم الله تعالى عباد المؤمنين برباط الأخوة الإيمانية المتين الذي ألف به بين القلوب المتنافرة.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢ - ٦٣].

وقال رسول الله: صلى الله عليه وسلم (إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وشبك أصابعه)[(١)].

وتتطلب هذه النصوص الشرعية من المسلمين حسن رعاية بعضهم لبعض، ومن خصهم الله تعالى بالذكر للحث على رعايتهم الأصناف الآتية:

١ . اليتامى.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٧].

واليتيم هو من فقد أباه وهو صغير[(٢)]، وقد خصه الله تعالى بالذكر وجعل النفقة عليه من أوجه البر؛ نظرًا لأنه قد فقد من يعيله ويتولى النفقة عليه بالعادة، وتركه للفقر أمر فيه مفسدة عظيمة.

٢ . الفقراء.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ [التوبة: ٦٠].

والفقير هو من لا مال له[(٣)]، وبالتالي فهو في أمس الحاجة إلى يعينه على لوازم الحياة.

٣ . المساكين.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠].

والمسكين هو من لا يملك ما يكفيه ومن يعيله من المال[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره ١/ ١٠٣، رقم ٤٨١.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ١٠٦.

(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣١٦.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي ٣/ ٤٨.

وقد جعل الله تعالى هذا الصنف من مصارف الزكاة؛ حتى يتمكن من الحصول على ما يسد به حاجته، ويكفيه ذل المسألة.

٤ . السائلين.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والسائل هو الذي يطلب العون والمساعدة من الآخرين[١].

وقد خصهم الله تعالى بالذكر والحث على مساعدتهم؛ لأن سؤالهم ناجم عن فقرهم، وعدم قدرتهم على الكسب، وفي معونتهم سد لحاجاتهم.

٥ . الجار.

قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦].

وتوصي الآية الكريمة بالإحسان إلى الجيران عمومًا سواء أكانوا أقارب وأرحام، أو كانوا أجانب، وسواء أكانوا ملاصقين في سكناهم أو بعدت أماكن سكناهم، وقد أمر الله تعالى بالإحسان إلى الجار نظرًا لتعدد الحقوق التي تكون للجار على جاره، فمثلًا إن كان الجار مسلمًا ومن ذوي الأرحام كانت له حقوق الإسلام والجيرة والقرابة، وإن لم يكن من الأقارب كانت له حقوق الإسلام والجوار، وإن لم يكن مسلمًا كانت له حقوق الجوار فقط[٢].

وقد أكد المصطفى صلى الله عليه وسلم على ضرورة الإحسان إلى الجار في أحاديث متعددة، منها:

قوله صلى الله عليه وسلم (ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه)[٣].

وقوله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها عندما سألته عن المقدم بالهدية من الجيران قائلةً: إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ قال: (إلى أقربهما منك بابًا)[٤].

وهذا يدل على أن الجار الأقرب هو الأولى بالهدية من الأبعد؛ لأنه ينظر إلى يدخله الجار إلى بيته من المتاع بخلاف الأبعد[٥].

(١) انظر: معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، حسن الجمل ٢/ ٢٧٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن، أبو المظفر السمعاني ١/ ٤٢٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار ٨/ ١٠، رقم ٦٠١٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب بمن يبدأ بالهدية ٣/ ١٥٩، رقم ٢٥٩٥.

(٥) انظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، القسطلاني ٩/ ٢٦.

٦. ابن السبيل.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وابن السبيل هو المنقطع عن أهله وماله في سفر[١]، وقد جعل الله تعالى إعانة ابن السبيل أحد أوجه البر لما في الانفاق عليه بغية إيصاله إلى بلده وماله من التيسير على المعسر الذي انقطع عن ماله في غير بلده.

٧. في الرقاب.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والمراد بمن في الرقاب هم العبيد[٢].

وقد حث الله تعالى على فكاكهم في غير موضع من القرآن الكريم؛ لما في فكاكهم وتخليصهم من الرق والعبودية من الحفظ لكرامتهم، والإعلاء لشأنهم.

ثالثًا: البر مع الأعداء:

لم يقتصر فضل البر على المسلمين فحسب، وإنما تعدى الأمر المسلمين ليصل إلى غيرهم من غير المسلمين، وما ذلك إلا تعبيرًا عن سماحة الإسلام وأهله.

وفي هذا الشأن يقول الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨ - ٩].

وتبين الآية الكريمة أن البر إلى غير المسلمين جائز شريطة أن يكونوا مسالمين وأن يلتزموا بعهودهم ومواثيقهم التي أبرموها مع المسلمين.

قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

أما المحاربين فلا تجوز مودتهم؛ لأنهم ناصبوا المسلمين العداء، وبذلوا كل جهد للقضاء على الإسلام والمسلمين، فهؤلاء ليس لهم عند المسلمين إلا القتال حتى يغلبوا وينتهي شرهم، ولا يعني ذلك جواز تجاوز الحد المأذون به شرعًا في معاقبة الأعداء، أو معاقبة غير المعتدين[٣]؛ فإن العدل مع الأعداء من البر الذي دعا إليه

(١) انظر: فتح البيان، القنوجي ٥/ ١٨٢.

(٢) انظر: معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، حسن الجمل ٣/ ٢٧٤.

(٣) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ٧/ ٢٩١.

الإسلام.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

والبر إلى المسالمين من غير المسلمين يكون في التعامل معهم في مختلف المجالات بالرفق واللين، وعدم هضم حقوقهم أو الانتقاص من شأنهم، وذلك يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (ألا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفسٍ، فأنا حجيجه يوم القيامة)[1].

ولا يشمل البر إلى المسالمين من غير المسلمين موالاتهم في معتقداتهم الفاسدة، فالغرض من برهم هو دعوتهم إلى الهدى والإيمان وليس التأثر بمعتقداتهم الباطلة.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١ - ٦].

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات ٣/ ١٧٠، رقم ٣٠٥٢. وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع ١/ ٥١٨.

آثار البر في الدنيا والآخرة

مما لا شك فيه أن للبر آثار جليلة تعود بالنفع على الأبرار في الدنيا والآخرة، كيف لا يكون ذلك والله تعالى هو الذي أمر بالبر وحث عليه المؤمنين، ولمعرفة تلك الآثار لابد للنظر في نصوص القرآن الكريم، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: آثار البر في الدنيا:

١ . محبة الله تعالى.

وقد أكد الله تعالى محبته للقائمين بأعمال البر التي حثت الشريعة الإسلامية في غير موضع من كتاب الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

والآية الكريمة تبين أن الإنفاق في سبيل الله تعالى في السراء والضراء، وكظم الغيظ، والعفو عن الآخرين، والإحسان في الأمور كلها تستدعي محبة الله تعالى، ومما لا شك فيه أن الأمور التي ذكرتها الآية الكريمة من أعمال البر.

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ

﴿يُحِبُّ الصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

والآية الكريمة تحث على الصبر والتحمل في سبيل إعلاء شأن الإسلام، وعدم الفتور والضعف والاستكانة مهما أصابهم من قتل وجراح وغير ذلك في سبيل الله تعالى[1].

ومعلوم أن الصبر من أعظم الأخلاقيات التي حث عليها الإسلام.

٢. الطمأنينة وانشراح الصدر.

قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥ - ١٢٧].

يبين الله تعالى في هذه الآيات الكريمة أن الذي يهديه الله تعالى للإسلام يشرح صدره بأن يقذف في قلبه نورًا يميز من خلاله الحق فيقتنع به ويهتدي إليه، وتطمئن نفسه إلى المسلك الذي يسير فيه[2].

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤٢٧.
(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ١٦٨.

والمقصود بالظلمات في الآية الكريمة هو ظلمات الكفر، والنور هو نور الإيمان[3].

وهذا النور الذي يجده المؤمن في حياته هو سبب الراحة النفسية التي يعيشها، كما أن الطمأنة الإلهية للمؤمنين الأبرار هي مفتاح السعادة بالنسبة لهم.

وقد جاءت هذه الطمأنة في الحديث القدسي الذي يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم: **(إن الله قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته)**[4].

يبين هذا الحديث الشريف أن الاجتهاد في أعمال البر أمر يوجب محبة الله تعالى، كما أن الله تعالى يكرم الأبرار بلذة وراحة أثناء قيامهم بأعمال البر.

وفي ذلك يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: **(ثلاثٌ من كن فيه وجد حلاوة**

(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الغرناطي ١/ ١٣٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع ٨/ ١٠٥، رقم ٦٥٠٢.

الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)[1].

ولا يقتصر انشراح صدر المؤمن البار واطمئنانه خلال فترة حياته فحسب، بل إن الملائكة الكرام تتنزل عليه عند قبض روحه لطمأنته وتبشيره[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

٣. الحياة الطيبة.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

والملاحظ أن الآية الكريمة عبارة عن جملة شرطية، ومعلوم أن أسلوب الشرط يعمد إلى الربط بين أمرين فلا يتحقق الأمر الثاني إلا إذا تحقق الأمر الأول، وبالتالي فإن تحقق حصول الحياة الطيبة للعبد في الدنيا أمر مرهون باستقرار الإيمان في قلبه، ومداومته على العمل الصالح، ويقول الله تعالى في موضع آخر: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

وتبين هذه الآية الكريمة أن اتباع الهدى شرط لعدم الضلال والشقاء.

ثانيًا: آثار البر في الآخرة:

وضع الله تعالى شرطًا للنجاة من عذابه الأليم في الآخرة، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وتوضح الآية الكريمة أن الشرط هو المداومة على العمل الصالح، وعدم الاشراك بالله تعالى مطلقًا، وقد أكد الله تعالى في غير موضع من القرآن الكريم على حسن مآل الأبرار المحسنين، كما حدد آثار البر والعمل الصالح على الأبرار في الآخرة، والتي منها ما يأتي:

١ . الأمان من الخوف والحزن.

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

تبين الآيات الكريمة أن أولياء الله تعالى من المؤمنين الأبرار لا خوف عليهم مما سيكون يوم القيامة من أهوال مخيفة، ولا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان ١/ ١٢، رقم ١٦.
(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٥٢.

هم يحزنون على ما أسلفوا، لأنهم لم يقدموا إلا صالحًا[1].

يقول شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى ذكره: ألا إن أنصار الله لا خوف عليهم في الآخرة من عقاب الله، لأن الله رضي عنهم فآمنهم من عقابه، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا»[2].

٢. النجاة من النار والفوز بالجنة ونعيمها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٢ - ٢٨].

تبين الآيات الكريمة حسن ما أعده الله تعالى لعباده الأبرار من النعيم والثواب في جنانه التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقد قال الله تعالى عما في هذه الجنان: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٧].

وقال تعالى أيضًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠-٣١].

فهذه الآيات تحتوي على البشارات الواضحة بدخول المؤمنين الصالحين الأبرار جنان ربهم جل وعلا، وحصولهم فيها على ما يشاؤون من النعم والمتع، كما جاءت آيات أخرى تبين الطريقة التي من خلالها ادخال المؤمنين إلى جنان ربهم جل وعلا، منها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

وتعني كلمة وفدًا أي: ركبانًا[3].

وهذا مما يدل على تكريم الله تعالى لهم لما قدموه من العمل الصالح في الدنيا.

ومن الآيات أيضًا التي تبين حسن استقبال المؤمنين البررة عند دخولهم الجنة قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

وتبين الآية الكريمة أن خزنة الجنة من الملائكة يستقبلون الأبرار من المؤمنين الأتقياء أحسن الاستقبال عند دخولهم الجنة، وحين يرى المؤمنون حسن

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٦٨.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٥/ ١١٨.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٥/ ١١٨.

استقبالهم وما أعده الله تعالى لهم من الأجر الكبير يقولون: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

موضوعات ذات صلة:

الإحسان، التطوع، الخير، العطاء





عناصر الموضوع

المجلد السابع

مفهوم البركة

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل البرك صدر البعير وإن استعمل في غيره، ويقال له: بركة، وبرك البعير: يبرك بروكًا ألقى بركه، واعتبر منه معنى اللزوم، فقيل: ابتركوا في الحرب، أي: ثبتوا ولازموا موضع الحرب، وبراكاء الحرب وبروكاؤها للمكان الذي يلزمه الأبطال، وابتركت الدابة: وقفت وقوفًا كالبروك، وسمي محبس الماء بركة[(١)]، والباء والراء والكاف أصلٌ واحدٌ من برك، ويعني: ثبات الشيء، والبركة تعني الزيادة والنماء، والتبريك: أن تدعو بالبركة، والتبرك: طلب البركة من الزيادة في الخير والأجر، والبركة: السعادة[(٢)].

ومن خلال ما سبق تبين أن البركة يتمركز معناها اللغوي حول الثبات، والزيادة والنماء، والسعادة.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب: «البركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء»[(٣)].

وعرف الكفوي البركة بقوله: «النماء والزيادة، حسية كانت أو معنوية، وثبوت الخير الإلهي في الشيء ودوامه»[(٤)].

والمتدبر في المعنيين يجد اتصالًا بينهما؛ حيث إن المعنى الاصطلاحي يعني: ثبوت الخير الإلهي في الشيء، وهذا مرتبط بمعنى البركة في اللغة التي هي الثبوت والرسوخ والسعادة من جهة، والنماء والزيادة المرتبطة بقاعدة الاستقامة في الدين من جهة أخرى، والتي يترتب عليها سعادة في الدنيا، ووفرة ثواب في الآخرة.

---

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٨٢.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ١١٩.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس،١/ ٢٣١.
(٤) المفردات، ص١١٩.



البركة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (بر ك) في القرآن الكريم (٣٢) مرة[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٧	﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ [فصلت:١٠]
المصدر	٣	﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦]
اسم المفعول	١٢	﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام:٩٢]

وجاءت البركة في القرآن بمعناها في اللغة وهو: ثبوت الخير الإلهي في الشيء[2].

(١) الكليات، ص ٢٤٨.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٨٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الثبات:

الثبات لغة:

ثبت الشيء يثبت ثباتًا وثبوتًا فهو ثابتٌ، والثبات ضد الزوال[(١)].

الثبات اصطلاحًا:

التمكن في الموضع الذي شأنه الاستنزال[(٢)].

الصلة بين البركة والثبات:

الثبات من الألفاظ المقاربة لمعاني البركة، ولكن البركة أعم وأشمل من الثبات، ويستعمل الثبات في الأجسام والأعراض[(٣)].

٢ الزيادة:

الزيادة لغة:

الزاء والياء والدال أصلٌ يدل على الفضل، يقولون: زاد الشيء يزيد، فهو زائدٌ[(٤)].

الزيادة اصطلاحًا:

أن ينضم إلى ما عليه الشيء في نفسه شيء آخر، يقال: زدته فازداد[(٥)].

الصلة بين البركة والزيادة:

البركة: هي الزيادة والنماء، ويوصف بها كل شيء لزمه وثبت فيه خير إلهي، والزيادة من معاني البركة، فإذن كل بركة زيادة، وليس كل زيادة بركة[(٦)].

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٢/ ١٩، المفردات، الراغب، ص ١٧١.
(٢) التوقيف، المناوي، ص ٩١.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص ١١٨.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٢٣٢.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٣٨٥.
(٦) انظر: معجم الفروق اللغوية، العسكري، ص ٩٧.



٣ النماء:

النماء لغة:

النون والميم والحرف المعتل أصلٌ واحدٌ، يدل على ارتفاعٍ وزيادةٍ[١].

النماء اصطلاحًا:

لا يخرج عن المعنى اللغوي، فهو الزيادة سواء أكانت حقيقية أم تقديرية.

وقيل: «ازدياد حجم الجسم، بما ينضم إليه ويداخله في جميع الأقطار، بنسبة طبيعية»[٢].

الصلة بين البركة والنماء:

نماء الشيء يفيد زيادة من نفسه، وقولك: زاد، لا يفيد ذلك، ألا ترى أنه يقال: زاد مال فلان بما ورثه عن والده، ولا يقال: نما ماله بما ورثه، والبركة تكون من الله وليس من غيره، فالبركة أعم وأشمل من النماء[٣].

٤ القحط:

القحط لغة:

(قحط) القاف والحاء والطاء أصلٌ صحيحٌ يدل على احتباس الخير، و(أقحط) القوم أصابهم القحط، و(القحط) الجدب[٤].

القحط اصطلاحًا:

«انقطاع المطر»[٥].

الصلة بين البركة والقحط:

البركة تعني ثبوت الخير الإلهي في الشيء[٦]، أما القحط فهو من الألفاظ المقابلة الذي يعني قلة الخير والجدب، وقلة الأمطار والريع في الزراعات، والربح في التجارات، ووقوع الموت في الناس والدواب، وكثرة الحرق، والغرق، ومحق البركات من كل شيء[٧].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٤٧٩.
(٢) التعريفات، الجرجاني، ص ٢٤٦.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري، ص ١٨٠.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٦٠، مختار الصحاح، الرازي، ص ٢٤٧.
(٥) التوقيف، المناوي، ص ٢٦٨.
(٦) بصائر ذوي التمييز، الفيروز أبادي، ٢/ ٢٠٩.
(٧) انظر: مدارك التنزيل، النسفي، ٢/ ٧٠٣.

الأساليب القرآنية في استخدام البركة

تنوعت الأساليب القرآنية في الحديث عن البركة، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: إسناد البركة إلى ذات الله تعالى وأسمائه:

من تأمل أساليب القرآن الكريم في تناول البركة لفظًا، وجد أنه سبحانه ذكرها مجموعة لا مفردة، وأنها جاءت مسندة إلى الله تعالى ، أو إلى اسمه سبحانه مع شفع ذلك الوصف بأمور منها:

- أنه سبحانه رب العالمين.

قال عز من قائل: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

- وأنه سبحانه منزل القرآن الكريم، ذلك الفرقان المعجز.

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

- وأنه سبحانه الذي أنعم علينا بالشمس والقمر؛ لأنه بيده ملكوت كل شيء.

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان:٦١].

وقال تعالى أيضًا: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك:١].

وقال أيضًا: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف:٨٥].

- وقد صورنا فأحسن صورنا، بعد أن جمعنا في بطون أمهاتنا، وركب فينا السمع والبصر والأفئدة.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وقال أيضًا: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤].

- وأنه قادر سبحانه على أن يجعل لنبيه صلى الله عليه وسلم خيرًا مما طلبه الكفار على سبيل التحدي، فيجعل له في الدنيا حدائق كثيرة تتخللها الأنهار، ويجعل له قصورًا عظيمة.

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان:١٠].

هذا وقد أسندت البركة لاسمه تعالى

فقال سبحانه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[الرحمن: ٧٨].

والآيات السابقة أتت بصيغة تفاعل من البركة التي يقول عنها علامة الزيتونة ابن عاشور -عليه سحائب الرضوان-: «وفعل تبارك في صورة اشتقاقه يؤذن بإظهار الوصف على صاحبه المتصف به مثل: تثاقل: أظهر الثقل في العمل، وتعالل، أي: أظهر العلة، وتعاظم: أظهر العظمة، وقد يستعمل بمعنى ظهور الفعل على المتصف به ظهورًا بينًا حتى كأن صاحبه يظهره.

ومنه: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾[النمل: ٦٣].أي: ظهر علوه، أي: شرفه على الموجودات كلها.

ومنه ﴿تَبَارَكَ﴾ أي: ظهرت بركته، والبركة: شدة الخير.

فبركة الله الموصوف بها هي مجده ونزاهته وقدسه، وذلك جامعٌ صفات الكمال، ومن ذلك أن له الخلق والأمر، واتباع اسم الجلالة بالوصف -كرب العالمين ونحوه- في معنى البيان لاستحقاقه البركة والمجد؛ لأنه مفيض خيرات الإيجاد والإمداد، ومدبر أحوال الموجودات، بوصف كونه رب أنواع المخلوقات»[1].

ثانيًا: وصف المقدسات بالبركة:

وصف القرآن الكريم عددًا من المقدسات بالبركة، ومن ذلك:

١. القرآن.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[الأنعام: ٩٢].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الأنعام: ١٥٥].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[الأنبياء: ٥٠].

٢. البيت الحرام.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران: ٩٦].

٣. بلاد الشام.

قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾[الأعراف: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: ٧١].

أي: «ونجينا إبراهيم ولوطًا الذي آمن به من العراق، وأخرجناهما إلى أرض الشام التي باركنا فيها بكثرة الخيرات، وفيها أكثر

(١) التحرير والتنوير ٨/ ١٧٠ بتصرف يسير.

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»[1].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾[سبأ: ١٨].

٤. بيت المقدس.

قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨١].

٥. حول المسجد الأقصى.

قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾[الإسراء: ١].

٦. البقعة المباركة في سيناء.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[القصص: ٣٠].

وصيغة ﴿مُبَارَكًا﴾ التي وردت في الآيات المذكورة: اسم مفعولٍ من بارك الشيء إذا جعل له بركةً، وهي زيادةٌ في الخير[2].

وسيتم الحديث عن هذه الآيات بما يتناسب مع ورودها في مواضعها اللاحقة من هذا البحث المبارك -إن شاء الله تعالى-.

ثالثًا: الدعاء للصالحين بالبركة عليهم وعلى ذرياتهم:

من المناسبات التي تحدث القرآن الكريم فيها عن البركة: الدعاء للصالحين بالبركة عليهم، وعلى ذرياتهم.

هذا ما جاء على لسان الخليل عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١٠٠-١١٣].

فقوله تعالى: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾ [الصافات: ١١٣].

معناه: أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا، وبأن أخرجنا أنبياء بني إسرائيل من صلبه[3].

والآيات تثبت مطلب الخليل عليه السلام

(١) التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ٣٢٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١٦.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٩/ ١٢٠.

وأنه طلب أن يهبه الله من الصالحين، فكان أن أعطاه الله الذرية الصالحة، ومن عين الصلاح: البركة في الذرية، وفي حديث أبي سعيدٍ الخدري، قال: قلنا: يا رسول الله هذا السلام عليك فكيف نصلي؟ قال: (قولوا: اللهم صل على محمدٍ عبدك ورسولك، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمدٍ، وعلى آل محمدٍ، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم)[(١)].

ويدخل في هذا المقام دعاء الصالحين لأنفسهم:

كدعاء نبي الله نوح عليه السلام ؛ وذلك بتوجيه من الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾[المؤمنون: ٢٩].

أي: «أنزلني إنزالًا فيه خير ونماء وبركة، بأن يثبت الله تعالى قلوب الذين آمنوا على الحق، وقد رأوا بأعينهم عاقبة الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ومعاندة الحق، وقد بارك سبحانه من معه، فجعل منهم ذرية الخليقة، فكان بحق الأب الثاني للإنسانية، وقد أثنى على ربه بما هو حقه ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ أي: أنت الذي تنزل منازل أعلى ما يكون الإنزال المبارك...، ثم عقب ذلك بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٠].

وكانت الآية الأخيرة: أن الله تعالى أغرقهم، وقطع دابر الذين ظلموا، وفيه آية سامية في علوها وهي أن الزلفى عند الله بالحق والإيمان به، لا بالقرابة»[(٢)].

ومما حمل على الدعاء مباركة موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[النمل: ٧-٨].

فقد حمل أبو السعود قوله تعالى: ﴿نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ على الدعاء، ونصه: «﴿أَن بُورِكَ﴾ معناه أي: بورك على ﴿أَن﴾ مفسرة لما في النداء من معنى القول أو بـ﴿أَن بُورِكَ﴾ على أنها مصدرية حذف عنها الجار جريًا على القاعدة المستمرة -نزع الخافض- وقيل: مخففةٌ من الثقيلة، ولا ضير في فقدان التعويض بـ(لا أوقد) أو السين أو سوف لما أن الدعاء يخالف غيره في كثير من الأحكام»[(٣)].

وحمل هذه الآية على الدعاء أيضًا الطاهر ابن عاشور ونصه: «وقيل: إن قوله: ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ﴾ إنشاء تحيةٍ من الله تعالى إلى موسى عليه السلام كما كانت تحية الملائكة لإبراهيم: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ﴾

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ٨/ ٧٧، ٣٦٥٨.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٢٧.

(٣) إرشاد العقل السليم ٦/ ٢٧٣، وأشار الآلوسي إلى هذا المعنى في روح المعاني ١٠/ ١٥٦.

﴿عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[هود: ٧٣].

أي: أهل هذا البيت الذي نحن فيه»[1].

والمراد بالبركة في الآية الكريمة: النماء والزيادة والخير لكليم الله تعالى موسى عليه السلام لذاته؛ ولملابسة المكان بالملائكة الأطهار، ولطهر البقعة المقدسة التي كانت مكان تكليم موسى عليه السلام ، كما صرح سبحانه بذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[القصص: ٣٠].

ومما يدخل في الدعاء بالبركة قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[هود: ٧٢-٧٣].

والمراد بالرحمة والبركة هنا: الرحمة التي وسعت كل شيء، واستتبعت كل خير، والبركة: الخيرات النامية المتكاثرة في كل بابٍ التي من جملتها هبة الأولاد، وقيل: الرحمة: النبوة، والبركات: الأسباط من بني إسرائيل؛ لأن الأنبياء منهم وكلهم من ولد إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأهل البيت هنا هم أهل بيت خليل الرحمن -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام-[2].

وما سبق من الآيات يبرهن على أن الدعاء والتضرع إلى الله، واستحضار خفض الجناح لله عز وجل من أبرز أسباب استحضار البركة، والدعاء هو العبادة ومخها وخالصها، والمسلم إذا سأل فإنه يسأل الله، فهو وحده الذي عنده خيري الدنيا والآخرة، وهو سبحانه وحده من يمد بهما من يشاء ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[الإسراء: ٢٠].

رابعًا: وصف النعم وأسباب السعادة بالبركة:

مما لا يرتاب فيه عاقل أن الله تعالى بارك نعمه كلها على اعتبار صدورها منه سبحانه ، وهو عز وجل واهب البركة ومصدرها في السماوات والأرض، لكن هذه البركة بدت لمن أخذ بأسبابها، وعزت على من تنكب طريق الوهاب سبحانه ، كما أن الله تعالى أفرد بعض النعم بصريح البركة ليوقظ إحساس العبد تجاه ما لم يشعر به تبلدًا منه أو تلهيًا عنه سبحانه ، وهذه النعم التي لفت أنظارنا إليها لنتفكرها، ونتدبر حكمتها منها ما هو حسي، ومنها ما هو معنوي.

فمن النعم الحسية التي وصفها الله تعالى بالبركة:

١. الماء النازل والمستقر.

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا

---

(١) التحرير والتنوير ١٩/ ٢٢٧.
(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥٠٦٧.

﴿فَأَنبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾[ق: ٩].

وقد حفل القرآن الكريم بذكر بركات الماء المتمثلة في:

- إحياء موات الأرض.

قال تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة:١٦٤].

- إخراج الثمرات.

قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾[البقرة: ٢٢].

- إخراج النبات.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: ٩٩].

- حمل الفلك.

قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾[إبراهيم:٣٢].

- خلق الله منه كل شيء.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[الأنبياء:٣٠].

وقال أيضًا: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور:٤٥].

- يتطهر به.

قال عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾[المائدة:٦].

وكما حدث يوم بدر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال:١١].

- جعله سبحانه للإرواء والسقي.

قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾[الحجر:٢٢].

- استودعه الأرض بقدرته.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون:١٨].

- ينفع الله ببركته المؤمنين، ويضر بإذن الله تعالى أعداءهم.

كما حدث مع قوم نوح وموسى عليهما السلام من إغراق.

قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾[الفرقان: ٣٧].

وفي قوم موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[البقرة:٥٠].

وقد حدث ذلك أيضًا مع أهل سبأ، فقال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ [سبأ:١٦].

يقول الفخر فيما يخص بركة المطر: «وصف الله تعالى المطر بالبركة...، لما فيه من المنافع»[1] ولنا أن نذهب النفس كل مذهب في منافع المطر التي تمت معرفتها، وما سيكتشفه العلم منها إلى قيام الساعة، وأنه بركة من بركات السماء على أهل الأرض يجب على المسلمين اكتنازها وادخارها لوقت الحاجة إليها.

٢ . شجرة الزيتون.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[النور:٣٥].

وهي الشجرة التي تخرج من طور سيناء، قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾[المؤمنون:٢٠].

وهي التي أقسم الله بها في سورة التين، فقال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين:١-٤].

يقول الفخر: «وصف الله تعالى شجرة الزيتون بالبركة لكثرة منافعها»[2].

(١) مفاتيح الغيب ٢/ ٢٦٥ بتصرف يسير.

(٢) مفاتيح الغيب ٢/ ٢٦٥ بتصرف يسير.

يقول الطبيب أحمد حطيبه في درس صوتي له مفرغ على المكتبة الشاملة تحت عنوان: فوائد الزيتون: الزيتونة شجرة مباركة كما سماها الله،سبحانه وتعالى، والعلماء بحثوا في هذا الزيتون والفوائد الكثيرة الموجودة فيه، فمن ضمن ما ذكروا في الأبحاث الحديثة: أنهم رصدوا ظاهرة صحية لسكان بعض جزر البحر المتوسط، فوجدوا بعض السكان كسكان جزيرة كريت وغيرها أنهم يعيشون حياة طيبة، وأن صحتهم عالية، ودرجة الحيوية عندهم عالية، وأنهم يتمتعون بصحة ونشاط، وحاولوا أن يبحثوا عن سر صحة أهل هذه الجزر،كريت وما حولها، فوجدوا أن الغذاء عندهم يعتمد أساسًا على زيت الزيتون، فهم أقل الناس تعرضًا للإصابة بارتفاع ضغط الدم، وبأمراض القلب، وأمراض تصلب الشرايين؛ لأنهم يتمتعون بمستوى معتدل صحي بنسبة الكولسترول الموجودة في دم الإنسان، والسبب في هذا كله اعتمادهم على زيت الزيتون، وعلى الزيتون في طعامهم، والعصرة الأولى من زيت الزيتون فيها الفوائد كلها، وزيت الزيتون غني جدًا بالدهون، وفيه نوعان من أنواع الدهون: دهون مشبعة، ودهون غير مشبعة: فالدهون المشبعة فيه نسبة قليلة منها، ومفيدة للإنسان، والدهون غير المشبعة فيه نسبة كبيرة منها، وهي مفيدة جدًا جدًا، ولا توجد إلا في الزيوت النباتية فقط، مثل زيت الزيتون، وزيت السمسم، وزيت الذرة، وفيها الزيوت غير المشبعة، وهي مفيدة للإنسان، والزيوت غير المشبعة الموجودة في زيت الزيتون هي دهون ومع ذلك يقولون: إنها تساعد على تخفيف الدهون الموجودة في الجسم، فالإنسان السمين إذا شرب من زيت الزيتون فإنه يساعده على تخفيف أو إزالة الدهون الموجودة في الجسم، ومن العجب أن تأخذ دهنًا لتزيل به دهنًا آخر! فدهن زيت الزيتون هذا غير مشبع، ويمنع الأكسدة التي تؤدي لخمول ذهن الإنسان، وعدم التفكير، وغير ذلك من الأمراض.

فهي شجرة تشرب الماء وتخرج الزيت، جعل الله عز وجل في هذه الشجرة أدمًا ودهنًا، وهي صبغ للآكلين.

٣. ليلة القدر، ليلة إنزال القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١].

وهي الليلة المباركة التي أخبر الله عنها في قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾[الدخان:١-٣].

ومن الأبحاث التي أجريت على زيت الزيتون: أن ملعقة من زيت الزيتون يوميًا تقلل من سرطان الثدي عند النساء أربعين في المائة، وكذلك تناول زيت الزيتون لمريض قرحة المعدة تساعده على قتل نوع من أنواع الجرثومات تسمى: الهلوبكتر، وهي نوع من أنواع الجرثومات الحلزونية الموجودة في المعدة، وتعمل على قرحتها، فشراب زيت الزيتون يقضي على هذه الجرثومة، ويمنع من سرطان المعدة، ومن سرطان القولون كذلك، ومن تصلب الشرايين، وزيت الزيتون ملطف وملين ومدر للصفراء، ومفتت للحصى، ويحتوي على مضادات للأكسدة في جسم الإنسان، وكذلك يحتوي على فيتامينات: فيتامين أ و ب و هـ و ج ولو دهن الإنسان شعر رأسه فإنه يمنع من سقوط شعر الرأس، ودهانه لجلد الإنسان مع شربه يمنع التشققات وغيرها من الأمراض الجلدية التي تكون عند الإنسان.

هذه جملة من الفوائد التي جمعها الله، سبحانه وتعالى، لنا، وقال في زيت الزيتون أو في الزيتون نفسه: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ۝٢٠﴾[المؤمنون:٢٠].

«ووصفها بالبركة لما أن نزول القرآن مستتبعٌ للمنافع الدينية والدنيوية بأجمعها، أو لما فيها من تنزل الملائكة والرحمة وإجابة الدعوة، وقسم النعمة، وفصل الأقضية، وفضيلة العبادة، وإعطاء تمام الشفاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم»[(١)].

والمقصود من تشريف الليلة التي كان ابتداء إنزال القرآن فيها تشريفٌ آخر للقرآن بتشريف زمان ظهوره، تنبيهًا على أنه تعالى اختار لابتداء إنزاله وقتًا شريفًا مباركًا؛ لأن عظم قدر الفعل يقتضي أن يختار لإيقاعه أفضل الأوقات والأمكنة، فاختيار أفضل الأوقات لابتداء إنزاله ينبئ عن علو قدره عند الله تعالى كقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[الواقعة (٧٩)][(٢)].

وسمى ليلة القدر مباركةً إذ القرآن ذكرٌ مباركٌ، أنزله ملكٌ مباركٌ، في ليلةٍ مباركةٍ، على نبي مبارك، لأمة مباركة[(٣)].

❁ نعمة نزول القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[الأنعام:٩٢].

وبركة هذه النعمة لا يستطيع أحد مهما

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٥٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٥٧.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٢٦٥ بتصرف يسير.

أوتي من علم أن يحدها بحد، أو يحصرها بحصر، بل يعجز الإنسان عن بيان نعمة القرآن على الكون وما حواه من منافع دنيوية أو أخروية، وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

يقول الشيخ الشنقيطي: «وهذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة»[١].

* تحية الإسلام، السلام عليكم.

من النعم المعنوية الموصوفة في القرآن الكريم بالبركة تحية الإسلام السلام عليكم؛ لقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور:٦١].

سمى الله تعالى السلام تحية من عنده سبحانه ، وهذه التحية من جوامع الكلم؛ لأن المقصود من التحية تأنيس الداخل بتأمينه إن كان لا يعرفه وباللطف له إن كان معروفًا...، والمباركة أي: المجعولة فيها البركة، والبركة: وفرة الخير، وإنما كانت هذه التحية مباركةً لما فيها من نية المسالمة، وحسن اللقاء والمخالطة؛ وذلك يوفر خير الأخوة الإسلامية، والطيبة: ذات الطيب، وهو بمعنى النزاهة والقبول في نفوس الناس، ووجه طيب التحية أنها دعاءٌ بالسلامة، وإيذانٌ بالمسالمة والمصافاة[٢].

وتحية الإسلام حيا الله تعالى بها جميع المرسلين بقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:١٨١].

وهي تحية أهل الجنة بعضهم بعضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس:٩-١٠].

وهي تحية الملائكة المطهرين للصالحين أهل الجنة: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤].

والسلام تحية المؤمنين من الله في الجنة يوم يلقونه سبحانه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٤].

والسلام تحية خزنة الجنة من الملائكة لأهل الجنة: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾

(١) أضواء البيان ٣/ ١٧-٥٥.

(٢) التحرير والتنوير، عاشور ١٨/ ٣٠٤ بتصرف.

[الزمر:٧٣].

وتحية الإسلام فيها من شمول المعنى لكل سلامة من كل آفة، وأمن من كل مخالفة، وصدق في الدعاء، ما لا نظير له في جميع تحايا الأمم من العرب وغيرهم، فتحية الإسلام كمال لا خداع فيها، وصدق لا كذب فيها[(١)].

(١) معجم المناهي اللفظية، بكر أبو زيد ص ٥٥٨.

مجالات البركة

تعددت مجالات البركة في القرآن الكريم، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: أسماء الله وصفاته:

من مجالات البركة أسماء الله تعالى وصفاته، حيث وصف سبحانه وتعالى نفسه في غير ما آية من القرآن الكريم مرة بالبركة وصفًا لذاته سبحانه ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾، ومرة أخرى وصفًا لاسمه سبحانه ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾،ومرة ثالثة أدخل سبحانه وصف البركة على ما يشير إليه قوله عز وجل: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي﴾.

وهذا يدل على استحقاق ذاته سبحانه للبركة، واستحقاق اسمه الشريف ﴿ٱللَّهُ﴾ لذلك أيضًا ، واستحقاق ما يشير إليه سبحانه بذلك، وكل ما يتصل به جل وعلا.

والملاحظ في وصفه سبحانه لذاته بالبركة أو وصف اسمه جل وعلا بذلك أو وصف ما يشير إليه تعالى أنه ليس وصفًا خاليًا من التعليل أو الحكمة، بل لدينا في كل آية تخص «الذات الشريفة أو الاسم الشريف أو الإشارة إليه عز وجل» من ثوابت قدرته ومقام عظمته سبحانه ما يستحق الوصف بذلك، ومع الآيات وهداياتها، وأسرارها نمضي لإقامة الحجة وبيان البرهان الساطع على ما نقول.

ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

بيان للربوبية، والألوهية التي من آثارها خلق السماوات والأرض في مقدار ستة أيام، ثم الاستواء على العرش استواء يليق بذاته سبحانه وتعالى، ثم ستر الليل النهار فيصير الجو مظلمًا بعد ما كان مضيئًا، يطلبه حثيثًا، أي: سريعًا طبق الحكمة والكمال، كما احتوت الآية الكريمة من عجائب القدرة تذليله سبحانه وتعالى للشمس وللقمر وللنجوم السيارة؛ إذ الكل مأمور بأمره يسخرهن سبحانه كما يشاء، وهن من آيات الله العظيمة، ألا له سبحانه وتعالى الخلق كله وله الأمر كله، تعالى الله وتعاظم وتنزه عن كل نقص، رب الخلق أجمعين.

وختم الآية الكريمة بـــ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ الذي هو وصف خاص به سبحانه «لم يجئ منه مضارع ولا أمر ولا اسم فاعل»[(١)] مشعرٌ بما احتوته من دلائل القدرة، وفيوضات الربوبية، يقول الفخر الرازي: «إذا دققت النظر علمت أن عالم الخلق في تسخير الله، وعالم الأمر في تدبير الله، واستيلاء الروحانيات على الجسمانيات بتقدير الله، فلهذا المعنى قال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ ثم قال بعده: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ والبركة لها تفسيران:

أحدهما: البقاء والثبات.

والثاني: كثرة الآثار الفاضلة، والنتائج الشريفة.

وكلا التفسيرين لا يليق إلا بالحق سبحانه ، فإن حملته على الثبات والدوام، فالثابت والدائم هو الله تعالى ؛ لأنه الموجود الواجب لذاته، العالم لذاته القائم بذاته الغني في ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه عن كل ما سواه، فهو سبحانه مقطع الحاجات

(١) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٣٧٨.
قال ابن القيم: «وأما صفته تبارك فمختصة به،تعالى، كما أطلقها على نفسه، وقال: فتباركه،سبحانه، صفة ذات له وصفة فعل»، بدائع الفوائد ٢/ ١٨٥.

وقال السلمان: «والنوع الثاني بركة: هي صفته تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك؛ ولهذا لا يقال لغيره كذلك، ولا يصلح إلا له،عز وجل،؛ فهو،سبحانه، المبارك، وعبده ورسوله المبارك؛ كما قال المسيح: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١﴾ [مريم:٣١]، فمن بارك الله فيه؛ فهو المبارك، وأما صفته؛ فمختصة به؛ كما أطلق على نفسه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف:٥٤]».
وانظر: صفات الله عز وجل، الواردة في الكتاب والسنة، علوي السقاف ص٧٠.

ومنهى الافتقارات وهو غنيٌّ عن كل ما سواه في جميع الأمور.

وأيضًا إن فسرنا البركة بكثرة الآثار الفاضلة فالكل بهذا التفسير من الله تعالى؛ لأن الموجود إما واجبٌ لذاته، وإما ممكنٌ لذاته، والواجب لذاته ليس إلا هو، وكل ما سواه ممكنٌ، وكل ممكنٍ فلا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته، وكل الخيرات منه، وكل الكمالات فائضةٌ من وجوده وإحسانه، فلا خير إلا منه، ولا إحسان إلا من فيضه، ولا رحمة إلا وهي حاصلةٌ منه، فلما كان الخلق والأمر ليس إلا منه، لا جرم كان الثناء المذكور بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر:٦٤]. لا يليق إلا بكبريائه، وكمال فضله، ونهاية جوده ورحمته»[1].

ومن الآيات التي وصفت ذات الله بالبركة:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤].

والملاحظ أن هذه الآية الكريمة قدمت للوصف بالبركة بمقدمات كلها معجز، ومختص بذات الله وحكمه وقدرته سبحانه حيث خلق آدم من طين، وخلق بنيه من نطفة، ثم خلق النطفة علقة أي: دمًا أحمر، فخلق العلقة -بعد أربعين يومًا- مضغة، أي: قطعة لحم قدر ما يمضغ، فخلق المضغة اللينة عظامًا، فكسا العظام لحمًا، ثم أنشأه خلقًا آخر بنفخ الروح فيه، ثم يأتي الختام بـ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ الذي أحسن كل شيء خلقه.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر:٦٤].

وصف فيه الحق سبحانه ذاته بالبركة، وقدم بصور تمثل قدرته سبحانه وإرادته من جعله الأرض مستقرًا لنا، ميسرة لإقامتنا عليها، وجعله السماء سقفًا للأرض، وبثه سبحانه فيها من العلامات الهادية، ومن خلقه إيانا على أكمل هيئة وأحسن تقويم، ومن إنعامه علينا بحلال الرزق، ولذيذ المطاعم والمشارب، ذلكم المنعم المتفضل هو ربنا وخالقنا، فتكاثر خيره وفضله وبركته، وتنزه عما لا يليق به، وهو رب الخلائق أجمعين.

وكما ورد الوصف بالبركة لذات الله

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٧٤، روح المعاني، الألوسي ٤/ ٣٧٨.

تعالى ، فإنه قد ورد كذلك مقترنًا باسم الله تعالى في قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾[الرحمن:٧٨].

فقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾ تنزيهٌ وتقديسٌ له تعالى فيه تقريرٌ لما ذكر في سورة الرحمن من آلائه الفائضة على الأنام، أي: تعالى اسمه الجليل الذي من جملته ما صدرت به السورة من اسم الرحمن المنبئ عن إفاضته الآلاء المفصلة، وارتفع عما لا يليق بشأنه من الأمور التي من جملتها جحود نعمائه وتكذيبها، وإذا كان حال اسمه بملامسة دلالته عليه فما ظنك بذاته الأقدس الأعلى، وقيل: الاسم بمعنى الصفة ﴿ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ وصف به الرب تكميلًا لما ذكر من التنزيه والتقرير[1].

«والبركة واجبة لاسم الله عز وجل الذي هو كلمة مؤلفة من حروف الهجاء، ونحن نتبرك بالذكر له وبتعظيمه ونجله ونكرمه، فله التبارك، وله الإجلال منا ومن الله تعالى ، وله الإكرام من الله تعالى ومنا، حيثما كان من قرطاس، أو في شيء منقوش فيه، أو مذكور بالألسنة، ومن لم يجل اسم الله عز وجل كذلك ولا أكرمه، فهو كافر بلا شك. انتهى كلامه رحمه الله»[2].

واقتران البركة باسم الله يعني: الدوام والثبوت لاسمه الشريف، أو دوام الخير عنده سبحانه ، وعلو شأنه عز وجل، أي: تبارك ذكر ربك يا محمد، ذي العظمة، ومن له الإكرام من جميع خلقه، أو أن البركة تكتب وتنال وتكسب بذكر اسمه.

قال ابن كثير: «الاسم معظمٌ لتعظيم الذات المقدسة، و﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ أي: هو أهلٌ أن يجل فلا يعصى، وأن يكرم فيعبد، ويشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى»[3].

ويقول الشهاب: «كما يجب تعظيم ذاته تعالى يجب تعظيم أسمائه وتنزيهها عما لا يليق بها[4] فاسمه -جل شأنه- ما يمكننا أن نعلم منه ما نعلم من صفاته، وما يشرق في أنفسنا من بهائه وجلاله»[5].

وفي بيان مناسبة بركات الله علينا من خلال سورة الرحمن، وفي بيان وجوه معاني ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾:

يقول الفخر: «أنه تعالى لما ختم نعم الدنيا بقوله تعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾[الرحمن:٢٧].

ختم نعم الآخرة بقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾[الرحمن:٧٨].

إشارةً إلى أن الباقي والدائم لذاته هو

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ١٨٧.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ١١٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٢٢، ٧/ ٤٧٠.
(٤) حاشية الشهاب ١/ ١٤٥.
(٥) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٢١٩.

الله تعالى لا غير والدنيا فانية، والآخرة وإن كانت باقيةً لكن بقاؤها بإبقاء الله تعالى ، ثانيها: هو أنه تعالى في أواخر هذه السور كلها ذكر اسم الله فقال في السورة التي قبل هذه: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرِۭ﴾[القمر:٥٥].

وكون العبد عند الله من أتم النعم كذلك هاهنا بعد ذكر الجنات وما فيها من النعم، قال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٧٨].

إشارةً إلى أن أتم النعم عند الله تعالى ، وأكمل اللذات ذكر الله تعالى ، وأصل التبارك من البركة، وهي الدوام والثبات، ومنها بروك البعير وبركة الماء، فإن الماء يكون فيها دائمًا، وفيه وجوهٌ:

أحدها: دام اسمه وثبت.

وثانيها: دام الخير عنده؛ لأن البركة وإن كانت من الثبات لكنها تستعمل في الخير.

وثالثها: تبارك بمعنى علا وارتفع.

وقال بعد ذكر نعم الدنيا: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾[الرحمن٢٧].

وقال بعد ذكر نعم الآخرة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾لأن الإشارة بعد عد نعم الدنيا وقعت إلى عدم كل شيءٍ من الممكنات وفنائها في ذواتها، واسم الله تعالى ينفع الذاكرين ولا ذاكر هناك يوحد الله غاية التوحيد، فقال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾والإشارة هنا وقعت إلى أن بقاء أهل الجنة بإبقاء الله ذاكرين اسم الله متلذذين به، فقال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي: في ذلك اليوم لا يبقى اسم أحدٍ إلا اسم الله تعالى به تدور الألسن، ولا يكون لأحدٍ عند أحدٍ حاجةٌ بذكره، ولا من أحدٍ خوفٌ، فإن تذاكروا تذاكروا باسم الله»[(١)].

وكما دخلت البركة على العلم على الذات العلية، وعلى الاسم الشريف، دخلت على ما يشير إليه عز وجل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[الفرقان:١].

حيث افتتحت السورة بما يدل على منتهى كمال الله تعالى افتتاحًا يؤذن بأن ما حوته يحوم حول تنزيه الله تعالى عن النقص الذي افتراه المشركون لما نسبوا إليه شركاء

---

(١) مفاتيح الغيب، ٢٩/ ٣٨٢.
وانظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٨٦، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢١٧، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ١٨/ ٣٦٦، وتفسير القرآن، العز بن عبد السلام ٣/ ٢٧١.

وقد حمل الخطيب الاسم في الآية: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾ [الرحمن:٧٨] على اسم الرحمن فقال: «أي: هذا لاسم الذي افتتح به سورة الرحمن كأنه يعلمهم أن هذا كله خرج لكم من رحمتي، فمن رحمتي خلقتكم، وخلقت لكم السماء والأرض والخليقة والجنة والنار، فهذا كله لكم من اسم الرحمن، فمدح اسمه، فقال تعالى:﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾[الرحمن:٧٨] ». السراج المنير ٤/ ١٧٨.

في الربوبية والتصرف معه والتعطيل لبعض مراده، ففي هذا الافتتاح براعة الاستهلال، و﴿تَبَارَكَ﴾ المستعمل منه الماضي وحده، وزنه تفاعل، وهو مطاوع بارك من البركة، وبارك فاعل من واحد، معناه زاد.

و﴿تَبَارَكَ﴾ فعل مختص بالله تعالى لم يستعمل في غيره؛ ولذلك لم يصرف منه مستقبل ولا اسم فاعل، وهو صفة فعل أي: كثرت بركاته، ومن جملتها إنزال كتابه الذي هو الفرقان بين الحق والباطل، وجميع البركات منه سبحانه وحده، وهو يدل على التعظيم والمبالغة في وفرة الخير، وهو في مقام الثناء يقتضي العموم بالقرينة، أي: يفيد أن كل وفرةٍ من الكمال ثابتةٌ لله تعالى ، بحيث لا يتخلف نوعٌ منها عن أن يكون صفةً له تعالى .

وصيغة تفاعل إذا أسندت إلى واحدٍ تدل على تكلف فعل ما اشتقت منه، نحو: تطاول وتغابن، وترد كنايةً عن قوة الفعل وشدته مثل: تواصل الحبل، وهو مشتقٌ من البركة، وهي زيادة الخير ووفرته، وهذا الكلام يجوز أن يكون مرادًا به مجرد الإخبار عن عظمة الله تعالى وكماله، ويجوز أن يكون مع ذلك إنشاء ثناءٍ على الله أثناه على نفسه، وتعليمًا للناس كيف يثنون على الله ويحمدونه، كما في ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة:٢]. إما على وجه الكناية بالجملة عن إنشاء الثناء، وإما باستعمال الصيغة المشتركة بين الإخبار والإنشاء في معنييها، ولو صيغ بغير هذا الأسلوب لما احتمل هاذين المعنيين.

وجعل المسند إليه (الذي) اسم موصول للإيذان بأن معنى الصلة مما اشتهر به، كما هو غالب أحوال الموصول، فصارت الصلة مغنيةً عن الاسم العلم لاستوائهما في الاختصاص به؛ إذ يعلم كل أحدٍ أن الاختصاص بالملك الكامل المطلق ليس إلا لله[1].

قال أهل اللغة: كلمة (الذي) موضوعةٌ للإشارة إلى الشيء عند محاولة تعريفه بقضيةٍ معلومةٍ، وعند هذا يتوجه الإشكال، وهو أن القوم ما كانوا عالمين بأنه سبحانه هو الذي نزل الفرقان، فكيف حسن هاهنا لفظ (الذي)؟ وجوابه: أنه لما قامت الدلالة على كون القرآن معجزًا ظهر بحسب الدليل كونه من عند الله، فلقوة الدليل، وظهوره أجراه سبحانه وتعالى مجرى المعلوم[2].

ومن أمثلة دخول البركة على ما يشير إليه سبحانه في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾[الفرقان:١٠].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/٢٩، ٣١٦/١٨.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤٢٨/٢٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ١٩٩/٤، مدارك التنزيل، النسفي ٥٢٤/٢.

وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان:٦١].

وقوله تعالى أيضًا في سورة الزخرف: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف:٨٥].

وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[الملك:١].

وما أسلفناه عن صيغة تبارك ودخولها على الموصول ينطبق على كل نظير مع مراعاة السياق.

ومن مجالات البركة -فوق ما تقدم- مما يتصل بالله تعالى: وصف القرآن بالبركة.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[الأنعام:٩٢].

يقول الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان عند تفسيره قوله تعالى: «﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾[الأنبياء:٥٠].

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن هذا القرآن العظيم ذكرٌ مباركٌ، أي: كثير البركات والخيرات؛ لأن فيه خيري الدنيا والآخرة...، وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أن هذا القرآن مباركٌ بينه في مواضع متعددةٍ من كتابه، كقوله تعالى في الأنعام: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥].

وقوله فيها أيضًا: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[الأنعام:٩٢].

وقوله تعالى في ص: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩].

فنرجو الله تعالى القريب المجيب أن تغمرنا بركات هذا الكتاب العظيم المبارك بتوفيق الله تعالى لنا لتدبر آياته، والعمل بما فيها من الحلال والحرام، والأوامر والنواهي، والمكارم والآداب، امتثالًا واجتنابًا، إنه قريبٌ مجيبٌ»[1].

ومما لا ريب فيه أن النظرة الموضوعية للآية لا تستغني بحال عن النظرة التحليلية؛ إذ التحليل يزيد من عبق موضوعية الآية، ويكشف عن مستور كنوز القرآن، واستكناه درره الخبيئة، وهذا ما يفعل الإفادة من التفسير الموضوعي للقرآن.

يقول العلامة الرازي مظهرًا مجمل البركة القرآنية: «﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الأنعام:١٥٥].

أي: كثير المنافع والفوائد؛ لاشتماله على منافع الدارين، وعلوم الأولين والآخرين، وما لا يتناهى من الفوائد، قال أهل المعاني: كتابٌ مباركٌ أي: كثيرٌ خيره، دائمةٌ بركته

(١) أضواء البيان ٤/ ١٦٢.

ومنفعته، يبشر بالثواب والمغفرة، ويزجر عن القبيح والمعصية، وأقول: العلوم إما نظريةٌ، وإما عمليةٌ، أما العلوم النظرية فأشرفها وأكملها معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه، ولا ترى هذه العلوم أكمل ولا أشرف مما تجده في هذا الكتاب، وأما العلوم العملية فالمطلوب إما أعمال الجوارح، وإما أعمال القلوب، وهو المسمى بطهارة الأخلاق، وتزكية النفس، ولا تجد هذين العلمين مثل ما تجده في هذا الكتاب، ثم قد جرت سنة الله تعالى بأن الباحث عنه، والمتمسك به يحصل له عز الدنيا، وسعادة الآخرة».

ثم عقب ذلك بقوله متحدثًا بنعمة الله عليه: «يقول مصنف هذا الكتاب محمد بن عمر الرازي: وأنا قد نقلت أنواعًا من العلوم النقلية والعقلية، فلم يحصل لي بسبب شيء من العلوم من أنواع السعادات في الدين والدنيا مثل ما حصل بسبب خدمة هذا العلم»[1].

يقول محمد رشيد رضا بعد أن نقل نص الرازي: «هذا العلم أي: علم القرآن بتفسيره»، ثم يعقب بقول: «فليعتبر بهذا من يضعون جل أوقاتهم في طلب العلم الديني بعلوم الكلام وغيرها، مما يعدون الرازي الإمام المطلق فيها؛ لعلهم يرجعون إلى كتاب الله تعالى، ويهتدون به، ويطلبون السعادة من فيضه دون غيره، ونسأل الله تعالى أن يوفقنا لإتمام تفسيره، وأن يجعله حجةً لنا لا علينا بكمال التخلق به»[2].

وبتدبر الآيات التي تحدثت عن القرآن وإنزاله موصوفًا بالبركة فإننا نلحظ أن الإنزال فيها سبق البركة مرة، والبركة فيها سبقت الإنزال مرة أخرى، ولا شك أن لذلك حكمته اللطيفة، ونكتته البديعة.

يقول أبو حيان: «﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾[الأنعام:٩٢].أي: وهذا القرآن لما ذكر وقرر أن إنكار من أنكر أن يكون الله أنزل على بشرٍ شيئًا وحاجهم بما لا يقدرون على إنكاره أخبر أن هذا الكتاب الذي أنزل على الرسول مباركٌ كثير النفع والفائدة؛ ولما كان الإنكار إنما وقع على الإنزال فقالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾[الأنعام:٩١].

وقيل: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ كان تقديم وصفه بـ(الإنزال) أكد من وصفه بكونه (مباركًا) ولأن ما أنزل الله تعالى فهو مباركٌ قطعًا فصارت الصفة بكونه مباركًا، كأنها صفةٌ مؤكدةٌ؛ إذ تضمنها ما قبلها ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٥٠].

(١) مفاتيح الغيب ١٣/ ٦٤.
وانظر: حاشية الشهاب ٤/ ٩٥، ومحاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٤٢٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٣٧٠، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٥١٦.

(٢) تفسير المنار ٧/ ٥١٦.

فلم يرد في معرض إنكارٍ أن ينزل الله شيئًا، بل جاء عقب قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٨].

ذكر أن الذي آتاه الرسول هو ذكرٌ مباركٌ؛ ولما كان الإنزال يتجدد عبر بالوصف الذي هو فعلٌ، ولما كان وصفه بالبركة وصفًا لا يفارق عبر بالاسم الدال على الثبوت»[1]

اللهم كما باركت للمتقدمين من أهل القرآن وخدامه بارك لنا في أنفسنا، وفي أولادنا وفي مجتمعاتنا، وارزقنا العمل به.

ثانيًا: الأنبياء وأممهم:

من مجالات البركة في القرآن الكريم ما تناوله القرآن في حديثه عن الأنبياء وأممهم، ومما لا شك فيه أن الله بارك الصالحين بصفة عامة، ولولا بركة الله وفضله عليهم ما كانوا صالحين، ورسل الله من المصطفين الأخيار؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[الحج:٧٥].

فهم ذروة الصلاح، ومجمع بركة الله، هذه عقيدتنا، لكن القرآن الكريم في استعمالاته ذكر جمعًا من الأنبياء وصفهم بالبركة صراحة، وهذا لا يعني أن غير المذكور من الأنبياء ليس مباركًا؛ إذ البركة كما تكون باللفظ الصريح تكون بغيره من المفردات، أما الأمم فمن باركه الله فهو المبارك فحسب.

ومن الأنبياء الذين وردت البركة وصفًا لهم في استعمال القرآن صراحة نبي الله نوح وإبراهيم وإسحاق وعيسى عليهم السلام، وتفصيل ذلك فيما يلي:

١. نبي الله نوح عليه السلام.

جاءت آيات تتحدث عن البركة في معية نبي الله نوح عليه السلام، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾[المؤمنون:٢٩].

والآية الكريمة تحمل توجيها لنبي الله نوح عليه السلام أن يدعو ربه أن ييسر له النزول المبارك الآمن؛ إذ الله بيده مقاليد كل شيء، ومن ذلك اختيار الخير لنزول نبيه من الفلك، فهو -جل شأنه- خير من أنزل عباده المنازل، ويتسلسل بنا قرآنيًا الشيخ الشنقيطي رحمه الله في رحلة نوح عليه السلام.

فيقول معلقًا على قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [المؤمنون:٢٩].

«ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة: أن نبيه نوحًا -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- أمر أصحابه الذين قيل له احملهم فيها أن يركبوا فيها قائلًا: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا

(١) البحر المحيط ٤/ ٦٥٧.

﴿وَمُرْسَاهَآ﴾[هود:٤١].

أي: بسم الله يكون جريها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها، وهو رسوها، وبين في (سورة الفلاح): أنه أمره إذا استوى على السفينة هو ومن معه أن يحمدوا الله الذي نجاهم من الكفرة الظالمين، ويسألوه أن ينزلهم منزلًا مباركًا؛ وذلك في قوله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٩، ٢٨].

وبين في سورة الزخرف ما ينبغي أن يقال عند ركوب السفن وغيرها بقوله: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[الزخرف:١٢-١٤]»[1].

والدعاء في الآية الكريمة ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾[المؤمنون:٢٩].

يتضمن سؤال سلامةٍ من غرق السفينة، وهذا كالمحامد التي يعلمها الله محمدًا صلى الله عليه وسلم يوم الشفاعة، فيكون في ذلك التعليم إشارةٌ إلى أنه سيتقبل ذلك منه، وجملة: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ في موضع الحال، وفيها معنى تعليل سؤاله ذلك[2].

قال القرطبي: «وبالجملة فالآية تعليمٌ من الله عز وجل لعباده إذا ركبوا، وإذا نزلوا أن يقولوا هذا، بل وإذا دخلوا بيوتهم وسلموا قالوها»[3].

وثمرة الدعاء السالف تظهر في قوله تعالى مستجيبًا: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود:٤٨].

ثم إنه تعالى لما وعده بالسلام أردفه بأن وعده بالبركات التي هي عبارةٌ عن الدوام والبقاء، والثبات، ونيل الأمل، ومنه بروك الإبل، ومنه البركة لثبوت الماء فيها، ومنه تبارك وتعالى، أي: ثبت تعظيمه، ثم اختلف المفسرون في تفسير هذا الثبات والبقاء.

فالقول الأول: أنه تعالى صير نوحًا أبا البشر؛ لأن جميع من بقي كانوا من نسله، وعند هذا قال القائل: إنه لما خرج نوحٌ من السفينة مات كل من كان معه ممن لم يكن من ذريته، ولم يحصل النسل إلا من ذريته، فالخلق كلهم من نسله وذريته، وقال آخرون: لم يكن في سفينة نوحٍ عليه السلام إلا من كان من نسله وذريته، وعلى التقديرين فالخلق كلهم إنما تولدوا منه ومن

(١) أضواء البيان،٢/ ١٨٤.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٤٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ١١٩.

أولاده، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾[الصافات:٧٧].

فثبت أن نوحًا عليه السلام كان آدم الأصغر، فهذا هو المراد من البركات التي وعده الله بها.

والقول الثاني: أنه تعالى لما وعده بالسلامة من الآفات، وعده بأن موجبات السلامة يكون في التزايد والثبات والاستقرار، ثم إنه تعالى لما شرفه بالسلامة والبركة شرح بعده حال أولئك الذين كانوا معه، فقال: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود:٤٨].

والأمم المبارك عليهم المتشعبة منهم نكرةٌ يدل على أن بعض من يتشعب منهم ليسوا على صفتهم، يعني ليس جميع من تشعب منهم مسلمًا ومباركًا عليه، بل منهم أممٌ ممتعون في الدينا معذبون في الآخرة، وعلى هذا لا يكون كل من كان مع نوح عليه السلام مسلمًا ومباركًا عليه صريحًا، وإنما يفهم ذلك من كونهم مع نوح عليه الصلاة والسلام ومن كون ذرياتهم كذلك بدلالة النص، ويجوز أن تكون (من) بيانيةً أي: وعلى أمم هم الذين معك[1] عن الحسن: أنه كان إذا قرأ سورة هود، فأتى على يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك، حتى ختم الآية، قال الحسن: فأنجى الله نوحًا والذين آمنوا، وهلك المتمتعون! حتى ذكر الأنبياء كل ذلك يقول: أنجاه الله وهلك المتمتعون[2].

قال محمد بن كعب: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾[هود:٤٨].

قال: فما بقي مؤمنٌ ولا مؤمنةٌ إلا دخل في ذلك السلام، وفي تلك البركات إلى يوم القيامة[3].

وبشر نوح بالسلامة إيذانًا له بمغفرة ربه له ورحمته إياه، وبإقامته في الأرض آمنًا من الآفات الدنيوية؛ إذ كانت الأرض قد خلت مما ينتفع به من النبات والحيوان، فكان ذلك تبشيرًا له بعود الأرض إلى أحسن حالها؛ ولذلك قال: ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ أي دائمةٍ باقيةٍ عليك.

والمعنى: أن السلام منا والبركات دائمة باقية عليك وعلى أمم مؤمنين ينشئون ممن معك، وأممٌ ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار[4].

وقد بين الله تعالى أن البركة كما أصابت نوحًا عليه السلام فقد أصابت واستعلت

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٢١٤.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٣٥٥، وابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ٢٠٤١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ٢٠٤١.

(٤) انظر: البحر المحيط ٦/ ١٦٣، مختصر في شواذ القرآن، ابن خالويه ص ٦٥.

أممًا كانت مع نبي الله نوح عليه السلام، و(على) للاستعلاء المجازي، أي: تمكن البركة من الإحاطة بهما[1].

وكما أصابت البركة نوحًا عليه السلام أصابت أيضًا إبراهيم وذريته من الأنبياء عليهم السلام.

٢. نبي الله إبراهيم وذريته من الأنبياء عليهم السلام.

من مجالات البركة في القرآن الكريم، وضمن حديث القرآن عن الأنبياء يأتي خليل الرحمن إبراهيم وذريته من الأنبياء عليهم السلام.

يقول الله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ [الصافات:١٠٩-١١٣].

فقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود:٤٨][2].

والمعنى: «ثنينا عليهما النعمة، وقيل: كثرنا ولدهما، أي: باركنا على إبراهيم وعلى أولاده، وعلى إسحاق حين أخرج أنبياء بني إسرائيل من صلبه، وقد قيل: إن الكناية في (عليه) تعود على إسماعيل وأنه هو الذبيح.

قال المفضل: الصحيح الذي يدل عليه القرآن أنه إسماعيل؛ وذلك أنه قص قصة الذبيح، فلما قال في آخر القصة: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات:١٠٧].

ثم قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ثم قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: على إسماعيل، وعلى إسحاق كنى عنه؛ لأنه قد تقدم ذكره»[3].

وحمل أبو حيان الآية على الوعد والوعيد، حيث قال: «﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا،... ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات:١١٣].

فيه وعيدٌ لليهود، ومن كان من ذريتهما لم يؤمن بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم، وفيه دليلٌ على أن البر قد يلد الفاجر، ولا يلحقه من ذلك عيبٌ ولا منقصةٌ»[4].

وقد جمع القاسمي البركة في ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ في تكثير الذرية، وتسلسل النبوة فيهم، وجعلهم ملوكًا، وإيتائهم ما لم يؤت أحد»[5].

٣. نبي الله عيسى عليه السلام.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٦٢.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ١١٢.
(٤) البحر المحيط ٩/ ١٢٠.
(٥) محاسن التأويل ٨/ ٢١٩.

وكما ذكر الله تعالى أنبياءه نوح وإبراهيم وذريته من الأنبياء عليهم السلام متصفين بالبركة ذكر نبيه عيسى عليه السلام فقال سبحانه: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

فسر العلماء البركة الموصوف بها نبي الله عيسى عليه السلام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو النفع حيث ما توجه، وقال مجاهدٌ: معلمًا للخير.

وقال عطاءٌ: أدعو إلى الله وإلى توحيده وعبادته.

وعن الضحاك: قضاءً للحوائج.

وقيل: مباركًا على من تبعني[(١)].

وفسر القرطبي البركة بقوله: «وأرشد الضال، وأنصر المظلوم، وأغيث الملهوف»[(٢)].

وفسرها القاسمي بقوله: «أبلغ وحي ربي لتقويم النفوس، وكبح الشهوات، والأخذ بما هو مناط السعادات، والتعبير بلفظ الماضي ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ باعتبار ما سبق في القضاء المحتوم»[(٣)].

وفسرها ابن عاشور بعد بيان صيغة ﴿مُبَارَكًا﴾ قائلًا: «والمبارك: الذي تقارن البركة أحواله في أعماله ومحاورته ونحو ذلك؛ لأن المبارك اسم مفعولٍ من باركه، إذا جعله ذا بركةٍ، أو من بارك فيه، إذا جعل البركة معه.

والبركة: الخير واليمن؛ ذلك أن الله أرسله برحمةٍ لبني إسرائيل ليحل لهم بعض الذي حرم عليهم، وليدعوهم إلى مكارم الأخلاق بعد أن قست قلوبهم، وغيروا من دينهم، فهذه أعظم بركةٍ تقارنه، ومن بركته أن جعل الله حلوله في المكان سببًا لخير أهل تلك البقعة من خصبها واهتداء أهلها، وتوفيقهم إلى الخير؛ ولذلك كان إذا لقيه الجهلة والقساة والمفسدون انقلبوا صالحين، وانفتحت قلوبهم للإيمان والحكمة.

ولذلك ترى أكثر الحواريين كانوا من عامة الأميين من صيادين وعشارين فصاروا دعاة هدًى، وفاضت ألسنتهم بالحكمة، وبهذا يظهر أن كونه مباركًا أعم من كونه نبيًا عمومًا وجهيًا، فلم يكن في قوله وجعلني نبيًا غنيةٌ عن قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ والتعميم الذي في قوله: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ تعميمٌ للأمكنة، أي: لا تقتصر بركته على كونه في

---

(١) أخرج هذه الآثار الطبري في تفسيره ١٨/ ١٩٠، وابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٤٠٨.
وانظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٣٠، الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٥، البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٢٥٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٠٣.

(٣) محاسن التأويل ٧/ ٩٣.

الهيكل بالمقدس، أو في مجمع أهل بلده، بل هو حيثما حل تحل معه البركة»[(١)].

وفسرها الإمام محمد أبو زهرة بقوله: «المبارك: النافع الهادي المرشد الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، والداعي إلى الحق والتنزيه، وقد كان عيسى عليه السلام واضح البركات، كان يخبرهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وكان يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، ويحيي الموتى، وينادي الموتى فيخرجون من قبورهم، وأنزل الله تعالى على يديه المائدة من السماء، على أن تكون عيدًا لأولهم وآخرهم، فأي بركةٍ أعظم مما أعطيه هذا النبي الكريم؟!»[(٢)].

وكما أن الأنبياء يمثلون مجالًا من مجالات البركة في القرآن، فإن أهل بيت النبوة يمثلون ذلك أيضًا في استعمال القرآن.

٤. أهل بيت نبي الله إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[هود:٦٩-٧٣].

الآيات الكريمات تتحدث عن مجيء الملائكة إبراهيم عليه السلام لتبشيره هو وزوجته بالذرية، وإخبارهما بالرحمة والبركة الكائنة في بيت النبوة، يقول ابن كثير مبينًا هدايات هذه الآيات: «يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق بعد أن طعن في السن، وأيس هو وامرأته سارة من الولد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوطٍ، فبشروهما بإسحاق، فتعجبت المرأة من ذلك، وقالت: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[هود:٧٢-٧٣].

فبشروهما مع وجوده بنبوته، وبأن له نسلًا وعقبًا، كما قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[الصافات:١١٢].

وهذا أكمل في البشارة، وأعظم في النعمة، وقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[هود:٧١].

أي: ويولد لهذا المولود ولدٌ في حياتكما، فتقر أعينكما به، كما قرت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديدٌ لبقاء النسل والعقب، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه، وقعت البشارة

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٩٩.
(٢) زهرة التفاسير ٤/ ٢٣٤.

به وبولده باسم يعقوب الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاةً لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم ونزح عنهم، وهاجر من بلادهم ذاهبًا إلى عبادة الله في الأرض، فعوضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته بأولادٍ صالحين من صلبه على دينه؛ لتقر بهم عينه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾[مريم:٤٩].

وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾[الأنعام:٨٤].

وقوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام:٨٤].

أي: من قبله هديناه كما هديناه، ووهبنا له ذريةً صالحةً، وكلٌّ منهما له خصوصيةٌ عظيمةٌ، أما نوحٌ عليه السلام ، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به، وهم الذين صحبوه في السفينة، جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذريته، وأما الخليل إبراهيم عليه السلام ، فلم يبعث الله عز وجل بعده نبيًا إلا من ذريته.

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾[العنكبوت:٢٧].الآية.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد:٢٦].

وقال تعالى: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[هود:٧٣].

أي: هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله، محمودٌ ممجدٌ في صفاته وذاته؛ ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا: قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ (قال: قولوا: اللهم صل على محمدٍ وعلى آل محمدٍ، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمدٍ وعلى آل محمدٍ كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميدٌ مجيدٌ)[1].

و﴿حَمِيدٌ﴾وصف لذات الله بمعنى أنه المحمود الذي يدوم حمده وإنعامه، ويحمد لهذا الإنعام، و﴿مَّجِيدٌ﴾على وزن فعيل من ماجد؛ لأنه العالي في ذاته وصفاته ومجده سبحانه وتعالى »[2].

وفي تفصيل معنى العجب ومدى حمل الرحمة والبركة في الآية الكريمة على الخبر أو الدعاء.

يقول العلماء: وقوله سبحانه: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾كلام مستأنف علل به إنكار التعجب، كأنه قيل: إياك والتعجب، فإن خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة مهبط المعجزات، وتخصيصهم

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٦٦.
والحديث أخرجه البخاري في الدعوات، باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٣٦٥٨، ٨/ ٧٧.
(٢) زهرة التفاسير ٧/ ٣٧٣٢.

بمزيد النعم والكرامات ليس ببدع ولا حقيق بأن يستغربه عاقل فضلًا عمن نشأت وشابت في ملاحظة الآيات، قيل: الرحمة النبوة، والبركات أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا في ولد إبراهيم[(١)].

وعبارة ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ حملها بعض العلماء على الدعاء، وبعضهم على الخبر، أما أهل البيت المعنيين بالبركة يتضمنون الزوجة، قال ابن عطية: «يحتمل اللفظ أن يكون دعاء، وأن يكون إخبارًا، وكونه إخبارًا أشرف؛ لأن ذلك يقتضي حصول الرحمة والبركة لهم، وكونه دعاء إنما يقتضي أنه أمر يترجى ولم يتحصل بعد، وهذه الآية تعطي أن زوجة الرجل من أهل بيته؛ لأنها خوطبت بهذا، فيقوى القول في زوجات النبي عليه السلام بأنهن من أهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس، بخلاف ما تذهب إليه الشيعة، وقد قاله أيضًا بعض أهل العلم، قالوا: أهل بيته الذين حرموا الصدقة، والأول أقوى، وهو ظاهر جلي من سورة الأحزاب؛ لأنه ناداهن بقوله: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ﴾[الأحزاب:٣٢]. ثم بقوله: ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[الأحزاب:٣٣]»[(٢)].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤١٢، البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ١٨٤، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٤٢.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١٩٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٧٠،

ثالثًا: الأزمنة المباركة:

وكما طوفنا بالبركة من خلال مجال المصطفين الأخيار وآلهم، فإننا نستطيع بيان أن من مجالات البركة الأزمنة ومن ذلك:

الليلة المباركة:

حوى القرآن الكريم من خلال استعمالاته أزمنة وصفها بالبركة، من ذلك ما يتعلق بليلة نزول القرآن، حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[الدخان: ٣-٦].

هذه الليلة هي ليلة القدر من شهر رمضان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[القدر:١].

ولمطابقة قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[الدخان:٤].

لقوله: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾[القدر: ٤].

وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[البقرة:١٨٥].

وليلة القدر في أصح الأقاويل في شهر رمضان، والمباركة: الكثيرة الخير لما يتيح الله فيها من الأمور التي يتعلق بها منافع العباد في دينهم ودنياهم، ولولم يوجد فيها

فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٨٠.

إلا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة[1].

وقد أفاض العلامة الفخر في بيان نظم هذه الآيات فقال: «اعلم أن المقصود منها تعظيم القرآن من ثلاثة أوجهٍ، أحدها: بيان تعظيم القرآن بحسب ذاته، الثاني: بيان تعظيمه بسبب شرف الوقت الذي نزل فيه، الثالث: بيان تعظيمه بحسب شرف منزلته.

أما بيان تعظيمه بحسب ذاته فمن ثلاثة أوجهٍ، أحدها: أنه تعالى أقسم به وذلك يدل على شرفه، وثانيها: أنه تعالى أقسم به على كونه نازلًا في ليلةٍ مباركةٍ، وقد ذكرنا أن القسم بالشيء على حالةٍ من أحوال نفسه يدل على كونه في غاية الشرف، وثالثها: أنه تعالى وصفه بكونه مبينًا وذلك يدل أيضًا على شرفه في ذاته، وأما النوع الثاني: وهو بيان شرفه لأجل شرف الوقت الذي أنزل فيه فهو قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وهذا تنبيهٌ على أن نزوله في ليلةٍ مباركةٍ يقتضي شرفه وجلالته، ثم نقول: إن قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ يقتضي أمرين:

أحدها: أنه تعالى أنزله.

والثاني: كون تلك الليلة (مباركةً).

فذكر تعالى عقيب هذه الكلمة ما يجري مجرى البيان لكل واحدٍ منهما.

أما بيان أنه تعالى لم أنزله، فهو قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ يعني الحكمة في إنزال هذه السورة أن إنذار الخلق لا يتم إلا به.

وأما بيان أن هذه الليلة ليلةٌ مباركةٌ فهو أمران:

أحدهما: أنه تعالى يفرق فيها كل أمرٍ حكيم.

والثاني: أن ذلك الأمر الحكيم مخصوصًا بشرف أنه إنما يظهر من عنده، وإليه الإشارة بقوله: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾»[2].

وقد أخرج الطبري رواية ابن عباس رضي الله عنهما التي من خلالها جمع بركة نزول القرآن في أوقات تفيض بركة: «عن ابن عباس قال له رجل: إنه قد وقع في قلبي الشك من قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ وقد أنزل الله في شوال وذي القعدة وغيره! قال: إنما أنزل في رمضان في ليلة القدر وليلة مباركة جملة واحدةً، ثم أنزل على مواقع النجوم رسلًا في الشهور والأيام»[3].

وقد عدد أبو السعود أنواعًا من بركات ليلة نزول القرآن، فقال: «لما أن نزول القرآن مستتبعٌ للمنافع الدينية والدنيوية بأجمعها، أو لما فيها من تنزل الملائكة،

(١) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢٦٩.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٧/ ٦٥٤.

(٣) جامع البيان ٣/ ٤٤٨.

والرحمة، وإجابة الدعوة، وقسم النعمة، وفصل الأقضية، وفضيلة العبادة، وإعطاء تمام الشفاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم»[1].

كما أن المقصود من تشريف الليلة التي كان ابتداء إنزال القرآن فيها تشريفٌ آخر للقرآن بتشريف زمان ظهوره، تنبيهًا على أنه تعالى اختار لابتداء إنزاله وقتًا شريفًا مباركًا؛ لأن عظم قدر الفعل يقتضي أن يختار لإيقاعه فضل الأوقات والأمكنة، فاختيار فضل الأوقات لابتداء إنزاله ينبئ عن علو قدره عند الله تعالى ، كقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[الواقعة:٧٩][2].

وهكذا تجلى ربنا على أمة الإسلام ببركة الكتاب العزيز الذي من تمسك به نال بركتي الدنيا والآخرة، ومن التمسك به تكريمه بالعمل به، والاحتكام إليه لأنه كلام الله، الذي شرفه سبحانه ذاتًا ومكانًا وزمانًا.

رابعًا: الأمكنة المباركة:

١. بركة مجمل الأرض.

وصف القرآن الكريم بعض الأماكن بالبركة؛ حتى يلفت أنظارنا إليها؛ كي نعتني بها، ونقبل عليها، ونتأدب فيها، ونخصها بما يجب أن تخص به، وقد بين لنا ربنا سبحانه أنه بارك في مجمل الأرض من خلال قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾[فصلت:٩-١٠].

وقد فسر العلماء البركة في مجمل الأرض بتفسيرات كثيرة، منها:

شق البحار والأنهار، وإنبات الشجر، والثمار، وإكثار الخير وإنماؤه، وخلق أصناف الحيوانات، وجعل الأرض طهورًا، وخلق الجبال، وكل ما يحتاج إليه من الخيرات والأرزاق[3].

يقول الرازي: «ولوجوهٍ منها: أنه تعالى وصف بقاعًا من الأرض بالبركة بقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾[آل عمران:٩٦].

ومنها: ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[القصص:٣٠].

ومنها: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[الإسراء:١].

ومنها: وصف أرض الشام بالبركة، فقال: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى

(١) إرشاد العقل السليم ٨/ ٥٨.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٥٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤٣٥، تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١/ ٧٤، الكشاف، الزمخشري ٤/ ١٨٨، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٦٧، البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٢٨٧.

﴿بَـٰرَكۡنَا فِيهَا﴾[الأعراف:١٣٧].

وخامسها: وصف جملة الأرض بالبركة، فقال: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت:٩-١٠].

فإن قيل: وأي بركةٍ في الفلوات الخالية والمفاوز المهلكة؟ قلنا: إنها مساكن للوحوش ومرعاها، ثم إنها مساكن للناس إذا احتاجوا إليها، فلهذه البركات قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾[الذاريات:٢٠].

وهذه الآيات وإن كانت حاصلةً لغير الموقنين لكن لما لم ينتفع بها إلا الموقنون جعلها آياتٍ للموقنين تشريفًا لهم، كما قال: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[البقرة:٢].

ومن ذلك: أنه سبحانه وتعالى خلق الأنبياء المكرمين من الأرض على ما قال: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ﴾[طه:٥٥].

ولم يخلق من السموات شيئًا؛ لأنه قال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾ [الأنبياء:٣٢].

ومن ذلك: أن الله تعالى أكرم نبيه بها فجعل الأرض كلها مساجد له، وجعل ترابها طهورًا، ثم قال: والبركة كثرة الخير والخيرات الحاصلة من الأرض أكثر مما يحيط به الشرح والبيان»[1].

وقد أرجع الشيخ الشعراوي الضمير في الآية الكريمة: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ إلى الجبال خصوصًا معللًا ذلك بكون الضمير جاء بعد ذكر الجبال ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾.

وهو رأي له وجاهته من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يخرج في وصف البركة عن نطاق الأرض؛ إذ أنه سبحانه يضع نفعه فيما يشاء من مخلوقاته.

يقول رحمه الله تعالى: «﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ جاءت بعد ذكر الجبال الرواسي، ثم قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾[فصلت:١٠].

كأن الجبال هي مخازن القوت، وخزائن رحمة الله لأهل الأرض، والقوت: وهو الذي يتم به استبقاء الحياة، وهذا ناشئ من مزروعات الأرض، وهذه من تصديقات القرآن لطموحات العلم وأسبقية إخباره بما سيحدث، فها هو القرآن يخبر بما اهتدى إليه العلم الحديث من أن العناصر التي تكون

---

(١) مفاتيح الغيب ٢/٣٣٩ وإن كان في نهاية الدرس قال: «ولا شك أن إكثار ذكر الله تعالى من ذكر السماوات والأرض يدل على عظم شأنهما، وعلي أن له سبحانه وتعالى، فيهما أسرارًا عظيمة، وحكمًا بالغةً، لا يصل إليها أفهام الخلق ولا عقولهم». وهذا يقينًا.
وانظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ١/٤١٨، غرائب القرآن، النيسابوري ١/١٨٦.

الإنسان هي نفس عناصر التربة الزراعية التي نأكل منها.

لكن كيف تكون الجبال مخازن القوت الذي جعله الله في الأرض قبل أن يخلق الإنسان؟

نقول: إن الجبال هي أساس التربة التي نزرعها، فالجبل هذه الكتلة الصخرية التي تراها أمامك جامدة هي في الحقيقة ليست كذلك؛ لأن عوامل التعرية وتقلبات الجو من شمس وحرارة وبرودة، كل هذه عوامل تفتت الصخر، وتحدث به شروخًا وتشققات، ثم يأتي المطر فيحمل هذا الفتات إلى الوادي، ولو تأملت شكل الجبل وشكل الوادي لوجدتهما عبارة عن مثلثين كل منهما عكس الآخر، فالجبل مثلث رأسه إلى أعلى، وقاعدته إلى أسفل، والوادي مثلث رأسه إلى أسفل وقاعدته إلى أعلى.

وهكذا فكل ما ينقص من الجبل يزيد في الوادي، ويكون التربة الصالحة للزراعة، وهو ما يسمى بالغرين أو الطمي؛ لذلك حدثونا أن مدينة دمياط -بمصر- قديمًا كانت على شاطئ البحر الأبيض، ولكن بمرور الزمن تكونت مساحات واسعة من هذا الغرين أو الطمي الذي حمله النيل من إفريقية ففصل دمياط عن البحر، والآن وبعد بناء السد وعدم تكون الطمي بدأت المياه تنحت في الشاطئ، وتنقص فيه من جديد، إذن: فقوله تعالى عن بداية خلق الأرض: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا﴾[فصلت:١٠].

كأنه يعطينا تسلسلًا لخلق القوت في الأرض، وأن خزائن الله لا حدود لها ولا نفاد لخيراتها، فالضمير في ﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا﴾[فصلت:١٠].

إنما على الجبال؛ لأن الجبال في الحقيقة هي مخازن القوت، ومصدر الخصب للأرض التي هي مصدر القوت، فالإنسان مخلوق من الأرض، واستبقاء حياته من الأرض، فالنبات قوت للإنسان وللحيوان، والنبات والحيوان قوت للإنسان.

إذن: لابد للأرض من خصوبة تساعدها وتمدها بعناصر الغذاء، ولو أن الخالق عز وجل جعل الأرض هكذا طبقةً واحدة بها المخصبات لانتهت هذه الطبقة بعد عدة سنوات، ولأجدبت الأرض بعد ذلك[1].

هكذا بين العلماء طرفًا مما هداهم الله إليه من بركات مجمل الأرض، كما ذكر القرآن الكريم، وما على المسلم إلا أن يغتنم هذه البركة بالطاعة، وترك المعصية أو الإفساد في الأرض؛ ليستزيد من بركات الله في أرضه سبحانه .

٢. المسجد الحرام.

من الأمكنة التي باركها الله في القرآن

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٦/ ٣٦٣٦.

الكريم المسجد الحرام بمكة المكرمة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٦- ٩٧].

في هاتين الآيتين الكريمتين خص الله تعالى المسجد الحرام بسبع خصالٍ ليست لغيره من المساجد، هي أنه: أول بيتٍ وضع للناس، ومباركٌ، وهدًى للعالمين، وفيه آيات بيناتٌ، ومقام إبراهيم، ومن دخله كان آمنًا، والحج والعمرة إليه، وآياتٌ أخر[1].

وهدفنا الأصيل هو التوجه نحو صفة البركة في الآية الكريمة، وبركة هذا البيت من وجوهٍ:

أحدها: أن الطاعات إذا أتي بها في هذا البيت ازداد ثوابها؛ بدليل حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(صلاةٌ في مسجدي هذا خيرٌ من ألف صلاةٍ فيما سواه، إلا المسجد الحرام)**[2] فهذا في الصلاة، وأما الحج فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: **(الحج المبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنة)**[3].

ومعلومٌ أنه لا أكثر بركةً مما يجلب المغفرة والرحمة.

وثانيها: قال القفال رحمه الله تعالى: ويجوز أن يكون بركته ما ذكر في قوله تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص:٥٧]. فيكون كقوله: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء:١].

وثالثها: أن العاقل يجب أن يستحضر في ذهنه أن الكعبة كالنقطة؛ وليتصور أن صفوف المتوجهين إليها في الصلوات كالدوائر المحيطة بالمركز، وليتأمل كم عدد الصفوف المحيطة بهذه الدائرة حال اشتغالهم بالصلاة.

وأما إن فسرنا البركة بالدوام فهو أيضًا كذلك؛ لأنه لا تنفك الكعبة من الطائفين والعاكفين والركع السجود، وأيضًا الأرض كرةٌ، وإذا كان كذلك فكل وقتٍ يمكن أن يفرض فهو صبحٌ لقومٍ، وظهرٌ لثانٍ، وعصرٌ لثالثٍ، ومغربٌ لرابعٍ، وعشاءٌ لخامسٍ، ومتى كان الأمر كذلك لم تكن الكعبة منفكةً قط عن توجه قومٍ إليها من طرفٍ من أطراف العالم لأداء فرض الصلاة، فكان الدوام

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٣٢١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ٢/ ٦٠، رقم١١٩٠، ومسلم في كتاب الحج، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة رقم: ٥٠٥.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب فضل الحج والعمرة ٣/ ٩٨٣، رقم ٤٣٧.

حاصلًا من هذه الجهة، وأيضًا بقاء الكعبة على هذه الحالة ألوفًا من السنين دوامٌ أيضًا، فثبت كونه مباركًا من الوجهين[(١)].

يقول الشيخ أبو زهرة متحدثًا عن بركة البيت العتيق: «ووصفه سبحانه وتعالى بأنه مبارك؛ أي: فائض الخيرات كثير الثمرات المادية والمعنوية؛ فمن بركاته المادية أنه يفد إليه الحجيج من كل فج عميق؛ ويعتمرون فيه في كل أيام أشهر السنة، حتى أنه لا يمر عليه يوم من غير وفود تجيء إليه، ومع هذه الوفود خيرات الأرض.

وكان ذلك إجابة لدعاء إبراهيم في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧].

وقد كان في البيت تلك البركة المادية بتلك الوفود؛ وبالثمرات التي كانت في باطن الأرض حوله أو على مقربة منه فقد كشفت على مقربة منه فلزات الأرض وسيول الغاز، مما كان خيرًا وبركة على سدنته، ومن يعيشون حوله، وبذلك أجاب الله تعالى دعاء إبراهيم عليه السلام ، وبقي على الذين يتنعمون بهذه الثمرات أن يشكروا الله عز وجل.

هذه هي البركة المادية، أما البركة المعنوية فهي أنه موضع لأكبر عبادة جامعة وهي الحج، وهو مبعث محمد صلى الله عليه وسلم وفيه منازل وحيه، وإليه يتجه الناس في كل بقاع الأرض، وتلتقي عنده قلوب الأجناس والألوان المختلفة في عباداتهم؛ ولذا وصفه سبحانه بقوله: ﴿وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٦].

هذا عطف على قوله سبحانه: ﴿مُبَارَكٗا﴾ أي: أن الله سبحانه وتعالى جمع لهذا البيت الكريم حالتين خاصتين به لم تجتمعا في بيت غيره، فهو قد اشتمل على البركة المادية والمعنوية، وحماه الله تعالى من اعتداء المعتدين؛ ولهذا قال: ﴿وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: هو بذاته مصدر هداية للعالمين، أي: للناس أجمعين؛ ففي وسط الشرك كانوا يلتحمون ويتقاتلون حوله، فإذا جاءوا إليه كان الرجل يلقى قاتل أخيه أو أبيه فلا يمسه بسوء لعظم حرمة البيت في قلبه، وإن مس الشرك نفسه»[(٢)].

وقال الفراء: «إنما قيل: (مباركًا) لأنه مغفرةٌ للذنوب»[(٣)].

وقيل: بركته أن من دخله أمن حتى الوحش، فيجتمع فيه المتضادات دون أن يغير أحدها على الآخر[(٤)].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٣٠١.

(٢) زهرة التفاسير ٣/ ١٣٢١.

(٣) معاني القرآن ١/ ٢٢٧.

(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان٣/ ٢٦٢.

ومن بركته -فوق ما تقدم-: «أن قدر الله أن يكون داخله مثابًا ومحصلًا على خيرٍ يبلغه على مبلغ نيته، وقدر لمجاوريه وسكان بلده أن يكونوا ببركة زيادة الثواب ورفاهية الحال، ومن بركة ذاته أن حجارته وضعتها عند بنائه يد إبراهيم ويد إسماعيل، ثم يد محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، ولا سيما الحجر الأسود»[1] .

ومن بركته أنه فاق بيوت العالم بركة: «ليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيرًا ولا أدوم ولا أنفع للخلائق»[2] .

ولكي نعرف الفرق بينه وبين المسجد الأقصى فإنه عندما تحدث الله عن المسجد الأقصى جعل البركة حوله؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾[الإسراء:١].

وعندما تحدث عن البيت الحرام قال: ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[آل عمران:٩٦].

هو في ذاته مبارك، وهو في ذاته هدى للعالمين؛ لأنه لا يذهب إليه إنسان إلا وتحيطه بركة الحنان المنان عز وجل، فلو ذهب إليه تائب يتوب الله عليه، ولو أتاه سائل يجيب الله له كل المسائل، ولو ذهب إليه راجٍ يحقق الله له كل رجائه، ولو ذهب إليه عابد يرجع بعبادة لا عد لها ولا حصر لها -كل ذلك بتوفيق الله- يكفي أن الركعة فيه بمائة ألف ركعة فيما سواه، والصلاة فيه بمائة ألف صلاة، وأي بركة أعظم من هذا، فعن جابرٍ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**صلاةٌ في مسجدي أفضل من ألف صلاةٍ فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاةٌ في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاةٍ فيما سواه**)[3] .

ويذكر من فضائل هذا البيت أن من دخله كان آمنًا، فهو مثابة الأمن لكل خائف، وليس هذا لمكان آخر في الأرض، وقد بقي هكذا منذ بناه إبراهيم وإسماعيل، وحتى في جاهلية العرب، وفي الفترة التي انحرفوا فيها عن دين إبراهيم، وعن التوحيد الخالص الذي يمثله هذا الدين، حتى في هذه الفترة بقيت حرمة هذا البيت سارية، حتى كان الرجل يقتل ويدخل الحرم، فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج، وكان هذا من تكريم الله سبحانه لبيته هذا، حتى والناس من حوله في جاهلية!

وقال سبحانه يمتن على العرب به: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٣٨.

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة، والسنة فيها، باب فضل ما جاء في الصلاة في المسجد الحرام ١/ ٤٥١، رقم ١٤٠٦.
وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٣/ ٤٠٦، وفي صحيح الجامع ٢/ ٤١٧.

﴿النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾[العنكبوت:٦٧].

وحتى أنه من جملة تحريم الكعبة حرمة اصطياد صيدها، وتنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها.

وفي الصحيحين -واللفظ لمسلم- عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح: (إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحدٍ قبلي، ولم يحل لي إلا ساعةً من نهارٍ، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها)[1].

فهذا هو البيت الذي اختاره الله للمسلمين قبلة هو بيت الله الذي جعل له هذه الكرامة[2].

وبما أن للبيت هذه الكرامة وذلك التكريم وتلك البركة فإنه من الواجب على المسلمين تعظيمه وتكريمه ومتابعة زيارته لينالوا بركته من خلال الصلاة فيه كذا الطواف والسعي.

٣. **المسجد الأقصى.**

من مجالات البركة المتصلة بالأماكن في القرآن الكريم المسجد الأقصى، قال -تعالى-: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الإسراء:١].

خص المسجد الأقصى بكون مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه، وبالبركة حوله، وفيما يخص البركة التي حوله، يقول الشنقيطي: «أظهر التفسيرات فيه أن معنى ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾: أكثرنا حوله الخير والبركة بالأشجار والثمار والأنهار، وقد وردت آياتٌ تدل على هذا، كقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء:٧١].

وقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾[الأنبياء:٨١].

فإن المراد بتلك الأرض الشام، والمراد بأنه بارك فيها أنه أكثر فيها البركة والخير بالخصب والأشجار والثمار والمياه، كما عليه جمهور العلماء.

وقال بعض العلماء: المراد بأنه بارك فيها أنه بعث الأنبياء منها، وقيل غير ذلك،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب فضل الحرم ٢/ ١٤٧، رقم١٥٨٧، ومسلم في كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها، ٢/ ٩٨٦، رقم ٤٤٥.

(٢) ما تقدم من وقائع تاريخية ذكره موقع الشيخ فوزي أبو زيد: www. fawzyabuzeid. com

والعلم عند الله تعالى»[1].

وقال مجاهدٌ: سماه مباركًا لأنه مقر الأنبياء، ومهبط الملائكة والوحي، ومنه يحشر الناس يوم القيامة[2].

ومن أسباب بركة المسجد الأقصى أيضًا ما لحقه من البركة بمن صلى به من الأنبياء من داود وسليمان ومن بعدهما من أنبياء بني إسرائيل، ثم بحلول الرسول عيسى عليه السلام وإعلانه الدعوة إلى الله فيه وفيما حوله، ومنها بركة من دفن حوله من الأنبياء.

فقد ثبت أن قبري داود وسليمان حول المسجد الأقصى، وأعظم تلك البركات حلول النبي صلى الله عليه وسلم فيه ذلك الحلول الخارق للعادة، وصلاته فيه بالأنبياء كلهم[3].

كما أنه معدن الفواكه والأرزاق والبركات، وبارك تعالى حوله لأجله فما ظنك به نفسه فهو أبلغ من باركنا فيه[4].

وخلاصة القول في ذلك أن البركة حوله حازت بركتي الدين والدنيا[5].

وقوله: ﴿الَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ صفةٌ للمسجد الأقصى، وجيء في الصفة بالموصولية لقصد تشهير الموصوف بمضمون الصلة حتى كأن الموصوف مشتهرٌ بالصلة عند السامعين...

وصيغة المفاعلة هنا للمبالغة في تكثير الفعل، مثل عافاك الله، والبركة: نماء الخير والفضل في الدنيا والآخرة بوفرة الثواب للمصلين فيه وبإجابة دعاء الداعين فيه...

ووجه الاقتصار على وصف المسجد الأقصى في هذه الآية بذكر هذا التبريك هو تناسى الناس هذا المسجد المبارك، فالعرب لا علم لهم به، والنصارى عفوا أثره من كراهيتهم لليهود، واليهود قد ابتعدوا عنه، وأيسوا من عوده إليهم، فاحتيج إلى الإعلام ببركته.

و(حول) يدل على مكانٍ قريبٍ من مكان اسم ما أضيف (حول) إليه، وكون البركة حوله كنايةٌ عن حصول البركة فيه بالأولى؛ لأنها إذا حصلت حوله فقد تجاوزت ما فيه، ففيه لطيفة التلازم، ولطيفة فحوى الخطاب، ولطيفة المبالغة بالتكثير[6].

هذا وقد ثبت في السنة أن الصلاة في المسجد الأقصى بخمسمائة صلاة فيما سواه، وهذا وغيره مما ذكر يجدد نظرنا إليه، ويحفزنا نحو تحريره، فاللهم حرره من أيدي اليهود، وبارك في أعمارنا حتى نصلي فيه.

٤. بلاد الشام.

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ١٠.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٥٨.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٥/ ١٩.
(٤) انظر: السراج المنير، الشربيني ٢/ ٢٧٤.
(٥) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ١٥٥.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ١٩.

من مجالات البركة المتصلة بالأماكن في القرآن الكريم بلاد الشام[1].

قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[الأعراف:١٣٧].

هذه الآية الكريمة تتحدث عن توريث الله بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وهم الذين كانوا يستذلون للخدمة، ويستضعفون بقتل أبنائهم، واستحياء نسائهم، وإسامتهم سوء العذاب، وتمت كلمة ربك -أيها النبي- الحسنى على بني إسرائيل بتمكينهم من أرض الشام؛ بصبرهم على أذى فرعون وقومه، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه من المباني والقصور والعمارات والدور، وما كانوا يقيمون من العرائش والسقف في الجنات والبساتين.

ومحور حديثنا في الآية الكريمة هو البركة في الأرض المذكورة في الآية الكريمة:

فمن قائل: الأرض المذكورة في الآية أرض مصر والشام، وقيل: أراد بها الشام وحده، وقيل: أراد به الأردن وفلسطين، لكن جل العلماء على أن الأرض المباركة في القرآن هي أرض الشام.

قوله: ﴿بَارَكْنَا فِيهَا﴾ أي: بالنعم بكثرة مياهها، كما بارك الله فيها بوجود الأشجار والثمار والخصب والسعة؛ حتى يعيش فيها الفقير والغني بعيش طيب، وأن أكثر الأنبياء بعثوا فيها فانتشرت في العالمين شرائعهم التي هي مبادي الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية، وقيل: الشام كنز الله في أرضه، وبها كنزه من عباده[2].

وقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:٧١].

(١) الشام: منطقة ممتدة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وتمتد شرقًا إلى نهر الفرات، وتمتد شمالًا من بلاد الروم تركيا حاليًا إلى حدود مصر وجزيرة العرب جنوبًا، وتشتمل في الوقت الحاضر على سورية ولبنان وفلسطين والأردن وجزءًا من العراق، وفي معجم البلدان لياقوت الحموي: حدها فمن الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصرية، وأما عرضها فمن جبلي طيء من نحو القبلة إلى بحر الروم وما بشأمة ذلك من البلاد، وبها من أمهات المدن منبج وحلب وحماة وحمص ودمشق والبيت المقدس والمعرة، وفي الساحل أنطاكية وطرابلس وعكا وصور وعسقلان وغير ذلك ٣/ ٣١٢. ويقال للشأم: عماد دار الهجرة، وما نقص من الأرض زيد في الشام، وما نقص من الشام زيد في فلسطين، وكان يقال: هي أرض المحشر والمنشر، وبها مجمع الناس، وبها ينزل عيسى ابن مريم، وبها يهلك الله شيخ الضلالة الكذاب الدجال. انظر: الطبري ١٨/ ٤٦٩، وتفسير القرآن العظيم ٥/ ٣٥٣.

(٢) تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٢٠٩.

راجح رأي العلماء أن الأرض المباركة هنا وفي كل نظير من القرآن هي أرض الشام، والآية تتحدث عن هجرة الخليل ولوط عليهما السلام من العراق إلى الشام فرارًا بالدين.

عن قتادة رضي الله عنه ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا﴾ قال: «كانا بأرض العراق، فأنجيا إلى أرض الشام، وكان يقال: الشام عماد دار الهجرة، وما نقص من الأرض زيد في الشام، وما نقص من الشام زيد في فلسطين، وكان يقال: هي أرض المحشر والمنشر، وفيها ينزل عيسى بن مريم عليه السلام، وبها يهلك الله شيخ الضلالة الدجال»[(١)].

قال السمعاني: «وفي الآية قول آخر هو أن المراد من الأرض التي بارك فيها هي مكة، وقيل: مصر، والأصح هو الأول؛ لأنه مشهور أنه خرج وامرأته -يعني إبراهيم- إلى حران، ثم من حران إلى الشام، وأما لوط فإنه ابن أخي إبراهيم، وكان خرج معه»[(٢)].

ويدخل قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾[الأنبياء:٨١]. في عين حديثنا عن بركة بلاد الشام.

فمما ميز الله به نبيه سليمان عليه السلام الريح القوية الشديدة ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾[الأنبياء:٨١].

وكأنها مواصلات داخلية في مملكته من العراق إلى فلسطين.

وفي موضع آخر قال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[ص:٣٥- ٣٦].

ومعنى: ﴿بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾[الأنبياء:٨١]. أي: في أرض الشام.

وفي شأن نعمة من نعم الله على المسافرين من مأرب إلى الشام يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سبأ:١٨].

هذه الآية وما بعدها وصف حال أهل سبأ قبل مجيء السيل؛ وذلك أن الله تعالى مع ما كان منحهم من الجنتين والنعمة الخاصة بهم، كان قد أصلح لهم البلاد المتصلة بهم وعمرها وجعلهم أربابها، وقدر فيها السير بأن قرب القرى بعضها من بعض حتى كان المسافر من مأرب إلى الشام يبيت في قرية، ويقيل في قرية أخرى، فلا يحتاج إلى حمل زاد، والقرى: المدن، ويقال: للمجتمع الصغير قرية أيضًا، وكلها من قريت أي: جمعت، والقرى التي بورك فيها هي بلاد

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٥/ ١٥٥١. وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٠٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٧٧.

(٢) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٣٩٢.

الشام بإجماع من المفسرين[1].

و(القرى الظاهرة) هي التي بين الشام ومأرب وهي الصغار التي هي البوادي[2].

عن الحسن: «كان الرجل يغدو فيقيل في القرية، ثم يروح فيبيت في القرية الأخرى، وكانت المرأة تخرج وزنبيلها على رأسها، فما تبلغ حتى يمتلئ من كل الثمار»[3].

ويمكننا أن نلمس من حديث القرآن عن الأرض المباركة التي هي الشام أننا يجب علينا أن ننظر إليها نظرة خاصة لننعم كمسلمين ببركاتها من ناحية، ونحافظ على محتوياتها، بل ونقف موقف المسئول مما يحدث فيها لا أن نقف، كما نحن الآن، موقف المشاهد الذي يرى التقتيل والدمار، وينتظر من غيره من الأمم أن تلعب دور الطرف الثالث للإصلاح بين الراعي الفاسد الدموي من الرعية المسالمة التي تباد ليلًا ونهارًا.

وكما ذكر القرآن الأرض المقدسة واصفًا إياها بالبركة وصف بذلك أيضًا طور سيناء.

٥. جبل الطور في سيناء.

من مجالات البركة في القرآن مما يخص الأمكنة «جبل الطور في سيناء».

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[القصص:٢٩-٣٠].

الآيتان تتحدثان عن نبي الله موسى عليه السلام ، وما رآه أثناء سيره بأهله إلى مصر، حيث أبصر نارًا، توسم فيها نبأ ينفعهم في سيرهم، أو قبسة للاستدفاء، فلما أتاها ناداه الله من جانب الوادي الأيمن لموسى في البقعة المباركة من جانب الشجرة: أن يا موسى إني أنا الله رب العالين، قال صاحب البحر في تفسيره للآية الأولى من سورة الطور: «وإنما أقسم بهذا الجبل في قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ﴾[الطور:١].

لأنه مجاور للشام والأرض المقدسة، وقد بارك الله فيهما، كما قال: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[الإسراء:١]»[4].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١٠/ ٣١٦٧.

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٥٣٧ .
قيل: كانت قراهم أربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة من سبأ إلى الشام، فلا يحملون شيئًا مما جرت به عوائد السفار، فكان سيرهم في الغدو والرواح على قدر نصف يوم، فإذا ساروا نصف يوم وصلوا إلى قرية ذات مياه وأشجار، وقال قتادة: كانت المرأة تخرج ومعها مغزلها وعلى رأسها مكتلها فتمتهن بغزلها فلا تأتي بيتها حتى يمتلئ مكتلها من الثمار، فكان ما بين اليمن والشام كذلك.
انظر: السراج المنير، الشربيني ٣/ ٢٩٣.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٠/ ٣١٦٧.

(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ١٠.

وقد وصف الله تعالى البقعة بالمباركة؛ لأن الله كلم موسى عليه السلام هناك وبعثه نبيًا، ولكونها مبعث الأنبياء وكفاتهم أحياء وأمواتًا وخصوصًا تلك البقعة التي كلم الله فيها موسى، ولما خصت به من آيات الله وأنواره، ولما حوت من الأرزاق والثمار الطيبة[1].

فإن قيل: فلم لم يسم الشجرة مباركة وقد قال: ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾؟

قلنا: لأنه إذا ذكرت البركة في البقعة فقد ذكرت في الشجرة، فذكر البقعة؛ لأنها أعم، قال الزجاج والنحاس وغيرهما: كلم الله موسى من الشجرة بلا كيف، وعن الضحاك: من نحو الشجرة[2].

خامسًا: الأقوال المباركة:

من مجالات البركة في القرآن الكريم: الأقوال:

ومن الأقوال تحية الإسلام.

يقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور:٦١].

يرسي هذا المقطع من الآية الكريمة أدب السلام في حال دخول المسلم بيتًا مسكونًا أو غير مسكون، ببيانه أنه على المسلم أن يسلم على أخيه المسلم بتحية الإسلام، وهي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أو السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، إذا لم يوجد أحد، وهذه التحية شرعها الله، وهي تحية مباركة تنمي المودة والرحمة والإخاء؛ لأنها محبوبة للسامع، متمناة منه، وبمثل هذا البيان يبين الله للناس الآيات لعلهم يعقلونها فيعملون بمقتضاها.

يقول السمعاني: «ويقال معنى الآية: إذا دخل بيته يسلم على أهله، وهي سنة قد هجرت؛ إذ الأهل أحق بالسلام عليهم، وكان الأوزاعي إذا دخل بيته، ونسي السلام خرج ثم رجع وسلم، وأما إذا دخل بيتًا خاليًا، فيقول: السلام علينا من ربنا، وإذا دخل مسجدًا ليس فيه أحد يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وقد بينت السنة استحباب إفشاء السلام على من تعرف ومن لا تعرف، وقوله: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ أي: حسنة جميلة، ويقال: ذكر البركة والطيب ها هنا لما فيه من الثواب، ومن أهدى سلاماً إلى إنسان فهي هدية خفيفة المحمل، طيبة الريح، مباركة العاقبة»[3].

ومحور الحديث يدور حول البركة التي

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٣٠١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٧٤، السراج المنير، الشربيني ٣/ ٦٧.
(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ١٣٧، معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٢٠٦.
(٣) تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٥٥٣.

اتصفت بها التحية.

فعن سعيد بن جبيرٍ في قول الله: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ قال: من سلم على أخيه فهي تحيةٌ مباركةٌ طيبةٌ يعني حسنةً[1].

قال القرطبي: «وقد اختلف المتأولون في أي البيوت أراد في الآية الكريمة، فقال إبراهيم النخعي والحسن: أراد المساجد، والمعنى: سلموا على من فيها من ضيفكم، فإن لم يكن في المساجد أحدٌ، فالسلام أن يقول المرء: السلام على رسول الله، وقيل: يقول: السلام عليكم، يريد الملائكة، ثم يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وقيل: المراد بالبيوت البيوت المسكونة، أي: فسلموا على أنفسكم...، وقالوا: يدخل في ذلك البيوت غير المسكونة، ويسلم المرء فيها على نفسه بأن يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

قال ابن العربي: القول بالعموم في البيوت هو الصحيح، ولا دليل على التخصيص، وأطلق القول ليدخل تحت هذا العموم كل بيتٍ كان للغير أو لنفسه، فإذا دخل بيتًا لغيره استأذن، فإذا دخل بيتًا لنفسه سلم لحديث أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا بني إذا دخلت على أهلك فسلم يكون بركةً عليك وعلى أهل بيتك)[2].

قال ابن العربي: والذي أختاره إذا كان البيت فارغًا ألا يلزم السلام، فإنه إن كان المقصود الملائكة فالملائكة لا تفارق العبد بحالٍ، أما إنه إذا دخلت بيتك يستحب لك ذكر الله بأن تقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

وقال القشيري في قوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ [النور:٦١]: «والأوجه أن يقال: إن هذا عامٌ في دخول كل بيتٍ، فإن كان فيه ساكنٌ مسلمٌ يقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وإن لم يكن فيه ساكنٌ يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وإن كان في البيت من ليس بمسلمٍ قال: السلام على من اتبع الهدى، أو السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وذكر ابن خويز منداد قال: كتب إلي أبو العباس الأصم قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم قال: حدثنا ابن وهبٍ قال: حدثنا جعفر بن ميسرة عن زيد بن أسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دخلتم بيوتًا فسلموا على أهلها، واذكروا اسم الله، فإن أحدكم إذا سلم حين يدخل بيته وذكر اسم الله تعالى على طعامه، يقول الشيطان لأصحابه: لا مبيت لكم ها هنا

(١) تفسير القرآن العظيم ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٥٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الاستئذان، باب ما جاء في التسليم إذا دخل بيته ٥/ ٥٩،٢٦٩٨ وقال: حسن غريب.

ولا عشاء، وإذا لم يسلم أحدكم إذا دخل، ولم يذكر اسم الله على طعامه، قال الشيطان لأصحابه: أدركتم المبيت والعشاء»».

قلت: هذا الحديث ثبت معناه مرفوعًا من حديث جابرٍ، أخرجه مسلمٌ[1].

وفي كتاب أبي داود، عن أبي مالكٍ الأشجعي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا ولج الرجل بيته فليقل: اللهم إني أسألك خير الولوج، وخير الخروج، باسم الله ولجنا، وباسم الله خرجنا، وعلى الله ربنا توكلنا، وليسلم على أهله)[2].

وصفها بالبركة لأن فيها الدعاء واستجلاب مودة المسلم عليه، ووصفها أيضًا بالطيب لأن سامعها يستطيبها»[3].

وللبيضاوي تعليله المفيد للتحية المباركة الطيبة فيقول: «مباركةً لأنها يرجى بها زيادة الخير والثواب، طيبةً تطيب بها نفس المستمع»[4].

والسلام على النفس حمله الرازي على محمل لطيف، فقال: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾[النور:٦١].

فالمعنى: أنه تعالى جعل أنفس المسلمين كالنفس الواحدة، على مثال قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾[النساء:٢٩]. وحدثنا أن الملائكة ترد عليه...

وقوله: ﴿تَحِيَّةً﴾ نصب على المصدر، كأنه قال: فحيوا تحيةً من عند الله، أي: مما أمركم الله به.

وقوله: ﴿مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ قال الضحاك: معنى البركة فيه تضعيف الثواب، وقال الزجاج: أعلم الله سبحانه أن السلام مباركٌ ثابتٌ لما فيه من الأجر والثواب، وأنه إذا أطاع الله فيه أكثر خيره، وأجزل أجره[5].

فالتحية مصدر فعلٍ مشتقٍ من الجملة المشتملة على فعل (حيا) مثل قولهم: جزاه، إذا قال له: جزاك الله خيرًا، وكان هذا اللفظ تحية العرب قبل الإسلام تحية عامة...

وكانت تحية الملوك (عم صباحًا) فجعل الإسلام التحية كلمة (السلام عليكم) وهي جائية من الحنيفية ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ [هود:٦٩].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب ٣/ ١٠٣، ١٥٩٨ ونص رواية مسلم: عن جابر بن عبد الله أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، في أبواب النوم، باب ما يقول الرجل إذا دخل بيته، ٤/ ٣٢٥، رقم ٥٠٩٦.
وضعفه الألباني في الضعيفة ١٢/ ٧٣٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٣١٨-٣١٩.

(٤) أنوار التنزيل ٤/ ١١٤.

(٥) مفاتيح الغيب ٢٤/ ٤٢٠.

وسماها تحية الإسلام، وهي من جوامع الكلم؛ لأن المقصود من التحية تأنيس الداخل بتأمينه إن كان لا يعرفه، وباللطف له إن كان معروفًا، ولفظ (السلام) يجمع المعنيين؛ لأنه مشتقٌ من السلامة، فهو دعاءٌ بالسلامة، وتأمينٌ بالسلام؛ لأنه إذا دعا له بالسلامة فهو مسالم له، فكان الخبر كنايةً عن التأمين، وإذا تحقق الأمران حصل خيرٌ كثيرٌ؛ لأن السلامة لا تجامع شيئًا من الشر في ذات المسالم، والأمان لا يجامع شيئًا من الشر يأتي من قبل المعتدي، فكانت دعاءً ترجى إجابته، وعهدًا بالأمن يجب الوفاء به، وفي كلمة عليكم معنى التمكن، أي: السلامة مستقرةٌ عليكم.

ولكون كلمة (السلام) جامعةً لهذا المعنى امتن الله على المسلمين بها بأن جعلها ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ إذ هو الذي علمها رسوله بالوحي، وانتصب تحيةً على الحال من التسليم الذي يتضمنه ﴿فَسَلِّمُوا﴾ نظير عود الضمير على المصدر في قوله: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة:٨].

والمباركة: المجعولة فيها البركة، والبركة: وفرة الخير، وإنما كانت هذه التحية مباركةً -فوق ما تقدم- لما فيها من نية المسالمة، وحسن اللقاء والمخالطة؛ وذلك يوفر خير الأخوة الإسلامية.

والطيبة: ذات الطيب، وهو طيبٌ مجازيٌ بمعنى النزاهة والقبول في نفوس الناس، ووجه طيب التحية أنها دعاءٌ بالسلامة، وإيذانٌ بالمسالمة والمصافاة، ووزن طيبةً فيعلةٌ مبالغةٌ في الوصف[1].

وقد ذكر القرآن السلام من عند الله تعالى على معنى كونه معاملةً منه سبحانه بكرامة الثناء، وحسن الذكر للذين رضي الله عنهم من عباده في الدنيا، كقوله حكايةً عن عيسى إذ أنطقه بقوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[مريم:٣٣].

وكذلك في الآخرة وما في معناها من أحوال الأرواح بعد الموت كقوله عن عيسى: ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[مريم:٣٣].

وقوله عن أهل الجنة: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٧-٥٨].

وجاء في القرآن السلام على خمسةٍ من الأنبياء في سورة الصافات[2]. وأيضًا أمر الله الأمة بالسلام على رسولها فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:٥٦].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٣٠٤.

(٢) في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩﴾ [الصافات:٧٩]،و﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩﴾ [الصافات: ١٠٩]،﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٠﴾ [الصافات: ١٢٠]، و﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ۝١٣٠﴾[الصافات:١٣٠].

أي: قولوا: السلام عليك أيها النبيء[1].

من خلال ما سبق نجزم بأن البركة على الأمة بأسرها تكمن في نشر هذه التحية الطيبة المباركة فيما بينها، لمن عرفنا ومن لم نعرف؛ إذ هي الأمن والأمان والمثوبة والترابط الإيماني والاجتماعي بين أبناء الإسلام.

سادسًا: وصف الماء والنبات بالبركة:

من مجالات البركة في القرآن الكريم الماء والنبات، وقد تناولنا ذلك سابقًا ضمن حديثي عن الأساليب القرآنية في استخدام البركة، وقلنا بأن الماء النازل من السماء بنص قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق:٩].

له بركات كثيرة على الكون كله في إحياء موات الأرض، حيث قال تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[البقرة:١٦٤].

وفي إخراج الثمرات، حيث قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾[البقرة:٢٢].

ومن هذا الرزق المبارك إنبات النبات على اختلاف أنواعه وأشكاله ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾[الأنعام:٩٩].

ومن بركات الماء فوق ما تقدم أنه يحمل الفلك لتجري في البحر بأمر الله، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾[إبراهيم:٣٢].

ومن بركات الماء أن جعله الله تعالى أصلًا لخلق كل شيء حي، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ [النور:٤٥].

كما أن الله تعالى جعل بركة الماء حاصلة في كون الماء شرطًا لعبادة الله، فلا صلاة لمن يستطيع الماء إلا به، ولا طواف ولا رفع للجنابة إلا به، ولا يصلح الدخول في الإسلام للكافر إلا بالاغتسال.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦].

وقال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٧.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء:٤٣].

كما كان الماء المبارك النازل من السماء مطهرًا لجيش الإسلام، ومثبتًا لأقدامهم على أرض تعوق برملها المسير.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال:١١].

قال الطبري: «اغتسلوا من الجنابة فجعل الله ذلك الماء طهورًا، وثبت به الأقدام؛ إذ لبد الله به الأرض، وربط به على قلوبهم، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما إن المشركين من قريشٍ لما خرجوا لينصروا العير، وليقاتلوا عنها نزلوا على الماء يوم بدرٍ، فغلبوا المؤمنين عليه، فأصاب المؤمنين الظمأ، فجعلوا يصلون مجنبين محدثين حتى تعاظموا ذلك في صدورهم، فأنزل الله من السماء ماء، حتى سال الوادي، فشرب المؤمنون، وملؤوا الأسقية، وسقوا الركاب، واغتسلوا من الجنابة، فجعل الله في ذلك طهورًا، وثبت به الأقدام، وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملةٌ، فبعث الله المطر عليها، فضربها حتى اشتدت، وثبتت عليها الأقدام»[1] .

كما أن من بركاته سبحانه التي استودعها الماء إكسابه خاصية الإرواء والسقي.

قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر:٢٢].

ومن البركة أن الله استودع الماء الأرض بقدرته، فهو الذي يقول للشيء كن فيكون.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون:١٨].

أي: بمقدار مصلح للأرض على أن يكون غيثًا لا عتيًا، فالمطر الزائد كالسيل الجارف لا يكون غيثًا، بل يكون عتيًا، ويهدد الله به الظالمين من الناس، كالسيل الذي أغرق قوم نوح، فقوله تعالى: ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: على القدر الذي تعنيه الحاجات، ويكون إصلاحًا، ولا يكون فيه فساد للزرع والضرع، ويقول سبحانه: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا في الأرض مستقرًا له، كأنما يسكنها، كما يأوي الآوي إلى مسكنه.

وذلك أن ما تنزله السماء قسمان: قسم عارض ممطر يغيث في وقت الجدب، ولا ينزل بانتظام كالمطر الذي ينزل بالاستسقاء، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يستسقي، ومن بعده أهل الصلاح والتقوى،

(١) جامع البيان ٦/ ١٩٤.

وقسم يجري في أنهار ويسلك ينابيع الأرض في عيون، وهذا يسكنه الأرض، كنهر النيل، فإنه ينزل على الجبال، وفي البحيرات التي تمده، وهذا يبدو كأنه الساكن في الأرض، وإن كان في سير دائم من منبعه إلى مصبه، وهذا وأشباهه يوجد الخصب والنماء بإذن الله تعالى ، ومن الناس من اعتقد أنه دائم لا يغيض؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ أي: إنا على إذهابه لقادرون، والباء للتعدية، ولقوة الإذهاب، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾[البقرة:٢٠].

وإن مثل الأنهار العيون، فهي ينابيع في الأرض قد اختزنتها الأرض في جوفها وهي لله ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك:٣٠][(١)].

وإن من سنن الله في الكون أن جعل الماء سلاحًا ذا حدين، فكما ينفع الله به عباده، فإنه قد يضر به من شاء من عباده، كما حدث مع قوم نوح وموسى عليهما السلام من إغراق.

قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان:٣٧].

وفي قوم موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[البقرة:٥٠].

وبناء على ما تقدم ذكره مما يخص البركة في الماء نقول: إن الماء نعمة عظمى من نعم الله على خلقه، يجب أن ندرك منافعه، ونحفظ فوائده، ونعلم أنه لولا أن من الله علينا به لهلكنا جميعًا؛ لذا يجب أن نحافظ عليه وأن نضعه في مكانه اللائق به من ثروات الكون، وبركات السماء المودعة في الأرض...

وبالرغم من لفت أنظارنا إلى بركات المياه غير المتناهية إلا أننا في ثبات عميق مما يحاك حولنا، ومن كون الحروب القادمة حروب مياه، وقد بدأت بالفعل، كما أننا في حاجة إلى ترشيد المياه وعدم الإسراف فيه هكذا علمتنا سنة المصطفي صلى الله عليه وسلم قولًا وعملًا.

ومن مجالات البركة في النبات.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[النور:٣٥].

وبيان الآية «الله نور السموات والأرض يدبر الأمر فيهما ويهدي أهلهما، فهو سبحانه

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥٠٥٨.

نور، وحجابه نور، به استنارت السموات والأرض وما فيهما، وكتاب الله وهدايته نور منه سبحانه ، فلولا نوره تعالى لتراكمت الظلمات بعضها فوق بعض، مثل نوره الذي يهدي إليه، وهو الإيمان والقرآن في قلب المؤمن كمشكاة، وهي الكوة في الحائط غير النافذة، فيها مصباح، حيث تجمع الكوة نور المصباح فلا يتفرق، وذلك المصباح في زجاجة، كأنها -لصفائها- كوكب مضيء كالدر، يوقد المصباح من زيت شجرة مباركة، وهي شجرة الزيتون، لا شرقية فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار، ولا غربية فقط فلا تصيبها الشمس أول النهار، بل هي متوسطة في مكان من الأرض لا إلى الشرق ولا إلى الغرب، يكاد زيتها -لصفائه- يضيء من نفسه قبل أن تمسه النار، فإذا مسته النار أضاء إضاءة بليغة، نور على نور، فهو نور من إشراق الزيت على نور من إشعال النار، فذلك مثل الهدى يضيء في قلب المؤمن، والله يهدي ويوفق لاتباع القرآن من يشاء، ويضرب الأمثال للناس؛ ليعقلوا عنه أمثاله وحكمه، والله بكل شيء عليم، لا يخفى عليه شيء»[1].

وشجرة الزيتون المباركة أبرك الأشجار، وأكثرها منافع للناس، تنبت بكثرة في الأرض التي بارك الله تعالى فيها للعالمين[2].

وهي من نعم الله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٠].

وحسبها وصف القرآن إذ وصفها القرآن بأنها مباركة هنا وفي سورة المؤمنون.

وإذا كانت سورة المؤمنون مكية، وسورة النور مدنية، فقد اتفق القرآن المكي والمدني على أنها مباركة، وبركتها في أنها ذات منافع كثيرة، يكون منها الوقود المضيء، وهو دهن يكون طعامًا طيبًا، وهو يدخل في بعض الأدوية، وترابه إذا حرق يكون كحلًا للعيون ولا يضرها، وهو إدام، والزيتون نفسه للطعام والتفكه، وبفضله يغسل به الثياب، وهي شجرة تورق من رأسها إلى أسفلها، والزيتون أكثر أدم أهل الشام والمغرب، يصطبغون به، ويستعملونه في طبيخهم، ويستصبحون به، ويداوى به أدواء الجوف والقروح والجراحات، وفيه منافع كثيرة.

وقال عليه الصلاة والسلام: (كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه من شجرةٍ مباركةٍ)[3].

(١) التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ٣٥٤.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٧٦.

(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥١٩٤. والحديث أخرجه أحمد في مسنده ٢٥/ ٤٥١، رقم ١٦٠٥٥، والترمذي في سننه، أبواب الأطعمة، باب ما جاء في أكل الزيت ٣/ ٣٤٩، رقم١٨٥١، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٣٢.

وسائل تحصيل البركة وآثارها

أوضح القرآن الكريم وسائل تحصيل البركة وآثارها؛ حثًا للعباد على الأخذ بها، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: وسائل تحصيل البركة:

١. العقيدة السليمة.

من وسائل تحصيل البركة: العقيدة السليمة؛ ذلك أن المسلم الحق يعتقد أن الله تعالى هو صاحب البركة، وهو عز وجل الذي يهبها من يشاء من عباده، وبناء على ذلك فإن من أهم وسائل تحصيل البركة على الإطلاق: اعتقاد المسلم أنه لا إله إلا الله، وذلك ما نستشعره من آيات القرآن التي نطقت بذلك.

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف:٥٤].

وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[الفرقان:١].

وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾[الفرقان:١٠].

وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[الفرقان:٦١].

وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[الرحمن:٧٨].

وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[الملك:١].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤].

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[غافر:٦٤].

وقوله تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[الزخرف:٨٥].

وقد أسلفنا في أول هذا البحث أن ﴿تَبَارَكَ﴾ فعل ماض، أي: تقدس وتنزه، وهو فعل جامد لا يتصرف، أي: لا يأتي منه مضارع ولا أمر ولا اسم فاعل، وبينا ما قاله الراغب من أن البركة من الله، وحقيقتها: «كثرة الخير ودوامه» ولا أحد أحق بذلك

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وله شاهدٌ آخر بإسنادٍ صحيح» وصححه الألباني في الصحيحة ٣٧٩.

وصفًا وفعلًا منه تبارك وتعالى...»، وتكون هذه البركة قد ثبتت لذلك السبب ثبوتًا شرعيًا، وثبتت الكيفية التي تنال بها البركة عن المعصوم صلى الله عليه وسلم[1].

وبما أن البركة من الله فإنها لا تنال نوالًا حقيقيًا مرضيًا عنه، وليس استدراجًا، إلا بتسلح المؤمن بسلاح العقيدة الصافية من شوائب الشرك.

٢. تدبر القرآن وتطبيقه.

من وسائل تحصيل البركة الإيمان بالقرآن وتدبره واتباعه وتطبيقه في حياتنا، والرغبة فيما رغبنا فيه، والرهبة مما رهبنا منه، ذلك ما نفهمه ويفهمه كل مسلم من قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام:٩٢].

وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٥٠].

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

٣. الاقتداء بالمباركين.

من وسائل تحصيل البركة الاقتداء بالمباركين الذين غنموا عناية الله لهم باصطفائهم وبصلاحهم وطاعتهم للحق سبحانه واهب البركة، وأئمة التقى ومعدن الصلاح، هم أنبياء الله ورسله، ومن سار على نهجهم واهتدى بهديهم، وقد قص علينا القرآن الكريم -تعيينًا- بعضًا منهم، وصفوا بالبركة لفظًا، كنبي الله نوح عليه السلام، حيث دعا ربه بالبركة.

فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٩].

وقال الله تعالى مباركًا إياه ومن اتبعه: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود:٤٨].

والخليل إبراهيم، وأهل بيته وولده إسحاق عليهم السلام، حيث قال الله تعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات:١١٣].

وفي أهل بيته الكريم يقول الله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود:٧٢-٧٣].

ومن ذكرهم القرآن من الأنبياء عيسى

(١) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش ٣/٣٦٧.
وانظر: المفردات، الراغب ص ١١٩، بدائع الفوائد ابن القيم ٢/ ١٨٥-١٨٧.

ابن مريم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[مريم:٣١].

هذا ولا يفوتنا أن نبينا صلى الله عليه وسلم لم يوصف بلفظ البركة في القرآن؛ لأن البركة فيه صلى الله عليه وسلم بدهية لا تحتاج إلى ذكر ولا إلى تذكير، فهو نبي أعطاه الله القرآن بركة وحي السماء، وأصل الفيوضات، وبارك أمته بليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وبفرائض الدين وسننه، وبارك عمره فانتشر الدين على يديه وتم، ومن بركاته الحسية الكثير والكثير حيث: نبع الماء من بين أصابعه، وحفول شارف الشاة باللبن، وكثرة الطعام يوم الخندق عند جابر بن عبد الله رضي الله عنه...، وهلم جرا، ومن أجل هذا وغيره كان صلى الله عليه وسلم جديرًا بالبركة، وإن لم تذكر في وصفه صراحة.

ونخلص إلى أنه من وسائل تحصيل البركة الاقتداء بالأنبياء والصالحين، قال تعالى آمرًا حبيبه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام:٩٠].

ونحن أمرنا أن نقتدي به صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

فكرم الله لعباده منوط بالاقتداء بنبيه صلى الله عليه وسلم، والاقتداء به هو اقتداء بكل الأنبياء عليهم السلام.

٤. الحرص على التعرض للبركة.

من وسائل جلب البركة الحرص على التعرض لها من خلال ولوج الأماكن المباركة، كبيت الله الحرام، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾[آل عمران:٩٦].

والمسجد الأقصى، حيث قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

[الإسراء:١].

وبلاد الشام ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[الأعراف:١٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾

[الأنبياء:٧١].

وقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾[الأنبياء:٨١].

وطور سيناء حيث قال تعالى: ﴿إِذْ

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[النمل:٧-٨].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[القصص:٣٠].

ومما لا شك فيه أن الله تعالى ذكر هذه البقاع موصوفة بالبركة؛ كي يلفت الأنظار إليها ليلجوها وينتفعوا بما استودعها الله من خيرات حسية كانت أو معنوية.

وكما يكون تحصيل البركة بملابسة المكان، فإن تحصيلها يكون بطعمة النبات الموصوف بالبركة كثمرة الشجرة المباركة في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[النور:٣٥].

وكما أن البركة يكون تحصيلها بملابسة المكان، والطعمة من النبات، يكون أيضًا بالانتفاع بالزمان المبارك كليلة القدر تلك الليلة المباركة التي قال الله تعالى فيها: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[القدر:١-٥].

وقال سبحانه منوهًا بليلة القدر، وأنها هي ليلة مباركة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾[الدخان:٣-٥].

والأوقات المباركة التي يجب اغتنامها كثيرة: كشهر رمضان، وأوقات الصلاة، والسجود من الصلاة، والثلث الأخير من الليل، وأثناء الحج والعمرة، وأوقات الطاعات بصفة عامة كتلاوة القرآن وختمه، ووقت وقوف الإمام على المنبر، وساعة الإجابة من يوم الجمعة، وهلم جرا.

ومن وسائل تحصيل البركة: التعرض لماء السماء المبارك: لوصفه بالبركة.

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾[ق:٩].

كما أن من أسباب تحصيل البركة إفشاء السلام، ونشر الأمن والأمان في ربوع بلاد المسلمين، حيث وصف تحية الإسلام بالبركة.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[النور:٦١].

ولعل جماع وسائل الوصول إلى بركة

الله تعالى كلها يكمن في الإيمان والتقوى، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف:٩٦-٩٧].

هذه الآية الكريمة تشابه قوله تعالى في حق اليهود والنصارى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٦].

وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[النحل:٩٧].

وقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].

وقوله تعالى على لسان نبيه نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح:١٠-١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الطلاق:١١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾[الجن:١٦].

كل هذه الآيات تدور حول الإيمان والتقوى، ونتيجة ذلك عند الله.

«وأصل البركة: المواظبة على الشيء، أي: تابعنا عليهم المطر والنبات، ورفعنا عنهم القحط والجدب...»[1].

وبركات السماء والأرض متعددة، إن كان العلماء وغيرهم عرفوا منها نوعًا فقد غابت عنهم أنواع: فمن قائل بركات السماء: بالمطر، وبركات الأرض بالنبات، وقيل: بركات السماء: إجابة الدعوات، وبركات الأرض: تسهيل الحاجات[2].

يقول الفخر: «اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أن الذين عصوا وتمردوا أخذهم الله بغتةً، بين في هذه الآية أنهم لو أطاعوا لفتح الله عليهم أبواب الخيرات، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا﴾[الأعراف: ٩٦].

أي: آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَاتَّقَوْا﴾ ما نهى الله عنه وحرمه ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بركات السماء: بالمطر، وبركات الأرض: بالنبات والثمار، وكثرة المواشي والأنعام، وحصول الأمن والسلامة؛ وذلك لأن السماء تجري مجرى الأب، والأرض تجري مجرى الأم، ومنهما يحصل

(١) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢١٧.
(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٢٠٠.

جميع المنافع والخيرات بخلق الله تعالى وتدبيره»[(١)].

والظاهر أن قوله: ﴿بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لا يراد بها معينٌ؛ ولذلك جاءت نكرةً، وقيل: البركات النمو والزيادات فمن السماء بجهة المطر والريح والشمس، ومن الأرض بجهة النبات والحفظ لما نبت هذا الذي تدركه فطر البشر، ولله خدامٌ غير ذلك لا يحصى عددهم، وما علم الله أكثر[(٢)].

والمقصود من الجمع في (بركات) تعددها، باعتبار تعدد أصناف الأشياء المباركة، وجماع معناها، هو الخير الصالح الذي لا تبعة عليه في الآخرة، فهو أحسن أحوال النعمة...، وما يناله الناس من الخيرات الدنيوية لا يعدو أن يكون ناشئًا من الأرض؛ وذلك معظم المنافع، أو من السماء مثل ماء المطر وشعاع الشمس وضوء القمر والنجوم والهواء والرياح الصالحة[(٣)].

ويرجع الشيخ الشعراوي سبب ندرة البركة لأفعال البشر المتعلقة بالإيمان والتقوى، حيث يقول رحمه الله: «فالبشر إذا تركوا رب الإنسان يضع منهج صيانة الإنسان لعاش هذا الإنسان في كل خير، -وسبحانه وتعالى- أوضح أنهم إن اتقوا تأت لهم بركات من السماء والأرض، فإن أردتها بركات مادية تجدها في المطر الذي ينزل من أعلى، وبركات من الأرض مثل النبات، وكذلك كنوزها التي تستنبط منها الكماليات المرادة في الحياة، وما معنى البركة؟ البركة هي أن يعطي الموجود فوق ما يتطلبه حجمه؛ كواحد مرتبه قليل جدًا، ونجده يعيش هو وأولاده في رضا وسعادة، ودون ضيق، فنتساءل: كيف يعيش؟ ويجيبك: إنها البركة، وللبركة تفسير كوني؛ لأن الناس دائمًا -كما قلنا سابقًا- ينظرون في وارداتهم إلى رزق الإيجاب، ويغفلون رزق السلب، رزق الإيجاب أن يجعل سبحانه دخلك آلافًا كثيرة، لكنك قد تحتاج إلى أضعاف ما تأخذ، ورزق السلب يجعل دخلك القليل مع سلبه -سبحانه- عنك مصارف كثيرة، كأن يمنحك العافية، فلا تحتاج إلى أجر طبيب أو نفقة علاج، إذن فقوله: ﴿بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أن يعطي الحق سبحانه وتعالى القليل الكثير في الرزق الحلال، ويمحق الكثير الذي جاء من الحرام كالربا؛ ولذلك سمى المال الذي نخرجه عن المال الزائد عن الحاجة زكاة مع أن الزكاة في ظاهرها نقص»[(٤)].

ثانيًا: آثار البركة:

تنوعت آثار البركة حسب استعمال

(١) مفاتيح الغيب ١٤/ ٣٢١.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١١٩.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٠.
(٤) تفسير الشعراوي ٦/ ٣٢٨٢.

القرآن كالآتي:

١. الهداية إلى أقوم السبل، ومن ثم دخول الجنة.

ذلك أن القرآن الكريم الذي وصف الله تعالى ليلة نزوله بالبركة، ووصفه هو بالكتاب المبارك تظهر بركته جلية من خلال أنه يهدي للتي هي أقوم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[الإسراء:٩].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة:٢].

٢. عموم خيرات الله لسكان الأرض.

لولا بركة الله لمجمل الأرض ما انتفعنا بخيراتها التي لا تحصى ولا تعد: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾[فصلت:١٠].

ولولا بركة التقوى ما تفضل الله علينا ببركات الأمطار، وإجابة الدعاء في السماء إلى بركات الأنهار والبحار والزروع والثمار ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

٣. كثرة الزروع والثمار والأنهار في بعض البقاع.

يظهر ذلك في أرض الشام التي باركها الله، وبارك أهلها في أكثر من آية تم ذكرها في هذا البحث، وفي طور سيناء.

٤. بركة الزروع والثمار.

وذلك كما بينا في الزيتون ومنافعه في هذا البحث.

٥. تسخير الموجودات للبشر.

من آثار البركة تسخير الله للموجودات خدمة للبشر (السماء، الأرض، تعاقب الليل والنهار، الشمس، القمر، النجوم)؛ بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف:٥٤].

فلولا بركة الله ما تنعمنا بما حوته هذه الآية من نعم.

٦. منع الإيذاء عمن اتقى ربه.

كما حدث مع نبي الله نوح عليه السلام عندما نزل من السفينة بسلام وأمن لم يمسسه سوء.

٧. البشرى بالذرية.

من آثار البركة في القرآن: تبشير الصالحين بالذرية، كما حدث مع الخليل إبراهيم عليه السلام ؛ حيث رزقه الله الذرية الصالحة، وقد بلغه الكبر وكانت امرأته عاقرًا لا تلد.

٨. زيادة الثواب بالمكانية وبالزمانية.

من آثار البركة في القرآن زيادة الثواب بالمكانية، كزيادة ثواب الصلاة في المسجد

الحرام بمائة ألف صلاة عما سواه، وفي المسجد النبوي بألف صلاة، والمسجد الأقصى بخمسمائة، وأما الزيادة في الثواب المتعلقة بالزمان فذلك مثل ليلة القدر، والعشر الأول من ذي الحجة، وما شابه ذلك، وهذا يمثل بركة في العمر؛ إذ العمر القصير في الطاعة ينال الثواب الجزيل رغم قصره.

٩. نشر السلام بين الناس.

من آثار البركة نشر السلام بين الإنسان ونفسه، وبينه وبين غيره من المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور (٦١)].

موضوعات ذات صلة:

الأرض، الإسراف، الإنفاق، البخس، الرزق، الطعام، الماء، المال





عناصر الموضوع

المجلد السابع

مفهوم البشرى

أولًا: المعنى اللغوي :

الباء والشين والراء أصل واحد: هو ظهور الشيء مع حسن وجمال، فالبشرة ظاهر جلد الإنسان، وسمي البشر بشرًا لظهورهم، والبشير الحسن الوجه، والبشارة الجمال، وأبشرت الرجل وبشرته وبشرته: أخبرته بسار بسط بشرة وجهه؛ وذلك أن النفس إذا سرت انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشجر، واستبشر: إذا وجد ما يبشره من الفرح، ويقال للخبر السار: البشارة والبشرى، ويقال: أبشر، أي: وجد بشارة، وتباشير الوجه وبشره: ما يبدو من سروره، وتباشير الصبح: ما يبدو من أوائله، وتباشير النخيل: ما يبدو من رطبه، ويسمى ما يعطى المبشر: بشرى وبشارة، والمباشرة: الإفضاء بالبشرتين، وكني بها عن الجماع، والبشرى: ما يبشر به، وما يعطاه المُبشر [(١)].

من خلال ما سبق تبين أن المعنى اللغوي للبشرى يدور حول الخبر السار والمفرح، والحسن والجمال الذي يظهر على الوجه.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف الجرجاني البشارة بقوله: «كل خبر صدق تتغير به بشرة الوجه، ويستعمل في الخير والشر، وفي الخير أغلب»[(٢)].

وقال الراغب الأصفهاني البشرى: «إظهار غيب المسرة بالقول» [(٣)].

وذكر ابن عاشور تعريف للبشرى بقوله: «خبر بحصول ما فيه نفع ومسرة للمخبر به»[(٤)].

وقال الفخر الرازي البشرى: «عبارة عن الخبر الدال على حصول الخير العظيم »[(٥)].

ويتضح مما سبق أن البشرى في الاصطلاح تعني نقل الأخبار السارة التي تحمل النفع والمسرة والاستبشار بحصول الخير لمن نقل إليه الخبر.

وبهذا تظهر العلاقة الواضحة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للفظة البشرى

---

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص١٢٥، مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٥١، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية،١/ ٥٨.

(٢) التعريفات، ص ٤٥.

(٣) المفردات، ص ٧٨.

(٤) التحرير والتنوير، ٤/ ٧٨.

(٥) مفاتيح الغيب،٣/ ٦١٣.



البشرى في الاستعمال القرآني

ووردت مادة (بشر) في القرآن الكريم (١٢٣) مرة، يخص موضوع البشرى منها (٨٤) مرة.

والصيغ التي وردت هي[1]:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٩	﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢﴾ [الصافات:١١٢]
الفعل المضارع	١٦	﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشورى:٢٣]
فعل الأمر	٢١	﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ٤٧﴾ [الأحزاب:٤٧]
المصدر	١٨	﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ٩٧﴾ [البقرة:٩٧]
اسم الفاعل	١١	﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ٨﴾ [الفتح:٨]
صيغة المبالغة	٩	﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ٢٤﴾ [فاطر:٢٤]

وجاءت البشرى في الاستعمال القرآني بالمعنى اللغوي وهو: الإخبار بخبر سارٍ يبسط بشرة الوجه[2].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي ص ١١٩-١٢١.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٢٥-١٢٧، مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٥١، بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي ٢/ ٢٠٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ السرور:

السرور لغة:

يقال: سررت برؤية فلانٍ وسرني لقاؤه، وقد سررته أسره أي فرحته، السرور خلاف الحزن؛ تقول: سرني فلانٌ مسرةً، والسرور: ما ينكتم من الفرح [(١)].

السرور اصطلاحًا:

«حالة نفسانية تعرض عند حصول اعتقاد وعلم أو ظن لحصول شيء لذيذ» [(٢)].

الصلة بين البشرى والسرور:

إن الاستبشار هو السرور بالبشارة، والاستفعال للطلب، والمستبشر بمنزلة من طلب السرور في البشارة فوجد، وأصل البشرة من ذلك لظهور السرور في بشرة الوجه [(٣)].

٢ الضحك:

الضحك لغة:

يقال ضحك يضحك ضَحِكًا، ومن ذلك الضحك وهو دليل الانكشاف والبروز [(٤)].

الضحك اصطلاحًا:

"انبساط الوجه وتكشر الأسنان من سرور النفس" [(٥)].

الصلة بين البشرى والضحك:

الضحك: انبساط الوجه ويكون بعد سماع الخبر السار كالبشرى مثلًا، فالضحك يكون بعد البشرى السارة.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٣٦١.
(٢) التوقيف، المناوي، ص ١٩٣.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري، ص ٢٦٥.
(٤) لسان العرب، ابن منظور، ١٠/ ٤٥٩، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٣٩٣.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٥٠١.



٣ الفرح:

الفرح لغة:

يقال فرح يفرح فرحًا، فهو فرحٌ على خلاف الحزن [١].

الفرح اصطلاحًا:

«انشراح الصدر بلذة عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية الدنيوية» [٢].

الصلة بين البشرى والفرح:

الفرح قد يكون بما ليس فيه نفع ولا لذة، والبشرى على الأكثر تستعمل في الخير، والخبر السار الذي يصاحبه النفع واللذة [٣].

٤ الإنذار:

الإنذار لغة:

أصلها النون والذال والراء كلمةٌ تدل على تخويفٍ أو تخوفٍ، منه الإنذار: الإبلاغ، ولا يكاد يكون إلا في التخويف [٤].

الإنذار اصطلاحًا:

«الإعلام بما يحذر، ولا يكاد يكون إلا في تخويف يسع زمانه الاحتراز» [٥].

الصلة بين البشرى والإنذار:

الإنذار: إخبارٌ وإعلام معه تخويف، عكسه التبشير: الذي هو إخبار فيه سرور ولذة ومنفعة [٦].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٤٩٩.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٦٢٨.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ٢٦٥.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٤١٤.
(٥) التوقيف، المناوي، ص ٦٤.
(٦) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٧٩٧، الفروق اللغوية، العسكري، ص٧٨.

اقتران البشارة بالنذارة في القرآن

قرن الله سبحانه وتعالى في القرآن بين البشارة والنذارة في آيات كثيرة، وقدم فيها البشارة على النذارة إلا في آيتين مكيتين، هما:

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ٢].

من الآيات التي قدمت فيها البشارة على النذارة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فاطر: ٢٤] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

وهنا تساؤل: لماذا قال: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ مع أنه نذير وبشير للمؤمنين والكافرين؟

والجواب فيه قولان:

أحدهما: أنه نذير وبشير للمؤمنين والكافرين إلا أنه ذكر إحدى الطائفتين وترك ذكر الثانية؛ لأن ذكر إحداهما يفيد ذكر الأخرى.

والثاني: أنه صلى الله عليه وسلم وإن كان نذيرًا وبشيرًا للكل إلا أن المتفع بتلك النذارة والبشارة هم المؤمنون. فلهذا السبب خصهم الله بالذكر[(١)].

وبدأ بالنذارة لأن السائلين عن الساعة كانوا كفارًا، إما مشركو قريش وإما اليهود، فكان الاهتمام بذكر الوصف من قوله: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ آكد وأولى بالتقديم[(٢)].

«والرسول صلى الله عليه وسلم نذير وبشير للناس أجمعين، ولكن الذين يؤمنون هم الذين ينتفعون بما معه من النذارة والبشارة، فهم الذين يفقهون حقيقة ما معه وهم الذين يدركون ما وراء هذا الذي جاء به، ثم هم بعد ذلك خلاصة البشرية كلها، كما أنهم هم الذين يخلص بهم الرسول من الناس أجمعين، إن الكلمة لا تعطي مدلولها الحقيقي إلا للقلب المفتوح لها، والعقل الذي يستشرفها ويتقبلها، وإن هذا القرآن لا يفتح كنوزه، ولا يكشف أسراره، ولا يعطي ثماره إلا لقوم يؤمنون»[(٣)].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٢٦.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٢٤٢.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤١٠.

أنواع البشارات

تنوعت البشارات في القرآن على النحو الآتي:

أولًا: البشارات العامة:

بُشِّرَ المؤمنون ببشارات عامة، لم يذكر فيها المبشر به ليدل على العموم، وأن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

فإن قلت: لم لم يذكر ما يبشرهم به؟

قال الشيخ رشيد رضا رحمه الله: «لم يذكر ما يبشرهم به لتعظيم شأنه، وشموله لخير الدنيا، وسعادة الآخرة»[1].

فإن قلت: لم لم يذكر مقدار البشرى وصفتها؟

قيل: لأن مقدارها وصفتها بحسب حال المؤمنين وإيمانهم، قوة وضعفًا، وعملًا بمقتضاه.

وهذه البشرى للمؤمنين تدل دلالة واضحة على محبة الله للمؤمنين، ومحبة ما يسرهم، واستحباب تنشيطهم وتشويقهم بما أعد الله لهم من الجزاء الدنيوي والأخروي.

وقد ذكرت صفات للمؤمنين المبشرين بالبشارات العامة في آيات منها:

١ . المقيمون الصلاة.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

أي: وبشر مقيمي الصلاة المطيعي الله بحفظ الله إياهم من فتنة فرعون وملئه الظالمين لهم وتنجيتهم من ظلمهم وبالنصر والتأييد، وإظهار دينهم.

٢ . الممتثلون لأحكام الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

فالآية تبشر المؤمنين الذين يتقون الله عز وجل في إتيان أزواجهم في موضع الحرث، بأن هذا العمل عبادة لله عز وجل؛ لأنهم يحققون حكمة الله من خلقه للزوجين، وذرء النسل وخلافة البشر في الأرض.

٣ . المجاهدون في سبيل الله.

قال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٣].

أي: وبشر يا محمد المؤمنين بنصر الله إياهم على عدوهم، وفتحٍ عاجلٍ لهم[2].

(١) المنار ١١/ ٤٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٦١٩.

٤ . الموفون ببيعتهم مع الله.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١١-١١٢].

هاتان الآيتان تبينان حال المؤمنين حق الإيمان، البالغين فيه ما هو غايةٌ له من الكمال، وهم:

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ أي: الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات.

﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ أي: المتصفون بالعبودية لله، والاستمرار على طاعته من أداء الواجبات والمستحبات في كل وقت، فبذلك يكون العبد من العابدين.

﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ لله في السراء والضراء، واليسر والعسر، المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة، المثنون على الله بذكرها وبذكره في آناء الليل وآناء النهار.

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ فسرت السياحة بالصيام، أو السياحة في طلب العلم، وفسرت بسياحة القلب في معرفة الله ومحبته، والإنابة إليه على الدوام، والصحيح أن المراد بالسياحة: السفر في القربات، كالحج، والعمرة، والجهاد، وطلب العلم، وصلة الأقارب، ونحو ذلك.

﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ أي: المكثرون من الصلاة، المشتملة على الركوع والسجود.

﴿ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ويدخل فيه جميع الواجبات والمستحبات.

﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهي جميع ما نهى الله ورسوله عنه.

﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ بتعلمهم حدود ما أنزل الله على رسوله، وما يدخل في الأوامر والنواهي والأحكام، وما لا يدخل، الملازمون لها فعلًا وتركًا[(١)].

ثم أمر الله رسوله ببشارتهم، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي المتخلقين بها بكل ما يسرهم بعد تخصيصهم بدار السعادة، وفي الآيتين بالبشارة تارة من الخالق ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾، وتارة من أكمل الخلائق ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أعظم مزية للمؤمنين، وفي جعل الأولى من الله أعظم ترغيب في الجهاد، وأعلى حث على خوض

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٥٣.

غمرات الجلاد[1].

قاعدتنا الثواب في القرآن:

يقرن القرآن دائمًا بين الإيمان والعمل الصالح، كلما ذكر العمل والجزاء، فلا جزاء على إيمان عاطل خامد لا يعمل، ولا يثمر، ولا على عمل منقطع لا يقوم على الإيمان.

ثانيًا: البشارات الخاصة:

١ . التبشير بالولد.

من أعظم ما يبشر به المؤمن في الدنيا الولد الصالح الحامل لنور الهداية:

- تبشير إبراهيم بإسحاق عليهما السلام مع كبر سنه وامرأته عجوز.

قالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣].

وهو إسحاق عليه السلام ، تضمنت هذه البشارة بأنه ذكر لا أنثى، عليم، أي: كثير العلم، وفي الآية الأخرى: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات ١١٢].

فقال لهم متعجبًا من هذه البشارة: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بالولد ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ وصار نوع إياس منه ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أي: على أي وجه تبشرون، وقد عدمت الأسباب؟

﴿ قَالُوا بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لا شك فيه؛ لأن الله على كل شيء قدير، وأنتم بالخصوص -يا أهل هذا البيت- رحمة الله وبركاته عليكم فلا يستغرب فضل الله وإحسانه إليكم[2].

وقوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ قيل: إنه يستطيب تلك البشارة، فربما يعيد السؤال ليسمع تلك البشارة مرة أخرى، ومرتين وأكثر طلبًا للالتذاذ بسماع تلك البشارة، وطلبًا لزيادة الطمأنينة والوثوق، مثل قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[البقرة: ٢٦٠].

وقيل أيضًا: استفهم أبأمر الله تبشرون أم من عند أنفسكم واجتهادكم؟[3].

وقال أبو حيان رحمه الله « قولهم له: فلا تكن من القانطين نهي، والنهي عن الشيء لا يدل على تلبس المنهي عنه به ولا بمقارنته. وقوله: ومن يقنط رد عليهم، وأن المحاورة في البشارة لا تدل على القنوط، بل ذلك على سبيل الاستبعاد لما جرت به العادة، وفي ذلك إشارة إلى أن هبة الولد على الكبر من رحمة الله؛ إذ يشد عضد والده به ويؤازره حالة كونه لا يستقل ويرث منه علمه ودينه »[4].

- تبشير زكريا بيحيى عليهما السلام مع كبر سنه وامرأته عاقر.

قال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ

(١) نظم الدرر، البقاعي ٣/ ٣٩٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٣٢.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ١٥١.
(٤) البحر المحيط ٦/ ٤٨٦.

﴿ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ٩﴾ [مريم: ٧-٩].

أي: بشره الله تعالى على يد الملائكة بـ«يحيى» وسماه الله له «يحيى» وكان اسمًا موافقًا لمسماه: يحيا حياة حسية، فتتم به المنة، ويحيا حياة معنوية، وهي حياة القلب والروح، بالوحي والعلم والدين ﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ أي: لم يسم هذا الاسم قبله أحد، فحينئذ لما جاءته البشارة بهذا المولود الذي طلبه استغرب وتعجب، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ [مريم: ٨].

والحال أن المانع من وجود الولد، موجود بي وبزوجتي؟ وكأنه وقت دعائه، لم يستحضر هذا المانع لقوة الوارد في قلبه، وشدة الحرص العظيم على الولد، وفي هذه الحال، حين قبلت دعوته، تعجب من ذلك، فأجابه الله بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ [مريم: ٩].

أي: الأمر مستغرب في العادة، وفي سنة الله في الخليقة، ولكن قدرة الله تعالى صالحة لإيجاد الأشياء بدون أسبابها فذلك هين عليه، ليس بأصعب من إيجاده قبل ولم يكن شيئًا[(١)].

وهنا تساؤل: لماذا تعجب زكريا عليه السلام من البشارة بالولد؟

هذا التعجب تعجب مكنى به عن الشكر، فهو اعتراف بأنها عطية عزيزة غير مألوفة؛ لأنه لا يجوز أن يسأل الله أن يهب له ولدًا، ثم يتعجب من استجابة الله له[(٢)].

❁ تبشير مريم بعيسى عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

يخبر تعالى أن الملائكة بشرت مريم عليها السلام بأعظم بشارة، وهو كلمة الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم، سمي كلمة الله؛ لأنه كان بالكلمة من الله؛ لأن حالته خارجة عن الأسباب، وجعله الله من آياته وعجائب مخلوقاته[(٣)].

٢. تبشير عيسى عليه السلام بمحمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [الصف: ٦].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٩٠.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٦/ ١٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٣٠.

لقد بشر كل نبي قومه بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والله أفرد عيسى بالذكر في هذا الموضع لأنه آخر نبي قبل نبينا صلى الله عليه وسلم، فبين أن البشارة به عمت جميع الأنبياء واحدًا بعد واحد حتى انتهت إلى عيسى عليه السلام.

العلامات والدلائل التي بشرت برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم:

لما أراد الله تعالى إعداد البشر لقبول رسالة الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم استودعهم أشراطه وعلاماته على لسان كل رسول أرسله إلى الناس.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران: ٨١-٨٢].

أي: أأخذتم إصري من أممكم على الإيمان بالرسول الذي يجيء مصدقًا للرسل، وقوله: ﴿فَاشْهَدُوا﴾ أي: على أممكم.

وقال تعالى في خصوص ما لقنه إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وأوصى به عيسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

وصية جامعة لما تقدمها من وصايا الأنبياء[1].

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٨/ ١٦٠.

المبشر به

بشر الله تعالى أولياءه ببشارات في الدنيا والآخرة نتناولها فيما يأتي:

أولًا: البشارة بالثواب:

١ . البشارة بالثواب في الدنيا.

بشر أولياء الله في الدنيا ببشارات، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

من هذه البشارات: الرؤيا الصالحة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لم يبق من النبوة إلا المبشرات) قالوا: وما المبشرات؟ قال: (الرؤيا الصالحة)[١].

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: كشف رسول الله صلى الله عليه وسلم الستارة والناس صفوفٌ خلف أبي بكرٍ، فقال: (أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها المسلم، أو ترى له)[٢].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب المبشرات ٩/ ٣١، رقم ٦٩٩٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود ١/ ٣٤٨، رقم ٤٧٩.

٢ . البشارة بنصر من الله وفتح قريب.

قال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٣].

أي: وبشر يا محمد المؤمنين بنصر الله إياهم على عدوهم، وفتحٍ عاجلٍ لهم[٣] تتسع به دائرة الإسلام، ويحصل به الرزق الواسع.

وهذه الآية من معجزات القرآن الراجعة إلى الإخبار بالغيب[٤].

ثانيًا: البشارة بالثواب في الآخرة:

١ . البشارة بالأجر الكبير.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

عن ابن جريجٍ رحمه الله ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ قال: «الجنة، وكل شيءٍ في القرآن أجرٌ كبيرٌ، أجرٌ كريمٌ، ورزقٌ كريمٌ فهو الجنة»[٥].

٢ . البشارة بالمغفرة والأجر الكريم.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٦١٩.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٧٥.

(٥) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٥١١.

أي: بشرهم بمغفرة الذنوب، ودخول الجنات.

٣. البشارة بالأجر الحسن.

قال تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ٢].

الأجر الحسن: هو الفوز برضا الله، ودخول الجنة، وفي وصفه بالحسن دلالة على أنه لا مكدر فيه، ولا منغص بوجه من الوجوه، إذ لو وجد فيه شيء من ذلك لم يكن حسنه تامًا، ومع ذلك فهذا الأجر الحسن لا يزول عنهم، ولا يزولون عنه، بل نعيمهم في كل وقت متزايد.

٤. البشارة بالفضل الكبير.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٧].

الفضل: العطاء الذي يزيده المعطي زيادة على العطية؛ لأنه لا يكون فضلًا إلا إذا كان زائدًا على العطية، والمراد أن لهم ثواب أعمالهم الموعود بها وزيادة من عند ربهم[(١)].

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وذكر في هذه الآية الكريمة: المبشر، وهم المؤمنون، وذكر المبشر به، وهو الفضل الكبير، أي: العظيم الجليل، الذي لا يقادر قدره، من النصر في الدنيا، وهداية القلوب، وغفران الذنوب، وكشف الكروب، وكثرة الأرزاق الدارة، وحصول النعم السارة، والفوز برضا ربهم وثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه.

وهذا مما ينشط العاملين أن يذكر لهم من ثواب الله على أعمالهم، ما به يستعينون على سلوك الصراط المستقيم، وهذا من جملة حكم الشرع[(٢)].

وفي أمره لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالتبشير تأنيس عظيم، ووعد كريم بالثواب الجزيل[(٣)].

٥. البشارة بقدم صدق عند الله.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

أي: «لهم أعمالًا صالحةً عند الله يستوجبون بها منه الثواب»[(٤)].

وكلمة قدم صدق تعني أيضًا: « قدم ثابتة راسخة موقنة لا تتزعزع ولا تضطرب ولا تتزلزل ولا تتردد، في جو الإنذار وفي ظلال الخوف، وفي ساعات الحرج ﴿قَدَمَ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٨٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٦٧.

(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٤٣٢.

(٤) جامع البيان، الطبري ١٢/ ١١١.

﴿صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الحضرة التي تطمئن فيها النفوس المؤمنة، حينما تتزلزل القلوب والأقدام»[1].

٦. البشارة بالجنة ونعيمها.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

أي: بشرهم يا محمد أن لهم بساتين جامعة من الأشجار العجيبة، والثمار الأنيقة، والظل المديد، تجري من تحتها أنهار الماء، واللبن، والعسل، والخمر، يفجرونها كيف شاءوا، ويصرفونها أين أرادوا، وتشرب منها تلك الأشجار فتنبت أصناف الثمار المتشابهة في الحسن واللذة والفكاهة، ليس فيها ثمرة خاصة، وليس لهم وقت خال من اللذة، فهم دائمًا متلذذون بأكلها.

ثم لما ذكر مسكنهم، وأقواتهم من الطعام والشراب وفواكههم، ذكر أزواجهم، فوصفهن بأكمل وصف وأوجزه، وأوضحه فقال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥].

فلم يقل «مطهرة من العيب الفلاني» ليشمل جميع أنواع التطهير فهن مطهرات الأخلاق، مطهرات الخلق، مطهرات اللسان، مطهرات الأبصار، فأخلاقهن أنهن عرب متحببات إلى أزواجهن بالخلق الحسن، وحسن التبعل، والأدب القولي والفعلي، ومطهر خلقهن من الحيض والنفاس والمني، والبول والغائط، والمخاط والبصاق، والرائحة الكريهة، ومطهرات الخلق أيضًا، بكمال الجمال، فليس فيهن عيب، ولا دمامة خلق، بل هن خيرات حسان، مطهرات اللسان والطرف، قاصرات طرفهن على أزواجهن، وقاصرات ألسنتهن عن كل كلام قبيح[2].

وهذه الآية الكريمة من الآيات الجامعة في البشرى حيث ذكر فيها: المبشر والمبشر، والمبشر به، والسبب الموصل لهذه البشارة.

فالمبشر: هو الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن قام مقامه من أمته.

والمبشر: هم المؤمنون العاملون الصالحات.

والمبشر به: هي الجنات الموصوفات بتلك الصفات.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٧٦٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٦ بتصرف يسير.

والسبب الموصل لذلك: هو الإيمان والعمل الصالح، فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه البشارة إلا بهما، وهذا أعظم بشارة حاصلة، على يد أفضل الخلق، بأفضل الأسباب.

ثانيًا: البشارة بالعقاب:

الغالب في استعمال البشارة أن تكون في الإخبار بما يسر، فهي إذًا مأخوذةٌ من انبساط بشرة الوجه، كما أن السرور مأخوذٌ من انبساط أساريره، وعلى هذا يقولون: إن استعمالها فيما يسوء يكون من باب التهكم، وقيل: إن البشارة تستعمل فيما يسر وفيما يسوء استعمالًا حقيقيًا؛ لأن أصلها الإخبار بما يظهر أثره في بشرة الوجه في الانبساط والتمدد، أو الانقباض والتغضن[1].

١ . البشارة بالعذاب الأليم.

تستعمل البشرى في الشر بقيد، كما قال تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٣٨].

والعذاب الأليم: هو الموجع، وذلك عذاب جهنم.

قال ابن عطية رحمه الله: «جاءت البشارة هنا مصرحًا بقيدها، فلذلك حسن استعمالها في المكروه، ومتى جاءت مطلقة فإنما عرفها في المحبوب»[2].

٢ . رؤية المجرمين للملائكة لا تبشرهم بخير.

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٢].

أي: لا يرون الملائكة في يوم خير لهم، بل يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذٍ لهم؛ وذلك يصدق في ثلاث مواضع:

١ . وقت الاحتضار: حين تبشرهم الملائكة بالنار، وغضب الجبار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه: اخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث، اخرجي إلى سموم وحميم، وظل من يحموم، فتأبى الخروج، وتتفرق في البدن، فيضربونه[3].

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ بَرِيَّةٌ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأنعام: ٩٣].

أي: بالضرب ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ٣٧٦.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٢١١.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٠١.

﴿أللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

٢. في القبر: حيث يأتيهم منكر ونكير فيسألهم عن ربهم ونبيهم ودينهم، فلا يجيبون جوابًا ينجيهم فيحلون بهم النقمة، وتزول عنهم بهم الرحمة.

كما روى أبو داود بسنده عن البراء بن عازبٍ قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجلٍ من الأنصار، فانتهينا إلى القبر، ولما يلحد، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله، كأنما على رءوسنا الطير، وفي يده عودٌ ينكت به في الأرض، فرفع رأسه، فقال: (استعيذوا بالله من عذاب القبر) مرتين أو ثلاثًا...، ثم قال: (وإن الكافر) فذكر موته قال: (وتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان: من ربك؟ فيقول: هاه هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي منادٍ من السماء: أن كذب فأفرشوه من النار، وألبسوه من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار) قال: (فيأتيه من حرها وسمومها) قال: (ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه) زاد في حديث جرير، قال: (ثم يقيض له أعمى أبكم معه مرزبةٌ من حديدٍ لو ضرب بها جبلٌ لصار ترابًا) قال: (فيضربه بها ضربةً يسمعها ما بين المشرق والمغرب إلا الثقلين فيصير ترابًا) قال: (ثم تعاد فيه الروح)[(١)].

٣. يوم القيامة: حين تسوقهم الملائكة إلى النار، ثم يسلمونهم لخزنة جهنم الذين يتولون عذابهم، ويباشرون عقابهم، فهذا الذي اقترحوه، وهذا الذي طلبوه إن استمروا على إجرامهم، لا بد أن يروه ويلقوه، وحينئذٍ يتعوذون من الملائكة ويفرون، ولكن لا مفر لهم.

كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم ٤٧٥٥.
وصححه الألباني في المشكاة ١/ ٤٧.

المبشرون في القرآن

أولًا: الله عز وجل:

بشر الله سبحانه وتعالى عباده ببشارات تنشرح بها الصدور، وتتلألأ بها الوجوه نورًا وبهجة وحسنًا من عظمة ما بشروا به من خير الدنيا والآخرة، من هؤلاء: الأنبياء والرسل، والمهاجرون المجاهدون في سبيله، والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وترجع عظمة البشرى لعظمة المبشر بها، وعظمة ما قام به المبشرون.

١ . تبشير الأنبياء والرسل بالأولاد الصالحين.

بشر الله الأنبياء والرسل بخير ما في الدنيا وهم الأولاد الصالحين الذين يحملون ميراث الآباء، وهو ميراث النبوة، وأعظم به ميراثًا، من هؤلاء:

- بشر الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام بإسماعيل عليه السلام.

كما قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١].

وصف الله إسماعيل عليه السلام بالحلم، وهو يتضمن الصبر، وحسن الخلق، وسعة الصدر والعفو عمن جنى.

وقال ابن عاشور رحمه الله: «الحليم: الموصوف بالحلم، وهو اسم يجمع أصالة الرأي، ومكارم الأخلاق، والرحمةبالمخلوق»[1].

- بشر الله سبحانه وتعالى زكريا عليه السلام بيحيى عليه السلام.

كما قال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧].

وسماه الله له «يحيى» وكان اسمًا موافقًا لمسماه: يحيا حياة حسية، فتتم به المنة، ويحيا حياة معنوية، وهي حياة القلب والروح، بالوحي والعلم والدين.

٢ . تبشير الله سبحانه وتعالى المؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيله بالرحمة والرضوان.

بشر الله تعالى المؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيله بالرحمة الواسعة والرضوان الذي لا سخط بعده، ومصيرهم إلى جنات الخلد والنعيم الدائم.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٠-٢٢].

«قال ابن عباس رضي الله عنه: هي في المهاجرين خاصة، وأسند التبشير إلى قوله:

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٤٩.

«ربهم» لما في ذلك من الإحسان إليهم بأن مالك أمرهم والناظر في مصالحهم هو الذي يبشرهم؛ فذلك على تحقيق عبوديتهم لربهم؛ ولما كانت الأوصاف التي تحلوا بها وصاروا بها عبيده حقيقة هي ثلاثة: الإيمان، والهجرة، والجهاد بالمال والنفس، قوبلوا في التبشير بثلاثة: الرحمة، والرضوان، والجنات، فبدأ بالرحمة لأنها الوصف الأعم الناشئ عنها تيسير الإيمان لهم، وثنى بالرضوان؛ لأنه الغاية من إحسان الرب لعبده، وهو مقابل الجهاد؛ إذ هو بذل النفس والمال، وقدم على الجنات؛ لأن رضا الله عن العبد أفضل من إسكانهم الجنة»[1].

وقد روى مسلم بسنده عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة، فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك، فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا)[2].

وأتى ثالثًا بقوله: ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢].

أي: دائم لا ينقطع، وهذا مقابل لقوله: «وهاجروا» لأنهم تركوا أوطانهم التي نشأوا فيها، وكانوا فيها منعمين، فآثروا الهجرة على دار الكفر إلى مستقر الإيمان والرسالة، فقوبلوا على ذلك بالجنات ذوات النعيم الدائم، فجاء الترتيب في أوصافهم على حسب الواقع: الإيمان، ثم الهجرة، ثم الجهاد، وجاء الترتيب في المقابل على حسب الأعم، ثم الأشرف، ثم التكميل[3].

«وإسناد التبشير إلى الرب بصيغة المضارع، المفيد للتجدد، مؤذن بتعاقب الخيرات عليهم، وتجدد إدخال السرور بذلك لهم؛ لأن تجدد التبشير يؤذن بأن المبشر به شيء لم يكن معلوما للمبشر»[4].

٣. تبشير الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بروضات الجنات.

أخبر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن لهم النعيم والكرامة في الآخرة، وهو البشرى التي يبشر الله بها عباده.

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٣٨٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار ٨/ ١١٤، رقم ٦٥٤٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدا ٤/ ٢١٧٦، رقم ٢٨٢٩.

(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٣٩٠.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٥٣.

﴿يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٢٢ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ﴾ [الشورى: ٢٢-٢٣].

وهذه الآيات دالة على تعظيم حال الثواب من وجوه:

الأول: أن الله سبحانه رتب على الإيمان، وعمل الصالحات روضات الجنات، والسلطان الذي هو أعظم الموجودات وأكرمهم إذا رتب على أعمال شاقة جزاء دل ذلك على أن ذلك الجزاء قد بلغ إلى حيث لا يعلم كنهه إلا الله تعالى .

الثاني: أنه تعالى قال: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ يدخل في باب غير المتناهي؛ لأنه لا درجة إلا والإنسان يريد ما هو أعلى منها.

الثالث: أنه تعالى قال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ والذي يحكم بكبره من له الكبرياء والعظمة على الإطلاق كان في غاية الكبر.

الرابع: أنه تعالى أعاد البشارة على سبيل التعظيم، فقال: ﴿ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ وذلك يدل أيضًا على غاية العظمة[1]. وجمع العباد المضاف إلى اسم الجلالة للتقريب، ورفع الشأن.

ثانيًا: الملائكة:

١ . تبشير الملائكة مريم بعيسى عليهما السلام.

أخبر تعالى أن الملائكة بشرت مريم عليها السلام بأعظم بشارة، وهو كلمة الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم، قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

٢ . تبشير الملائكة إبراهيم عليه السلام وزوجه بإسحاق ويعقوب عليهما السلام.

أخبر تعالى أن الملائكة بشرت إبراهيم عليه السلام بإسحاق عليه السلام ، قال تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ [الحجر: ٥٣].

والعليم: أي عليم بالشريعة بأن يكون نبيًا، كما قال في آية الصافات: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢].

والملائكة بشرت زوج إبراهيم عليه السلام بإسحاق ويعقوب عليهما السلام، قال تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

فالمبشر إبراهيم وزوجه، لكن وقت البشارة قد يكون في وقت واحد، وقد يكون في وقتين متقاربين بشروه بانفراد، ثم جاءت

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٩٣.

امرأته فبشروها.

٣. تبشير المستقيمين على الصراط المستقيم بالجنة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

يخبر تعالى عن أوليائه، وفي ضمن ذلك، تنشيطهم، والحث على الاقتداء بهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠].

أي: اعترفوا ونطقوا ورضوا بربوبية الله تعالى ، واستسلموا لأمره، ثم استقاموا على الصراط المستقيم، علمًا وعملًا، فلهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة. ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الكرام، أي: يتكرر نزولهم عليهم، مبشرين لهم عند الاحتضار ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ على ما يستقبل من أمركم ﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ على ما مضى، فنفوا عنهم المكروه الماضي والمستقبل ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ فإنها قد وجبت لكم وثبتت، وكان وعد الله مفعولًا ويقولون لهم أيضًا، مثبتين لهم، ومبشرين ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يحثونهم في الدنيا على الخير، ويزينونه لهم، ويرهبونهم عن الشر، ويقبحونه في قلوبهم، ويدعون الله لهم، ويثبتونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصًا عند الموت وشدته، والقبر وظلمته، وفي القيامة وأهوالها، وعلى الصراط، وفي الجنة يهنئونهم بكرامة ربهم، ويدخلون عليهم من كل باب ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

ويقولون لهم أيضًا: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ﴾ قد أعد وهيئ ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي: تطلبون من كل ما تتعلق به إرادتكم وتطلبونه من أنواع اللذات والمشتهيات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿نُزُلًا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ أي: هذا الثواب الجزيل، والنعيم المقيم، نزلٌ وضيافة ﴿مِّنۡ غَفُورٖ﴾ غفر لكم السيئات ﴿رَّحِيمٖ﴾ حيث وفقكم لفعل الحسنات، ثم قبلها منكم، فبمغفرته أزال عنكم المحذور، وبرحمته أنالكم المطلوب[1].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٤٨.

ثالثًا: الرسل:

أخبر الله سبحانه وتعالى أن من سنته في خلقه إرسال الرسل ببشارة أهل طاعته بالجنة والفوز العظيم يوم القيامة، وإنذار أهل معصيته بالنار والعقاب الأليم يوم القيامة، فتقوم عليهم الحجة، فيسعد أهل الجنة عن بينة، ويشقى أهل النار عن بينة.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

وذلك مستلزم لبيان المبشر والمبشر به، والأعمال التي إذا عملها العبد، حصلت له البشارة، وقد تكرر هذا المعنى في مواضع أخر من القرآن.

منها قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

فإرسال الرسل لقطع عذر البشر إذا سئلوا عن جرائم أعمالهم، واستحقوا غضب الله وعقابه.

وهذه الحجة التي بعث الرسل لقطعها بينها بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤].

وأشار لها في قوله: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

وإنها لتبعة عظيمة ألقيت على الرسل صلوات الله عليهم ومن بعدهم على المؤمنين برسالاتهم، تجاه البشرية كلها، وهي تبعة ثقيلة بمقدار ما هي عظيمة، إن مصائر البشرية كلها في الدنيا وفي الآخرة سواء، منوطة بالرسل وبأتباعهم من بعدهم، فعلى أساس تبليغهم هذا الأمر للبشر، تقوم سعادة هؤلاء البشر أو شقوتهم، ويترتب ثوابهم أو عقابهم، في الدنيا والآخرة.

فأما رسل الله صلوات الله عليهم فقد أدوا الأمانة، وبلغوا الرسالة، ومضوا إلى ربهم خالصين من هذا الالتزام الثقيل، وهم لم يبلغوها دعوة باللسان، ولكن بلغوها -مع هذا- قدوة ممثلة في العمل، وجهادًا مضنيًا بالليل والنهار لإزالة العقبات والعوائق، سواء كانت هذه العقبات والعوائق شبهات تحاك، وضلالات تزين، أو كانت قوى طاغية تصد الناس عن الدعوة وتفتنهم في الدين، كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، بما أنه المبلغ الأخير، وبما أن رسالته هي خاتمة الرسالات، فلم يكتف بإزالة العوائق باللسان، إنما أزالها كذلك بالسنان ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وبقي الواجب الثقيل على من بعده، على

المؤمنين برسالته، فهناك أجيال وراء أجيال جاءت وتجيء بعده صلى الله عليه وسلم وتبليغ هذه الأجيال منوط بعده بأتباعه، ولا فكاك لهم من التبعة الثقيلة -تبعة إقامة حجة الله على الناس وتبعة استنقاذ الناس من عذاب الآخرة وشقوة الدنيا- إلا بالتبليغ والأداء على ذات المنهج الذي بلغ به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدى.

فالرسالة هي الرسالة والناس هم الناس، وهناك ضلالات وأهواء وشبهات وشهوات، وهناك قوى عاتية طاغية تقوم دون الناس ودون الدعوة وتفتنهم كذلك عن دينهم بالتضليل وبالقوة، الموقف هو الموقف والعقبات هي العقبات، والناس هم الناس، ولا بد من بلاغ، ولا بد من أداء، بلاغ بالبيان، وبلاغ بالعمل حتى يكون المبلغون ترجمة حية واقعة مما يبلغون، وبلاغ بإزالة العقبات التي تعترض طريق الدعوة، وتفتن الناس بالباطل وبالقوة، وإلا فلا بلاغ ولا أداء، إنه الأمر المفروض الذي لا حيلة في النكوص عن حمله، فمن ذا الذي يستهين بهذه التبعة؟ وهي تبعة تقصم الظهر، وترعد الفرائص، وتهز المفاصل؟! [(١)].

١. تبشير موسى عليه السلام قومه بالنصر على فرعون في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

٢. تبشير الرسول صلى الله عليه وسلم أمته بما أمره به ربه عز وجل.

أمر الله عز وجل رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بتبشير أصناف من عباده بما يسرهم ويفرحهم في الدنيا والآخرة، وقد امتثل صلى الله عليه وسلم أمر ربه، ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

أي: وأخبر -أيها الرسول- أهل الإيمان والعمل الصالح خبرًا يملؤهم سرورًا، بأن لهم في الآخرة حدائق عجيبة، تجري الأنهار تحت قصورها العالية وأشجارها الظليلة، كلما رزقهم الله فيها نوعًا من الفاكهة اللذيذة، قالوا: قد رزقنا الله هذا النوع من

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٨١١.

قبل، فإذا ذاقوه وجدوه شيئًا جديدًا في طعمه ولذته، وإن تشابه مع سابقه في اللون والمنظر والاسم، ولهم في الجنات زوجات مطهرات من كل ألوان الدنس الحسي كالبول والحيض، والمعنوي كالكذب وسوء الخلق، وهم في الجنة ونعيمها دائمون، لا يموتون فيها ولا يخرجون منها.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

أي: وبشر -أيها النبي- الصابرين بما يفرحهم ويسرهم من حسن العاقبة في الدنيا والآخرة.

ومنها قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

وبشر المؤمنين -أيها النبي- بما يفرحهم ويسرهم من حسن الجزاء في الآخرة.

ومنها قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

أي: وبشر -أيها النبي- هؤلاء المؤمنين المتصفين بهذه الصفات برضوان الله وجنته.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢].

أي: وبشر الذين آمنوا بالله ورسله أن لهم أجرًا حسنًا بما قدموا من صالح الأعمال.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

أي: وبشر -أيها النبي- المتواضعين الخاضعين لربهم بخيري الدنيا والآخرة.

ومنها قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

أي: وبشر -أيها النبي- المحسنين بعبادة الله وحده والمحسنين إلى خلقه بكل خير وفلاح.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧].

أي: وبشر -أيها النبي- أهل الإيمان بأن لهم من الله ثوابًا عظيمًا، وهو روضات الجنات.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ

﴿ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف: ١٣].

أي: وبشر المؤمنين -أيها النبي- بالنصر والفتح في الدنيا، والجنة في الآخرة.

ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [يس: ١١].

أي: وبشر من آمن بالقرآن، واتبع ما فيه من أحكام الله، والخائف من الرحمن بمغفرة من الله لذنوبه، وثواب منه في الآخرة على أعماله الصالحة، وهو دخوله الجنة.

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ [الزمر: ١٧].

أي: والذين اجتنبوا طاعة الشيطان، وعبادة غير الله، وتابوا إلى الله بعبادته، وإخلاص الدين له، لهم البشرى في الحياة الدنيا بالثناء الحسن والتوفيق من الله، وفي الآخرة برضوان الله، والنعيم الدائم في الجنة.

ومن تتبع الآيات السابقة وجد اختلاف البشرى للمبشرين حسب حالتهم الإيمانية، فكلما زادت الحالة الإيمانية، ومقتضياتها زادت درجات البشرى.

٣. تبشير الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم المنافقين بالعذاب الأليم.

قال تعالى: ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٣٨].

أي: وبشر -أيها الرسول- المنافقين -وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر- بأن لهم عذابًا موجعًا.

٤ . تبشير الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الكافرين بالعذاب الأليم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران: ٢١].

أي: إن الذين يجحدون بالدلائل الواضحة، وما جاء به المرسلون، ويقتلون أنبياء الله ظلمًا بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالعدل، واتباع طريق الأنبياء، فبشرهم بعذاب موجع.

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة: ٣٤].

أي: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، إن كثيرًا من علماء أهل

الكتاب وعبادهم ليأخذون أموال الناس بغير حق كالرشوة وغيرها، ويمنعون الناس من الدخول في الإسلام، ويصدون عن سبيل الله، والذين يمسكون الأموال ولا يؤدون زكاتها، ولا يخرجون منها الحقوق الواجبة، فبشرهم بعذاب موجع.

وبالمقارنة بين آيات البشرى في حق المؤمنين وحق المنافقين والكافرين نجد كثرة عدد آيات البشرى في حق المؤمنين؛ لأنهم هم المنتفعون بها، وقلة عدد آيات تبشير المنافقين والكافرين، والتي هي على سبيل التهكم؛ تحقيقًا لسنته في خلقه (إن رحمتي سبقت غضبي)[1].

وإبرازًا لصفة الرحمة في حق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وحق رسالته، كما قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

رابعًا: القرآن:

قال تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢].

المراد بالمسلمين الذين آمنوا، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: وهدى وبشرى لهم، فعدل إلى الإظهار لزيادة مدحهم بوصف آخر شريف[2].

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

هذه الآية من الآيات الجامعة التي تبين فضل القرآن، فهذا الكتاب الذي نزل به جبريل «فيه الهداية التامة من أنواع الضلالات، والبشارة بالخير الدنيوي والأخروي، لمن آمن به»[3].

وقوله تعالى: ﴿وَهُدٗى﴾ فالمراد به أن القرآن مشتمل على أمرين:

أحدهما: بيان ما وقع التكليف به من أعمال القلوب وأعمال الجوارح، وهو من هذا الوجه هدى.

وثانيهما: بيان أن الآتي بتلك الأعمال كيف يكون ثوابه وهو من هذا الوجه بشرى؟ ولما كان الأول مقدمًا على الثاني في الوجود لا جرم قدم الله لفظ الهدى على لفظ البشرى.

فإن قيل: ولم خص كونه هدى وبشرى بالمؤمنين مع أنه كذلك بالنسبة إلى الكل؟

الجواب من وجهين:

الأول: أنه تعالى إنما خصهم بذلك لأنهم هم الذين اهتدوا بالكتاب، فهو كقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب (وكان عرشه على الماء)، ٩/ ١٢٥، رقم ٧٤٢٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢٣٠.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٠.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

والثاني: أنه لا يكون بشرى إلا للمؤمنين؛ وذلك لأن البشرى عبارة عن الخبر الدال على حصول الخير العظيم، وهذا لا يحصل إلا في حق المؤمنين، فلهذا خصهم الله به[(١)].

وقيل: خص الهدى والبشرى بالمؤمنين لأن غير المؤمنين لا يكون لهم هدى به ولا بشرى، كما قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

ولأن المؤمنين هم المبشرون ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧][(٢)].

«فالقرآن هدى وبشرى للقلوب المؤمنة، التي تتفتح له وتستجيب، وهذه حقيقة ينبغي إبرازها، إن نصوص القرآن لتسكب في قلب المؤمن من الإيناس، وتفتح له من أبواب المعرفة، وتفيض فيه من الإيحاءات والمشاعر ما لا يكون بغير الإيمان، ومن ثم يجد فيه الهدى، كما يستروح فيه البشرى»[(٣)].

ومن بلاغة القرآن حديثه عن نفسه بأنه (بشرى) المصدر الذي ليس له زمان معين، والمعنى أن القرآن (بشرى) للمؤمنين به في كل زمان بما يناسب هذا الزمان، وبما يناسب حالة المؤمنين الإيمانية، أي (بشرى) القرآن للمؤمنين امتدت طولًا حتى شملت آفاق الزمان، وامتدت عرضًا حتى شملت آفاق الأمم، واختلفت درجات البشرى باختلاف درجات المؤمنين في الإيمان والعمل الصالح.

خامسًا: الرياح:

الرياح أثر من آثار قدرة الله، ورحمة من رحماته على عباده؛ وهي كالرسل؛ ولذلك كانت موصوفة بالخير، كما روى البخاري بسنده عن ابن عباسٍ - رضي الله عنهما- قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلةٍ من رمضان، فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة)[(٤)].

وقد ذكر سبحانه وتعالى نعمه على خلقه في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته، بمجيء الغيث عقيبها؛ الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد، وتجري الفلك في

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٦١٣.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٥١٥.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٩٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة النبي، صلى الله عليه وسلم، ٤/ ١٨٨، رقم ٣٥٥٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كان النبي، صلى الله عليه وسلم، أجود الناس بالخير من الريح المرسلة ٤/ ١٨٠٣، ٢٣٠٨.

البحر، وتسير بالريح، ويبتغون من فضل الله في التجارات والمعايش، والسير من إقليم إلى إقليم، وقطر إلى قطر، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦].

وبين تعالى أثرًا من آثار قدرته، ونفحة من نفحات رحمته، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧].

أي: الرياح المبشرات بالغيث، التي تثيره بإذن الله من الأرض، فيستبشر الخلق برحمة الله، وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله[(١)].

وفي الآية: «تعريض ببشارة المؤمنين بإغداق الغيث عليهم، ونذارة المشركين بالقحط والجوع»[(٢)].

المبشرون بالثواب أو العقاب

أولًا: الرسل:

بشر الله سبحانه وتعالى إبراهيم وزكريا عليهما السلام بالأولاد الصالحين، والذرية الطيبة التي ستكون منها مادة الهداية لأقوامهم، فبهم بعد توفيق الله يهتدي المهتدون، ولعظم هذه البشرى التي حدثت على غير العادة، أرسل الله بها ملائكته لتبشيرهما؛ لأنه سبحانه وتعالى مصدر البشرى، والملائكة والرسل سفراء لقومهم بها.

١. تبشير إبراهيم بإسحاق عليهما السلام مع كبر سنه وسن زوجه.

قال تعالى لإبراهيم على لسان الملائكة: ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣].

وهو إسحاق عليه الصلاة والسلام، وتضمنت هذه البشارة بأنه عليم، أي: كثير العلم، وفي الآية الأخرى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢].

٢. تبشير الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام بإسماعيل عليه السلام.

بشر الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام بإسماعيل عليه السلام ، كما قال

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٩٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٣٧.

تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ١٠١].

وصف الله إسماعيل عليه السلام بالحلم، والحليم: اسم يجمع أصالة الرأي ومكارم الأخلاق، والرحمة بالمخلوق[1].

٣. تبشير زكريا بيحيى عليهما السلام مع كبر سنه وكون امرأته عاقرًا.

قال تعالى: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٧-٩].

أي: بشره الله تعالى على يد الملائكة بـ«يحيى» وسماه الله له «يحيى» وكان اسمًا موافقًا لمسماه: يحيا حياة حسية، فتتم به المنة، ويحيا حياة معنوية، وهي حياة القلب والروح، بالوحي والعلم والدين.

ثانيًا: المؤمنون:

بشر الله سبحانه عباده المؤمنين ببشارات عظيمة ترجع لقيامهم بأعمال جليلة منهم المهاجرون المجاهدون في سبيله، وأمر ملائكته أن تبشر المؤمنين المستقيمين على طاعته والمنيبين إليه، وأمر رسوله بتبشير المؤمنين بما ينشطهم على العمل، وما يسرهم ويفرحهم، وجعل القرآن بشيرًا للمؤمنين بالنصر في الدنيا والكرامة في الآخرة، وجعل الرياح مبشرات بالبركات والنماء بعد القحط والجدب.

ثم اختلفت أنواع البشرى باختلاف العمل الصالح الذي قام به المبشرون.

تبشير الرسول صلى الله عليه وسلم أمته بما أمره به ربه عز وجل:

أمر الله عز وجل رسول الكريم صلى الله عليه وسلم بتبشير عباده بما يسرهم ويفرحهم في الدنيا والآخرة، وقد امتثل صلى الله عليه وسلم أمر ربه:

١. بشارة المؤمنين الذين جمعوا مع الإيمان العمل الصالح.

قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥].

٢. بشارة المخبتين.

قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٦٢.

﴿ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

بشر المخبتين بخير الدنيا والآخرة، والمخبت: الخاضع لربه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده، ثم ذكر صفات المخبتين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ﴾ أي: خوفًا وتعظيمًا، فتركوا لذلك المحرمات، لخوفهم ووجلهم من الله وحده ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ من البأساء والضراء، وأنواع الأذى، فلا يجري منهم التسخط لشيء من ذلك، بل صبروا ابتغاء وجه ربهم، محتسبين ثوابه، مرتقبين أجره ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: الذين جعلوها قائمة مستقيمة كاملة، بأن أدوا اللازم فيها والمستحب، وعبوديتها الظاهرة والباطنة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وهذا يشمل جميع النفقات الواجبة، كالزكاة، والكفارة، والنفقة على الزوجات والمماليك، والأقارب، والنفقات المستحبة، كالصدقات بجميع وجوهها، وأتي بـ(من) المفيدة للتبعيض ليعلم سهولة ما أمر الله به ورغب فيه، وأنه جزء يسير مما رزق الله، ليس للعبد في تحصيله قدرة، لولا تيسير الله له ورزقه إياه، فيا أيها المرزوق من فضل الله، أنفق مما رزقك الله، ينفق الله عليك، ويزدك من فضله[(١)].

٣. بشارة المحسنين.

قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

والمحسنون المبشرون هم من عبدوا الله، كأنهم يرونه، فإن لم يصلوا إلى هذه الدرجة عبدوه معتقدين وقت عبادتهم اطلاعه عليهم، ورؤيته إياهم، والمحسنين لعباد الله بجميع وجوه الإحسان من نفع مال، أو علم، أو جاه، أو نصح، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو كلمة طيبة ونحو ذلك.

والبشارة المبشرون بها هي سعادة الدنيا والآخرة، وسيحسن الله إليهم، كما أحسنوا في عبادته ولعباده ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦][(٢)].

٤. بشارة الخائفين من الله بالغيب.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

أخبر الله في هذه الآية أن من اتصف بالقصد الحسن في طلب الحق، وخشية

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٣٨.

(٢) المصدر السابق.

الله تعالى فهو أحق بالبشارة بمغفرة ذنوبه، والأجر الكريم وهو الجنة.

٥. بشارة المؤمنين بالله واليوم الآخر والمجاهدين.

أخبر الله سبحانه وتعالى المؤمنين المهاجرين والمجاهدين في سبيله بالبشرى منه بالرحمة الواسعة والرضوان الذي لا سخط بعده، ومصيرهم إلى جنات الخلد والنعيم الدائم.

قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ١٩-٢٢].

٦. بشارة المستقيمين على طريق الله.

أخبر الله سبحانه وتعالى أن الذين استقاموا على شريعته، تتنزل عليهم الملائكة عند الموت قائلين لهم: لا تخافوا من الموت وما بعده، ولا تحزنوا على ما تخلفونه وراءكم من أمور الدنيا، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

٧. بشارة المتقين:

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

[يونس: ٦٢-٦٤].

أي: لهؤلاء الأولياء البشارة من الله في الحياة الدنيا بما يسرهم، وفي الآخرة بالجنة، لا يخلف الله وعده ولا يغيره؛ ذلك هو الفوز العظيم؛ لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور، والظفر بكل مطلوب محبوب.

٨. بشارة الصابرين.

أخبر الله الصابرين بأن لهم ثناء ورحمة عظيمة منه سبحانه، وأنهم مهتدون إلى الرشاد.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ

﴿صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

ثالثًا: الكفار:

أمر الله رسوله بتبشير الذين كفروا بعذاب موجع في الدنيا بالقتل والأسر والجلاء، وفي الآخرة بالنار وبئس القرار، وذكر الأسباب الموجبة لهذا العذاب:

١. التولي والإعراض عن الحق البين الواضح.

قال تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣].

وجعل الإنذار بشارة على سبيل الاستهزاء بهم[(١)].

٢. شراء لهو الحديث ليضل عن سبيل الله.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

و﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾: الأحاديث الملهية للقلوب، الصادة لها عن أجل مطلوب، فدخل في هذا كل كلام محرم، وكل لغو، وباطل، وهذيان من الأقوال المرغبة في الكفر والفسوق والعصيان، ومن أقوال الرادين على الحق، المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق، ومن غيبة ونميمة وكذب وشتم وسب، ومن غناء ومزامير شيطان، ومن الوسائل الملهية التي لا نفع فيها في دين ولا دنيا، وإضلاله في هذا الحديث صده عن الحديث النافع، والعمل النافع، والحق المبين، والصراط المستقيم، ولا يتم له هذا حتى يقدح في الهدى والحق، ويتخذ آيات الله هزوًا، ويسخر بها، وبمن جاء بها، فإذا جمع بين مدح الباطل والترغيب فيه، والقدح في الحق، والاستهزاء به وبأهله، أضل من لا علم عنده وخدعه بما يوحيه إليه، من القول الذي لا يميزه ذلك الضال، ولا يعرف حقيقته.

وهذا ما تمارسه الأقلام المأجورة في الصحف، ودعاة السوء في القنوات الفضائية الممولة من أعداء الله في الداخل والخارج، وأصحاب مواقع الانترنت الضالة المضلة.

٣. الاستكبار عن سماع آيات الله.

ومن أسباب البشارة بالسوء التي تؤثر في قلب الكافر بالحزن والغم وفي بدنه بالألم الموجع الاستكبار عن سماع آيات الله.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٣٧٠.

قيل: نزلت في أبي جهل، وقيل: في النضر بن الحارث، وما كان يشتري من أحاديث الأعاجم، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن، والآية عامة فيمن كان مضارًا لدين الله[1].

والبشارة في هذا الموضوع نوع من التهكم المهين يليق بالمتكبرين المستهزئين.

٤. الجحود بالدلائل الواضحة وما جاء به المرسلون، وقتل الأنبياء ظلمًا بغير حق، وقتل الذين يأمرون بالعدل واتباع طريق الأنبياء.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

فهؤلاء الذين أخبر الله عنهم في هذه الآية أشد الناس جرمًا، وأي: جرم أعظم من الكفر بآيات الله التي تدل دلالة قاطعة على الحق الذي من كفر بها فهو في غاية الكفر والعناد، ويقتلون أنبياء الله الذين حقهم أوجب الحقوق على العباد بعد حق الله، الذين أوجب الله طاعتهم والإيمان بهم، وتعزيرهم، وتوقيرهم، ونصرهم، وهؤلاء قابلوهم بضد ذلك، ويقتلون أيضًا الذين يأمرون الناس بالقسط الذي هو العدل، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي حقيقته إحسان إلى المأمور ونصح له، وهذه الحالة صفة اليهود ونحوهم، قبحهم الله ما أجرأهم على الله وعلى أنبيائه وعباده الصالحين[2].

٥. أكل أموال الناس بالباطل وكنز الذهب والفضة وعدم إنفاقها في سبيل الله.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

هذا تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين عن كثير من الأحبار والرهبان، أي: العلماء والعباد الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، أي: بغير حق، ويصدون عن سبيل الله، فإنهم إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس، أو بذل الناس لهم من أموالهم، فإنه لأجل علمهم وعبادتهم، ولأجل هداهم وهدايتهم، وهؤلاء يأخذونها ويصدون الناس عن سبيل الله، فيكون أخذهم لها على هذا الوجه سحتًا وظلمًا، فإن الناس ما بذلوا لهم من أموالهم إلا ليدلوهم إلى الطريق المستقيم، ومن أخذهم لأموال الناس بغير حق أن يعطوهم ليفتوهم أو يحكموا لهم بغير ما

(١) المصدر السابق ٢٥/ ٣٥٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٢٦.

أنزل الله، فهؤلاء الأحبار والرهبان ليحذر منهم هاتان الحالتان: أخذهم لأموال الناس بغير حق، وصدهم الناس عن سبيل الله.

رابعًا: المنافقون:

أمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بتبشير المنافقين بأقبح بشارة وأسوئها، وهو العذاب الأليم، وذلك بسبب محبتهم الكفار وموالاتهم ونصرتهم، وتركهم موالاة المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨].

والعذاب الأليم هو الموجع، وذلك عذاب جهنم.

والمنافقون هم الذين أظهروا الإسلام، وأبطنوا الكفر، فطبع على قلوبهم، ثم وصفهم في الآية التالية بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء ١٣٩].

أي: الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة، يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة، ويقولون لهم إذا خلوا بهم: إنما نحن معكم، إنما نحن مستهزئون، أي: بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة، قال الله تعالى منكرًا عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ [النساء: ١٣٩].

وهذا هو الواقع من أحوال المنافقين ساء ظنهم بالله وضعف يقينهم بنصر الله لعباده المؤمنين، ولحظوا بعض الأسباب التي عند الكافرين، وقصر نظرهم عما وراء ذلك، فاتخذوا الكافرين أولياء يتعززون بهم ويستنصرون، والحال أن العزة لله جميعًا، فإن نواصي العباد بيده، ومشيئته نافذة فيهم، وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين، ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين، وإدالة العدو عليهم إدالة غير مستمرة، فإن العاقبة والاستقرار للمؤمنين، وفي هذه الآية الترهيب العظيم من موالاة الكافرين؛ وترك موالاة المؤمنين، وأن ذلك من صفات المنافقين، وأن الإيمان يقتضي محبة المؤمنين وموالاتهم، وبغض الكافرين وعداوتهم[1].

وهكذا تكشف لنا هذه الآية: «عن طبيعة المنافقين، وصفتهم الأولى، وهي ولاية الكافرين دون المؤمنين، كما تكشف عن سوء تصورهم لحقيقة القوى وعن تجرد الكافرين من العزة والقوة التي يطلبها عندهم أولئك المنافقون، وتقرر أن العزة لله وحده فهي تطلب عنده وإلا فلا عزة ولا قوة عند الآخرين! ألا إنه لسند واحد للنفس البشرية تجد عنده العزة، فإن ارتكنت إليه استعلت

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٠٩.

على من دونه، وألا إنها لعبودية واحدة ترفع النفس البشرية وتحررها، العبودية لله، فإن لا تطمئن إليها النفس استعبدت لقيم شتى وأشخاص شتى واعتبارات شتى، ومخاوف شتى، ولم يعصمها شيء من العبودية لكل أحد ولكل شيء ولكل اعتبار، وإنه إما عبودية لله كلها استعلاء وعزة وانطلاق، وإما عبودية لعباد الله كلها استخذاء وذلة وأغلال، ولمن شاء أن يختار، وما يستعز المؤمن بغير الله وهو مؤمن، وما يطلب العزة والنصرة والقوة عند أعداء الله وهو يؤمن بالله، وإن الحمية لتكبت في أول الأمر عمدًا، ثم تهمد، ثم تخمد، ثم تموت!»[1].

المستبشرون

أولًا: الاستبشار بالخير:

١. استبشار الشهداء بإخوانهم الذين لم يلحقوا بهم.

من فضائل الشهداء وكرامتهم عند الله تسليتهم الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم، وتنشيطهم للقتال في سبيل الله والتعرض للشهادة.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٤].

والمعنى: ويفرحون بمن لم يلحق بهم من إخوانهم الذين فارقوهم وهم أحياءٌ في الدنيا على مناهجهم، من جهاد أعداء الله

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٨١.



مع رسوله، لعلمهم بأنهم إن استشهدوا فلحقوا بهم، صاروا من كرامة الله إلى مثل الذي صاروا هم إليه، فهم لذلك مستبشرون بهم، فرحون أنهم إذا صاروا كذلك، ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: لا خوفٌ عليهم لأنهم قد آمنوا عقاب الله، وأيقنوا برضاه عنهم، فقد أمنوا الخوف الذي كانوا يخافونه من ذلك في الدنيا، ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من أسباب الدنيا، ونكد عيشها، للراحة التي صاروا إليها والدعة والزلفة[1].

والنعيم الذي قرت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه وكثرته، وعظمته، وكمال اللذة في الوصول إليه، وعدم المنغص، فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله: فتم لهم النعيم والسرور، وجعلوا يبشر بعضهم بعضًا، بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، وأنهم سينالون ما نالوا، ويهنئ بعضهم بعضًا، بأعظم مهنأ به، وهو: نعمة ربهم وفضله وإحسانه[2].

٢. استبشار المؤمنين بفهم آيات القرآن والعمل بها.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

أي: يبشر بعضهم بعضًا بما من الله عليهم من آياته، والتوفيق لفهمها والعمل بها، وهذا دال على انشراح صدورهم لآيات الله، وطمأنينة قلوبهم، وسرعة انقيادهم لما تحثهم عليه.

٣. الاستبشار بنزول المطر بعد القحط.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨].

أي: عند نزول المطر نقطًا صغيرة يبشر الناس بعضهم بعضًا بنزوله؛ وذلك لشدة حاجتهم وضرورتهم إليه، كما قال: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم: ٤٩].

أي: آيسين قانطين لتأخر وقت مجيئه،، فلما نزل في تلك الحال صار له موقع عظيم عندهم، وفرح واستبشار، ولما نزل في هذه الحال على الأرض اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج كريم.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا

(١) جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٣٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥٦.

﴿فَإِذَا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

٤. استبشار الموفين للبيعة مع الله بالفوز العظيم والنعيم المقيم.

أمر الله عباده المؤمنين الموفين للبيعة معه بإظهار السرور والفرح الذي يظهر أثره على بشرة الوجه، ويبشروا بعضهم البعض بما بايعوا الله عليه، وبما وعدهم به من الجنة والرضوان.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

والفوز العظيم: هو الذي لا فوز أكبر منه ولا أجل؛ لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم المقيم، والرضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات، وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو الله -جل جلاله-، وإلى العوض وهو أكبر الأعواض وأجلها، جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها وهو النفس والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان، وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع وهو أشرف الرسل، وبأي كتاب كُتِب، وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق.

٥. الاستبشار بالجنة.

أخبر الله أن الملائكة تقول للمؤمنين والمؤمنات يوم القيامة: لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار، ماكثين فيها أبدًا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

فلله ما أحلى هذه البشارة بقلوبهم، وألذها لنفوسهم، حيث حصل لهم كل محبوب، ونجوا من كل شر ومرهوب، ولذلك أخبر الله عن أثر هذه البشارة على وجوههم، فقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨-٣٩].

أي: مسرورة فرحة من سرور قلوبهم، قد ظهر البشر على وجوههم.

ومن حسن البيان قوله تعالى: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾[الحديد: ١٢].

فهو ليس إخبارًا عن أمر مستقبل، بل هو أمر كائن يوم القيامة، وأضاف البشرى إلى ضمير المخاطبين لتنال البشرى كل واحد.

ثانيًا: الاستبشار بالسوء:

١. استبشار المشركين بذكر معبوداتهم.

أخبر الله عن حال المشركين بأنهم: إذا ذكر الله وحده نفرت قلوبهم، وإذا ذكر الذين من دونه من الأصنام والأوثان والأولياء إذا هم يفرحون ويسرون؛ لكون الشرك موافقًا لأهوائهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

وهذه الحال أشر الحالات وأشنعها؛ لأنها «تصف حالة نفسية تتكرر في شتى البيئات والأزمان، فمن الناس من تشمئز قلوبهم وتنقبض نفوسهم كلما دعوا إلى الله وحده إلهًا، وإلى شريعة الله وحدها قانونًا، وإلى منهج الله وحده نظامًا، حتى إذا ذكرت المناهج الأرضية والنظم الأرضية والشرائع الأرضية هشوا وبشوا ورحبوا بالحديث، وفتحوا صدورهم للأخذ والرد، هؤلاء هم بعينهم الذين يصور الله نموذجًا منهم في هذه الآية، وهم بذاتهم في كل زمان ومكان، هم الممسوخو الفطرة، المنحرفو الطبيعة، الضالون المضلون، مهما تنوعت البيئات والأزمنة، ومهما تنوعت الأجناس والأقوام»[1].

٢. استبشار قوم لوط بضيوفه.

أخبر الله سبحانه وتعالى عن قوم لوط أنهم حين علموا بمن عنده من الضيوف، فرحوا واستبشروا بضيوفه؛ ليأخذوهم ويفعلوا بهم الفاحشة، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الحجر: ٦٧].

«والتعبير على هذا النحو يكشف عن مدى الشناعة والبشاعة التي وصل إليها القوم في الدنس والفجور في الفاحشة الشاذة المريضة. يكشف عن هذا المدى في مشهد أهل المدينة يجيئون جماعة، يستبشرون بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرة وعلانية، هذه العلانية الفاضحة في طلب هذا المنكر -فوق المنكر ذاته- شيء بشع لا يكاد الخيال يتصور وقوعه، لولا أنه وقع. فقد يشذ فرد مريض فيتوارى بشذوذه، ويتخفى بمرضه، ويحاول الحصول على لذته المستقذرة في الخفاء، وهو يخجل أن يطلع عليه الناس، وإن الفطرة السليمة لتتخفى بهذه اللذة حين تكون طبيعية، بل حين تكون شرعية، وبعض أنواع الحيوان يتخفى بها كذلك، بينما أولئك القوم المنحوسون يجاهرون بها، ويتجمهرون لتحصيلها، ويستبشرون جماعات، وهم يتلمظون عليها! إنها حالة من الارتكاس معدومة النظير»[2].

وفي العصر الحاضر وفي الدول

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٥٥.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٤٩.

الأوروبية أخذ الشذوذ الجنسي ومخالفة الفطرة في الزواج، طريقه عبر التشريعات والقوانين، ذكرت جريدة الرياض السعودية أنه: «بعد أربع محاولات فاشلة في الثمانية أعوام الماضية، وافقت الهيئة التشريعية بولاية كاليفورنيا على مشروع قانون حقوق الشاذين جنسيًا في كاليفورنيا التي يوجد فيها أكبر جماعات الشاذين، وأكثرها نفوذًا سياسيًا، وكانت نتيجة التصويت على مشروع القانون هي (٢٢) صوتًا موافقًا، واعتراض (١٦) رغم الانتقاضات المريرة من قبل المعارضين»[(١)].

ولقد علا شأن الشذاذ حتى أصبحت لهم محطات إذاعية، ذكرت مجلة المجتمع الكويتية أن: «السلطات الفرنسية منحت الترخيص الرسمي لإذاعات يهودية، وحتى جماعات الشذوذ الجنسي منحوا ترخيصًا بإذاعة خاصة بهم، كما أصبحت لهم أصوات في الانتخابات تؤثر على نجاح الناخبين أو إسقاطهم؛ لذا نجد بعض الرؤساء يلتمسون ودهم، ويسمعون إلى مطالبهم، فقد ذكرت مجلة المجتمع أنه: في الولايات المتحدة تعتبر مدينة سان فرانسيسكو بولاية كاليفورنيا عاصمة الشاذين وأصوات هؤلاء الشاذين تمثل ربع ناخبي المدينة تقريبًا، وتقدر نسبة اللوطيين والسحاقيات بواحد من كل عشرة أمريكيين في الولايات المتحدة، مما يجعل عدد الشاذين بين الأمريكيين حوالي ١٧ مليون رجلًا وامرأة من كافة الأصول العرقية والمهنية والغريب في الأمر أن هؤلاء الشاذين لهم مؤسسات تجارية وسياسية مختلفة، وعلى سبيل المثال لا الحصر: تبلغ أرصدة اتحاد أطلس للادخار والقروض للشاذين حوالي ٤٢ مليون دولار»[(٢)].

«وتقول الإحصائيات الحديثة أن عدد الشاذين جنسيًا في الولايات المتحدة الأمريكية يبلغون ١٧ مليون، ويقدرهم بعض الباحثين بعشرين مليونًا، وهناك معابد وكنائس خاصة في الولايات المتحدة تقوم بتزويج الرجال بالرجال، والنساء بالنساء في حفلات خاصة.

وفي مدينة لوس أنجلوس فقط يتجمع ثلاثمائة ألف شاذ جنسيًا، وهذا يؤكد ما تقوله دائرة المعارف البريطانية (طبعة ٨٢) من أن أكبر تجمعات الشاذين جنسيًا هي في المدن الكبيرة مثل نيويورك ولوس أنجلوس وشيكاغو ولندن وباريس وأمستردام.

وأبيح الشذوذ الجنسي في بريطانيا، وصدر قانون بذلك وافق عليه مجلس العموم البريطاني بأغلبية (١٦٤) صوتًا ضد

(١) انظر: جريدة الرياض ٥٧١٨/٢٨ في ١٧ جمادى الأول ١٤٠٤هـ، ١٨ فبراير ١٩٨٤م.

(٢) أفول شمس الحضارة الغربية من نافذة الشذوذ الجنسي: مصطفى فوزي غزال، ص٥، ١٩.

(١٠٧) كما وافق عليه مجلس اللوردات بأغلبية (٩٤) صوتًا ضد (٤٩)»[1].

إن الحضارة التي تشيع فيها الفاحشة حضارة ميتة، منتهية حتمًا إلى الدمار والهلاك، ومقدمات الدمار والانهيار في الحضارة الغربية تنبئ بالمصير المرتقب لأمم ينخر فيها كل هذا الفساد.

آثار البشرى

أولًا: آثار البشرى في الدنيا:

للبشرى آثار عظيمة في نفوس المبشرين منها:

١. حب المبشر لمن يبشره واستئناسه به.
٢. محبة الله عز وجل والسعي في مرضاته؛ لحبه لتبشير المؤمنين لما فيه مسرتهم.
٣. حصول الفرج بعد الشدة.
٤. انشراح الصدر، وسعادة القلب.
٥. استقرار النفس، وراحة البال.
٦. الطمأنينة، وسكون النفس، ورفع الروح المعنوية.
٧. نشاط المؤمنين وشوقهم لما أعد الله عز وجل لهم من كريم فضله.
٨. المبادرة في امتثال الأحكام الشرعية.
٩. ثبات الأقدام ويقين القلب في مواضع النزال مع العدو.
١٠. الشوق للجهاد في سبيل الله عز وجل رغبة لما أعد الله عز وجل للشهداء في سبيله.
١١. اليقين بنصر الله عز وجل للمؤمنين المجاهدين في سبيله.

(١) انظر: ضريبة الخروج على الفطرة: محمد السقا عيد، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ص٤٢.

ثانيًا: آثار البشرى في الآخرة:

للبشرى آثار في الآخرة تظهر على وجوه المبشرين منها:

١. بياض الوجوه أو اسودادها.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]. أي: تبيض وجوه أهل السعادة الذين آمنوا بالله ورسوله، وامتثلوا أمره، وتسود وجوه أهل الشقاوة ممن كذبوا رسوله، وعصوا أمره.

٢. لا يغشى وجوه المؤمنين غبار ولا ذلة، كما يلحق أهل النار.

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦]. أي: للمؤمنين الذين أحسنوا عبادة الله فأطاعوه فيما أمر ونهى، الجنة، وزيادة عليها، وهي النظر إلى وجه الله تعالى في الجنة، والمغفرة والرضوان، ولا يغشى وجوههم غبار ولا ذلة، كما يلحق أهل النار.

٣. نضارة وجوه السعداء، وعبوس وجوه الأشقياء.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢]. أي: وجوه أهل السعادة يوم القيامة مشرقة حسنة ناعمة ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤]. ووجوه الأشقياء يوم القيامة عابسة كالحة.

٤. استنارة وجوه أهل النعيم واسوداد وجوه أهل الجحيم.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨]. أي: وجوه أهل النعيم في ذلك اليوم مستنيرة.

وقال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾ [عبس: ٤٠]. أي: ووجوه أهل الجحيم مظلمة مسودة.

٥. ظهور أثر النعمة على وجوه أهل السعادة.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾﴾ [الغاشية: ٨]. وظهور الذلة على وجوه أهل الشقاوة، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ [الغاشية: ٢].

٦. ثبات الأقدام والقلوب، ورسوخهما في أهوال القيامة.

٧. يؤمن الله عز وجل خوف المؤمن، ويقر عينه فما عظيمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هي للمؤمن قرة عين.

٨. التأنيس من وحشة القبور، وعند النفخة في الصور، والتأمين من عذاب الله عز وجل يوم البعث والنشور، وتجاوز الصراط المستقيم، والتمتع والتلذذ من جميع مما تشتهيه النفوس، وتقر به

العيون في جنات النعيم.

٩. كرم الضيافة والعطاء والإنعام من غفران للذنوب والرحمة بالعباد.

١٠. النجاة من العذاب الأليم.

موضوعات ذات صلة:

الإنذار، الترغيب، الترهيب، الدعوة



عناصر الموضوع

مفهوم البصر

أولًا: المعنى اللغوي:

البصر من الجذر(ب ص ر) ويعني العين، أو حاسة الرؤية، والجمع أبصار.

يقال: أبصرت الشيء رأيته، والبصير خلف الضرير، والبصر العلم، وبصرت بالشيء: علمته وهو نفاذ في القلب.

ويقال: بَصُرَ بَصَرًا وبَصَارَةً، واستبصر في أمره ودينه إذا كان ذا بصيرة.

والبصيرة اسمٌ لما اعتقد في القلب من الدين، وحقيق الأمر، وهي العلم والخبرة، أو هي البرهان.

والتبصر: التأمل والتعرف، والتبصير: التعريف والإيضاح، والبصير هو العالم[(١)].

وأصل كل المعاني وضوح الشيء[(٢)].

ومما سبق يتضح أن البصر ورد بمعنى العين وحاسة الرؤية، والعلم، والنور، ويشترك في كل المعاني الوضوح والإدراك.

ثانيًا: البصر اصطلاحًا:

عرفه بعض العلماء «أنها القوة المودعة في العصبتين المجوفتين اللتين تتلاقيان ثم تفترقان، فيتأديان إلى العين تدرك بها الأضواء والألوان والأشكال»[(٣)]، والبصيرة هي قوة في القلب تدرك بها المعقولات، بمثابة البصر للنفس يرى به صور الأشياء وظواهرها، وهي التي يسميها الحكماء العاقلة النظرية، والقوة القدسية[(٤)].

وقد نخلص إلى أن البصر هو تلك القوة الربانية التي أوجدها الله في عيني الإنسان ليدرك بها ما حوله، وأودعها في قلبه وعقله ليميز بين الخبيث والطيب، ويختار لنفسه الطريق الصحيح.

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٧/ ١١٧، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٥٩، الصحاح، الجوهري ٢/ ٥٩١، مختار الصحاح، الرازي ١/ ٣٥.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٥٣، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٥٠ .

(٣) التعريفات، الجرجاني ١/ ٤٦.

(٤) انظر: المصدر السابق ١/ ٤٦، الكليات، الكفوي ١/ ٢٤٧، التوقيف، المناوي ١/ ٧٩.



البصر في الاستعمال القرآني

ووردت مادة (بصر) في القرآن الكريم (١٤٨) مرة[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام:١٠٤]
الفعل المضارع	٢٥	﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ۝٢٠﴾ [هود:٢٠]
فعل الأمر	٤	﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٥﴾ [الصافات:١٧٥]
المصدر	١	﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق:٨]
اسم الفاعل	٨	﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ [النمل:١٣]
الصفة المشبهة	٥١	﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠﴾ [فصلت:٤٠]
اسم	٥٥	﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء:٣٦]

وجاء البصر في القرآن على ثلاثة وجوه[2]:

الأول: بصر العين: ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف:٩٦].

الثاني: بصر القلب: ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٩٨﴾ [الأعراف:١٩٨]. يعني: بقلوبهم.

الثالث: بصر الحجة والبرهان: ومنه قوله: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥﴾ [طه:١٢٥]. يعني: بصيرًا بالحجة.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص١٢٣،١٢١، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الباء ص ٣٢٢،٣٢٠.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص١٢٦،١٢٥، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص١٩٩-٢٠٠، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ٢٢٣-٢٢٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ النظر:

النظر لغة:

تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته[(١)]، قال ابن فارس: «(نظر) النون والظاء والراء أصل صحيح يرجع فروعه إلى معنى واحد، وهو تأمل الشيء ومعاينته»[(٢)].

والنظر يقع على الأجسام والمعاني، فما كان بالأبصار فهو للأجسام، وما كان بالبصائر كان للمعاني[(٣)].

النظر اصطلاحًا:

«تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به التأمل والفحص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص، وهو الروية»[(٤)].

الصلة بين النظر والبصر:

يوجد تقارب كبير في المفردتين، فهما يشتركان في معنى الرؤية العينية، والعلم، وكذلك يشتركان في مفهوم الانتظار.

٢ الرؤية:

الرؤية لغة:

وتعني إدراك المرئي والإقبال بالبصر نحوه، قد يدرك وقد لا يدرك؛ ولذلك قد ينظر الشخص ولا يرى المرئي، وعليه فيجوز أن يقال لله تعالى: إنه راءٍ، ويقال: إنه ناظر.

الرؤية اصطلاحًا:

هو «المشاهدة بالبصر حيث كان في الدنيا والآخرة»[(٥)].

الصلة بين الرؤية والبصر:

المفردتان متقاربتان؛ لأنهما تشتركان في معنيي العلم والمشاهدة بجارحة النظر.

---

(١) المفردات، الراغب ص٨١٢.
(٢) مقاييس اللغة ٥/ ٤٤٤.
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات ابن الأثير ٥/ ٧٧.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ٢ / ٤٣٨.
(٥) التعريفات، الجرجاني ١/ ١٠٩.



٣ العمى:

العمى لغة:

«هو ذهاب البصر»[١].

العمى اصطلاحًا:

هو «ضد البصر والبصيرة»[٢].

الصلة بين العمى والبصر:

المفردتان متضادتان، فالبصر هو الرؤية والعلم والنور، أما العمى فهو عكسه.

(١) العين، الفراهيدي ٢/ ٢٦٦.

(٢) التوقيف، المناوي ١/ ٢٤٧.

فوائد بلاغية متعلقة بالبصر

أولًا: تقديم السمع على البصر في مواضع:

تقدم السمع على البصر في العديد من المواضع القرآنية، كقوله عز وجل: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٧].

وقوله تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٠].

قال ابن عجيبة: «قدم في جميع القرآن نعمة السمع على البصر لأنه أنفع للقلب من البصر، وأشد تأثيرًا فيه، وأعم نفعًا منه في الدين، إذ لو كانت الناس كلهم صمًا، ثم بعثت الرسل، فمن أين يدخل عليهم الإيمان والعلم؟ وكيف يدركون آداب العبودية وأحكام الشرائع؟ إذ الإشارة تتعذر في كثير من الأحكام»[١].

وقد ذكر الشعراوي ما رآها أسبابًا لتقديم السمع على البصر في القرآن الكريم، وهي:

- كون السمع هو أول حاسة تعمل في جسم الإنسان، فهو يسمع بمجرد ولادته بخلاف البصر.
- يقظة السمع في كل الأوقات، فالبصر ينام في الليل، والأذن لا تنام، وهي الوسيلة التي تتنبه للأصوات فيستيقظ صاحبها بسببها، وقد امتن الله تعالى على أصحاب الكهف فأنام أسماعهم حتى لا تزعجهم الأصوات، ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾[الكهف: ١١][٢].

وقد نبه بعض المتكلمين في فضل السمع على البصر على أن البصر يعتمد على الضوء، ولا رؤية في الظلام، بينما السمع يعمل دون الحاجة إلى شيء، ثم بينوا أن من العلماء من فضل البصر على السمع، وقد استندوا إلى أن أفضل النعيم النظر إلى الرب تعالى وهو يكون بالبصر، والذي يراه البصر لا يقبل الغلط، بخلاف ما يسمع، فإنه يقع فيه الغلط والكذب والوهم، فمدرك البصر أتم وأكمل، وقالوا: إن محله أحسن وأكمل وأعظم عجائب من محل السمع، وبهذا يظهر شرف البصر وفضله[٣].

قال ابن تيمية: «والتحقيق: أن السمع أوسع والبصر أخص وأرفع، وإن كان إدراك السمع أكثر، فإدراك البصر أكمل»[٤].

---

(١) البحر المديد ٣/ ١٥٢.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١٣/ ٨١١٥.

(٣) انظر: مقال إلكتروني: الإعجاز العلمي في تقديم السمع على البصر، عادل الصعدي، بتاريخ: ٢/ ١/ ٢٠١٣: www. jameataleman. org

(٤) مجموع الفتاوى ١٦/ ٦٩.

ثانيًا: إفراد السمع، وجمع البصر:

أما إفراد السمع وجمع البصر في كثير من الآيات فله حكمة بينها بعض العلماء، قال ابن عجيبه: «وإنما أفرده (يعني السمع)، وجمع الأبصار والأفئدة لأن متعلق السمع جنس واحد، وهي الأصوات، بخلاف متعلق البصر، فإنه يتعلق بالأجرام والألوان، والأنوار والظلمات، وسائر المحسوسات، وكذلك متعلق القلوب معاني ومحسوسات، فكانت دائرة متعلقهما أوسع مع متعلق السمع»[1].

وقد بين الشعراوي أن السبب في إفراد السمع وجمع البصر كون الأذن ليس لها غطاء يحجب عنها الأصوات، كما أن للعين غطاءً يسدل عليها ويمنع عنها المرئيات، فالسمع واحد لي ولك وللجميع، الكل يسمع صوتًا واحدًا، أما المرئيات فمتعددة، فما تراه أنت قد لا أراه أنا، وقد وردت بعض الاستثناءات في ذلك، فقد جاء البصر مفردًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء: ٣٦].

لأن الآية تتكلم عن المسئولية، والمسئولية واحدة ذاتية لا تتعدى، فلابد أن يكون واحدًا[2].

(١) البحر المديد ٣/ ١٥٢.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١٩/ ١١٨٠٨.

البصر من صفات الله تعالى

أثبت الله تعالى لنفسه البصر، وأوجب علينا الإيمان ببصره وبجميع صفاته عز وجل كالسمع والخبرة وغير ذلك، كما غلب في القرآن اقتران اسم الله البصير بالسميع والخبير خاصةً، وسيأتي بيان ذلك فيما يلي:

أولًا: صفة البصر في حق الله تعالى:

تقررت صفة البصر لله تعالى فيما يقارب المائة آية، حيث ختمت كثير من الآيات بفاصلة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠].

وفاصلة: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[آل عمران: ١٥٦].

وفاصلة: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

وقد أكد المولى عز وجل تفرده بالصفات العلا، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قال الإمام أبو حنيفة: «لا يشبه شيئًا من خلقه، ولا يشبهه شيء من خلقه»[3].

ثم قال بعد ذلك: «وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا»[4].

(٣) الفقه الأكبر ١/ ٢٤.
(٤) المصدر السابق ١/ ٢٤.

والذي يتوجب علينا نحن المسلمين هو الإقرار بما ورد، والإيمان بما صح من غير تشبيه ولا تمثيل، ولا إلحاد ولا تعطيل، بل نذعن ونسلم بذلك، مع إيمان ويقين، ونثبته إثبات وجود بلا تكييف ولا تمثيل، ومن ذلك صفة العين لله تعالى ، فقد أثبتها في قوله عز وجل: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩].

وقوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

وغيرها من المواضع[١].

وفي الآيات الكريمة يثبت الله سبحانه لنفسه عينًا يرى بها جميع خلقه مهما بعدوا أو لطفوا، فلا تؤثر على رؤيته الحواجز والأستار، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤].

والرؤية بالعين صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به، فلا يقتضي إثباتها كونها جارحة مركبة من شحم وعصب وغيرهما، فهي غير جسم ولا جوهر ولا عرض، فلا يعرف لها ماهية ولا كيفية، وقد فسر المعطلة تلك العين بأنها كناية عن الحفظ والرعاية الربانية، وهذا نفي صريح وتعطيل لصفة من صفات كمال الله عز وجل التي لا ينبغي في حقها إلا التصديق والتسليم[٢].

وقد عاب الله تعالى على المشركين عبادتهم لما لا يسمع ولا يبصر، فقد قال عز وجل على لسان نبيه إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢].

أقول: إن لم يكن في إثبات صفة السمع والبصر لله عز وجل غير ما قاله نبي الله إبراهيم في هذه الآية لكفتنا.

قال السعدى: «(البصير) الذي يبصر كل شيء، وإن رق وصغر، فيبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ويبصر ما تحت الأرضين وما فوق السماوات السبع، وأيضًا بصير بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته»[٣].

وقال ابن القيم: «البصير الذي لكمال بصره يرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة، وأعضائها، ولحمها، ودمها، ومخها، وعروقها، ويرى دبيبها على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء»[٤].

ثانيًا: حكمة اقتران اسم الله البصير بالسميع والخبير في القرآن:

ذكر ابن القيم: «أن لاقتران صفات الله في الآيات قدرًا زائدًا على مفرديهما، فله بذلك جميع أقسام الكمال: كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من الآخر بمفرده،

(١) انظر: لوامع الأنوار البهية، السفاريني ١/ ٢٣٩.

(٢) انظر: شرح العقيدة الواسطية، الهراس ص٩٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٩٤٦.

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين ١/ ١٢٧.

وكمال من اقتران أحدهما بالآخر»[1].

ولعل في ذكر السميع والبصير في كثير من الفواصل القرآنية دلالة تأكيدية على علم الله الذي يشمل كل شيء، المسموعات والمرئيات ودواخل النفوس.

تأمل قول الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[النساء: ١٣٤].

ففي الآية تشجيع على العمل لاستحقاق ثواب الدنيا والآخرة، ولو أفرد الله تعالى السمع مثلًا لدخل في النفس أن الأعمال التي تجعله أهلًا للثواب هي المسموعة فقط، كالذكر والدعاء.. الخ، أما مع اقتران البصر مع السمع تأكد لنا أن الله تعالى يحكم بناءً على كل أعمالنا، ما يسمع منها وما يبصر، فلا يخفى عليه مثقال ذرة، وهو العليم بكل أفعالنا، وفي اقترانهما تكامل يقرر الإحاطة الشاملة والقدرة المطلقة له عز وجل على مراقبة أعمال العباد.

وقد اقترن ذكر البصر مع اسم الله الخبير في بعض الآيات، كقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الأنعام: ١٠٣].

ولا يخفى تجانس إدراك الأبصار، واطلاعه عليها، وعلى ما تطلع عليه مع الخبرة التي تفيد بإحاطته علمًا بكل معلوم[2].

والخبير كما وضح ابن القيم: «هو الذي انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها كما أحاط بظواهرها، ولعل من الإبداع اقتران الأبصار التي تدرك الظواهر باسم الله الخبير الذي يدرك البواطن»[3].

(١) مدارج السالكين ١/ ٥٨.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ١٥٠.

(٣) الصواعق المرسلة ٢/ ٤٩٢.

البصر نعمة إلهية

نعم الله تعالى عظيمة، من أهمها نعمة البصر، ومن كمال الشكر الاعتناء بهذه الحاسة، واستعمالها فيما يرضي خالقها، وستتحدث عن هذه الأمور في السطور الآتية:

أولًا: نعمة الإيجاد:

أوجد الله تعالى لنا نعمة من أجل وأعظم النعم، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

وقد ذكر الله عباده بهذه النعمة العظيمة في عدة مواضع، منها قوله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[الملك: ٢٣].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ٧٨].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[السجدة: ٩].

فقد خلق الله تعالى أداة الإبصار في دقة متناهية، وجعلها مكونة من طبقات ثلاث، الأولى للحماية الخارجية، والثانية هي المشيمية التي تغذي شبكية العين وتمدها بالأوكسجين، والثالثة هي الشبكية، وهي الطبقة التي تحتوي على المستقبلات الضوئية والمسئولة عن البصر، حيث إنها تستقبل الضوء الواقع عليها وتحوله لإشارات كهربائية تنتقل عن طريق الألياف العصبية البصرية، كما تحتوي العين على جسم هلامي كروي شفاف يحافظ على رطوبتها، وكذلك على القرنية والقزحية التي تعطي العين لونها الجميل ويتوسطها البؤبؤ، وفيها نظام دمعي يضمن سلامة العين، وفيها مجموعة من العضلات التي تتحكم بحركة العين للأعلى والأسفل، واليمين والشمال، وتتبادل أدوارها ببالغ الدقة والروعة والتكامل ودون أدنى جهد من البشر، كيف لا تكون كذلك وهي هبة الخالق القادر العظيم تبارك وتعالى وتنزه عن كل نقص[1].

قال عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾[الأنعام: ٤٦].

ثانيًا: شكر نعمة البصر:

يعتبر شكر النعم سجيةً من سجايا المحمودين؛ ذلك لأن الكثير من الناس يرفلون بآلاء الله التي لا تعد ولا تحصى، إلا

---

(١) انظر: مقال إلكتروني: تشريح العين، خليل رضا اليوسفي، بدون تاريخ.: www. gulfkids. com

أنهم كثيرو الغفلة عنها، ولا يستشعرونها إلا إذا افتقدوها، وهنا يتضح البون ويظهر فضل الشاكرين على الجاحدين، وقد أمر الله عز وجل عباده أن يتأدبوا بأدب الشكر، يقول تبارك وتعالى مخاطبًا رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم ومن بعده أمته: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[الزمر: ٦٦].

وقد حبب الله تعالى إلى عباده أدب الشكر، بأن جعله سببًا لزيادة النعم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[إبراهيم: ٧].

يقول السعدي في تفسيره: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ «أي على ما أنعمت عليكم بهذه النعم، ودفعت عنكم صنوف النقم، والشكر يكون بالقلب إقرارًا بالنعم واعترافًا، وباللسان ذكرًا وثناءً، وبالجوارح طاعةً لله وانقيادًا لأمره واجتنابًا لنهيه، فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادة في النعم المفقودة»[(١)].

وقد امتن المولى عز وجل علينا بنعمة البصر التي لا تقدر بثمن، ولا تقاس بمقياس، فمن خلالها ينتقل المجهول إلى حيز المعلوم، وبها يدرك الإنسان ما حوله، فيميز الجميل من القبيح ويتتبع سلوك البشر، فيعي ببصره الفرق بين الحق والباطل، ولعل من أهم طرق شكر هذه النعمة العظيمة هو استخدامها فيما يرضي الله عز وجل، ومن هذا:

- التدبر في الكون ومخلوقاته.
- تأمل كتاب الله تعالى والاستبصار به.
- الإحسان إلى الناس بالنظرة العطوفة مع حسن الإصغاء.
- تجنب النظر إلى ما حرم الله تعالى من صور أو أفلام، وغض البصر عما لا يحل.

وقد وصف الله المكذبين بأنهم قليلو الشكر، قال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[السجدة: ٩].

فمن وفقه الله وسدده كان شاكرًا لأنعم الله عليه، عاملًا بهذا الشكر، ومن حرمه الله ذلك فقد خذل وخسر خسرانًا مبينًا[(٢)].

يقول القشيري: «وشكرهم عليها استعمالها في طاعته، فشكر السمع ألا تسمع إلا بالله ولله، وشكر البصر ألا تنظر إلا بالله ولله»[(٣)].

المعنى أن يكون السمع والبصر بحق الله، ومراعاة حرماته، وهدفه إرضاء الله ونيل مجازاته.

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ٥٧.

(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٩/ ١٢١.

(٣) لطائف الإشارات ٢/ ٥٨٣.

أنواع البصر

بعد جمع آيات البصر بجميع مشتقاتها، وجد أن البصر ورد في القرآن الكريم بمعنيين هما:

أولًا: بصر حقيقي:

ورد البصر في القرآن الكريم بالمعنى الحقيقي، أي بمعنى النظر بالعين في آيات كثيرة، منها قوله عز وجل: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١٢].

وتأتي الآية في سياق قصة سيدنا موسى عليه السلام حينما ألقته أمه في اليم؛ طاعة لله تعالى ، فتلقاه فرعون ورباه في كنفه، فتصف الآية شعور الأم الرءوم التي من رحمتها بابنها طلبت من ابنتها أن تتبع أثر موسى عليه السلام ، فكانت الأخت تتبع أخاها بالنظرات المتوارية كي لا يحسوا بها أو يعلموا أنها أخته، فتتحسس أخباره وتنقلها لأمها حتى تحقق وعد الله للأم، بأن رفض موسى عليه السلام كل المراضع، حتى جاءته أمه فأقبل عليها وعاد إلى أحضانها[١].

وقد ذكر الواحدي: «أن أخت موسى أبصرت أخاها بصرًا حقيقيًا لا واهمًا، وقد تابعته تراقبه بعينيها فعرفت إلى من ذهب وماذا حل به»[٢].

ولا يخفى أن ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ التي ختمت بها الآية مؤكدة أن البصر المقصود في الآية هو الحاسة البشرية التي محلها العين، فهي التي تدرك بالشعور الإنساني.

وقد ذكر البصر بمعناه الحقيقي في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّاۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾[الرعد: ١٦].

فقد ضرب المولى عز وجل مثلًا حتى يوضح الفرق بين المؤمن والكافر، فجاء الاستفهام الإنكاري: هل يتساوى الأعمى الذي لا يرى والبصير الذي يرى بعينه كل شيء؟ وهل الظلمة الحالكة كالضياء الذي يمكن الإنسان من رؤية الأشياء؟

ونعلم أن المثل القرآني يقوم بتشبيه الخفي بالجلي المعلوم لدى البشر حتى يرغب أو يرهب، والجلي لدينا هو الحاسة الناظرة، فقد شبه الكافر الذي ارتكب الكفر بالأعمى الذي فقد بصره فتاه واحتار، وشبه المؤمن الذي تلبس بالإيمان بالبصير الذي يميز الأشياء وخصائصها، ويتلذذ بنعم الله

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٣١-٥٣٣.

(٢) التفسير الوسيط ٣/ ٣٩٢.

حوله[1].

وكذلك ورد المعنى الحقيقي للبصر في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٣٠].

فالبصير في الآية هي صفة من صفات الله عز وجل التي أثبتها لنفسه، فنؤمن بها دون تحريف أو تكييف أو تمثيل، ونقر أن لله تعالى بصرًا لا كبصرنا، وسمعًا لا كسمعنا، تعالى وتنزه عن كل نقص[2]، فهو الذي يرى عباده ويطلع على أحوالهم، وما يحتاجون فيمدهم بالرزق والعون[3].

ثانيًا: بصر معنوي:

جاء البصر ومشتقاته بمفهوم آخر غير الحاسة المتعلقة بالعين الباصرة، فقد وردت البصيرة في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[يوسف: ١٠٨].

وكان المقصود بالبصيرة الحجة الواضحة، التي يستدل على قدرة الله وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته من خلالها، والتي تعتمد على الآيات الكونية الكثيرة، وعلى الأدلة النظرية والعقلية[4].

وقد ذكر أن معنى ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ هنا أي على «علم ويقين، من غير شك، ولا امتراء، ولا مرية»[5].

وكذلك أتى البصر المعنوي في قوله جل وعلا: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[الجاثية: ٢٣].

حيث ضل من جعل مع الله إلهًا من الهوى، فأطاعه حتى ختم على حواسه فهو لا يتعظ، وقد جعل على بصره الإدراكي غشاوةً مانعةً عن الاستبصار والاعتبار، وعن فهم الآيات وسماع الحق[6].

وقد ورد البصر المعنوي في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[آل عمران: ١٣].

والآية تصف ما حصل يوم بدر، فقد رأى الكفار - على كثرتهم- المسلمين

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/ ٤٨٨.
(٢) انظر: لوامع الأنوار البهية،السفاريني ١/ ٢٣٩.
(٣) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٢٥٥.
(٤) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٣٥٠.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٤٠٦.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٢٩٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٧٣.

القليلين ضعفيهم، أو على المعنى الثاني وهو أن المسلمين رأوا الكفار مثليهم، وهم في الحقيقة كانوا ثلاثة أمثالهم، والعبرة في أيٍ من المعنيين هي نزول تأييد الله ونصره لعباده المؤمنين المتقين، ولا يدرك هذه العبرة إلا أولي ﴿ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ أي العقول المدركة التي تتدبر سنن الله في خلقه[1].

وجاءت البصائر بمعنى البرهان أو القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف: ٢٠٣].

قال ابن أبي زمنين عن البصائر: هي «القرآن»[2]، أي أن معنى الآية: قل لهم يا محمد على سبيل التبكيت ردًا على تهكمهم بك: إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي فأنا متبع لا مبتدع، فأنا أبلغكم الوحي دون تغيير أو تبديل[3].

وفي الاستخدام المعنوي تشبيه بليغ، فقد شبه الدلالات على صدق النبوة وبرهان القرآن الكريم المعجز بالبصائر، حيث حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه.

والمعنى: هذا القرآن بمنزلة بصائر القلوب التي تجعلها تدرك وتقر[4] والبصائر التي أمدنا بها كتاب الله تعالى بها يبصر الإنسان الحق، ويدرك الصواب، وهي الحجج البينة، والبراهين النيرة على وحدانية الخالق، وعلى كماله وجلاله -عز وعلا-[5].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٣٧٢.
(٢) تفسير القرآن العزيز ٢/ ١٦٣.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي ٥/ ٤٦١.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ٢٢٤.
(٥) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٢٤٤.

مسئولية البصر وصيانته

كما تكرم الله تعالى علينا بالبصر، أوجب علينا صيانته وحفظه، والتقصير في ذلك نكران للنعمة، لذا نحن مسئولون عنه ملزمون بتهذيبه ومنعه من الوقوع فيما حرم الله، فهو شاهد علينا يوم القيامة، ولبيان ذلك نفصل الحديث كما يلي:

أولًا: مسئولية البصر:

البصر نعمة وأمانة، وفي التقصير بهذه النعمة العظيمة جحود ونكران، ولعلنا مسئولون عن توجيه البصر بنوعيه للخير، فعلينا أن نقوي بصيرتنا ونغذيها بالعلم والإيمان، كما علينا الاهتمام ببصرنا من خلال حفظ العين من الإصابة بمكروه، فلا يعرضها الإنسان إلى الأخطار ولا يهملها إذا ما تعرضت للأسقام، بل يعتني بها كل العناية، وعليه حفظها من النظر إلى ما حرم الله تعالى ، فلا يتلفها بالتلصص على الآخرين، أو باستراق النظر إلى النساء الأجنبيات، فهذا باب الزنا ومدخله الأساس؛ فلا يتصور أن يتجرأ الإنسان على انتهاك الحرمات والسقوط في الرذائل وهو غاضٌ لبصره، إذ لابد للشيطان من مدخل يدمر به الأخلاق ويزين من خلاله الفاحشة، وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء)[1].

قال ابن عاشور: «ولم يذكر الرجال لأن ميل النساء إلى الرجال أضعف في الطبع، وإنما تحصل المحبة منهن للرجال بالإلف والإحسان»[2].

لكنهن مأمورات أيضًا بغض البصر عمن لا يحل لهن: قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١].

فالأمر بالغض عام للجنسين؛ لأن السماح للعين برؤية الحرام يجعلها تعتاد وتدمن على ذلك، وهذا الأمر يورث خللًا في السلوك وضعفًا في الإيمان، وقد يسبب لصاحبه مشاكل اجتماعية ونفسية جمة، فالحرام يجر حرامًا، والنظر الحرام لا يأتي بخير.

ثانيًا: صيانة البصر:

على المسلم صيانة بصره وتربيته على عدم النظر إلى الحرام، ومن الأمور التي تساعد على ذلك:

- الإخلاص في الرغبة في غض البصر، والعزم الداخلي على ذلك.
- مراقبة الله تعالى واستحضار وجوده

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة ٧/ ٨ رقم ٥٠٩٦.
(٢) التحرير والتنوير ٣/ ١٨١.

دومًا، فهذا مانع قوي للذنوب.

- الاستعانة بالدعاء، فمن دعا الله مخلصًا واثقًا في الاستجابة أكرمه الله في الدنيا والآخرة، قال عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].
- تكثيف الطاعات وإشغال النفس بالنافع من الأفعال؛ سدًا لأبواب الشيطان ومداخله، ومن هذه الطاعات الوضوء، فقد ورد في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إذا توضأ العبد المسلم -أو المؤمن- فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء -أو مع آخر قطر الماء-، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء -أو مع آخر قطر الماء-، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء -أو مع آخر قطر الماء- حتى يخرج نقيا من الذنوب)[1].
- تجنب الاستسلام لوسائل الإعلام الفاسدة، فقد كثر هذه الأيام المحتوى السيء على المواقع الإلكترونية من صور ومقاطع، وكذلك محطات التلفاز المتزايدة التي تبث سمومها في أبناء هذا الجيل، فالسمة الغالبة على القنوات الفضائية هي الفجور والعري، ولا تخلو الأفلام والمسلسلات التي تبث ليلًا ونهارًا من الأفكار الهدامة والمناظر التي توقد شهوة الشباب، وتحرفهم عن الطريق القويم.

والرسالة الموجهة إلى الآباء والأمهات هي أن يتقوا الله في أبنائهم، فقد جعلوا أمانة عندهم، فليراقبوهم جيدًا، وليحرصوا أن يوجهوهم إلى ما فيه النفع للأمة، فالنفس إن لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية، والشاب يملك القوة والوقت اللذين يمكنانه من الإبداع والابتكار إن لم تترك طاقاته فريسة للشهوات والنزوات.

وعلى رجال الإعلام تقوى الله فيما يبثون من أفكار، فعقول الشباب أمانة، وعليهم استغلالها وتوجيهها إلى ما فيه خير الأمة.

أما ولاة الأمر فعليهم أكبر المسئوليات؛ لأنهم يملكون الميزانيات التي يمكن أن تنفق في إصلاح الإعلام ورقابته، وزيادة وعي الناس بالتثقيف ونشر الدعاة، بدلًا من إتلافها فيما لا تستفيد منه الأمة لا من قريب ولا من بعيد.

ثالثًا: شهادة البصر:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب خروج الخطايا مع ماء الوضوء ١/ ٢١٥ رقم ٢٤٤.

قرر القرآن الكريم أن أعضاء الجسم تشهد يوم القيامة على صاحبها، فتنطق بما فعلت في الدنيا، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾[القيامة: ١٤].

وقد ذكر الطبري في تفسيره للآية: «أن جوارح الإنسان كلها من سمع وبصر وأيدي وأرجل، وكل الأركان تشهد بما فعل من خير وشر»[1]، ولا حاجة لله تعالى بهذه الشهادة لأنه عز وجل: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾[غافر: ١٩].

لكنه عز وجل يجعل من شهادة الجوارح أمام صاحبها حجة له أو عليه، وفي الحديث الشريف عن أنس بن مالك، قال: (كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك، فقال: هل تدرون مم أضحك؟ قال قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال فيقول: بعدًا لكن وسحقًا، فعنكن كنت أناضل)[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء: ٣٦].

والمعنى: أن حواس الإنسان تسأل، يسأل السمع على حدة عما سمع، ويسأل البصر على حدة عما بصر، ويسأل القلب عما عزم[3].

فالمسئولية ثابتة في حق جميع الأركان، وفي حق البصر والبصيرة على حد سواء.

(١) جامع البيان ٢٤/ ٦٢.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق ٤/ ٢٢٨٠ رقم ٢٩٦٩.
(٣) انظر: تفسير يحيى بن سلام، ١/ ١٣٥.

إدراك البصر

من كمال حكمة الله تعالى أن جعل العين البشرية تدرك بعض الأمور؛ لغاية الاهتداء والعبادة، وتعجز عن إدراك أمور أخرى استأثر الله تعالى بها في علم الغيب عنده، نبين المدركات وغير المدركات كما يلي:

أولًا: ما يدركه البصر:

١ . الآيات في الآفاق.

من حكمة الله جل وعلا أن تدرك العين البشرية جزءًا من قدرات الله المطلقة في آيات الكون؛ حتى تذعن وتستسلم للخالق العظيم الذي ليس له ندٌّ، فهي تبصر خلق السماء بلا عمد، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[الرعد: ٢].

فالسماء أعجوبة بتوازنها ومكوناتها، وقد ذكر بعض المفسرين: «أنها مرفوعة بأعمدة ربانية لا يراها الإنسان، لكن العين وإن لم تدرك العمد فإنها تدرك الأعظم، وهي السماء المحكمة البديعة التي تحمل الخير والغيث، وتتألق فيها النجوم والكواكب»[1].

وحفظ السماء هو بحد ذاته آية من الآيات العظيمة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

فلم يكن فيها -على كبر مساحتها- صدوع أو فتوق[2]، وفي الآية: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[الحج: ٦٥].

قال ابن كثير: «فالله هو الذي يمسكها بقدرته وفضله، وكونها كذلك هو الأكمل في القدرة»[3].

ومما تدركه العين أيضًا نزول الغيث من السماء الذي تتجلى فيه قدرة الله تعالى العظيمة، حيث يمر الماء بمراحل التبخر من المسطحات المائية بفعل الحرارة، ثم التكثف بفعل البرودة والنزول على هيئة ماء صافٍ عذب يشربه الناس ويسقي الزرع؛ فيخرج الثمر بإذنه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢].

ومن آياته التي تتجلى في السماء تسخير الشمس والقمر، يقول عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

أي: خلقهما دائرين لإدارة الزمان وتجديد الأيام، وعدد الشهور والأعوام،

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٧٩، صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٥٢٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٠٨.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٢٩.

وتنظيم الهواء على الوجه الملائم لمصالح البشر ومعايشهم، كل هذا بنظام بالغ الدقة والحكمة[1].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦].

وقد فسرت البروج في الآية بالنجوم، تشبيهًا لها بحصون الأرض وقصورها؛ لأن النجوم هياكل فخمة عظيمة، وقد زينت السماء بتلك النجوم المختلفة الأشكال والأضواء المرئية للناظرين إلى حركاتها وأضوائها، أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين بها على قدرة موجدها ووحدانيته[2].

وفي الآية الكريمة: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

يقول سيد قطب: «وهذه الطريقة في تنبيه الحواس والمشاعر جديرة بأن تفتح العين والقلب على عجائب هذا الكون، العجائب التي تفقدنا الألفة جدتها وغرابتها وإيحاءاتها للقلب والحس، وهي دعوة للإنسان أن يرتاد هذا الكون كالذي يراه أول مرة مفتوح العين، متوفز الحس، حي القلب، وكم في هذه المشاهد المكررة من عجيب وكم فيها من غريب، وكم اختلجت العيون والقلوب وهي تطلع عليها أول مرة، ثم ألفتها ففقدت هزة المفاجأة، ودهشة المباغتة، وروعة النظرة الأولى إلى هذا المهرجان العجيب»[3].

ومن فضل الله علينا أنه يذكرنا دومًا بضرورة التأمل في آياته الكثيرة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

فمن يقدر على تسخير هذا الطير الذي نراه في الجو؟ إنه الخالق العظيم! ثم قال تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥].

فقد أنعم علينا بالأرض وما فيها وعليها، وبالفلك التي تسير في البحر لتنقلنا من مكان إلى آخر، وقد أنعم علينا كذلك بمطعومات البحر وحليته، وكانت هذه النعم المسخرة للإنسان عبرة لمن له عين تبصر وقلب يدرك.

قال عز وجل: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٣].

وقال أيضًا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٩/ ١٥٩.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٣٣٢.
(٣) في ظلال القرآن ١/ ١٥٢.

﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ١٤].

وقد نبه الله تعالى على نعمه الوفيرة، مثل تثبيت الأرض، ووجود الأنهار والبحار، والدواب التي نتخذ منها طعامنا ووسيلة نقلنا وملبسنا، والبيوت التي تقي الإنسان البرد والحر، وكل ما خلق.

يقول رب العزة: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٥-١٨].

ويقول أيضًا: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[النحل: ٨٠-٨١].

٢. الآيات في الأنفس.

أجل النعم التي أنعمها الله تعالى علينا هي خلقنا، فقد أبدع تعالى في تكوين الإنسان، ابتداءً بإخراجنا من ذلك الماء المهين.

قال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾[يونس: ٣١].

والمعنى إخراج الناس الأحياء من النطف، والنطف من الأحياء، وكذلك الأنعام والنبات الذي يخرج من البذور اليابسة[1].

ثم تطور مراحل الخلق مرورًا بمرحلة النطفة والعلقة والمضغة ثم خلق العظم واللحم واكتمال جميع الحواس.

يقول المولى عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٢-١٤].

وكذلك تفضل الله تعالى علينا بإبداع الخلق في أجسامنا، والمطلع بقليل من التفكر في خلق الإنسان يدرك أن هذا التكامل بين أجهزة جسم الإنسان، وتوافق عملها بهذه الآلية لابد وأنه من صنع خبير قدير، وليتأمل جهازه البصري.

قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ

(١) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢/ ٢٥٥.

﴿أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[الإنسان: ٢].

ذلك الجهاز فائق الدقة الذي ينقل له كل ما يدور حوله بكل التفاصيل الشكلية واللونية، ثم لينظر إلى طريقة عمل جهازه السمعي، وكيف تنتقل الذبذبات الصوتية في أجزاء الأذن بكل سلاسة، وليتخيل كيف يمكن أن يكون حاله لو خلق بلا سمع، ولو تأمل قليلًا في جهازه الهضمي وكيف يعمل في هدوء ونظام لينتج للجسم ما يحتاجه من عناصر، ويخلصه مما يضره من سموم، وكيف له أن يعيش إن ثقبت معدته أو أزيلت أمعاؤه؟ وكيف سنشعر بالأشياء من حولنا إن فقدنا الشعور بالإحساس في جلدنا؟

إنه التفكر، ما يلزمنا للارتقاء بعقولنا وزيادة إيماننا بالله عز وجل، فقد وجهنا ربنا إلى ذلك في قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٥-٧].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾[الحج: ٥].

٣. آثار إهلاك الأمم السابقة.

من الأمور التي ندركها بأبصارنا أيضًا آثار إهلاك الأمم الماضية، فالكثير منها باقٍ إلى يومنا هذا، ولا يأخذ العبرة منها إلا من يعتبر، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

أي سافروا في الأرض فانظروا وتأملوا ماذا حل بالمكذبين الكفرة من هلاك وعذاب، وكيف أصبحوا عبرة للمعتبرين[(١)].

وقد أتى الأمر للكفار بالتفكر أثناء سيرهم، فقد كانت قوافل القرشيين إلى الشام واليمن يجعلها قادرة على أن ترى آثار المكذبين، سواء من أهل ثمود أو قوم عاد أو غيرهم، وكان عليهم أن يأخذوا العبرة من ذلك ويؤمنوا، والآية عامة لكل من له عين تبصر وعقل يدرك[(٢)].

وقد أثبت الله تعالى وجود آثار إهلاك الأمم البائدة في أكثر من موضع، وأكد وجود آثار المساكن التي عاشوا فيها.

قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾[العنكبوت: ٣٨].

فقد كان أهل مكة يمرون على أماكن

(١) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٣٥٢.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ٦/ ٣٥١٩.

سكنى الأمم السابقة في الحجاز واليمن، وبالرغم من ذلك استسلموا للشيطان الذي زين لهم كفرهم وعنادهم، وكفروا مع إبصارهم للحق وتمييزهم[1].

والتبيان المذكور في الآية مدرك بالبصر، ويستحيل أن يحثنا الله تعالى على التفكر في آثار إهلاك الكافرين دون تمكن حواسنا من إدراك هذه الآثار!.

وتثبت الدراسات التاريخية التي تكتشف يوما بعد يوم هذه الآثار، فمنذ أعوام اكتشفت آثار يعتقد أنها لمدينتي سدوم وعمورة اللتين وجدتا في قاع البحر الميت في المياه الأردنية، والتي يعتقد الباحثون أنها أنقاض قوم لوط الذين أهلكهم الله سبحانه وتعالى بعد ارتكابهم الفاحشة وعصيانهم لأمر ربهم الذي أتاهم عبر نبيهم لوط عليه السلام[2].

وجسد فرعون شاهد على عقاب الله للكافرين، يراه الناس إلى يومنا هذا فيتعظ من يتعظ ويغفل من يغفل.

يقول عز وجل: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾[يونس: ٩٢].

فقد شكك بنو إسرائيل أول الأمر في غرق فرعون وقالوا عله تأخر في البحر لعلة، فأمر الله تعالى البحر أن يلفظه، فألقاه على نجوة مرتفعة ليكون عبرة للمعتبرين من قومه وممن تبعهم إلى يومنا، وما التمثال الموجود في مصر لرمسيس الثاني إلا جثته الباقية، والله أعلم.

٤ . النعيم والعذاب يوم القيامة.

من كمال عدالة الله عز وجل أن يرى المؤمن ببصره الثاقب يومئذ النعيم الذي أعده الله له، كما يرى الكافر عذابه بذات الحاسة.

قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[ق: ٢٢].

وقال: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[البقرة: ١٦٥-١٦٦].

وقد ذكر الطبري في تفسيره «أن الذين ظلموا سيعاينون عذاب الله بأمهات أعينهم، وسيتبرأ القدوات في المنكرات من المقتدين بهم»[3].

يقول طنطاوي: «وعبر بالماضي في قوله: ﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ لتحقق الوقوع، وكل ما كان كذلك فإنه يجرى مجرى ما

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٤٠٧.

(٢) انظر: وثائقي أجنبي، موقع يوتيوب بتاريخ ٦/ ١/ ٢٠١١م، مقال إلكتروني: البيضاء برس، الجريمة والعقاب، بتاريخ ١٥/ ١٠/ ٢٠١٢م.

(٣) انظر: جامع البيان ٣/ ٢٨٣.

وقع وحصل﴾[1].

ويؤكد رؤية العذاب يوم القيامة قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[يونس: 97].

وقوله جل وعلا: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾[القصص: 64].

أما أصحاب الجنة فيتلذذون بفضل الله ونعمه عيانًا، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف: 45].

أي: سيجد أصحاب الجنة ما وعدوا به من نعيم، وسينادي أصحاب الجنة أصحاب النار قائلين: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ تهكمًا بهم وتقريعًا لهم[2]، بعد أن حمدوا الله تعالى على ما أعطاهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: 9-10].

وقد أكد الله عز وجل مشاهدة النعيم بالعين، وقمة النعيم هو رؤية وجه الله عز وجل في الجنة، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26].

وقد فسرت الزيادة برؤية وجه الله الكريم في الجنة[3].

وفي موضع آخر يقول المولى عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة: 22-23].

وقد ذكر مجاهد أن الله تعالى نضر وجوه أهل الجنة بالنظر إلى وجهه الكريم[4].

وفي الحديث: **(إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل)**[5].

ثانيًا: ما لا يدركه البصر:

أراد الله تعالى بحكمته البالغة أن يغيب عن حواسنا أو علمنا بعض الأمور، فتكون في علمه عز وجل وحده، ومن تلك الأمور:

١ . إدراك المولى عز وجل في الدنيا.

يقول الحق عز وجل: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ

(١) التفسير الوسيط ١/ ٣٣٨.

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٥/ ٥٥.

(٣) انظر: تفسير عبد الرزاق الصنعاني ٢/ ١٧٤.

(٤) انظر: تفسير مجاهد ١/ ٦٨٧.

(٥) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم، سبحانه وتعالى، ١/ ١٦٣ رقم ١٨١.

﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾[الأنعام: ١٠٣].

أي «لا يراه شيء، وهو يرى الخلائق»[(١)]، أو لا تحيط به الأبصار وهو يحيط بالأبصار، أو أن الأبصار لا تدركه؛ لأنها تدرك كل ذات لون، ولما امتنع أن يكون ذا لون امتنع أن يكون مرئيًا، وهناك من قال: إن أبصار المؤمنين لا تراه في الدنيا، بينما تراه في الآخرة، وأن أبصار المشركين لا تراه دنيا وأخرى[(٢)].

٢. مفاتح الغيب.

يقول المولى عز وجل: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾[الأنعام: ٥٩].

ومفاتح الغيب هي خزائن ما غاب عن ابن آدم من الرزق، والمطر، ونزول العذاب، والثواب والعقاب[(٣)].

وقد ذكر الطبري في تفسير مفاتح الغيب التي استأثر الله بعلمها، فلم يطلع عليها ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا أنها مثل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة، في أي سنة، أو في أي شهر، أو ليل، أو نهار ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث، ليلًا أو نهارًا ينزل؟ ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ فلا يعلم أحد ما في الأرحام، أذكر أو أنثى، أحمر أو أسود، أو ما هو؟ ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾ خير أم شر، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت؟ لعلك الميت غدًا، لعلك المصاب غدًا؟ ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض في بحر أو بر، أو سهل أو جبل[(٤)].

ولعل مفاتح الغيب من القضايا الغيبية المحضة التي يستحيل تحصيل العلم بها، لكن الله عز وجل ربطها بما ألفته النفس واستحضرته، فقد ذكر بعد الإشارة إلى مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا هو، أنه يعلم أيضًا ما في البر والبحر وسقوط الأوراق؛ حتى يقرب الصورة إلى أذهاننا، والله أعلى وأعلم بماهية تلك المفاتح[(٥)].

٣. المخلوقات غير المبصرة.

أقسم الله جل وعلا بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته، أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته، وإقسامه ببعض مخلوقاته دليل على أنها من عظيم آياته[(٦)].

وقد بين الله عز وجل أنه قد أقسم بأمور

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٤/ ١٣٦٤.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ١٥١.
(٣) انظر: التفسير الوجيز، الواحدي ١/ ٣٥٧.
(٤) جامع البيان ٢٠/ ١٦٠.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ١٠.
(٦) انظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان ص ١٠-١٣.

نبصرها وأمور لم نبصرها، فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾[الحاقة: ٣٨-٤٠].

فالله جل وعلا أقسم على كل خلقه الذين نراهم والذين لا نراهم على صحة القرآن الكريم[1].

وذكر في التفسير المنسوب لابن عباس رضي الله عنه قوله: «يقال: بما تبصرون، يعني السماء والأرض، وما لا تبصرون يعني الجنة والنار. ويقال: بما تبصرون يعني الشمس والقمر، وما لا تبصرون العرش والكرسي. ويقال: بما تبصرون يعني محمدا صلى الله عليه وسلم ، وما لا تبصرون يعني جبريل أقسم الله بهؤلاء الأشياء»[2].

وقد يكون المقصود أن الله تعالى قد أقسم بما نبصر وهي المخلوقات كالشمس والليل والفجر والنهار، وما لا نبصر وهي ذات المولى عز وجل، التي أقسم بها في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠].

وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾[النساء: ٦٥].

ويتبين أن الله عز وجل قد ذكر في كتابه الكريم الأمور المدركة ببصر الإنسان كثيرًا بينما لم يشر إلى الأمور غير المدركة بالبصر بكثرة، ولا يخفى ما في هذا من رحمة، فالمقصد الأساس من القرآن هو هداية البشر إلى توحيد الله، وإفراده عز وجل بالعبادة دون سواه، ولا تتم هذه الهداية بحق إلا بالبراهين التي تدركها حواس البشر، وتصل بهم إلى اليقين بأن الله تعالى هو المبدع لهذا الكون المتوازن، وهو وحده الذي يستحق العبادة دون شريك.

(١) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٥/ ٣٣.

(٢) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ١/ ٤٨٤.

آفات تصيب البصر وأسبابها

تصاب عين الإنسان بآفات مختلفة، منها ما هو متعلق بابتلاء دنيوي كالأمراض الجسدية المختلفة، ومنها ما هو متعلق بعقاب إلهي، أو أمر أخروي، ومن هذه الآفات ما يلي:

١. الغشاوة.

يقول المولى عز وجل في حق الكافرين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩].

وقال أيضًا: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧].

وقد عرفت الغشاوة لغة أنها «ما غشي القلب من الطبع، والغشاء: الغطاء»[١].

وعرفت اصطلاحًا أنها «ما يتركب على وجه مرآة القلب من الصدأ، ويكل عين البصيرة، ويعلو وجه مرآتها»[٢].

وقد ذكر الطبري «أن الله يصيب الكافرين بغشاوة فهم لا يبصرون هدى ولا ينتفعون به»[٣].

وذكر الشوكاني في معنى الغشاوة «أنهم عموا عن البعث، وعموا عن قبول الشرائع في الدنيا، وقرأ الجمهور بالغين المعجمة: أي غطينا أبصارهم، فهو على حذف مضاف. وقرأ ابن عباس، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم بالعين المهملة من «العشا»، وهو ضعف البصر»[٤].

٢. الطمس.

ذكر الطمس في القرآن الكريم في حق آل لوط الذين راودوه عن ضيفه من الملائكة وأرادوهم بسوء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٧].

وقد ذكر أن «المطموس هو الذي لا يتبين له حرف جفن عينيه، ولا يرى شفر عينيه»[٥].

وقد نقل المناوي أن «الطمس هو محو الأثر، فهو تغير إلى الدثور والدروس»[٦].

وعن السدي قال: «لما قال لوط: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، بسط حينئذ جبريل عليه السلام جناحيه، ففقأ أعينهم، وخرجوا يدوس بعضهم في أدبار بعض عميانًا يقولون: النجاء النجاء! فإن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض»!»[٧].

وذكر سيد قطب «أنهم لم يعودوا يرون شيئًا، والإشارة إلى طمس أعينهم لا ترد إلا في هذا الموضع بهذا الوضوح، لأنه

(١) تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ١٤٥.
(٢) التعريفات، الجرجاني ١/ ١٦٢.
(٣) جامع البيان ٢٠/ ٤٩٥.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٤١٥.
(٥) تهذيب اللغة، الأزهري ١٢/ ٢٤٦.
(٦) التوقيف ١/ ٢٢٨.
(٧) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٢٧.

في موضع آخر قال الله تعالى على لسان الملائكة الذين حلوا ضيوفًا على لوط عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾[هود: ٨١].

وفي الطمس بيان للطريقة التي قدرها الله لمنع وصول الكفار إلى لوط وضيفه قبل إهلاكهم في اليوم التالي»[١].

٣. البرق.

ذكر برق البصر في سياق ذكر أهوال يوم القيامة في قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ [القيامة: ٧].

فالكافر يسأل أيان يوم القيامة؟ استخفافًا واستهزاءً، فجاء الرد من الله تعالى بذكر بعضٍ من أهوال ذلك اليوم العظيم، فبدأ الأهوال بذكر برق البصر، وبرق البصر هو لمعانه من شدة شخوصه فهو فزعٌ مبهوت[٢].

وقد ذكر المناوي أن معنى «برقت العين اضطربت وجالت من خوف»[٣]، وقد قرئت «برق» بفتح الراء، قيل: برق يبرق بالفتح: أي شق عينيه وفتحهما، وبالكسر «برق» بمعنى تحير فلم يطرف[٤].

وقد نقل ابن كثير: أن معنى «برق» أي: حار، وشبه ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾[إبراهيم: ٤٣].

بل ينظرون من الفزع هكذا وهكذا، لا يستقر بصرهم على شيء من شدة ما أصابهم من الرعب[٥].

٤ . الصرف.

ورد الصرف في قصة أهل الأعراف في قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٧].

والمعنى اللغوي للصرف عند ابن فارس: هو «أنه شيء صرف إلى شيء، كأن الدينار صرف إلى الدراهم، أي رجع إليها، إذا أخذت بدله»[٦].

وذكر ابن سيده: «أن الصرف هو رد الشيء عن وجهه، وصرف الله قلوبهم أي أضلهم الله مجازاة على فعلهم»[٧].

والأعراف هو سور بين الجنة والنار، وأهل الأعراف هم قوم تساوت حسناتهم مع سيئاتهم كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: فوقفوا بين الناحيتين، ينادون أهل الجنة، وقد عرفوا في وجوههم علامات أهل الجنة أن سلامٌ عليكم، وهم يتوقون لدخولها، ثم يصرفون أنظارهم إلى أهل

(١) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٣٤.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٢٤.
(٣) التوقيف ١/ ٧٥.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٩٥.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم ٨/ ٢٧٧.
(٦) مقاييس اللغة ٣/ ٣٤٣.
(٧) انظر: المحكم ٨/ ٣٠١.

النار، وقد عرفوا في وجوههم علامات أهل النار، من شدة التفاتهم كأنهم يصرفون، ثم يلجأون إلى ربهم ألا يجعلهم مع الظالمين من أهل النار[1]، ومعنى الصرف تبدل اتجاه أبصار أصحاب الأعراف بعد النظر إلى أهل الجنة إلى النظر ناحية أهل النار، وتكرار التضرع إلى الله تعالى في أن لا يجعلهم من زمرتهم[2].

٥. الطبع.

الطبع في اللغة: «هو الختم، وهو التأثير في الطين ونحوه»[3].

قال عز وجل: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[النحل: ١٠٨].

وقد نقل المناوي: أن الطبع هو «تصور الشيء بصورة ما، كطبع السكة الدرهم، وهو أعم من الختم وأخص من النقش»[4]، والطِبَاع «هي الأخلاق التي لا تزايلنا»[5].

والطبع هو أحد الموانع المانعة من الإيمان، ووصول الخير إلى القلوب كالغشاوة والختم التي جعلها الله عليهم بسبب مسارعتهم لتكذيب الرسل، والتمادي على الكفر، فعاقبهم الله على ذلك[6]، وقد بين طنطاوي: «أن الطبع هو الوسم الذي لا يخرج من الشيء ما هو بداخله، ولا يسمح لما بخارجه من الدخول إليه، أي أن أولئك الذين شرحوا صدورهم بالكفر، وطابوا به نفسًا، قد طبع الله تعالى على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، فصارت ممنوعة من وصول الحق إليها، وعاجزة عن الانتفاع به، وأولئك هم الكاملون في الغفلة والبلاهة؛ إذ لا غفلة أشد من غفلة المعرض عن عاقبة أمره، ولا بلاهة أفدح من بلاهة من آثر الفانية على الباقية»[7].

٦. الذهاب.

ذكر ذهاب الأبصار في قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[النور: ٤٣].

والذهاب بالشيء وإذهابه تعني إزالته[8]، ومعنى الآية أن الله تعالى يسوق السحاب بقدرته ويجمع قطع السحاب المتفرقة بعضها فوق بعض، ثم يخرج المطر من خلاله، وينزل من السماء حبات

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٢٥.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٥١.
(٣) الصحاح، الجوهري ٣/ ١٢٥٢.
(٤) التوقيف ١/ ٢٣٥.
(٥) تاج العروس، الزبيدي ٢١/ ٤٣٧.
(٦) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٢٨٩.
(٧) التفسير الوسيط ٨/ ٢٤٢.
(٨) انظر: المحكم، ابن سيده ٤/ ٢٩٥، الكليات، الكفوي ١/ ٤٦٣.

البرد، فيصيب بهذا البرد من يشاء فيهلكه وأمواله، ويبعده عن من يشاء فلا يضره، ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ أي: ضوء برق السحاب ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ فيمحوها من شدة إنارته وبريقه[1]، وقيل: يخطف الأبصار الناظرة لهذا الضوء الحاد[2].

٧. العمى.

أعمى الله سبحانه وتعالى أبصار أصحاب القلوب المريضة الذين ذكرهم في قوله جل وعلا: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٠ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۝٢١ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠-٢٣].

والعمى لغةً: «هو ذهاب البصر»[3]، واصطلاحًا هو «ضد البصر والبصيرة»[4].

وقد أعماهم الله أي أذهب بصرهم، ومعنى الآية أن الذين في قلوبهم مرض وهم المنافقون إذا نزلت سورة محكمة، وذكر فيها القتال نظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر المغشي عليه، لا يريدون نصرة رسول الله ولا القتال معه، وحذرهم إن تقاعسوا عن القتال وفارقوا أحكام القرآن الكريم، وتركوا النبي صلى الله عليه وسلم، أن يعصوا الله في الأرض، فيكفروا به، ويسفكوا فيها الدماء، ويعودوا لما كانوا عليه في جاهليتهم من التشتت والتفرق بعد ما قد جمعهم الله بالإسلام، وألف به بين قلوبهم!

ثم يلعنهم الله ويذهب بسمعهم ويعمي أبصارهم، وهم لم يفقدوا السمع، ولم يفقدوا البصر، ولكنهم عطلوا السمع وعطلوا البصر، أو عطلوا قوة الإدراك وراء السمع والبصر فلم يعد لهذه الحواس وظيفة لأنها لم تعد تؤدي هذه الوظيفة.

ثم يتساءل مستنكرًا في الآية التي تليها: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؟!

فتدبره هو الذي يزيل هذه الغشاوة، وهو الذي يفتح القلوب لسماع الحق وإدراكه[5].

فهم لا يسمعون الحق، ولا يهتدون لرشد، وقلوبهم غير منجذبة لأفعال الخير والصلاح معميّة عنها ولا تراها، فلا يتدبرون القرآن بالرغم من فهمه، أو لا يفهمونه عند تلقيه، وكلا الأمرين عجيب![6].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٠٠.
(٢) انظر: تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي ١/ ٤٦٦.
(٣) العين، الفراهيدي ٢/ ٢٦٦.
(٤) التوقيف، المناوي ١/ ٢٤٧.
(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٩٦.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ١١٣، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ١٢٧.

دلالة البصر على الحالة النفسية

جاءت الحالات المختلفة للبصر في القرآن الكريم للدلالة على بعض الحالات النفسية التي تصيب صاحبها، ومن تلك الحالات ما يلي:

١ . الزيغ.

ذكر زيغ البصر في قصة غزوة الخندق في قول المولى عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ٩-١١].

وهذه الآيات تتحدث عن الصعوبات الجمة التي واجهها المسلمون بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد تكالب عليهم مشركو العرب من كل النواحي واليهود الذين أرادوا أن يمحى الإسلام عن الوجود، فكانت لحظات عصيبة جدا على المسلمين، وقد زاد من قسوتها نقض العهد الذي بين الرسول صلى الله عليه وسلم ويهود بني قريظة الذين سمحوا للأحزاب بالدخول إلى المدينة من جهتهم، وكون عددهم أكثر من ثلاثة أضعاف المسلمين، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه إلا التوكل على الله وحفر الخندق حتى يحموا المدينة من هذا الهجوم الصعب.

وقد تبين حينها المؤمن الحق من المنافق الذي اتخذ حماية أهله حجة كي يترك أرض المعركة ويعود فارًا خائفًا، وواصل المسلمون الرباط على الخندق متحملين الجو البارد والظرف النفسي الصعب، والهجوم عليهم من كل اتجاه، فزاغت أبصارهم ومالت عن سننها فلم تلتفت إلى العدو لكثرته.

بل انحرفت عنهم من شدة عددهم، وبلغت القلوب الحناجر كناية عن شدة الخوف والفزع، وظنوا مختلف الظنون، فمنهم مؤمن ثابت الإيمان لا يتزحزح عن موقفه ومنهم من تراجع، فكان ذلك الموقف من أعظم الابتلاءات التي صدمت أبصارهم وزلزلت قلوبهم من الفزع حتى أتاهم نصر الله، فساندهم بالملائكة الكرام وأرسل الريح لتقلب خيام المشركين وتكفأ قدورهم ففروا هاربين[(١)].

وقد عرف الزيغ الوارد في الآية أنه «الميل عن الاستقامة، والانحراف عن جهة الصواب»[(٢)].

فالعين في الوضع الطبيعي تنظر باتجاه

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢١/ ٢٦٧.
(٢) التعريفات، الجرجاني ١/ ٩٨.

الهدف، لكن هول الموقف وشدته جعلتها تنحرف عن مواجهة المشهد ذعرًا وفزعًا، والكلمة القرآنية «زاغت» تبين قسوة ما تعرض له أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من محنة، وما كان لله عليهم من فضل بعد أن نجاهم منها وأخرجهم مؤزرين منتصرين.

٢. الخشوع.

ورد خشوع البصر في قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٤-٨].

وقد صورت الآيات الكريمة خروج الكفار الذين لم يؤمنوا بالحق، وأنكروا ما كان لنبي الله صلى الله عليه وسلم من معجزات تدلل على صدقه، وهؤلاء المكذبون قد آتاهم الله من البراهين ما فيه الكفاية والحجة، لكنهم لم يذعنوا، فسيكون خروجهم من القبور عند البعث خروجًا ذليلًا، خشعًا أبصارهم، وخشوع البصر «رميك ببصرك إلى الأرض.. وأخشعت أي طأطأت الرأس كالمتواضع، والخشوع المعنى من الخضوع إلا أن الخضوع في البدن وهو الإقرار بالاستخدام، والخشوع في البدن والصوت والبصر»[1].

يكونون كالجراد في انتشاره واضطرابه، ومفهوم الخشوع اصطلاحًا هو «الانقياد للحق»[2].

فينتشرون لموقف العرض يوم يدع الداع، ذليلة أبصارهم خاضعة، مستسلمة لله تعالى، لا تملك دفع العقاب عن نفسها، ولا إنكار ما كان منها، فهي منكسرة خاضعة لا تتجرأ على رفع بصرها[3].

٣. الشخص.

جاء وصف البصر بالشخوص في قول المولى عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

والمعنى أن الله تعالى لا يغفل عن عمل الظالمين، ولو اعتقد الإنسان ذلك كان مخطئًا، فهو العادل جل وعلا، يمهلهم متمتعين بالحظوظ الدنيوية ولا يعجل عقوبتهم؛ للتغليظ عليهم في العقاب، ولعل إيقاع التأخير عليهم مع أن المؤخر إنما هو عذابهم لتهويل الخطب وتفظيع الحال، ببيان أنهم متوجهون إلى العذاب مرصدون لأمر ما، لا أنهم باقون باختيارهم، وترتفع أبصار أهل الموقف فتبقى مفتوحةً لا

(١) العين، الفراهيدي ١/ ١١٢.
(٢) التوقيف، المناوي ١/ ١٨٨.
(٣) انظر: الهداية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٧١٨٦.

تتحرك أجفانهم من هول ما يرونه، ولا تقر في مكانها، واعتبار عدم قرارها فهي إما مرتفعة في جرم العين، وإما بمعنى الارتفاع بالنظرات من مكان إلى مكان(١).

و﴿تَشْخَصُ﴾ تعني «لا تقر في أماكنها من هول ما ترى»(٢)، وقيل: «يقال: شخص بصره، فهو شاخصٌ، إذا فتح عينيه وجعل لا يطرف»(٣)، و«شخص ببصره إلى السماء: ارتفع»(٤).

وقد يجمع بين المعاني أن شخص العين هو أن تفتح دون طرف، وهي مرتفعة للأعلى، تحملق من ناحية لأخرى، مفجوعة بالحدث.

٤ ـ التقليب.

أشار القرآن الكريم إلى تقليب الأبصار في قوله عز وجل: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَٰتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١٠].

ومعنى الآية أن الكفار يقسمون للنبي عليه السلام أنه إذا جاءهم بآية تدلل على صدقه فسيؤمنون، ولكنهم كاذبون؛ فقد أتاهم بالقرآن والكثير من الدلالات لكنهم أصروا على إنكار الحق، وقد ذكرت الآيات أن الله تعالى يقلب قلوب هؤلاء المكذبين وأبصارهم، والتقليب هو تغيير الشيء من حال إلى حال، وتحويل الشيء عن وجهته(٥).

وفي معنى الكلام أربعة أقوال:

أحدها: لو أتاهم الله بآية كما سألوا، لقلب أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان بها، فظلوا منكرين ضالين، ولحال بينهم وبين الهدى، فلم يؤمنوا كما لم يؤمنوا بما رأوا قبلها؛ عقوبة لهم على ذلك.

والثاني: أنه جواب لسؤالهم في الآخرة الرجوع إلى الدنيا، فالمعنى: لو ردوا لحلنا بينهم وبين الهدى كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا.

والثالث: ونقلب أفئدة هؤلاء وأبصارهم عن الإيمان بالآيات كما لم يؤمن أوائلهم من الأمم الخالية بما رأوا من الآيات.

والرابع: أن ذلك التقليب في النار عقوبة لهم(٦).

والقلب والبصر اللذان لم يؤمنا بآيات الله في هذا الكون وفي خلق الأنفس رغم دقة وبراعة تلك الأنظمة الربانية، هما

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبي السعود ٥/ ٥٥.
(٢) الكليات، الكفوي ١/ ٣١٩.
(٣) الصحاح، الجوهري ٣/ ١٠٤٢.
(٤) العين، الفراهيدي ٤/ ١٦٥.
(٥) انظر: التوقيف، المناوي ١/ ١٠٦.
(٦) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٦٦.

مقلوبان عن الحقيقة معميان عنها، والله تعالى يعلم بكذب هؤلاء المنكرين، فلو نزل عليهم ملائكة من السماء لأنكروا أيضًا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، فهم لا يؤمنون إلا أن يشاء الله، وهو تعالى لا يشاء؛ لأنهم لا يجاهدون في الله ليهديهم الله إليه، وهذا الإنكار المتلبس في قلوبهم وبصرهم ينسجم مع عقابهم بتقليب حواسهم وتحويلها عن الحق في الدنيا، أو تقليبها في الآخرة جزاءً وفاقًا على إعراضهم عن الحق في الدنيا[1].

٥. السكر.

ورد سكر البصر في قول المولى عز وجل في حق الكافرين: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: ١٣-١٥].

أي: أن المكذبين الكفرة الذين لا يؤمنون بالله تعالى ولا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد مضت سنة الله في الأمم السابقة التي لا تؤمن، فمصيرهم الهلاك، هؤلاء المهلكين باعتبار ما سيكون لو فتح الله عليهم بابًا من السماء؛ لأنه حصل منهم أن طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالملائكة، هؤلاء لو فتح لهم باب من السماء فظلوا فيه يصعدون بأجسامهم ويرون تلك السماء وما فيها من خلق عظيم، أو على الرأي الآخر فنظروا من خلال الباب إلى الملائكة وحركتهم وعبادتهم وأدركوها عيانًا، لقالوا إنما سكرت وسدت أبصارنا، أو عميت، أو سحرت، أو على قراءة التخفيف (سكرت) بمعنى حبست ومنعت النظر كما يسكر النهر لحبس الماء، وسيدعون أنهم مسحورون بواسطة محمد صلى الله عليه وسلم[2].

قال ابن فارس: السكر «يدل على حيرة»[3].

وقد عرف السكر أنه: «غيبة بواردٍ قوي، وهو أقوى من الغيبة وأتم منها، والسكر من الخمر»[4].

وكل المعاني الخاصة بسكر البصر تبين أن الكفار إن ظهر لهم أي مدخل للإيمان احتاروا فيه، وتهافتوا على رده بأي مبرر، ولجأوا لمخرج السحر والتزييف عند بروز أي برهان يقضي بتكذيبهم وتصديق رسالة الإسلام، فهم كاذبون متعامون عن الحق مهما بلغ وضوح الدليل المقام عليهم.

يقول سيد قطب واصفًا الحالة النفسية لهؤلاء المكذبين: «يكفي تصورهم على هذا النحو لتبدو المكابرة السمجة ويتجلى العناد

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١١٧٠.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥١.

(٣) مقاييس اللغة ٣/ ٨٩.

(٤) التعريفات، الجرجاني ١/ ١٢٠.

المزري، ويتأكد أن لا جدوى من الجدل مع هؤلاء، ويثبت أن ليس الذي ينقصهم هو دلائل الإيمان، وليس الذي يمنعهم أن الملائكة لا تنزل، فصعودهم هم أشد دلالة وألصق بهم من نزول الملائكة، إنما هم قوم مكابرون، مكابرون بلا حياء وبلا تحرج وبلا مبالاة بالحق الواضح المكشوف! إنه نموذج بشري للمكابرة والاستغلاق والانطماس يرسمه التعبير، مثيرًا لشعور الاشمئزاز والتحقير»[(١)].

لمسات إعجازية في البصر

ذكرت في القرآن الكريم بعض الآيات التي تحمل نواحٍ إعجازية للبصر، ومن تلك البدائع الربانية التي استطاعت قدرة الإنسان اليسيرة فهمها نسبيًا ما يلي:

أولًا: الإعجاز في آلية عمل العين:

إن كرة العين التي لم يتعد وزنها ثمانية جرامات آية من آيات الله تعالى ، ففي طبقة واحدة من طبقات شبكية العين يوجد خمسمائة مليون خلية بصرية «مستقبل بصري» وإنه عندما تسقط أشعة الصورة على الشبكية تلتقطها خلايا ضوئية متخصصة، ثمانية ملايين خلية منها من نوع (المخاريط) المتخصصة في الضوء الساطع، ومئة وخمسون مليون خلية من نوع (العصي) على جوانب الشبكية متخصصة في الضوء الخافت.

ويلعب فيتامين (أ) دورًا رئيسًا في رؤية الأشياء والألوان؛ لأنه المصدر الرئيس لمادة «الرتينال»، وتحدث تغيرات كيميائية في أقل من البليون في الثانية، ويخرج من قاع العين العصب البصري المؤلف من نصف مليون ليف عصبي الذي ينقل طيف الضوء إلى مركز البصر في الدماغ، والذي يحولها إلى صورة مرئية، وتبلغ سرعة إرسال الصورة في العصب البصري ألف مرة في الثانية.

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٢٩.

ومن حكمة الله أنه أثناء الضوء بالنهار والظلام بالليل تتبادل كل من العصي والمخاريط عملها لتمكن الإنسان من الرؤية في الظروف المختلفة، ولو لم يكن الأمر كذلك لهلكت، كما تتأثر بطريقة شديدة لو تعرضت لظلام أو إضاءة لفترة طويلة، فإذا اشتد الظلام وطال أصيبت العين بغشاوة وعميت لتوقف دورة فيتامين (أ) والريتينول عن تكوين الرودبسين اللازم للرؤية في غياب الضوء. ومثال على ذلك ما حدث لرواد الفضاء الأولين عندما خرجوا من الأرض فلم يروا السماء إلا ظلامًا دامسًا، مغطاة بالسديم المعتم[1].

وصدق الله تعالى إذ يقول في محكم آياته: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾[الحجر: ١٤-١٥].

ثانيًا: ذكر إصابة البصر بالغشاوة في القرآن الكريم:

الغشاوة: سحابة تغشى عدسة العين، وقد يحدث ذلك التأثير لعين واحدة أو للاثنتين معًا، وترتبط الغشاوة في العادة بتقدم السن، فتصبح العدسة أقل مرونة، وتفقد بعض قدرتها على تركيز الضوء في الشبكية، وبسبب عدم مرونتها تصبح منعدمة الشفافية، وهذا يعني بداية إصابتها بانسداد العدسة، وفي النهاية قد تتكون غشاوة بيضاء تملأ العين، فيفقد الإنسان قدرته على الإبصار، كما تحدث الغشاوة أيضًا نتيجة لبعض الأمراض مثل مرض السكري، وقد تتسبب الغشاوة بسبب بعض الجروح والتهابات العيون، كما أنه قد يولد بعض الأطفال مصابين، وأيضًا تسببها بعض العقاقير وبعض أنواع من الأشعة.

وقد ذكر الله تعالى هذه الغشاوة في حق العين خاصة، فقد وصف سمع وقلب الكفار بالختم، أما البصر فخصه بالغشاوة التي تمنع من الرؤية، وجاء هذا الوصف في كتابه الكريم قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام، عندما بين حال المتعامي عن الحق ولا يجتهد في طلبه، تأمل قول الله عز وجل واصفًا حال الكافر المعرض: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[البقرة: ٧].

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[الجاثية: ٢٣].

وقد فسرت الغشاوة بأنها العمى، فهم لا يبصرون سبيل الهدى.

وكذا قال قتادة: إن المعنى لا يبصرون

---

(١) انظر: مقال بعنوان: الإعجاز العلمي في البصر، وائل الشيمي ومحمد الديب، في موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي.

الهدى.

وقال السدي: لا يبصرون محمدًا حين ائتمروا على قتله[1].

وإذا ما أصاب العين غشاوة فلا نور يصلها ولا هدى[2].

موضوعات ذات صلة:

الرؤى، الرؤية، السمع، العين

(١) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٤١٥.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٢.



عناصر الموضوع

مفهوم البعث

أولًا: المعنى اللغوي:

الباء والعين والثاء أصلٌ واحد، وهو الإثارة. ويقال بعثت الناقة إذا أثرتها. وقال ابن أحمر:

فبعثتها تقص المقاصر بعدما ... كربت حياة النار للمتنور[(١)].

قال الراغب: «أصل البعث: إثارة الشيء وتوجيهه»[(٢)].

والبعث ضربان:

- بشري، كبعث البعير، وبعث الإنسان في حاجة.
- وإلهي، وذلك ضربان:

أحدهما: إيجاد الأعيان والأجناس والأنواع عن ليس (أي من عدم)، وذلك يختص به الباري تعالى، ولم يقدر عليه أحد.

والثاني: إحياء الموتى، وقد خص بذلك بعض أوليائه، كعيسى صلى الله عليه وسلم وأمثاله، ومنه قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦]. يعني: يوم الحشر[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

يعرف البعث بعد الموت بأنه: «إحياء الله تعالى الأموات وإخراجهم من قبورهم وهم أحياء للحساب وللجزاء»[(٤)].

وقال ابن كثير: «هو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة»[(٥)].

والحاصل أن البعث: «هو أن يعيد الله تعالى الإنسان بروحه وجسده كما كان في الحياة الدنيا، وهذا كائن عندما تتعلق إرادة الرب جل وعلا بذلك فيخرج الخلق جميعهم من قبورهم، وهم حفاة عراة غرل بهم، ويساقون إلى أرض الموقف لينال كل إنسان ما يستحقه من الجزاء العادل وفق ما عمل في حياته الدنيا»[(٦)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٢٦٦.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص١٣٢.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص١٣٢، التوقيف، المناوي ص٨٠.
(٤) مباحث العقيدة في سورة الزمر، ناصر الشيخ ص٥٦٧.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٣٩٥.
(٦) مباحث العقيدة في سورة الزمر، ناصر الشيخ ص٥٦٧.



البعث في الاستعمال القرآني

وردت مادة (بعث) في القرآن الكريم (٦٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٠	﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦﴾ [البقرة:٥٦]
الفعل المضارع	٢٨	﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل:٣٨]
فعل الأمر	٥	﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ [البقرة:١٢٩]
اسم مفعول	٩	﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤﴾ [المطففين:٤]
مصدر	٥	﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٢٨﴾ [لقمان:٢٨]

وجاء البعث في الاستعمال القرآني على سبعة أوجه[٢]:

الأول: الإلهام: قال الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة:٣١]. يعني فألهم الله غرابًا.

الثاني: الإحياء في الدنيا: قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦﴾ [البقرة:٥٦].أي: ثم أحييناكم في الدنيا.

الثالث: اليقظة من النوم: قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام:٦٠]. أي: من النوم.

الرابع: التسليط: قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي ص١٢٤-١٢٥.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ١١٨، ١٧٧، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٢٠٤-٢٠٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي ٢/ ٢١٤-٢١٥.

[الإسراء:٥]. أي: سلطنا عليكم عبادًا لنا.

الخامس: إرسال الرسول: قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢].

أي: أرسل رسولًا.

السادس: النصب والتعيين: قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ﴾ [النساء:٣٥].أي: انصبوا حكمًا.

السابع: النشور من القبور: قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج:٧].

يعني: ينشر من في القبور.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإحياء:

الإحياء لغة:

قال ابن فارس: «الحاء والياء والحرف المعتل أصلان: أحدهما خلاف الموت، والآخر الاستحياء الذي هو ضد الوقاحة؛ فأما الأول فالحياة والحيوان، وهو ضد الموت والموتان، ويسمى المطر حيًا لأن به حياة الأرض»[(١)].

الإحياء اصطلاحًا:

لم يعرف أهل السنة الإحياء في مؤلفاتهم لوضوح معناه، وإنما تحدثوا عن هذا اللفظ بكلام عام يبين معناه عندهم، وقد ورد الإحياء في الشرع بمعنى نفخ الروح في الجسد، وإيجاد الحياة فيه[(٢)].

الصلة بين الإحياء والبعث:

أنهما يدلان على شيء واحد وهو إعادة الحياة للميت.

٢ النشور:

النشور لغة:

الحياة بعد الموت، ينشرهم الله إنشارًا، ونشرت الأرض تنشر نشورًا، إذا أصابها الربيع فأنبتت، فهي ناشرة[(٣)].

النشور اصطلاحًا:

يطلق ويراد به معنى البعث، وهو انتشار الناس من قبورهم إلى الموقف للحساب والجزاء.

الصلة بين البعث والنشور:

أن بعث الخلق اسم لإخراجهم من قبورهم إلى الموقف، ومنه قوله تعالى: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: ٥٢].

والنشور اسم لظهور المبعوثين وظهور أعمالهم للخلائق، ومنه قولك نشرت اسمك،

(١) مقاييس اللغة، ٢/ ١٢٢.
(٢) الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية، آمال العمرو، ص١٤٠- ١٤١.
(٣) العين، الفراهيدي ٦/ ٢٥٢.

ونشرت فضيلة فلان، إلا أنه قيل: أنشر الله الموتى بالألف، ونشرت الفضيلة والثوب للفرق بين المعنيين»[1].

ووجه الصلة بين البعث والنشور أنهما مرحلتان متتاليتان للموتى يوم القيامة البعث يكون بإحيائهم وإخراجهم من قبورهم والبعث يكون بانتشارهم بعد خروجهم من قبورهم كالفراش المبثوث.

٣ الإخراج:

الإخراج لغة:

أصله من «خرج خروجًا: برز من مقره أو حاله، سواء كان مقره دارًا، أو بلدًا، أو ثوبًا، وسواء كان حاله حالة في نفسه، أو في أسبابه الخارجة»[2].

الإخراج اصطلاحًا:

«هو البعث يوم القيامة لموقف العرض والجزاء»[3].

الصلة بين الإخراج والبعث:

أن البعث يشمل الإحياء والخروج، فالإخراج أخص من البعث.

(١) الفروق اللغوية، العسكري، ص٢٨٩

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٢٧٨.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/ ٣٧٥.



منهج القرآن في تقرير مبدأ البعث

سلك القرآن الكريم مسلك الاستدلال العقلي والقياس في إثبات قضية البعث بعد الموت وأنها ممكنة عقلا، وذلك من خلال النظر في المشاهدات الكونية الدالة على قدرة الله تعالى عليه، وأنه أهون من كثير مما لا ينكرون أن الله يقدر عليه، فمن ذلك ما يلي:

أولًا: الاستدلال بالنشأة الأولى:

دل القرآن الكريم على قضية البعث بقياسها على قضية مسلمة عند منكريه وهي قضية الخلق الأول، أو النشأة الأولى، فهم يقرون بأن الله هو الذي خلقهم كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

فبين القرآن إنهم إن أقروا بذلك وأن الله هو الذي خلقهم بقدرته وأنشأهم من عدم، لزمهم الإقرار بقدرته كذلك على بعثهم بعد موتهم، وذلك في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨ - ٧٩]

ذكر الواحدي: «عن أبي مالكٍ: أن أبي بن خلفٍ الجمحي جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظمٍ حائلٍ ففته بين يديه، وقال: يا محمد يبعث الله هذا بعدما أرم؟ فقال: (نعم، يبعث الله هذا ويميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم)[١]، فنزلت هذه الآية»[٢].

«وقيل: إن هذا الكافر قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أرأيت إن سحقتها وأذريتها في الريح أيعيدها الله! فنزلت ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي من غير شيء فهو قادر على إعادتها في النشأة الثانية من شيء وهو عجم الذنب، ويقال عجب الذنب بالباء»[٣].

«ولا شك أن الإحياء بعد أهون من الإنشاء قبل، فمن قدر على الإنشاء كان على الإحياء أقدر وأقدر، ولا احتمال لعروض العجز فإن قدرته عز وجل ذاتية لا تقبل الزوال ولا التغير بوجه من الوجوه»[٤].

ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ «فإن قدرته كما كانت لامتناع التغير فيه، والمادة على حالها في القابلية اللازمة لذاتها»[٥].

«وهذا بمجرد تصوره، يعلم به علما يقينا لا شبهة فيه، أن الذي أنشأها أول مرة

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم ٣٦٠٦. وقال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم.
(٢) أسباب النزول، ص٣٦٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٥/ ٥٨.
(٤) روح المعاني، الألوسي، ١٢/ ٥٣.
(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٢٧٤.

قادر على الإعادة ثاني مرة، وهو أهون على القدرة إذا تصوره المتصور»[1].

ومما يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة: ٦٠-٦٢].

قال النسفي: «﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وعلى أن ننشئكم في خلق لا تعلمونها وما عهدتم بمثلها، يعني أنا نقدر على الأمرين جميعًا على خلق ما يماثلكم وما لا يماثلكم، فكيف نعجز عن إعادتكم؟ ويجوز أن يكون أمثالكم جمع مثل، أي على أن نبدل ونغير صفاتكم التي أنتم عليها في خلقكم وأخلاقكم، وننشئكم في صفات لا تعلمونها»[2].

وقال المراغي: «أي نحن قسمنا الموت بينكم، ووقتنا موت كل واحد بميقات معين لا يعدوه بحسب ما اقتضته مشيئتنا المبنية على الحكم البالغة، وما نحن بعاجزين عن أن نذهبكم ونأتي بأشباهكم من الخلق، وننشئكم فيما لا تعلمون من الأطوار والأحوال التي لا تعهدونها.. ثم ذكر دليلا آخر على البعث فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي لقد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة وهي البداية قادر على النشأة الأخرى وهي الإعادة بطريق الأولى»[3].

قال الشوكاني: «﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾ وهي ابتداء الخلق من نطفةٍ، ثم من علقةٍ، ثم من مضغةٍ ولم تكونوا قبل ذلك شيئًا، وقال قتادة والضحاك: يعني خلق آدم من ترابٍ فلولا تذكرون أي: فهلا تذكرون قدرة الله سبحانه على النشأة الأخيرة وتقيسونها على النشأة الأولى»[4].

وقال الصابوني: «﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي فهلا تتذكرون بأن الله قادر على إعادتكم كما قدر على خلقكم أول مرة؟ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٧]»[5].

وقد رد القرآن الكريم على من أنكروا البعث كذلك وسألوا سؤال استبعاد لا سؤال استفهام أيبعثون بعد موتهم وآباؤهم بعد أن صاروا عظاما ورفاتا من جديد ردا مفحما غاية في البيان والإيجاز والإعجاز والإفحام.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٩٩.
(٢) مدارك التنزيل، ٣/ ٤٢٦
(٣) تفسير المراغي، ٢٧/ ١٤٦
(٤) فتح القدير، ٥/ ١٨٩
(٥) صفوة التفاسير، ٣/ ٢٩٥

﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩ ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٤٩ - ٥١].

«وقوله: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ قالوا إنكارا منهم للبعث بعد الموت: إنا لمبعوثون بعد مصيرنا في القبور عظاما غير منحطمة، ورفاتا منحطمة، وقد بلينا فصرنا فيها ترابا، خلقا منشأ كما كنا قبل الممات جديدا، نعاد كما بدئنا، فأجابهم جل جلاله يعرفهم قدرته على بعثه إياهم بعد مماتهم، وإنشائه لهم كما كانوا قبل بلاهم خلقا جديدا، على أي حال كانوا من الأحوال، عظاما أو رفاتا، أو حجارة أو حديدا، أو غير ذلك مما يعظم عندهم أن يحدث مثله خلقا أمثالهم أحياء، قل يا محمد ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾»[(١)].

«وتقرير الشبهة: أن الإنسان إذا مات جفت عظامه وتناثرت وتفرقت في جوانب العالم، واختلطت بسائطها بأمثالها من العناصر، فكيف يعقل بعد ذلك اجتماعها بأعيانها، ثم عود الحياة إلى ذلك المجموع؟ فأجاب سبحانه عنهم بأن إعادة بدن الميت إلى حال الحياة أمرٌ ممكنٌ، ولو فرضتم أن بدنه قد صار أبعد شيءٍ من الحياة ومن رطوبة الحي كالحجارة والحديد، فهو كقول القائل: أتطمع في وأنا ابن فلانٍ، فيقول: كن ابن السلطان أو ابن من شئت، فسأطلب منك حقي»[(٢)].

«وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾؟ يخبر تعالى رسوله أن منكري البعث سيقولون له مستبعدين البعث: من يعيدنا؟ وعلمه الجواب فقال له: ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ﴾ أي خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وهو جواب مسكت فالذي خلقكم ثم أماتكم هو الذي يعيدكم كما بدأكم وهو أهون عليه»[(٣)].

«والمعنى أنه لما قال لهم: كونوا حجارةً أو حديدًا أو شيئًا أبعد في قبول الحياة من هذين الشيئين فإن إعادة الحياة إليه ممكنةٌ، فعند ذلك قالوا: من هذا الذي يقدر على إعادة الحياة إليه، قال تعالى: ﴿قُلِ﴾ يا محمد: ﴿الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعني أن القول بصحة الإعادة فرعٌ على تسليم أن خالق الحيوانات هو الله تعالى، فإذا ثبت ذلك فنقول: إن تلك الأجسام قابلةٌ للحياة والعقل، وإله العالم قادرٌ لذاته، عالمٌ لذاته فلا يبطل علمه وقدرته البتة، فالقادر على الابتداء يجب أن يبقى قادرًا على الإعادة، وهذا كلامٌ تامٌ وبرهانٌ قويٌ»[(٤)].

---

(١) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٤٦٣.

(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٢٧٨.

(٣) أيسر التفاسير، الجزائري، ٣/ ٢٠١، ٢٠٢.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠/ ٣٥٣.

ثانيًا: القياس العقلي:

دلل القرآن الكريم على قضية البعث بعد الموت بالقياس العقلي الجلي على قضية بدء الخلق، وبين أنه قياس بطريق الأولى، فكل من صدق بأنه تعالى ابتدأ خلق الإنسان وهو أمر فطري لم ينازع فيه المشركون، لزمه بطريق الأولى التصديق بقدرته تعالى على إعادته مرة أخرى، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُا۟ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم: ٢٧].

قال القرطبي: «أما بدء خلقه فبعلوقه في الرحم قبل ولادته، وأما إعادته فإحياؤه بعد الموت بالنفخة الثانية للبعث، فجعل ما علم من ابتداء خلقه دليلًا على ما يخفى من إعادته، استدلالًا بالشاهد على الغائب، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾»[1].

«والهين هو ما لا يتعب فيه الفاعل، والأهون ما لا يتعب فيه الفاعل بالطريق الأولى، فإذا قال قائلٌ إن الرجل القوي لا يتعب من نقل شعيرة من موضعٍ وسلم السامع له ذلك، فإذا قال فكونه لا يتعب من نقل خردلةٍ يكون ذلك كلامًا معقولًا مبقىً على حقيقته»[2].

قال القرطبي: «ووجهه أن هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لعباده، يقول: إعادة الشيء على الخلائق أهون من ابتدائه، فينبغي أن يكون البعث لمن قدر على البداية عندكم وفيما بينكم أهون عليه من الإنشاء»[3].

كذلك برهن القرآن الكريم على قضية البعث بحكمة الله وعدله اللذين يقتضيان محاسبة الناس على أعمالهم في الدنيا في دار أخرى بعد موتهم، وإلا كان وجودهم في هذه الحياة الدنيا ضربا من العبث يتنزه الله تعالى عنه.

من ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثًا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

قال الزحيلي: « ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثًا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ أي: أفظننتم أنكم مخلوقون عبثا، أي لعبا وباطلا بلا قصد ولا حكمة لنا، بل خلقناكم للعبادة والتهذيب والتعليم وإقامة أوامر الله تعالى، وهل ظننتم أنكم لا تعودون إلينا في الدار الآخرة للحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

أي: هملًا.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ أي: تنزه وتقدس الله صاحب الملك الواسع، الثابت الذي لا

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٢٠

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/ ٩٦

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٢١-٢٢.

يزول، أن يخلق شيئا عبثا، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك، وهو ذو العرش العظيم الحسن البهي الذي يدبر فيه نظام الكون بحكمة ومقصد سام»[1].

«وبيان كونه عبثًا أنه لو خلق الخلق فأحسن المحسن وأساء المسيء ولم يلق كلٌ جزاءه لكان ذلك إضاعةً لحق المحسن وإغضاءً عما حصل من فساد المسيء فكان ذلك تسليطًا للعبث»[2].

ومثله قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ [القيامة: ٣٦]

«وتقريره أن إعطاء القدرة والآلة والعقل بدون التكليف والأمر بالطاعة والنهي عن المفاسد يقتضي كونه تعالى راضيًا بقبائح الأفعال، وذلك لا يليق بحكمته، فإذًا لا بد من التكليف والتكليف لا يحسن ولا يليق بالكريم الرحيم إلا إذا كان هناك دار الثواب والبعث والقيامة»[3].

ثالثًا: الاستشهاد بالدورة النباتية:

استدل القرآن الكريم على إمكان البعث بما هو مشاهد من إحياء الأرض الميتة الجرز بنزول الماء عليها فتهتز بالخضرة والحياة بعد موتها، فمن قدر على إحياء تلك الأرض بعد موتها قادر لا محالة على إحياء الموتى من البشر.

وقد تكرر هذا المثل في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧﴾ [الأعراف: ٥٧].

«يلفت الله تعالى نظر المشركين المنكرين للبعث والحساب والعقاب، إلى أنه يرسل الرياح فتثير السحاب، وتجعله يتكون في جو السماء، ثم تسوقه الرياح إلى الأرض الموات، التي لا نبات فيها، فيفرغ السحاب ما فيه من فوق هذه الأرض الميتة، فتحيا الأرض بالماء، وتهتز وتربو، ويخرج منها النبات، وكما أحيا الله تعالى الأرض الميتة، وأخرج منها النبات النضير، كذلك يحيي الله الأموات من البشر، ويخرجهم من قبورهم يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم»[4].

قال السعدي: «يبين تعالى أثرا من آثار قدرته، ونفحة من نفحات رحمته فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: الرياح المبشرات بالغيث، التي تثيره بإذن الله من الأرض، فيستبشر الخلق برحمة الله، وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾ الرياح ﴿سَحَابًا﴾

(١) التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ١١٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٨/ ١٣٤.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ٣٠/ ٧٣٧.
(٤) أيسر التفاسير، أسعد حومد، ٣/ ١٠٦٨.

﴿ثِقَالًا﴾ قد أثاره بعضها، وألفه ريح أخرى، وألحقه ريح أخرى ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ قد كادت تهلك حيواناته، وكاد أهله أن ييأسوا من رحمة الله، ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ أي: بذلك البلد الميت ﴿ٱلْمَآءَ﴾ الغزير من ذلك السحاب وسخر الله له ريحا تدره وتفرقه بإذن الله، ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ فأصبحوا مستبشرين برحمة الله، راتعين بخير الله، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات، كذلك نخرج الموتى من قبورهم، بعد ما كانوا رفاتا متمزقين، وهذا استدلال واضح، فإنه لا فرق بين الأمرين، فمنكر البعث استبعادا له - مع أنه يرى ما هو نظيره - من باب العناد، وإنكار المحسوسات»(١).

وقال الزحيلي: «هذه آية اعتبار واستدلال على وجود البعث، وفهم الدليل بسيط جدا؛ فإن الله تعالى كما أنه يحيي الأرض وينبتها نباتا حسنا بالمطر فإنه قادر على إعادة الموتى أحياء يوم القيامة، كإحياء الأرض بعد موتها.. وإحياء الأرض بعد موتها بالنباتات يحدث بقدرة الله الخالق، فكذلك إعادة الحياة إلى الأجساد يكون بقدرة الله أيضا»(٢).

وقد جمع بين الطريقتين السابقتين في إثبات البعث قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحج: ٥].

«﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ إقامة للحجة التي تلقم المجادلين في البعث حجرا إثر الإشارة إلى ما يؤول إليه أمرهم، واستظهر أن المراد بالناس هنا الكفرة المجادلون المنكرون للبعث، والتعبير عن اعتقادهم في حقه بالريب أي الشك مع أنهم جازمون بعدم إمكانه إما للإيذان بأن أقصى ما يمكن صدوره عنهم وإن كانوا في غاية ما يكون من المكابرة والعناد هو الارتياب في شأنه، وإما الجزم بعدم الإمكان فخارج من دائرة الاحتمال كما أن تنكيره وتصديره بكلمة الشك للإشعار بأن حقه أن يكون ضعيفا مشكوك الوقوع، وإما للتنبيه على أن جرمهم ذلك بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح دلائل الإمكان ونهاية قوتها، وإنما لم يقل وإن ارتبتم في البعث للمبالغة في

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٩٢.
(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي، ١/ ٦٧٨.

تنزيه أمره عن شائبة وقوع الريب والإشعار بأن ذلك إن وقع فمن جهتهم لا من جهته، واعتبار استقرارهم فيه وإحاطته بهم لا ينافي اعتبار ضعفه وقلته لما أن ما يقتضيه ذلك هو دوام ملابستهم به لا قوته وكثرته»[(١)].

«فيا أيها البشر، إن كنتم في شك من إمكان البعث ومجيئه، فانظروا إلى بدء خلقكم، فمن قدر على البدء قدر على الإعادة، بدليل مراحل خلق الإنسان السبع.. وهذا هو الدليل الأول على قدرة الله على البعث، يعتمد على التأمل في مراحل خلق الإنسان، والدليل الثاني: هو خلق النبات المشابه لخلق الإنسان، فإذا تأمل المرء أحوال الأرض، يراها أولا ميتة يابسة لا نبات فيها ولا زرع، فإذا أنزل الله عليها المطر تحركت بالنبات، ودبت فيها الحياة، وارتفعت وانتفخت بالماء والنبات، ثم أنبتت من كل صنف من النبات والزرع ما هو جميل المنظر، طيب الرائحة، متناسق الألوان أو مختلفها، لاختلاف ألوان الثمار والزروع والطعوم والروائح، والأشكال والمنافع، كما يلاحظ كل إنسان في فصل الربيع والصيف وغيرهما»[(٢)].

وهذا ارتقاءٌ في الاستدلال على الإحياء بعد الموت بقياس التمثيل لأنه استدلالٌ بحالةٍ مشاهدةٍ فلذلك افتتح بفعل الرؤية، بخلاف الاستدلال بخلق الإنسان فإن مبدأه غير مشاهدٍ فقيل في شأنه فإنا خلقناكم من ترابٍ الآية، ومحل الاستدلال من قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾، فهو مناسبٌ قوله في الاستدلال الأول فإنا خلقناكم من ترابٍ، فهمود الأرض بمنزلة موت الإنسان واهتزازها وإنباتها بعد ذلك يماثل الإحياء بعد الموت»[(٣)].

فهذان الدليلان القاطعان، يدلان على هذه المطالب الخمسة، وهي هذه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: ٦-٧]»[(٤)].

رابعًا: الاستدلال بوقائع حصل فيها الإحياء بعد الموت:

استدل القرآن الكريم على قضية البعث بوقائع حدثت فعلا، ووقع فيها أمر الإحياء بعد الموت في هذه الحياة الدنيا بشكل معاين، وهي وقائع عديدة ذكرها الله تعالى في كتابه ليدلنا بها على إمكان وقوع إحياء الموتى حتى في هذه الحياة الدنيا، وأن من قدر على ذلك فهو قادر لا محالة على إحياء

(١) روح المعاني، الألوسي، ٩/ ١١١.
(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي، ٢/ ١٦٢٦-١٦٢٧ مختصرًا.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٧/ ٢٠٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥٣٣-٥٣٤.

الموتى جميعا يوم القيامة، فمن هذه الوقائع:

١. قصة الرجل الذي قتل في بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٦٧ - ٧٣].

«وحكاية ذلك: أن رجلًا موسرًا قتله بنو عمه ليرثوه، وطرحوه عند باب المدينة، ثم جاءوا يطالبون بديته؛ فأمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة، ويضربوا القتيل ببعضها؛ فيحيا ويخبرهم بقاتله. فضربوه بذنبها، فحي وقال: قتلني فلان وفلان - يريد ابني عمه - فاقتص منهما، وحرما ميراثه»[1].

«روي عن ابن عباسٍ وسائر المفسرين أن رجلًا من بني إسرائيل قتل قريبًا لكي يرثه ثم رماه في مجمع الطريق ثم شكا ذلك إلى موسى عليه السلام فاجتهد موسى في تعرف القاتل، فلما لم يظهر قالوا له: سل لنا ربك حتى يبينه، فسأله فأوحى الله إليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فتعجبوا من ذلك ثم شددوا على أنفسهم بالاستفهام حالًا بعد حالٍ واستقصوا في طلب الوصف فلما تعينت لم يجدوها بذلك النعت إلا عند إنسانٍ معينٍ ولم يبعها إلا بأضعاف ثمنها، فاشتروها وذبحوها وأمرهم موسى أن يأخذوا عضوًا منها فيضربوا به القتيل، ففعلوا فصار المقتول حيًا وسمى لهم قاتله وهو الذي ابتدأ بالشكاية فقتلوه قودًا»[2].

وقد اختلفوا في المخاطب بقوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ «قال القفال: ظاهره يدل على أن الله تعالى قال هذا لبني إسرائيل أي: إحياء الله الموتى يكون مثل هذا الذي شاهدتم؛ لأنهم وإن كانوا مؤمنين بذلك إلا أنهم لم يؤمنوا به إلا من طريق الاستدلال، ولم يشاهدوا شيئًا منه، فإذا شاهدوه اطمأنت قلوبهم، وانتفت عنهم الشبهة، فأحيا الله القتيل عيانًا، ثم قال لهم: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ

(١) أوضح التفاسير، ابن الخطيب ١/ ١٣
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥٤٣

﴿الْمَوْتَىٰ﴾، أي: كما أحياها في الدنيا يحييها في الآخرة من غير احتياج إلى مادة ومثال وآلة التي لا يخلو منها المستدل»[1].

وقال أبو جعفر الطبري: «وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ مخاطبة من الله عباده المؤمنين، واحتجاج منه على المشركين المكذبين بالبعث، وأمرهم بالاعتبار بما كان منه جل ثناؤه من إحياء قتيل بني إسرائيل بعد مماته في الدنيا، فقال لهم تعالى ذكره: أيها المكذبون بالبعث بعد الممات، اعتبروا بإحيائي هذا القتيل بعد مماته، فإني كما أحييته في الدنيا، فكذلك أحيي الموتى بعد مماتهم، فأبعثهم يوم البعث، وإنما احتج جل ذكره بذلك على مشركي العرب، وهم قوم أميون لا كتاب لهم، لأن الذين كانوا يعلمون علم ذلك من بني إسرائيل كانوا بين أظهرهم، وفيهم نزلت هذه الآيات، فأخبرهم جل ذكره بذلك، ليتعرفوا علم من قبلهم..

﴿وَيُرِيكُمْ﴾ الله أيها الكافرون المكذبون بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من عند الله من آياته، و ﴿آيَاتِهِ﴾: أعلامه وحججه الدالة على نبوته لتعقلوا وتفهموا أنه محق صادق، فتؤمنوا به وتتبعوه»[2].

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ٢/ ١٨١.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢/ ٢٣٢.

٢. قصة الذين خرجوا من ديارهم فرارا من الموت.

ومن الوقائع التي استدل بها القرآن على صدق وقوع البعث بعد الموت ووقعت فعلا ما حدث لألوف من بني إسرائيل ذكرهم القرآن في قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة: ٢٤٣]

«يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم فيقول: ألم ينته إلى علمك قصة الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت وهم ألوف، وهم أهل مدينة من مدن بني إسرائيل أصابها الله تعالى بمرض الطاعون ففروا هاربين من الموت فأماتهم الله عن آخرهم ثم أحياهم بدعوة نبيهم حزقيل عليه السلام»[3].

«وذكر غير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كانوا أهل بلدة في زمان بني إسرائيل استوخموا أرضهم وأصابهم بها وباء شديد فخرجوا فرارًا من الموت إلى البرية، فنزلوا واديًا أفيح، فملؤا ما بين عدوتيه فأرسل الله إليهم ملكين أحدهما من أسفل الوادي والآخر من أعلاه فصاحا بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم موتة رجل واحد فحيزوا

(٣) أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ٢٣١.

إلى حظائر وبني عليهم جدران وقبور وفنوا وتمزقوا وتفرقوا فلما كان بعد دهر مر بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له: حزقيل فسأل الله أن يحييهم على يديه فأجابه إلى ذلك وأمره أن يقول: أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعي فاجتمع عظام كل جسد بعضها إلى بعض، ثم أمره فنادى: أيتها العظام إن الله يأمرك بأن تكتسي لحمًا وعصبًا وجلدًا. فكان ذلك، وهو يشاهده ثم أمره فنادى: أيتها الأرواح إن الله يأمرك أن ترجع كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره. فقاموا أحياء ينظرون قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة، وهم يقولون: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لا إله إلا أنت، وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة»[1].

«فكما كان قادرًا على إحيائهم في الدنيا هو قادرٌ على إحياء المتوفين في الآخرة، فيجازي كلًا منهم بما عمل. ففي هذه القصة تنبيهٌ على المعاد، وأنه كائنٌ لا محالة، فيليق بكل عاقلٍ أن يعمل لمعاده بأن يحافظ على عبادة ربه، وأن يوفي حقوق عباده»[2].

«إن الله لذو فضل على الناس فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة، وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة»[3].

٣. قصة صاحب القرية.

ومن الوقائع التي تؤكد إمكان البعث بعد الموت قصة صاحب القرية.

قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩].

اختلف المفسرون في صاحب القصة الذي مر على القرية، هل كان نبيا عبدا صالحا أو كان كافرا شاكا في البعث، كما اختلفوا في اسمه، «واختلفوا في القرية المذكورة في الآية، لكن القرآن ضرب صفحا عن تعيين اسم الشخص واسم القرية كعادته في مثل هذه القصص التي يكون المقصد القرآني فيها هو إظهار الحكمة من ذكرها وما تشتمل عليه من المواعظ والآيات والعبر، ولا تخص شخوصها وزمانها ومكانها، والذي يعنينا هنا هو دلالة هذه القصة على قدرة الله على البعث، وإيقاعه فعلا أمام من استبعده

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٦٦١.
(٢) البحر المحيط، ابن حيان، ٢/ ٥٥٩، ٥٦٠.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٤١٣

ليكون ذلك دليلا له ولكل من سمع القصة على إثبات قدرة الله على إحياء الموتى.

وتفسيرها كما قال ابن كثير: «﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ أي: ليس فيها أحد من قولهم: خوت الدار تخوي خواءً وخويا، وقوله: ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها، فوقف متفكرا فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة وقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾، قال: وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته وتكامل ساكنوها وتراجعت بنو إسرائيل إليها، فلما بعثه الله عز وجل بعد موته كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيي بدنه؟

فلما استقل سويا قال الله له -أي بواسطة الملك-: ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قالوا: وذلك أنه مات أول النهار ثم بعثه الله في آخر نهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ وذلك: أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير فوجده كما فقده لم يتغير منه شيء، لا العصير استحال ولا التين حمض ولا أنتن ولا العنب تعفن ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ أي: كيف يحييه الله عز وجل وأنت تنظر ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: دليلا على المعاد»[(١)].

«فأجيب: بل لبثت مائة عام، فانظر لترى دلائل قدرتنا إلى طعامك وشرابك طوال هذه المدة، لم يتغير ولم يفسد، مع أن العادة جرت بفساد مثله بمضي مدة قليلة، وانظر أيضا لترى الدليل على قدرتنا إلى حمارك كيف نخرت عظامه وتقطعت أوصاله، لتتبين تطاول مرور الزمان عليه وعليك وأنت راقد أو نائم فعلنا بك ما فعلنا لتعاين ما استبعدته، ولتتيقن ما تعجبت منه، ولنجعلك دليلا على المعاد، وآية دالة على تمام قدرتنا على البعث يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

فقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ دليل على البعث بعد الموت»[(٢)].

٤ . قصة إبراهيم عليه السلام مع الطير.

كما استدل القرآن على وقوع البعث بعد الموت بما وقع لسيدنا إبراهيم عليه السلام حين سأل الله أن يريه إحياء الموتى عيانا،

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٦٨٨.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي، ٣/ ٣٣.

فاستجاب الله له وأجرى له الأمر على يديه بإذنه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقد تكلم بعض المفسرين في سبب سؤال إبراهيم لربه أن يريه كيفية إحياء الموتى وهل كان شكا منه في البعث أو كان طلبا للترقي في درجات اليقين؟

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى الثاني واستبعاد الأول لكونه لا يليق بمقام النبوة فضلا عن الخلة.

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «وقد فهم بعض الناس من هذا السؤال أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كان قلقًا مضطربًا في اعتقاده بالبعث وذلك شكٌّ فيه، وما أبلد أذهانهم وأبعد أفهامهم عن إصابة المرمى، وقد ورد في حديث الصحيحين نحن أولى بالشك من إبراهيم أي أننا نقطع بعدم شكه كما نقطع بعدم شكنا أو أشد قطعًا، نعم ليس في الكلام ما يشعر، بالشك، فإنه ما من أحدٍ إلا وهو يؤمن بأمورٍ كثيرةٍ إيمانًا يقينيًا وهو لا يعرف كيفيتها ويود لو يعرفها»[1].

قال القرطبي: «ولا يجوز على الأنبياء صلوات الله عليهم مثل هذا الشك فإنه كفرٌ، والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث.

وقد أخبر الله تعالى أن أنبياءه وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيلٌ فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

وقال اللعين: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠].

وإذا لم يكن له عليهم سلطنةٌ فكيف يشككهم، وإنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها وإيصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها، فأراد أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين، فقوله: «أرني كيف» طلب مشاهدة الكيفية»[2].

وقال ابن عاشور: «فإن إبراهيم لفرط محبته الوصول إلى مرتبة المعاينة في دليل البعث رام الانتقال من العلم النظري البرهاني، إلى العلم الضروري، فسأل الله أن يريه إحياء الموتى بالمحسوس»[3].

وما وقع لخليل الله إبراهيم عليه السلام من إجابة الله دليل واقعي على البعث بعد الموت، قال السعدي: «وهذا فيه أيضا أعظم دلالة حسية على قدرة الله وإحيائه الموتى للبعث والجزاء، فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم أنه سأله أن يريه ببصره كيف يحيي

(١) تفسير المنار، ٣/ ٤٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٣/ ٢٩٩.

(٣) التحرير والتنوير، ٣/ ٣٨.

الموتى، لأنه قد تيقن ذلك بخبر الله تعالى، ولكنه أحب أن يشاهده عيانا ليحصل له مرتبة عين اليقين.

فلهذا قال الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وذلك أنه بتوارد الأدلة اليقينية مما يزداد به الإيمان ويكمل به الإيقان ويسعى في نيله أولو العرفان، فقال له ربه ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: ضمهن ليكون ذلك بمرأى منك ومشاهدة وعلى يديك. ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي: مزقهن، اخلط أجزاءهن بعضها ببعض، واجعل على كل جبل، أي: من الجبال التي في القرب منه، جزء من تلك الأجزاء ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي: تحصل لهن حياة كاملة، ويأتينك في هذه القوة وسرعة الطيران، ففعل إبراهيم عليه السلام ذلك وحصل له ما أراد»[1].

«فأخذ هذه الطير حسب ما أمر وذكاها، ثم قطعها قطعًا صغارًا، وخلط لحوم البعض إلى لحوم البعض مع الدم والريش حتى يكون أعجب، ثم جعل من ذلك المجموع المختلط جزءًا على كل جبلٍ، ووقف هو من حيث يرى تلك الأجزاء وأمسك رءوس الطير في يده، ثم قال: تعالين بإذن الله، فتطايرت تلك الأجزاء وطار الدم إلى الدم والريش إلى الريش حتى التأمت مثل ما كانت أولًا وبقيت بلا رءوسٍ، ثم كرر النداء فجاءته سعيًا، أي عدوًا على أرجلهن. ولا يقال للطائر: (سعى) إذا طار إلا على التمثيل، قاله النحاس. وكان إبراهيم إذا أشار إلى واحدٍ منها بغير رأسه تباعد الطائر، وإذا أشار إليه برأسه قرب حتى لقي كل طائرٍ رأسه، وطارت بإذن الله. وقال الزجاج: المعنى ثم اجعل على كل جبلٍ من كل واحدٍ جزءًا»[2].

وقال الألوسي: «وفي الآية دليل لمن ذهب إلى أن إحياء الموتى يوم القيامة بجمع الأجزاء المتفرقة وإرسال الروح إليها بعد تركيبها وليس هو من باب إعادة المعدوم الصرف لأنه سبحانه بين الكيفية بالتفريق ثم الجمع وإعادة الروح ولم يعدم هناك سوى الجزء الصوري والهيئة التركيبية دون الأجزاء المادية»[3].

٥. ما أجراه الله تعالى على يد المسيح عليه السلام.

ومن تلك الوقائع التي حدث فيها إحياء الموتى ما أجراه الله تعالى على يد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام معجزة له، وقد حكى القرآن الكريم ذلك.

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١١٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٣/ ٣٠٠، ٣٠١.

(٣) روح المعاني، ٢/ ٣٠.

﴿ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

«وإحياء الموتى معجزةٌ للمسيح أيضًا، كنفخ الروح في الطير المصور من الطين، فكان إذا أحيا ميتًا كلمه ثم رجع ميتًا، وورد في الأناجيل أنه أحيا بنتًا كانت ماتت فأحياها عقب موتها. ووقع في إنجيل متى في الإصحاح السابع عشر أن عيسى صعد الجبل ومعه بطرس ويعقوب ويوحنا أخوه وأظهر لهم موسى وإيلياء يتكلمان معهم، وكل ذلك بإذن الله له أن يفعل ذلك»[1].

«قال الكلبي: كان عليه الصلاة والسلام يحيي الموتى بيا حي يا قيوم أحيا عازر وكان صديقًا له فعاش وولد له، ومر على ابن عجوز ميت فدعا الله تعالى فنزل عن سريره حيًا، ورجع إلى أهله وبقي وولد له، وبنت العاشر أحياها وولدت بعد ذلك، فقالوا إنك تحيي من كان قريب العهد من الموت فلعلهم لم يموتوا بل أصابهتهم سكتة، فأحي لنا سام بن نوحٍ، فقال: دلوني على قبره، ففعلوا فقام على قبره، فدعا الله عز وجل، فقام من قبره وقد شاب رأسه، فقال عليه السلام: كيف شبت ولم يكن في زمانكم شيبٌ؟ قال: يا روح الله، لما دعوتني سمعت صوتًا يقول أجب روح الله، فظننت أن الساعة قد قامت، فمن هول ذلك شبت، فسأله عن النزع، قال: يا روح الله، إن مرارته لم تذهب من حنجرتي، وكان بينه وبين موته أكثر من أربعة آلاف سنةٍ، وقال للقوم: صدقوه فإنه نبي الله، فآمن به بعضهم وكذبه آخرون فقالوا هذا سحرٌ»[2].

«وروي في إحيائه الموتى أنه كان يضرب بعصاه الميت أو القبر أو الجمجمة، فيحيي الإنسان ويكلمه، وروي أنه أحيا سام بن نوح عليه السلام، وروي أن الذي كان يحييه كانت تدوم حياته، وروي أنه كان يعود لموته سريعا، وفي قصص الإحياء أحاديث كثيرة لا يوقف على صحتها، وإحياء الموتى هي آيته المعجزة المعرضة للتحدي، وهي بالمعنى متحدى بها وإن كان لم ينص على التحدي بها، وآيات عيسى عليه السلام إنما تجري فيما يعارض الطب لأن علم الطب كان شرف الناس في ذلك الزمان وشغلهم وحينئذ أثيرت فيه العجائب، فلما جاء عيسى عليه السلام بغرائب لا تقتضيها الأمزجة وأصول الطب، وذلك إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص علمت الأطباء أن هذه القوة من عند الله، وهذا كأمر السحرة مع موسى، والفصحاء مع محمد عليه السلام»[3].

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٢٥٢.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ٣٩.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية، ١/ ٤٤٠.

٦. قصة أصحاب الكهف.

ومن الوقائع التي تشهد على إمكان البعث بعد الموت قصة أولئك الفتية الذين آووا إلى الكهف وكان من أمرهم ما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝١٢ ﴾ [الكهف: ٩ - ١٢].

قال ابن كثير: «هذا إخبار عن قصة أصحاب الكهف والرقيم على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك فقال: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ يعني: يا محمد ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ أي: ليس أمرهم عجيبا في قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف والرقيم كما قال ابن جريج عن مجاهد: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك»[1].

وقال الطبري: «وأما الكهف، فإنه كهف الجبل الذي أوى إليه القوم الذين قص الله شأنهم في هذه السورة، وأما الرقيم، فإن أهل التأويل اختلفوا في المعني به، فقال بعضهم: هو اسم قرية، أو واد على اختلاف بينهم في ذلك»[2].

«ثم ذكر قصتهم مجملة، وفصلها بعد ذلك فقال: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ ﴾ أي: الشباب، ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ يريدون بذلك التحصن والتحرز من فتنة قومهم لهم، ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي تثبتنا بها وتحفظنا من الشر، وتوفقنا للخير ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ أي: يسر لنا كل سبب موصل إلى الرشد، وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا، فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة، إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم، وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق، فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقيض لهم ما لم يكن في حسابهم، قال: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ ﴾ أي أنمناهم ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ وهي ثلاث مائة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف، وحفظ لهم من قومهم وليكون

(١) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ١٣٨.
(٢) جامع البيان، ١٧/ ٦٠٢.

آية بينة، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي: من نومهم ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ أي: لنعلم أيهم أحصى لمقدار مدتهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾[الكهف:١٩].

وفي العلم بمقدار لبثهم، ضبط للحساب، ومعرفة لكمال قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته، فلو استمروا على نومهم، لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم»[١].

وقال القرطبي: «﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ عبارةٌ عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم، وهذه من فصيحات القرآن التي أقرت العرب بالقصور عن الإتيان بمثله، قال الزجاج: أي منعناهم عن أن يسمعوا، لأن النائم إذا سمع انتبه، وقال ابن عباسٍ: ضربنا على آذانهم بالنوم، أي سددنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها، وقيل: المعنى» فضربنا على آذانهم» أي فاستجبنا دعاءهم، وصرفنا عنهم شر قومهم، وأنمناهم، والمعنى كله متقاربٌ»[٢].

وقد ذكر ابن الجوزي سبب بعثهم فقال: «فأما سبب بعث أصحاب الكهف من نومهم، فقال عكرمة: جاءت أمةٌ مسلمةٌ، وكان ملكهم مسلمًا، فاختلفوا في الروح والجسد، فقال قائل: يبعث الروح والجسد. وقال قائل: يبعث الروح وحده، والجسد تأكله الأرض فلا يكون شيئًا، فشق اختلافهم على الملك، فانطلق فلبس المسوح، وقعد على الرماد، ودعا الله أن يبعث لهم آية تبين لهم، فبعث الله أصحاب الكهف»[٣].

ويستفاد من ذلك أن الله ضرب على آذان هؤلاء الفتية في كهفهم حتى لا يفزعهم شيء ولا يوقظهم من سباتهم صوت إلى ما شاء الله، ثم بعثهم سبحانه بقدرته أي أيقظهم من نومهم لحكم عظيمة منها أن يعرف الناس قصتهم فيدركوا قدرته تعالى على البعث وليكون لهم في ذلك آية عليه، وأن من قدر على بعثهم بعد كل هذه السنين من نومهم مع حفظ أجسادهم من التلف والفساد قادر على أن يحييهم بعد موتهم وتحلل أجسادهم، فالنوم هو صورة صغرى للموت، إذ يتوفى الله فيه الأنفس كما في الموت، وقد صرح القرآن بذلك، وسيأتي تفصيله.

وكل هذه براهين واقعية وأدلة مشاهدة حسية على إمكان البعث بعد الموت ووقوعه بقدرة الله عز وجل على يد من شاء من عباده إظهارا لقدرته سبحانه، ودليلا على وقوع البعث يوم القيامة.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٧١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٦٣
(٣) زاد المسير، ٣/ ٦٧.

خامسًا: الاستدلال باليقظة بعد النوم:

من أعظم وأظهر الأدلة الحسية المشاهدة على إمكان البعث بعد الموت، تلك الحقيقة التي تقع لكل إنسان مرة على الأقل كل يوم وهي النوم واليقظة بعده، فالنوم ما هو إلا صورة مصغرة وحالة مؤقتة من الموت، ولهذا قالوا النوم موت أصغر، وقد بين الله في كتابه أن يقظة الإنسان بعد نومه وما يحدث في هذا النوم من تعطل الحواس جميعا بحيث يصبح النائم في حالة تشبه الميت في بعض الأمور دليل على بعثه بعد موته الموتة الكبرى، وسمى النوم وفاة كما سمى الاستيقاظ منه بعثا، وقد جاء هذا الاستدلال في أكثر من موضع من كتاب الله تعالى، من ذلك قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِالَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام: ٦٠].

قال أبو حيان في معنى الآية: «ذكر شيئًا محسوسًا قاهرًا للأنام وهو التوفي بالليل والبعث بالنهار وكلاهما ليس للإنسان فيه قدرةٌ، بل هو أمرٌ يوقعه الله تعالى بالإنسان والتوفي عبارةٌ في العرف عن الموت وهنا المعنى به النوم على سبيل المجاز للعلاقة التي بينه وبين الموت وهي زوال إحساسه ومعرفته وفكره، ولما كان التوفي المراد به النوم سببًا للراحة أسنده تعالى إليه»[1].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «وأطلق التوفي على الموت؛ لأن الأرواح تقبض وتؤخذ أخذًا تامًا حتى لا يبقى لها تصرفٌ في الأبدان، وأطلق على النوم في هذه الآية وفي آية الزمر التي نذكرها قريبًا، فقال العلماء: إنه إطلاقٌ مجازيٌ مبنيٌ على تشبيه النوم بالموت لما بينهما من المشاركة في زوال إحساس الحواس والتمييز، وإنما جعلوه استعارةً عن النوم بناءً على جعله حقيقةً في الموت، وهو كذلك في العرف العام لا في أصل اللغة؛ يقولون توفي فلانٌ - بالبناء للمفعول - بمعنى مات، وتوفاه الله بمعنى أماته، وما أعلم أن العرب استعملت التوفي في الموت، وإنما هو استعمالٌ إسلاميٌ مبنيٌ على الموت، يحصل بقبض الأنفس التي تحيا بها الناس»[2].

وقال ابن الجوزي: «﴿وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِالَّيْلِ﴾ يريد به النوم، لأنه يقبض الأرواح عن التصرف، كما يقبض بالموت، وقال ابن عباس: يقبض أرواحكم في منامكم. و﴿جَرَحْتُم﴾: بمعنى كسبتم، ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ أي: يوقظكم فيه، أي: في النهار، ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: لتبلغوا الأجل المسمى لانقطاع حياتكم،

(١) البحر المحيط ٤/ ٥٣٧.
(٢) تفسير المنار ٧/ ٣٩٨، ٣٩٩.

فدل باليقظة بعد النوم على البعث بعد الموت»[1].

وقال الرازي: «بين كمال قدرته بهذه الآية وهو كونه قادرًا على نقل الذوات من الموت إلى الحياة ومن النوم إلى اليقظة واستقلاله بحفظها في جميع الأحوال وتدبيرها على أحسن الوجوه حالة النوم واليقظة»[2].

«﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ ثم إليه وحده يكون رجوعكم إذا انتهت آجالكم ومتم، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إذ يبعثكم من مراقد الموت كما كان يبعثكم من مضاجع النوم؛ لأنه عالمٌ بتلك الأعمال كلها فيذكركم بها، ويحاسبكم عليها، ويجزيكم بها، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًا فشرٌ، وفيه تنبيهٌ على أن القادر على البعث من توفي النوم قادرٌ على البعث من توفي الموت»[3].

وكذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢].

قال ابن كثير: «قال تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦٠-٦١].

فذكر الوفاتين: الصغرى ثم الكبرى، وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى»[4].

وقال القرطبي: «وقال ابن زيد: النوم وفاةٌ والموت وفاةٌ.. وقال عمر: النوم أخو الموت»[5].

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث جابر بن عبد الله قيل: يا رسول الله أينام أهل الجنة؟ قال: (النوم أخو الموت و لا ينام أهل الجنة)[6].

قال ابن العربي: «خلق الله للعبد النوم، ليعلم به كيفية الانتقال من حال إلى حال، وصفة الخروج من دار إلى دار، فإنه موت

(١) زاد المسير ٢/ ٣٨.
(٢) مفاتيح الغيب ١٣/ ١٢.
(٣) تفسير المنار، ٧/ ٤٠٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ١٠١.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٢٦١.
(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط رقم ٩١٩، والبيهقي في شعب الإيمان، باب تعديد نعم الله عز وجل وما يجب من شكرها، فصل في النوم الذي هو نعمة من نعم الله في دار الدنيا وما جاء في آدابه، رقم ٤٤١٦.
وقال الألباني في السلسلة الصحيحة ٣/ ١٦١، رقم ١٠٨٧: صحيح من بعض طرقه عن جابر.

أصغر، وقد يقال بنظر آخر أنه يقظةٌ صغرى، فإن نظرنا إليه من حيث عدم الحركة والحس والتصرف بالأفعال معه، قلنا هو موت لعدم ذلك كله به، وقد قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢].

وإن نظرنا إليه من حيث إنه انقطاع عن عالم التصرف الأدنى مع الآدميين والإكباب على الدنيا ومعانيها، وأنه إقبال على الملائكة المقربين، وتفريغ القلب لإدراك الحقائق بطريق الأمثال، واطلاع على ما يكون غدًا، رأينا أنه حياة صحيحة، ويقظة محققة بدلًا عن موت مفقد، ونوم مفسد»[(١)].

وقال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ أي: يقبض الأرواح حين موت أجسادها ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ ﴾ أي: ويتوفى التي لم تمت في منامها. فيمسك أي: عن الجسد والنفس ﴿ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ إلى الجسد إلى أجلٍ مسمّى وهو انقضاء العمر ﴿إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون﴾ في أمر البعث»[(٢)].

وقال الطبري: «وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يقول تعالى ذكره: إن في قبض الله نفس النائم والميت وإرساله بعد نفس هذا ترجع إلى جسمها، وحبسه لغيرها عن جسمها لعبرة وعظة لمن تفكر وتدبر، وبيانا له أن الله يحيي من يشاء من خلقه إذا شاء، ويميت من شاء إذا شاء»[(٣)].

«وقال مقاتل: لعلامات لقوم يتفكرون في أمر البعث، يعني أن توفي نفسِ النائم وإرسالها بعد التوفي دليلٌ على البعث»[(٤)].

تأكيد مبدأ البعث بالقسم الرباني:

يأتي القسم لتأكيد الخبر لمنكريه، وقد أمر الصادق صلى الله عليه وسلم أن يقسم على قضية البعث تأكيدا لها في وجه من كذبوه وأنكروها، وهو الذي لم يجربوا عليه كذبا قط باعترافهم، وقسمه عليها رغم أنها من الغيب، حيث لم يعاين أمر البعث لأن إخبار الله له به أشد يقينا في قلبه مما يشاهده بعينه.

قال تعالى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [التغابن: ٧].

«يخبر تعالى عن عناد الكافرين، وزعمهم الباطل، وتكذيبهم بالبعث بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فأمر أشرف خلقه، أن يقسم بربه على بعثهم، وجزائهم بأعمالهم الخبيثة، وتكذيبهم بالحق، ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فإنه وإن كان عسيرًا

(١) قانون التأويل، ص٤٦٩.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٠.
(٣) جامع البيان، ٢١/ ٢٩٩.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ٥٢٠.

بل متعذرًا بالنسبة إلى الخلق، فإن قواهم كلهم، لو اجتمعت على إحياء ميت واحد، ما قدروا على ذلك»[1].

«والمراد بالذين كفروا هنا المشركون من أهل مكة ومن على دينهم، واجتلاب حرف لن لتأكيد النفي فكانوا موقنين بانتفاء البعث، ولذلك جيء إبطال زعمهم مؤكدًا بالقسم لينقض نفيهم بأشد منه، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يبلغهم عن الله أن البعث واقعٌ وخاطبهم بذلك تسجيلًا عليهم أن لا يقولوا ما بلغناه ذلك، وجملة ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ معترضةٌ بين جملة ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجملة ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وحرف بلى حرف جوابٍ للإبطال خاصٌ بجواب الكلام المنفي لإبطاله»[2].

قال الرازي: «﴿بَلَىٰ﴾ إثباتٌ لما بعد أن وهو البعث وقيل: قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ يحتمل أن يكون تعليمًا للرسول صلى الله عليه وسلم ، أي يعلمه القسم تأكيدًا لما كان يخبر عن البعث وكذلك جميع القسم في القرآن»[3].

«أي زعموا أن الشأن لن يبعثوا بعد موتهم ﴿قُلْ﴾ ردا عليهم وإظهارا لبطلان زعمهم بإثبات ما نفوه بلى تبعثون، وأكد ذلك بالجملة القسمية فهي داخلة في حيز الأمر، وكذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي لتحاسبن وتجزون بأعمالكم، وزيد ذلك لبيان تحقق أمر آخر متفرع على البعث منوط به ففيه أيضا تأكيد له ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من البعث والجزاء ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لتحقق القدرة التامة وقبول المادة»[4].

«وجواب القسم لتبعثن، أي: لتخرجن من قبوركم لتنبؤن بما عملتم أي: لتخبرن بذلك إقامةً للحجة عليكم، ثم تجزون به وذلك البعث والجزاء على الله يسيرٌ إذ الإعادة أيسر من الابتداء»[5].

ومثله قوله تعالى تأكيدا لأمر البعث بالقسم ردا على قولهم بإنكارها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٣﴾ [سبأ: ٣].

«﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ أرادوا بضمير المتكلم جنس البشر قاطبةً لا أنفسهم أو معاصريهم فقط كما أرادوا بنفي إتيانها نفي وجودها بالكلية لا عدم حضورها مع تحققها في نفس الأمر، وإنما عبروا عنه بذلك لأنهم كانوا يوعدون بإتيانها، ولأن وجود الأمور الزمانية المستقبلة لا سيما

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٦٦.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٨/ ٢٧١.
(٣) مفاتيح الغيب، ٣٠/ ٥٥٣.

(٤) روح المعاني، ١٤/ ٣١٧، ٣١٨.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٨٢

أجزاء الزمان لا يكون إلا بالإتيان والحضور، وقيل هو استبطاءٌ لإتيانها الموعود بطريق الهزء والسخرية كقولهم متى هذا الوعد، ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ ردٌ لكلامهم وإثباتٌ لما نفوه على معنى ليس الأمر إلا إتيانها، وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ تأكيدٌ له على أتم الوجوه وأكملها، وقرئ (ليأتينكم) على تأويل الساعة باليوم أو الوقت، وقوله تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ الخ إمداد للتأكيد وتسديدٌ له إثر تسديدٍ وكسر لسورة نكيرهم واستبعادهم، فإن تعقيب القسم بجلائل نعوت المقسم به على الإطلاق يؤذن بفخامة شأن المقسم عليه وقوة ثباته وصحته لما أن ذلك في حكم الاستشهاد على الأمر، ولا ريب في أن المستشهد به كلما كان أجل وأعلا كانت الشهادة آكد وأقوى، والمستشهد عليه أحق بالثبوت وأولى، لا سيما إذا خص بالذكر من النعوت ماله تعلقٌ خاصٌ بالمقسم عليه كما نحن فيه، فإن وصفه بعلم الغيب الذي أشهر أفراده وأدخلها في الخفاء هو المقسم عليه تنبيه لهم على علة الحكم، وكونه مما لا يحوم حوله شائبة ريبٍ ما، وفائدة الأمر بهذه المرتبة من اليمين أن لا يبقى للمعاندين عذرٌ ما أصلًا، فإنهم كانوا يعرفون أمانته ونزاهته عن وصمة الكذب فضلًا عن اليمين الفاجرة، وإنما لم يصدقوه مكابرة»[1].

ومن القسم على وقوع البعث قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ۝٤﴾ [القيامة: ١ - ٤].

«وصيغة لا أقسم صيغة قسم، أدخل حرف النفي على فعل أقسم لقصد المبالغة في تحقيق حرمة المقسم به بحيث يوهم للسامع أن المتكلم يهم أن يقسم به ثم يترك القسم مخافة الحنث بالمقسم به فيقول: لا أقسم به، أي ولا أقسم بأعز منه عندي، وذلك كنايةٌ عن تأكيد القسم»[2].

«قوله عز وجل: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ قال الحسن: أقسم بالأولى ولم يقسم بالثانية. وقال قتادة: حكمها حكم الأولى، وفي «النفس اللوامة» ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها المذمومة، قاله ابن عباس. فعلى هذا: هي التي تلوم نفسها حين لا ينفعها اللوم.

والثاني: أنها النفس المؤمنة، قاله الحسن. قال: لا ترى المؤمن إلا يلوم نفسه على كل حال.

والثالث: أنها جميع النفوس. قال الفراء: ليس من نفس برةٍ ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها، إن كانت عملت خيرا قالت: هلا زدت. وإن كانت عملت سوءا قالت: ليتني

---

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ١٢١

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/ ٣٣٨.

لم أفعل»[1].

والأظهر هو القول الثاني، لأن الله تعالى أقسم بها، والقسم من الله تعظيم لشأن المقسم به وتنبيه على مكانته، وهذا يليق بالنفس المؤمنة بخلاف النفس الفاجرة أو المذمومة، والله أعلم.

«وجواب القسم ما دل عليه قوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾، وهو: لتبعثن. انتهى، وهو تقدير النحاس. وقول من قال جواب القسم هو: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ﴾. وما روي عن الحسن أن الجواب: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ﴾، وما قيل أن لا في القسمين لنفيهما، أي لا أقسم على شيء، وأن التقدير: أسألك أيحسب الإنسان؟ أقوالٌ لا تصلح أن يرد بها، بل تطرح ولا يسود بها الورق، ولولا أنهم سردوها في الكتب لم أنبه عليها، والإنسان هنا الكافر المكذب بالبعث»[2].

«وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ﴾ تقرير وتوبيخ، والإنسان اسم جنس وهذه أقوال كانت لكفار قريش فعليها هو الرد.. وقال القتبي: ﴿نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ معناه نتقنها سوية، والبنان: الأصابع، فكأن الكفار لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والإرمام، قيل لهم إنما تجمع ويسوى أكثرها تفرقا وأدقها أجزاء وهي عظام الأنامل ومفاصلها، وهذا كله عند البعث، وقال ابن عباس وجمهور المفسرين: ﴿نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ معناه نجعلها في حياته هذه بضعة أو عظما واحدا كخف البعير لا تفاريق فيه، فكأن المعنى قادرين في الدنيا على أن نجعلها دون تفرق، فتقل منفعته بيده، فكأن التقدير بلى نحن أهل أن نجمعها قادرين على إزالة منفعة بيده، ففي هذا توعد ما»[3].

(1) زاد المسير ٤/ ٣٦٨
(2) البحر المحيط ١٠/ ٣٤٤ .
(3) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٠٢.

المنكرون للبعث بعد الموت ودوافعهم

رغم وضوح الأدلة والآيات لكل ذي قلب وعينين على إمكان البعث بعد الموت وأن الله قادر عليه، إلا أن فريقا من الناس أنكروا البعث بعد الموت وكذبوا به وراحوا يلقون الشبه على استحالته، وهم في ذلك أصناف متعددة.

أولًا: أصناف المنكرين للبعث بعد الموت:

المنكرون للبعث بعد الموت يصنفون بحسب إنكارهم للمبدأ ولوجود الخالق أربعة أصناف:

الصنف الأول: أنكروا المبدأ والمعاد، وزعموا أن الأكوان تتصرف بطبيعتها فتوجد وتعدم بأنفسها، ليس لها ربٌّ يتصرف فيها، إنما هي أرحامٌ تدفع وأرضٌ تبلع، وهؤلاء هم جمهور الفلاسفة الدهرية والطبائعية.

والصنف الثاني: من الدهرية طائفةٌ يقال لهم الدورية، وهم منكرون للخالق أيضًا، ويعتقدون أن في كل ستةٍ وثلاثين ألف سنةٍ يعود كل شيءٍ إلي ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مراتٍ لا تتناهى، فكابروا في المعقول، وكذبوا المنقول، قبحهم الله تعالى.

وهاتان الطائفتان يعمهم قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ولهذا عن السلف الصالح فيها تفسيران الأول معنى قول منكري البعث: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي يموت الآباء ويحيا الأبناء هكذا أبدًا، وهو قول الطائفة الأولى، والمعنى الثاني أنهم عنوا كونهم يموتون ويحيون هم أنفسهم، ويتكرر ذلك منهم أبدًا ولا حساب ولا جزاء، بل ولا موجد ولا معدم، ولا محاسب ولا مجازي، وهذا قول الدورية.

الصنف الثالث: الدهرية من مشركي العرب ومن وافقهم، وهم مقرون بالبداءة، وأن الله تعالى ربهم وخالقهم، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[الزخرف: ٨٧].

ومع هذا قالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ۝٣٥﴾ [الدخان: ٣٥].

فأقروا بالبداءة والمبدئ، وأنكروا البعث والمعاد، وهم المذكورون في حديث أبي هريرة رضي الله عنه (وأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته)[١].

والصنف الرابع: ملاحدة الجهمية ومن وافقهم، أقروا بمعادٍ ليس على ما في القرآن ولا فيما أخبرت به الرسل عن الله عز وجل، بل زعموا أن هذا العالم يعدم عدمًا محضًا، وليس المعاد هو بل عالمٌ آخر غيره، فحينئذٍ تكون الأرض التي تحدث أخبارها وتخبر

(١) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٩١١٤.
وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

بما عمل عليها من خيرٍ وشرٍ ليست هي هذه، وتكون الأجساد التي تعذب وتجازى وتشهد على من عمل بها المعاصي ليست هي التي أعيدت بل هي غيرها، والأبدان التي تنعم في الجنة وتثاب ليست هي التي عملت الطاعة، ولا أنها تحولت من حالٍ إلى حالٍ، بل هي غيرها تبتدأ ابتداءً محضًا، فأنكروا معاد الأبدان، وزعموا أن المعاد بداءةٌ أخرى[1].

أما من حيث الاختلاف في إنكار المعاد الجسماني أو الروحاني أو هما معا فالمنكرون للبعث المخالفون لما عليه الكتاب والسنة وإجماع أهل الملل على المعاد الروحاني والجسماني معا أصناف ثلاثة:

١. المنكرون للمعاد الروحاني فقط.

وهؤلاء يقولون بمادية الروح وأنها حالة في الجسم سارية فيه سريان الماء في العود الأخضر أو النار في الفحم، والإنسان عندهم روح وبدن وكلاهما جسم مادى.

وهؤلاء خلافنا معهم بالأساس في حقيقة الروح، وأنها ليست مادية، بل هي خلق من خلق الله ليست بجسم ولكنها تحل في الأجسام كما يشاء الله.

أو نقول إن كانت تسميتهم للروح مادة تسمية اصطلاحية فلا مشاحة في الاصطلاح، وحينئذ لا يكونون منكرين لبعث الأرواح والأجسام.

٢. المنكرون للمعاد الجسماني فقط.

وهؤلاء من يطلقون عليهم الفلاسفة الإلهيين، وينتسبون إلى الإسلام رغم مخالفتهم لكثير من عقائده الأساسية ولما هو معلوم من الدين بالضرورة كالفارابي وابن سينا ومن سار على دربهم من المتكلمين والمشتغلين بالفلسفة، ويتلخص مذهبهم في قضية البعث أو المعاد أن الأجساد لا تحشر ولا تبعث، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية، ولعلهم فى مقالتهم هذه متأثرين بأساتذتهم فى هذا الاتجاه، الذين يمثلهم في الفكر اليوناني سقراط وأفلاطون وأرسطو، فهؤلاء جميعًا يرون أن النفس لها وجود متقدم على البدن، وأن البعث هو عودة الروح إلى عالمها بعد مفارقة البدن الذى هو من جملة المركبات التي مصيرها الانحلال والفناء.

وهذا شأن المنافقين الذين يظهرون الإسلام وتعظيم الرسل والانقياد للشرائع في الظاهر من المتفلسفة والمتصوفة ومن لف لفهم، وهم في الباطن كفار منكرون لما هو معلوم من الدين بالضرورة، يخلطون

(١) معارج القبول، حافظ حكمي، ٢/ ٧٧٦.

تعاليم الرسل بقول الصابئة والمجوس وغيرهم من المشركين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأما المنافقون من هذه الأمة الذين لا يقرون بألفاظ القرآن والسنة المشهورة فإنهم يحرفون الكلام عن مواضعه، ويقولون: هذه أمثالٌ ضربت لنفهم المعاد الروحاني، وهؤلاء مثل القرامطة الباطنية الذين قولهم مؤلف من قول المجوس والصابئة، ومثل المتفلسفة الصابئة المنتسبين إلى الإسلام، وطائفة ممن ضاهوهم: من كاتب، أو متطبب، أو متكلم، أو متصوف، كأصحاب رسائل «إخوان الصفا» وغيرهم، أو منافق، وهؤلاء كلهم كفار يجب قتلهم باتفاق أهل الإيمان»[1].

٣. المنكرون للمعاد الجسماني والروحاني معا.

وهؤلاء هم من يسمون الفلاسفة الطبيعيين، وقد فسر هؤلاء الفلاسفة الإنسان تفسيرًا ماديا بحتًا وينكرون كل ما وراء الحس والتجربة المادية، لذا فإنهم يرفضون أن تكون الطبيعة الإنسانية مشتملة على نفس تغاير في طبيعتها المادية المحسوسة وصفاتها، ومن هنا أجمع القدماء منهم والمحدثون على إنكار عقيدة البعث بعد الموت، لأن الموت عندهم عدم محض، وليس هناك يوم آخر يعاد فيه الإنسان فيحاسب على ما قدمت يداه، وما الأمر -في نظر هؤلاء- إلا أرحام تدفع وأرض تبلغ وما يهلكنا إلا الدهر، وهؤلاء من يسمون الدهرية والطبائعية والطبيعيين، يقول رب العزة حاكيًا مذهبهم ومبكتا لهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤].

ويوجد لهم أشباه في العصر الحديث من الملحدين كالشيوعيين وسائر أصحاب المذاهب المادية الباطلة، والعقلانية الفاسدة، الذين لا يتبعون الرسل ولا يدينون بالأديان والشرائع، وإنما يتبعون أهواءهم ويستندون إلى العقل ويرفضون الوحي الإلهي، وأولئك كفار خارجون عن الملل كلها، متفق على كفرهم بين جميع أصحاب الشرائع والديانات.

ثانيًا: أسباب إنكار البعث:

١. الاستدلال العقلي الخاطئ.

من أسباب إنكار البعث عند هؤلاء المنكرين للبعث هو اعتمادهم على بعض الشبه العقلية، والاستدلال العقلي الخاطئ.

وأعظم شبهة لدى المنكرين للبعث هي استبعاد إعادة الأجسام بعد تمزقها، وتفتتها، ثم اختلاطها بأجزاء الأرض، إذ

(١) مجموع الفتاوى، ٤/ ٣١٤.

تصبح متصورة بصورة التراب، فكيف يمكن إعادتها إلى حالتها التي كانت عليها من قبل؟!

هذا أمر غريب على عقول المنكرين، وعجيب في نفس الوقت عندهم، والحديث عنه خرافة، والمتحدث به، إما مفتر على الله الكذب، وإما مجنون سلب عقله، فخيل له جنونه ذلك الحديث وأجراه على لسانه.

وقد عبر شاعرهم عن ذلك الإنكار، مبينًا أن الحديث عنه خرافة بقوله[1]:

حياة ثم موت ثم نشر
حديث خرافة يا أم عمرو

وقال آخر[2]:

أيوعدني ابن كبشة أن سنحيا
وكيف حياة أصداء وهام

ويقول الحق جل شأنه، مخبرا عن ذلك الجحود العنيد والإنكار الشديد، ونسبتهم إلى قائله الجنون، أو الكذب والافتراء على الله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾ [سبأ: ٧ - ٨].

«أي هل نرشدكم إلى رجلٍ ينبئكم، أي يقول لكم: إنكم تبعثون بعد البلى في القبور، وهذا صادرٌ عن فرط إنكارهم»[3].

«يعنون بذلك الرجل، رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه رجل أتى بما يستغرب منه، حتى صار - بزعمهم - فرجة يتفرجون عليه، وأعجوبة يسخرون منه، وأنه كيف يقول إنكم مبعوثون بعدما مزقكم البلى، وتفرقت أوصالكم، واضمحلت أعضاؤكم؟!»[4].

«ثم إنه تعالى أجابهم مرةً أخرى وقال: بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب في مقابلة قولهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وقوله: ﴿وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ في مقابلة قولهم: ﴿بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ وكلاهما مناسبٌ. أما العذاب فلأن نسبة الكذب إلى الصادق مؤذيةٌ، لأنه شهادةٌ عليه بأنه يستحق العذاب فجعل العذاب عليهم حيث نسبوه إلى الكذب. وأما الجنون فلأن نسبة الجنون إلى العاقل دونه في الإيذاء، لأنه لا يشهد عليه بأنه يعذب، ولكن ينسبه إلى عدم الهداية فبين أنهم هم الضالون، ثم وصف ضلالهم بالبعد، لأن من يسمي المهتدي ضالًا يكون هو الضال، فمن يسمي الهادي ضالًا يكون أضل، والنبي عليه الصلاة والسلام كان هادي كل مهتد»[5].

(١) نسبه الثعالبي في ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص ١٣٠ إلى ابن الزِبَعْرَى.
(٢) نسبه الأبشيهي في المستطرف في كل نفس مستطرف ص٤٦٧ إلى الأسود بن يعفر.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٦٢.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٧٥.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/ ١٩٥.



«ثم ذكرهم بتلك الأدلة فقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [سبأ: ٨ - ٩].

أي: دلالة واضحة على قدرة الله، فكيف يستبعد عليه إعادة تلك الأجسام الضعيفة بعد تفرقها، وهو القادر على خلق هذه الآيات العظيمة، من السماء والأرض، ذلك هو دليل البعث؛ لأنه يدل على كمال القدرة، ومن المقدور عليه إعادة خلق الإنسان وإيجاده مرة أخرى.

وقد قرن هذا الدليل بالتهديد حيث قال: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

ثم بين تعالى أن المنتفع بتلك الآيات كل من يرجع إلى ربه، ويتوب إليه، لا من يتمادى في عناده وتعصبه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾»[1].

ويقول الله تعالى حاكيًا عن المشركين استبعادهم وقوع البعث بعد الموت، وعدم إمكانه، وتعجبهم من شأنه وشأن القائل به: ﴿ق ۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ [ق: ١ - ٣].

«قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي إنهم لم يستنكروا أصل الإرسال إليهم، وإنما أنكروا كون المرسل بشرًا مثلهم ينذرهم عذاب يوم القيامة وهم لا يؤمنون بالبعث الآخر فلذا قالوا ما أخبر تعالى به عنهم وقوله ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ أي بالبعث ﴿هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي أمر يدعو إلى التعجب إذ من مات وصار ترابا لا يعقل أن يبعث مرة أخرى فيسأل ويحاسب ويجزي وقد أفصحوا عن معتقدهم بقولهم ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ ذلك الرجوع إلى الحياة رجوع بعيد التحقيق»[2].

«الواقع أنهم يعبرون بذلك عن أنفسهم، ويستبعدون البعث ووقوعه ظنا منهم أن قدرة الله تشبه قدرتهم، فقاسوا قدرة الله على قدرتهم، وقياس الغائب على الشاهد باطل في نظر العقلاء، ولذلك صور الله عز وجل هذا الظن الخاطئ في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

ولذا فقد استعظمت عقولهم هذا الأمر، وجعلته في حكم المستحيل، و إلا فلو نظروا بغير هذه النظرة القاصرة، وتأملوا في أنفسهم في مبدأ خلقهم، وفيما بين أيديهم من الآيات الدالة على القدرة الإلهية التي لا

(١) مسلك القرآن الكريم في إثبات البعث، علي الفقيهي، ص٦٨.

(٢) أيسر التفاسير، الجزائري، ٥/ ١٣٧.

يعجزها شيء متى ما أرادته لما صدر منهم هذا القول المنكر»[1].

وقد رد على قولهم ذلك بقوله سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ۝ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝﴾ [ق: ٤ - ٥]

«ردٌ لقولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣].

فإن إحالتهم البعث ناشئةٌ عن عدة شبهٍ منها: أن تفرق أجزاء الأجساد في مناحي الأرض ومهاب الرياح لا تبقي أملًا في إمكان جمعها، إذ لا يحيط بها محيطٌ، وأنها لو علمت مواقعها لتعذر التقاطها وجمعها، ولو جمعت كيف تعود إلى صورها التي كانت مشكلةً بها، وأنها لو عادت كيف تعود إليها، فاقتصر في إقلاع شبههم على إقلاع أصلها وهو عدم العلم بمواقع تلك الأجزاء وذراتها.. والمعنى: أن جمع أجزاء الأجسام ممكنٌ لا يعزب عن علم الله، وإذا كان عالمًا بتلك الأجزاء كما هو مقتضى عموم العلم الإلهي وكان قد أراد إحياء أصحابها كما أخبر به، فلا يعظم على قدرته جمعها وتركيبها أجسامًا كأجسام أصحابها حين فارقوا الحياة»[2].

وهذا من الإعجاز فقد رد على تلك الشبه المتعددة والاحتمالات الكثيرة برد موجز مفحم، فالذي خلقها عالم بمحل كل جزء منها بعد تفرقها، لا يعزب عنه منها شيء، وهو قادر على إعادة تركيبها كما كانت، كما ابتدأ خلقها أول مرة.

«فقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ إيماءٌ إلى دليل الإمكان، لأن مرجعه إلى عموم العلم كما قلنا، فأساس مبنى الرد هو عموم علم الله تعالى، لأن يجمع إبطال الاحتمالات التي تنشأ عن شبهتهم، فلو قال: نحن قادرون على إرجاع ما تنقص الأرض منهم لخطر في وساوس نفوسهم شبهة أن الله وإن سلمنا أنه قادرٌ فإن أجزاء الأجساد إذا تفرقت لا يعلمها الله حتى تتسلط على جمعها قدرته، فكان البناء على عموم العلم أقطع لاحتمالاتهم، واعلم أن هذا الكلام بيانٌ للإمكان رعيًا لما تضمنه كلامهم من الإحالة، لأن ثبوت الإمكان يقلع اعتقاد الاستحالة من نفوسهم، وهو كافٍ لإبطال تكذيبهم، ولاستدعائهم للنظر في الدعوة، ثم يبقى النظر في كيفية الإعادة، وهي أمرٌ لم نكلف بالبحث عنه»[3].

«وبعد أن بين الله لهم شمول علمه، وإحاطته بالجزئيات والكليات -إذ إن العالم بجزئيات الأشياء لا تخفى عليه كلياتها- بين لهم سبب اضطرابهم في أمر البعث وأنه

---

(١) مسلك القرآن الكريم في إثبات البعث، علي الفقيهي، ص٦٩.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٦/ ٢٨٠-٢٨١

(٣) المصدر السابق.

تكذيبهم للحق الذي جاءهم من خالقهم، إذ الإخبار عنه حق، والمخبر به صادق، قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ أي مضطرب غير مستقر»[1].

٢. شبهة عدم عودة الموتى إلى الحياة والرد عليها.

كان من بين الشبه التي أثارها المشركون على إنكارهم للبعث ما حكاه القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٣٨-٤٠].

وهذا «انتقالٌ لحكاية مقالةٍ أخرى من شنيع مقالاتهم في كفرهم، واستدلالٌ من أدلة تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يخبر به إظهارًا لدعوته في مظهر المحال، وذلك إنكارهم الحياة الثانية والبعث بعد الموت»[2].

«قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ معناه أنهم كانوا يدعون العلم الضروري بأن الشيء إذا فني وصار عدمًا محضًا ونفيًا صرفًا، فإنه بعد هذا العدم الصرف لا يعود بعينه بل العائد يكون شيئًا آخر غيره. وهذا القسم واليمين إشارةٌ إلى أنهم كانوا يدعون العلم الضروري بأن عوده بعينه بعد عدمه محالٌ في بديهة العقل: وأقسموا بالله جهد أيمانهم على أنهم يجحدون في قلوبهم وعقولهم هذا العلم الضروري»[3].

وقال الألوسي: «وهو مبني على أن الميت يعدم ويفنى وأن البعث إعادة له وأنه يستحيل إعادة المعدوم، وقد ذهب إلى هذه الاستحالة الفلاسفة ولم يوافقهم في دعوى ذلك أحد من المتكلمين إلا الكرامية وأبو الحسين البصري من المعتزلة، واحتجوا عليها بما رده المحققون، وبعضهم ادعى الضرورة في ذلك وأن ما يذكر في بيانه تنبيهات عليه»[4].

وتقرير هذه الشبهة كما قال الرازي: «أن الإنسان ليس إلا هذه البينة المخصوصة، فإذا مات وتفرقت أجزاؤه وبطل ذلك المزاج والاعتدال امتنع عوده بعينه، لأن الشيء إذا عدم فقد فني ولم يبق له ذاتٌ ولا حقيقةٌ بعد فنائه وعدمه، فالذي يعود يجب أن يكون شيئًا مغايرًا للأول فلا يكون عينه»[5].

«فقال تعالى مكذبا لهم وردا عليهم:

---

(١) مسلك القرآن الكريم في إثبات البعث، علي الفقيهي، ص٧١.
(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ١٥٣.
(٣) مفاتيح الغيب ٢٠/ ٢٠٦، ٢٠٧.
(٤) روح المعاني، الألوسي ٧/ ٣٨٠.
(٥) مفاتيح الغيب، ٢٠/ ٢٠٦.

﴿بَلَىٰ﴾ أي: بلى سيكون ذلك، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي: لابد منه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر.

ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي: للناس ﴿الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: من كل شيء، و ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]. ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ أي: في أيمانهم وأقسامهم: لا يبعث الله من يموت»[(١)].

قال الرازي: «ثم إنه تعالى بين أن القول بالبعث ممكنٌ ويدل عليه وجهان:

الوجه الأول: أنه وعدٌ حقٌ على الله تعالى، فوجب تحقيقه، ثم بين السبب الذي لأجله كان وعدًا حقًا على الله تعالى، وهو التمييز بين المطيع وبين العاصي، وبين المحق والمبطل، وبين الظالم والمظلوم، وهو قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾.

والوجه الثاني: في بيان إمكان الحشر والنشر أن كونه تعالى موجدًا للأشياء ومكونًا لها لا يتوقف على سبق مادةٍ ولا مدةٍ ولا آلةٍ، وهو تعالى إنما يكونها بمحض قدرته ومشيئته، وليس لقدرته دافعٌ ولا لمشيئته مانعٌ فعبر تعالى عن هذا النفاذ الخالي عن المعارض بقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ وإذا كان كذلك، فكما أنه تعالى قدر على الإيجاد في الابتداء وجب أن يكون قادرًا عليه في الإعادة، فثبت بهذين الدليلين القاطعين أن القول بالحشر والنشر والبعث والقيامة حق وصدق»[(٢)].

وقد ذكر الله تعالى قولهم باستحالة البعث بعد الموت في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المؤمنون: ٨١ - ٨٣].

قال محمد الأمين الشنقيطي: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن الكفار المنكرين للبعث قالوا: إنهم وعدوا بالبعث، ووعد به آباؤهم من قبلهم، والظاهر أنهم يعنون أجدادهم، الذين جاءتهم الرسل، وأخبرتهم بأنهم يبعثون بعد الموت للحساب والجزاء، وقالوا: إن البعث الذي وعدوا به هم وآباؤهم كذبٌ لا حقيقة له، وأنه ما هو ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما سطروه وكتبوه من الأباطيل والترهات، والأساطير: جمع أسطورةٍ، وقيل: جمع أسطارةٍ، وهذا الذي ذكره عنهم من إنكارهم البعث ذكر

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٥٧١.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٠/ ٢٠٧.

مثله في سورة النمل في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [النمل: ٦٧-٦٨].

ثم إنه تعالى أقام البرهان على البعث، الذي أنكروه في هذه الآية بقوله: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩]؛ لأن من له الأرض، ومن فيها، ومن هو رب السماوات السبع، ورب العرش العظيم، ومن بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، لا شك أنه قادرٌ على بعث الناس بعد الموت»[(١)].

قال ابن عاشور: «فالمقصود منه حكاية دعوى البعث بأن الرسول الذي يدعيها بتحقيقٍ وتوكيدٍ مع كونها شديدة الاستحالة، ففي حكاية توكيد مدعيها زيادةٌ في تفظيع الدعوى في وهمهم، وجملة لقد وعدنا إلخ تعليلٌ للإنكار وتقويةٌ له. وقد جعلوا مستند تكذيبهم بالبعث أنه تكرر الوعد به في أزمانٍ متعددةٍ فلم يقع ولم يبعث واحدٌ من آبائهم، ووجه ذكر الآباء دفع ما عسى أن يقول لهم قائلٌ: إنكم تبعثون قبل أن تصيروا ترابًا وعظامًا، فأعدوا الجواب بأن الوعد بالبعث لم يكن مقتصرًا عليهم فيقعوا في شكٍ باحتمال وقوعه بهم بعد موتهم وقبل فناء أجسامهم بل ذلك وعدٌ قديمٌ وعد به آباؤهم الأولون وقد مضت أزمانٌ وشوهدت رفاتهم في أجداثهم وما بعث أحدٌ منهم، وجملة ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ من القول الأول، وهي مستأنفة استئنافا بيانا لجواب سؤالٍ يثيره قولهم ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ وهو أن يقول سائلٌ: فكيف تمالأ على هذه الدعوى العدد من الدعاة في عصورٍ مختلفةٍ مع تحققهم عدم وقوعه؟ فيجيبون بأن هذا الشيء تلقفوه عن بعض الأولين فتناقلوه»[(٢)].

وقد أفحمهم القرآن بالجواب، قال الخازن: «قوله تعالى: ﴿قُل﴾ أي يا محمد لأهل مكة ﴿لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا﴾ من الخلق ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي خالقها ومالكها؟ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي لا بد لهم من ذلك لأنهم يقرون أنها مخلوقة لله ﴿قُلْ﴾ أي قل لهم يا محمد إذا أقروا بذلك ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي فتعلموا أن من قدر على خلق الأرض ومن فيها ابتداء يقدر على إحيائهم بعد الموت»[(٣)].

وقد عرض القرآن مقالتهم بإنكار البعث، وادعاءهم استمرار الحياة الدنيا، وقدم العالم، وأنها ما هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع، وأنهم لا حجة لهم في مواجهة الآيات

---

(١) أضواء البيان، ٥/ ٣٤٨، ٣٨٥.

(٢) التحرير والتنوير، ١٨/ ١٠٧.

(٣) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٧٥.

واضحة الدلالة على أمر البعث بعد الموت إلا طلبهم بأسلوب يملؤه الصلف والتحدي والعناد بعث آبائهم الأولين في هذه الحياة الدنيا.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الجاثية: ٢٤- ٢٥].

«أي وقال منكرو البعث والجزاء يوم القيامة ما هناك إلا حياتنا هذه التي نحياها وليس وراءها حياة أخرى، إننا نموت ونحيا أي نموت نحن الأحياء ويحيى أبناؤنا من بعدنا، وهكذا تستمر الحياة أبدًا يموت الكبار ويحيى الصغار، وما يهلكنا إلا الدهر أي وما يميتنا ويفنينا إلا مرور الزمان وطول الأعمار، وهو إلحاد كامل وإنكار للخالق عز وجل، وهو تناقض منهم لأنهم إذا سئلوا من خلقهم يقولون الله، فينسبون إليه الخلق، وهو أصعب ولا ينسبون إليه الإماتة وهي أهون من الخلق، فرد تعالى عليهم مذهبهم «الدهري» بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ليس لهم على معتقدهم هذا أدنى علم نقليًا كان ولا عقليًا، أي يتلقوه عن وحي أوحاه الله إلى من شاء من عباده، ولا عن عقل سليم راجح لا ينقض حكمه، كالواحد مع الواحد اثنان، والأبيض خلاف الأسود، وما إلى ذلك من القضايا العقلية التي لا ترد، فهؤلاء الدهريون ليس لهم شيء من ذلك، ما لهم إلا الظن والخرص، وقضايا العقيدة لا تكون بالظن، والظن أكذب الحديث»[1].

«﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي بأن الله باعث خلقه يوم القيامة ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين أي انشروهم أحياء، حتى نصدق ببعثنا أحياء بعد مماتنا، وإطلاق الحجة على ذلك، إما حقيقة بناء على زعمهم، فإنهم ساقوه مساق الحجة، أو هو مجاز تهكما بهم. كأنه قيل: ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة. بمعنى أن لا حجة لهم البتة، وفيه مبالغة لتنزيل التضاد منزلة التجانس»[2].

قال الرازي: «واعلم أن هذه الشبهة ضعيفةٌ جدًا، لأنه ليس كل ما لا يحصل في الحال وجب أن يكون ممتنع الحصول، فإن حصول كل واحدٍ منا كان معدومًا من الأزل إلى الوقت الذي حصلنا فيه، ولو كان عدم الحصول في وقتٍ معينٍ يدل على امتناع الحصول لكان عدم حصولنا كذلك، وذلك باطلٌ بالاتفاق»[3].

وقد رد عليهم القرآن العظيم بقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى

(١) أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٣٧.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي، ٨/ ٤٣٣
(٣) مفاتيح الغيب ٢٧/ ٦٧٩

﴿يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٢٦﴾ [الجاثية: ٢٦]

«﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ﴾ ابتداء ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ عند انقضاء آجالكم على ما دل عليه الحجج لا الدهر كما تزعمون ﴿ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي فيه وجوز كون الفعل مضمنا معنى مبعوثين أو منتهين ونحوه ومعنى في أظهر أي يجمعكم في يوم القيامة ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ أي في جمعكم فإن من قدر على البدء وقدر على الإعادة والحكمة اقتضت الجمع للجزاء لا محالة في ذلك اليوم والوعد الصدق بالآيات دل على قرعها، وحاصله أن البعث أمر ممكن أخبر به الصادق وتقتضيه الحكمة وكل ما هو كذلك لا محالة واقع والإتيان بالآباء حيث كان منافيا للحكمة التشريعية امتنع إيقاعه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ استدراك من قوله تعالى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ وهو من تمام الكلام المأمور به أو كلام مسوق من جهته تعالى تحقيقا للحق وتنبيها على أن ارتيابهم لجهلهم وقصورهم في النظر والتفكر لا لأن فيه شائبة ريب ما»[1].

٣. استمراء الملذات في الحياة الدنيا وعدم الرغبة في التذكير بمفارقتها.

ومن أسباب رفض أولئك المنكرين للبعث وبذل كل جهد في إنكاره أنهم ألفوا شهوات الحياة الدنيا؛ فهم يخشون تبعات الإيمان بالبعث، والانقياد للدين الذي يحجزهم عن شهواتهم، ويحول دونهم ودون أهوائهم، وقد سجل القرآن ذلك وبين سوء حالهم ومآلهم في قول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٨﴾ [يونس: ٧ - ٨].

قال ابن عاشور: «هذا استئناف وعيد للذين لم يؤمنوا بالبعث ولا فكروا في الحياة الآخرة ولم ينظروا في الآيات نشأ عن الاستدلال على ما كفروا به من ذلك جمعًا بين الاستدلال المناسب لأهل العقول وبين الوعيد المناسب للمعرضين عن الحق إشارةً إلى أن هؤلاء لا تنفعهم الأدلة وإنما ينتفع بها الذين يعلمون ويتقون وأما هؤلاء فهم سادرون في غلوائهم حتى يلاقوا العذاب، وإذ قد تقرر الرجوع إليه للجزاء تأتي الوعيد لمنكري البعث الذين لا يرجون لقاء ربهم والمصير إليه»[2].

«﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ بيانٌ لمآل أمر من كفر بالبعث وأعرض عن البينات الدالة عليه بعد تحقيق أن مرجع الكل إليه تعالى، وأنه يعيدهم بعد بدئهم للجزاء ثوابًا وعقابًا، وتفصيل بعض الآيات

(١) روح المعاني، الألوسي، ١٣/ ١٥٢.

(٢) التحرير والتنوير، ١١/ ٩٨.

الشاهدة بذلك، والمراد بلقائه إما الرجوع إليه تعالى بالبعث، أو لقاء الحساب، كما في قوله عز وعلا ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠]»[1].

«وفي الآية إشارةٌ إلى أن البهجة بالحياة الدنيا والرضى بها يكون مقدار التوغل فيهما بمقدار ما يصرف عن الاستعداد إلى الحياة الآخرة. وليس ذلك بمقتضى الإعراض عن الحياة الدنيا فإن الله أنعم على عباده بنعمٍ كثيرةٍ فيها وجب الاعتراف بفضله بها وشكره عليها والتعرف بها إلى مراتب أعلى هي مراتب حياةٍ أخرى والتزود لها. وفي ذلك مقاماتٌ ودرجاتٌ بمقدار ما تهيأت له النفوس العالية من لذات الكمالات الروحية، وأعلاها مقام قول النبيء صلى الله عليه وسلم (فقلت ما لي وللدنيا)[2]»[3].

«قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها، حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأتمرون بها، بأن مأواهم يوم معادهم النار، جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر»[4].

وقد ضرب الله المثل بهذا الكافر صاحب الجنتين الذي اغتر بجنتيه وما كان من صنوف النعم فيهما فقال ما حكاه القرآن: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ٣٦﴾ [الكهف: ٣٥ - ٣٦].

«يقول تعالى ذكره: هذا الذي جعلنا له جنتين من أعناب ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ وهي بستانه ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وظلمه نفسه: كفره بالبعث، وشكه في قيام الساعة، ونسيانه المعاد إلى الله تعالى، فأوجب لها بذلك سخط الله وأليم عقابه»[5].

«ثم حكى تعالى عن الكافر أنه قال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ فجمع بين هذين، فالأول قطعه بأن تلك الأشياء لا تهلك ولا تبيد هذه أبدًا مع أنها متغيرةٌ متبدلةٌ، فإن قيل: هب أنه شك في القيامة فكيف قال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ مع أن الحدس يدل على أن أحوال الدنيا بأسرها ذاهبةٌ باطلةٌ غير باقيةٍ؟ قلنا: المراد أنها لا تبيد مدة حياته ووجوده»[6].

قال ابن عطية: «و«ظلمه لنفسه»: كفره وعقائده الفاسدة في الشك في البعث، فقد

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ١٢٢.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة باب هدية ما يكره لبسه، رقم ٢٤٧١ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
(٣) التحرير والتنوير ١١/ ٩٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٤٩.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٢.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٦٣.

نص على ذلك قتادة وابن زيد، وفي شكه في حديث العالم إن كانت إشارته بهذه إلى الهيئة من السماوات والأرض وأنواع المخلوقات، وإن كانت إشارته إلى جنته فقط، فإنما في الكلام تساخف واغترار مفرط وقلة تحصيل، وكأنه من شدة العجب بل والسرور أفرط في وصفها بهذا القول ثم قاس أيضا الآخرة على الدنيا، وظن أنه لم يمل له في دنياه إلا لكرامة يستوجبها في نفسه، قال: فإن كان ثم رجوع كما يزعم فستكون حالي كذا وكذا»[١].

قال الطبري: «وقوله: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ يقول جل ثناؤه: قال لما عاين جنته، ورآها وما فيها من الأشجار والثمار والزروع والأنهار المطردة شكا في المعاد إلى الله: ما أظن أن تبيد هذه الجنة أبدا، ولا تفنى ولا تخرب، وما أظن الساعة التي وعد الله خلقه الحشر فيها تقوم فتحدث، ثم تمنى أمنية أخرى على شك منه، فقال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ فرجعت إليه، وهو غير موقن أنه راجع إليه ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ يقول: لأجدن خيرا من جنتي هذه عند الله إن رددت إليه مرجعا ومردًا، يقول: لم يعطني هذه الجنة في الدنيا إلا ولي عنده أفضل منها في المعاد إن رددت إليه»[٢].

قال الرازي: «ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

وقوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧].

والسبب في وقوع هذه الشبهة: أنه تعالى لما أعطاه المال في الدنيا ظن أنه إنما أعطاه ذلك لكونه مستحقًا له، والاستحقاق باقٍ بعد الموت فوجب حصول العطاء، والمقدمة الأولى كاذبةٌ فإن فتح باب الدنيا على الإنسان يكون في أكثر الأمر للاستدراج والتملية، والمقصود عود الكناية إلى الجنتين، والباقون منها، والمقصود عود الكناية إلى الجنة التي دخلها»[٣].

وفي قوله هذا ذكر السعدي احتمالين ثم رجح أحدهما على الآخر فقال: «وهذا لا يخلو من أمرين: إما أن يكون عالما بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء فيكون زيادة كفر إلى كفره، وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس، وأبخسهم حظا من العقل، فأي: تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظن بجهله أن من أعطي في الدنيا أعطي في الآخرة، بل الغالب، أن الله تعالى يزوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه الذين ليس لهم في الآخرة

(١) المحرر الوجيز، ٣/ ٥١٧.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٢٢.
(٣) مفاتيح الغيب، ٢١/ ٤٦٣- ٤٦٤.

نصيب، والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال، ولكنه قال هذا الكلام، على وجه التهكم والاستهزاء، بدليل قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ فإثبات أن وصفه الظلم، في حال دخوله، الذي جرى منه، من القول ما جرى، يدل على تمرده وعناده»[1].

٤. الهروب من تصور الحساب والعذاب.

من الدوافع التي تكمن وراء إنكار هؤلاء المكذبين بالبعث ذلك الخوف الكامن من تصور أنهم بعد البعث محاسبون ومجازون بأعمالهم التي عملوها في حياتهم الدنيا، فكلما تصوروا ذلك الأمر رفضوا تصديقه واستبعدوه حذرا من وقوعه بالفعل فهم لا يتصورون أن يحاسبوا على ما جنوه من الجرائم والشنائع التي يخشون مغبة الحساب عليها والمعاقبة بها، لذا فهم يعبرون عن إنكارهم للبعث باستبعادهم للحساب والجزاء في الآخرة، وقد عبر القرآن عن ذلك من خلال ذلك المشهد الأخروي الذي يجري لأهل الجنة وهم يتذاكرون بعض ما كان في الدنيا من حوار بين بعضهم وبين مكذبي البعث.

قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾ [الصافات: ٥٠ - ٥٣].

«والمعنى: أهل الجنة يسأل بعضهم بعضًا عن حاله في الدنيا، قوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ أي في الدنيا ينكر البعث، و﴿يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ أي كان يوبخني على التصديق بالبعث والقيامة ويقول تعجبًا: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي لمحاسبون ومجازون، والمعنى أن ذلك القرين كان يقول هذه الكلمات على سبيل الاستنكار»[2].

«والمدين: المجازى يقال: دانه يدينه، إذا جازاه، والأكثر استعماله في الجزاء على السوء، والدين: الجزاء كما في سورة الفاتحة»[3].

ومما يدل على ذلك قوله تعالى في سبب إنكار منكر البعث: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝٥ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ۝٦﴾ [القيامة: ٥ - ٦].

«وقوله ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ أي ما يجهل الإنسان قدرة خالقه على إعادة خلقه، ولكنه يريد أن يواصل فجوره مستقبله كله فلا يتوب من ذنوبه ولا يؤوب من معاصيه لأن شهواته مستحكمة فيه.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ يخبر تعالى عن المنكر للبعث من أجل مواصلة

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٧٧.

(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ٣٠٥.

(٣) التحرير والتنوير، ٢٣/ ١١٦.

الفجور من زنا وشرب خمور بأنه يقول أيان يوم القيامة استبعادا واستنكارا»[1].

وقال ابن الجوزي: «قوله عز وجل: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ فيه قولان:

أحدهما: يكذب بما أمامه من البعث والحساب، قاله ابن عباس.

والثاني: يقدم الذنب ويؤخر التوبة، ويقول: سوف أتوب، قاله سعيد بن جبير. فعلى هذا: يكون المراد بالإنسان: المسلم. وعلى الأول: الكافر.

وقوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ أي: متى هو؟ تكذيبًا به، وهذا هو الكافر»[2].

وذكر ابن كثير أن ابن زيد رجح القول الأول فقال: «وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو الكافر يكذب بيوم الحساب. وكذا قال ابن زيد، وهذا هو الأظهر من المراد؛ ولهذا قال بعده ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾؟ أي: يقول متى يكون يوم القيامة؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه، وتكذيب لوجوده»[3].

وقال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ قال بعض المتأولين: الضمير في أمامه عائد على الإنسان، ومعنى الآية أن الإنسان إنما يريد شهواته ومعاصيه ليمضي فيها أبدا قدما راكب رأسه ومطيع أمله ومسوفا بتوبته، قاله مجاهد والحسن وعكرمة وابن جبير والضحاك والسدي.

وقال السدي: المعنى ليظلم على قدر طاقته.

وقال الضحاك: المعنى يركب رأسه في طلب الدنيا دائمًا.

وقوله تعالى: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ تقديره لكن يفجر، وقال ابن عباس ما يقتضي أن الضمير في أمامه عائد على يوم القيامة، والمعنى أن الإنسان هو في زمن وجوده أمام يوم القيامة وبين يديه، ويوم القيامة خلفه فهو يريد شهواته ليفجر في تكذيبه بالبعث وغير ذلك بين يدي يوم القيامة، وهو لا يعرف قدر الضرر الذي هو فيه»[4].

قال الألوسي: «وفيهما إيماء إلى أن ذلك الإنسان عالم بوقوع الحشر ولكنه متغاب، واعتبر الدوام في ﴿لِيَفْجُرَ﴾ لأنه خبر عن حال الفاجر بأنه يريد ليفجر في المستقبل على أن حسبانه وإرادته هما عين الفجور، وقيل لأن ﴿أَمَامَهُ﴾ ظرف مكان استعير هنا للزمان المستقبل فيفيد الاستمرار، وفي إعادة المظهر ثانيًا ما لا يخفى من التهديد والنعي على قبيح ما ارتكبه، وأن الإنسانية تأبى هذا الحسبان والإرادة وعود ضمير أمامه على هذا المظهر هو الأظهر»[5].

(١) أيسر التفاسير، الجزائري، ٥/ ٤٧٥.
(٢) زاد المسير ٤/ ٣٦٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٢٧٦، ٢٧٧.
(٤) المحرر الوجيز، ٥/ ٤٠٢-٤٠٣.
(٥) روح المعاني، ١٥/ ١٥٣.

آثار الإيمان بالبعث

هناك ثمرات وآثار تظهر على المؤمن بالبعث قولًا وفعلًا وحالًا وسلوكًا، منها ما يكون في الدنيا، ومنها ما يكون في الآخرة.

أولًا: في الحياة الدنيا:

للإيمان بالبعث آثار على حياة المؤمن في الحياة الدنيا، ومن هذه الآثار:

١ . عدم الركون إلى الدنيا وملذاتها.

من ثمار الإيمان بالبعث بعد الموت الإقبال على الله وعلى الدار الآخرة، والإعراض عن الدنيا وزينتها وشهواتها، والتخفف منها، والقناعة باليسير من متاعها في حدود ما أحل الله، فتجد المؤمن الحق يعلم أنها ظل زائل وعرض حائل، فلا ينغمس في شهواتها، ولا يركن إليها، وهؤلاء هم الفائزون يوم القيامة بالنعيم المقيم مصداقا لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: تلك الدار الآخرة نجعل نعيمها للذين لا يريدون تكبرا عن الحق في الأرض وتجبرا عنه ولا فسادا. يقول: ولا ظلم الناس بغير حق، وعملا بمعاصي الله فيها»[١].

وقال القرطبي: «قال أبو معاوية: الذي لا يريد علوًا هو من لم يجزع من ذلها. ولم ينافس في عزها، وأرفعهم عند الله أشدهم تواضعًا، وأعزهم غدًا ألزمهم لذلِ اليوم. وروى سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالدٍ قال: مر علي بن الحسين وهو راكبٌ على مساكين يأكلون كسرًا لهم، فسلم عليهم فدعوه إلى طعامهم، فتلا هذه الآية: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[القصص: ٨٣].

ثم نزل وأكل معهم، ثم قال: قد أجبتكم فأجيبوني. فحملهم إلى منزله فأطعمهم وكساهم وصرفهم. خرجه أبو القاسم الطبراني سليمان بن أحمد قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبلٍ، قال حدثني أبي، قال حدثنا سفيان بن عيينة. فذكره. وقيل: لفظ الدار الآخرة يشمل الثواب والعقاب. والمراد إنما ينتفع بتلك الدار من اتقى، ومن لم يتق فتلك الدار عليه لا له، لأنها تضره ولا تنفعه»[٢].

وذلك لأنهم يخافون من مغبة يوم البعث وأهواله ويعدون له ويتخففون من شهوات الدنيا لما يجدونه في أنفسهم من الخوف من هذا اليوم واليقين بوقوعه.

وقال تعالى: «﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا

(١) جامع البيان، ١٩/ ٦٣٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ٣٢٠.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٧ - ١٨].

قال الألوسي: «﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استعجال إنكار واستهزاء، كانوا يقولون: متى هي ليتها قامت حتى يظهر لنا أهو الذي نحن عليه أم كالذي عليه محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي خائفون منها مع اعتناء بها فإن الإشفاق عناية مختلطة بخوف، فإذا عدي بمن كما هنا، فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عدي بعلى فمعني العناية أظهر، وعنايتهم بها لتوقع الثواب، وزعم الجلبي أن الآية من الاحتباك والأصل يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها فلا يشفقون منها والذين آمنوا مشفقون منها فلا يستعجلون بها، ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الأمر المتحقق الكائن لا محالة»[1].

وقال السعدي: «﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ عنادا وتكذيبا، وتعجيزا لربهم، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: خائفون، لإيمانهم بها، وعلمهم بما تشتمل عليه من الجزاء بالأعمال، وخوفهم، لمعرفتهم بربهم، أن لا تكون أعمالهم منجية لهم ولا مسعدة، ولهذا قال: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه»[2].

٢. السعي الحثيث للأخرى.

فإن الإيمان بالبعث من أكبر الدواعي والدوافع للمرء على السعي الحثيث نحو الآخرة بكثرة العمل الصالح والاستعداد لها بالمسارعة في الخيرات.

قال تعالى: «﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي الْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١].

قال الطبري: «﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ يقول: خائفة من أنهم إلى ربهم راجعون، فلا ينجيهم ما فعلوا من ذلك من عذاب الله، فهم خائفون من المرجع إلى الله.. وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي الْخَيْرَٰتِ﴾ يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين هذه الصفات صفاتهم، يبادرون في الأعمال الصالحة، ويطلبون الزلفة عند الله بطاعته»[3].

وقال الخازن: «قال الحسن: عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم، وعن عائشة قالت: (قلت يا رسول الله والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هم الذين يشربون الخمر ويسرقون قال لا

---

(١) روح المعاني ١٣/ ٢٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٧٥٦.

(٣) جامع البيان، ١٩/ ٤٤- ٤٥.

يا بنت الصديق ولكن هم الذين يصومون ويتصدقون ويخافون أن لا يقبل منهم أولئك يسارعون في الخيرات)[1]، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي يبادرون إلى الأعمال الصالحة ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أي إليها، وقال ابن عباس: سبقت لهم من الله السعادة، وقيل: سبقوا الأمم إلى الخيرات»[2].

وقال ابن عاشور: «ومعنى وهم لها سابقون أنهم يتنافسون في الإكثار من أعمال الخير، فالسبق تمثيلٌ للتنافس والتفاوت في الإكثار من الخيرات بحال السابق إلى الغاية، أو المعنى وهم محرزون لما حرصوا عليهم، فالسبق مجازٌ لإحراز المطلوب لأن الإحراز من لوازم السبق»[3].

٣. محاسبة النفس.

إن من أيقن بالبعث بعد الموت وما يقع له بعده من الحساب والثواب أو العقاب جدير به أن يحاسب نفسه قبل المثول بين يدي ربه للحساب وأن يلوم نفسه على التقصير والتفريط فيكون ذلك دافعا له إلى التوبة من ذنوبه وغدراته وغفلاته، فيحسن عمله ويتقي ربه في كل حركاته وسكناته، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [الحشر: ١٨].

قال أبو السعود: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي في كل ما تأتون وما تذرون ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ أي: أي شئ قدمت من الأعمال ليوم القيامة عبر عنه بذلك لدنوه أو لأن الدنيا كيوم والآخرة غده وتنكيره لتفخيمه وتهويله كأنه قيل لغدٍ لا يعرف كنهه لغاية عظمه وأما تنكير نفسٍ فلاستقلال الأنفس النواظر فيما قدمن لذلك اليوم الهائل كأنه قيل ولتنظر نفسٌ واحدةٌ ذلك ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تكريرٌ للتأكيد أو الأول في أداء الواجبات كما يشعر به ما بعده من الأمر بالعمل وهذا في ترك المحارم كما يؤذن به الوعيد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي من المعاصي»[4].

وقال السعدي: «يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه، سرا وعلانية، في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة، فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم، واهتموا بالمقام بها، اجتهدوا في

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب سورة المؤمنون، رقم ٣١٧٥.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٣٠٤، رقم ١٦٢.
(٢) لباب التأويل، ٣/ ٢٧٣.
(٣) التحرير والتنوير، ١٨/ ٧٨
(٤) إرشاد العقل السليم ٨/ ٢٣٢.



كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيتها من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضا، أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضيع لديه ولا يهملها، أوجب لهم الجد والاجتهاد، وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها، فإن رأى زللا تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصرا في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه، وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء بلا محالة»[1].

ثانيًا: في الآخرة:

أما في الآخرة فإن ثمار الإيمان باليوم الآخر والبعث بعد الموت أحلى وأفضل وهي كثيرة منها:

١ . الحساب اليسير.

فإن من آمن باليوم الآخر وما فيه من بعث الأجساد من أجداثها وأعد له عدته فإن الله يمنن كتابه وييسر حسابه يوم القيامة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۝٩﴾ [الانشقاق: ٦- ٩].

«قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي يا ابن آدم ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا﴾ أي أنك عامل تعمل يوميا ليل ونهار إلى أن تموت وتلقى ربك إنك لا تبرح تعمل لا محالة وتكسب بجوارحك الخير والشر إلى الموت حيث تنتقل إلى الدار الآخرة وتلقى ربك وتلاقيه هذا يشهد له قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الصحيح (كلكم يغدو فبائعٌ نفسه فمعتقها أو موبقها)[2] إذا فمن الخير لك أيها الإنسان المكلف أن تعمل خيرًا تلاقي به ربك فيرضى عنك به ويكرمك إنك حقا ملاق ربك بعملك فأنصح لك أن يكون عملك صالحا وانظر إلى الصورة التالية ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ لأنه حوى الخير ولا شر فيه ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ ينظر في كتابه ويقرر هل فعلت كذا فيعترف ويتجاوز عنه وينقلب إلى أهله في الجنة وهم الحور العين والنساء المؤمنات والذرية الصالحة يجمعهم الله ببعضهم كرامة لهم»[3].

٢ . ثقل الموازين.

فإن من آمنوا بالبعث بعد الموت يثقل الله

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٨٥٣

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم ٥٥٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ «كل الناس يغدو».

(٣) أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٥٤٣

موازينهم يوم القيامة، وينجيهم من العذاب، ويكرمهم بدخول الجنة، قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨﴾ [الأعراف: ٨].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «والوزن في ذلك اليوم الذي يسأل الله فيه الرسل والأمم، ويقص عليهم كل ما كان منهم، هو الحق الذي تحق به الأمور وتعرف به حقيقة كل أحدٍ وما يستحقه من الثواب والعقاب.. ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قيل: إن الموازين جمع ميزانٍ فهي متعددةٌ لكل امرئٍ ميزانٌ وقيل: لكل عملٍ. والجمهور على أن الميزان واحدٌ وأنه يجمع باعتبار المحاسبين وهم الناس أو على حد قول العرب: سافر فلانٌ على البغال وإن ركب بغلًا واحدًا، وقيل: إن الموازين جمع موزونٍ، والمعنى فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان وكثرة حسناته فأولئك هم الفائزون بالنجاة من العذاب والنعيم في دار الثواب»[1].

وقال القاسمي: «والوزن يومئذٍ الحق أي: وزن الأعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها، يوم يسأل الله الأمم ورسلهم، العدل. فمن ثقلت موازينه أي: حسناته في الميزان فأولئك هم المفلحون أي: الناجون من السخط والعذاب»[2].

٣. جنات الخلد.

فإن المؤمنين بالبعث بعد الموت هم الفائزون بجنات الخلد يوم القيامة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ٣ - ٥].

«حقيقة الإيمان: هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر. إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به، لخبر الله وخبر رسوله. فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر، لأنه تصديق مجرد لله ورسله. فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده، أو لم يشاهده وسواء فهمه وعقله، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه. بخلاف الزنادقة والمكذبين بالأمور الغيبية، لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتد إليها فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ففسدت عقولهم، ومرجت أحلامهم. وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله، ويدخل في الإيمان بالغيب، الإيمان بجميع ما أخبر الله

(١) تفسير المنار، ٨/ ٢٨٣.

(٢) محاسن التأويل ٥/ ٦.

به من الغيوب الماضية والمستقبلة، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله وكيفيتها، وما أخبرت به الرسل من ذلك فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتيقنونها، وإن لم يفهموا كيفيتها»[1].

«وأما معنى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فإن معنى ذلك: أنهم على نور من ربهم وبرهان واستقامة وسداد، بتسديد الله إياهم، وتوفيقه لهم.. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي أولئك هم المنجحون المدركون ما طلبوا عند الله تعالى ذكره بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله، من الفوز بالثواب، والخلود في الجنان، والنجاة مما أعد الله تبارك وتعالى لأعدائه من العقاب»[2].

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ٩ - ١٠].

قال الماوردي: «قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: يجعل لهم نورًا يمشون به، قاله مجاهد.

الثاني: يجعل عملهم هاديًا لهم إلى الجنة، وهذا معنى قول ابن جريج.

الثالث: أن الله يهديهم إلى طريق الجنة.

الرابع: أنه وصفهم بالهداية على طريق المدح لهم. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: من تحت منازلهم، قاله أبو مالك.

الثاني: تجري بين أيديهم وهم يرونها من علو، لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]. يعني بين يدي، وحكى أبو عبيدة عن مسروق أن أنهار الجنة تجري في غير أخدود»[3].

قال الشوكاني: «قوله: ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ أي: دعاؤهم ونداؤهم، وقيل: الدعاء العبادة، كقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨].

وقيل معنى دعواهم هنا: الادعاء الكائن بين المتخاصمين، والمعنى: أن أهل الجنة يدعون في الدنيا والآخرة تنزيه الله سبحانه من المعايب والإقرار له بالإلهية. قال القفال: أصله من الدعاء، لأن الخصم يدعو خصمه إلى من يحكم بينهما، وقيل معناه: طريقتهم وسيرتهم، وذلك أن المدعي للشيء مواظبٌ عليه فيمكن أن تجعل الدعوى كنايةً عن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٠.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١/ ٢٤٩.
(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٢٣.

الملازمة وإن لم يكن في قوله ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ دعوى ولا دعاءٌ وقيل معناه: تمنيهم كقوله: ولهم ما يدعون وكأن تمنيهم في الجنة ليس إلا تسبيح الله وتقديسه، وهو مبتدأ وخبره ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، و﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنة. والمعنى على القول الأول: أن دعاءهم الذي يدعون به في الجنة هو تسبيح الله وتقديسه. والمعنى: نسبحك يا الله تسبيحًا، قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي: تحية بعضهم للبعض، فيكون المصدر مضافًا إلى الفاعل، أو تحية الله، أو الملائكة لهم، فيكون من إضافة المصدر إلى المفعول.. قوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح أن يقولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»[1].

وقال السعدي: «يقول تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان، والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتملة على أعمال القلوب وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ أي: بسبب ما معهم من الإيمان، يثيبهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم.

ولهذا قال: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الجارية على الدوام ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أضافها الله إلى النعيم، لاشتمالها على النعيم التام، نعيم القلب بالفرح والسرور، والبهجة والحبور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاغتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات المطربات، والنغمات المشجيات، والمناظر المفرحات، ونعيم البدن بأنواع المآكل والمشارب، والمناكح ونحو ذلك، مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون.

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي عبادتهم فيها لله، أولها تسبيح لله وتنزيه له عن النقائض، وآخرها تحميد لله، فالتكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء، وإنما بقي لهم أكمل اللذات، الذي هو ألذ عليهم من المآكل اللذيذة، ألا وهو ذكر الله الذي تطمئن به القلوب، وتفرح به الأرواح، وهو لهم بمنزلة النفس، من دون كلفة ومشقة.

وأما تحيتهم فيما بينهم عند التلاقي والتزاور، فهو السلام، أي: كلام سالم من اللغو والإثم، موصوف بأنه ﴿سَلَٰمٌ﴾ وقد قيل في تفسير قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ

---

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٨٦.

إلى آخر الآية: إن أهل الجنة -إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما- قالوا سبحانك اللهم، فأحضر لهم في الحال، فإذا فرغوا قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾»[1].

موضوعات ذات صلة:

الثواب، الجزاء، الجنة، الحساب، العذاب، الموت، النار، اليوم الآخر

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٣٥٨.



عناصر الموضوع

مفهوم البكاء

أولًا: المعنى اللغوي:

الباء والكاف والواو والهمزة أصلان: أحدهما سيلان الدمع، والآخر نقصان الشيء وقلته[(١)].

فالأول: بكى يبكي بكًا وبكاءً،فهو باك، والجمع بكاة وبكي، فالبكاء بالمد سيلان الدمع عن حزن وعويل، يقال إذا كان الصوت أغلب كالرغاء والثغاء وسائر هذه الأبنية الموضوعة للصوت، وبالقصر يقال إذا كان الحزن أغلب[(٢)].

وقيل: هو بالقصر خروج الدمع فقط، وبالمد خروج الدمع مع الصوت.

قال الشاعر[(٣)]:

بكت عيني وحق لها بكاها وما يغني البكاء ولا العويل

والأصل الآخر: قولهم للناقة القليلة اللبن هي بكيئةٌ، ومنه قول الشاعر[(٤)]:

يقال محبسها أدنى لمرتعها ولو تعادى ببكءٍ كل محلوب

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب: «البكاء بالمد سيلان الدمع عن حزن وعويل»[(٥)].

وقال السمعاني: «والبكاء حالة تعتري الإنسان من الهم وضيق القلب مع جريان الدمع على الخد»[(٦)].

و الملاحظ أن هذه التعريفات عرفت البكاء بحالته الأكثر انتشارًا، وإلا فهناك بكاء لم ينشأ عن غم أو حزن؛ كبكاء الخشية من الله، وبكاء الفرح، وهو ما تنبه له ابن عاشور، فقال: «البكاء انفعال باطني ناشئ عن حزن أو عن خوف أو عن شوق»[(٧)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٨٥.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ١٤١.

(٣)البيت لكعب بن مالك كما رجحه ابن بري، انظر: لسان العرب ١/ ٤٧٥.

(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٨٦، والبيت في ديوان سلامة بن جندل السعدي، ص٦.

(٥)المفردات ص١٤١.

(٦) تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٣٣٣

(٧) التحرير والتنوير١٥/ ٢٣٥، وقارنه بالتعريف الوارد في روضة النعيم ٣/ ٨٣٣:«إراقة الدموع من أثر الخوف من الله أو للتعبير عن حزن في الفؤاد».

البكاء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (بكي) في القرآن الكريم (٧) مرات[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان:٢٩]
الفعل المضارع	٤	﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٩]
اسم الفاعل	١	﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم:٥٨]

وجاء البكاء في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: سيلان الدمع عن حزن وغيره[2].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبدالباقي ص ١٣٣.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢٨٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي ٢/ ٢٦٨، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٤١، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢/ ٢٢٢-٢٢٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخشوع:

الخشوع لغة:

خضع وذل وخاف، والخشوع: الخضوع والسكون والتذلل والخوف.

الخشوع اصطلاحًا:

إقبال المرء بقلبه على الله في دعائه وصلاته؛ خوفًا وانقيادًا، مع خضوع الجوارح والأعضاء[1].

الصلة بين الخشوع والبكاء:

البكاء أثر من آثار الخشوع، والخشوع محله القلب.

٢ الضحك:

الضحك لغة:

يقال ضحك يضحك ضحكًا وضحكًا وضحكًا وضحكًا أربع لغاتٍ، ومن ذلك الضحك وهو دليل الانكشاف والبروز [2].

الضحك اصطلاحًا:

«انبساط الوجه وتكشر الأسنان من سرور النفس» [3].

الصلة بين الضحك والبكاء:

الضحك ضد البكاء.

(١) المفردات للأصفهاني ص٢٨٣، الفروق اللغوية العسكري ص٢٤٨، التعريفات للجرجاني ص٩٨.
(٢) لسان العرب، ابن منظور، ١٠/ ٤٥٩، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٣٩٣.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٥٠١.



الضحك والبكاء من دلائل القدرة

ذكر الحق سبحانه وتعالى- في معرض إثبات كمال قدرته وانفراده بالخلق والإيجاد في سورة النجم - «جملة من عجائب صنع الله في خلقه، ولاسيما ما في خلق الإنسان وتكوينه من أسرار ظاهرة و باطنة، لم يصل الإنسان نفسه حتى الآن إلى تحديدها، واستكناه حقيقتها»(١).

فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النجم:٤٣].

أولًا: نسبة الإضحاك والإبكاء لله عز وجل:

نسب الله تعالى لنفسه القدرة على الإضحاك والإبكاء بصيغة القصر الدالة على مطلق اختصاصه تعالى بهذا الفعل، ونفي إسناده لغيره، فقال: «﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ﴾». كما أن الفعلين ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾، لا مفعول لهما في هذا الموضع؛ لأنهما سيقا لبيان قدرة الله، لا لبيان المقدور، فلا حاجة إلى المفعول(٢).

وقد اختلف أهل التأويل في بيان من المقصود بالإضحاك والإبكاء:

فقال مقاتل: أضحك أهل الجنة، وأبكى أهل النار(٣).

وقال التستري: أضحك المطيع بالرحمة، وأهلك العاصي بالسخط، وأضحك قلوب العارفين بنور معرفته، وأبكى قلوب أعدائه بظلمات سخطه(٤).

وقيل: أضحك بالوعد، وأبكى بالوعيد(٥).

وقال الضحاك: أضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر(٦).

والراجح من الأقوال أن الله تعالى أضحك الناس وأبكاهم؛ قال السمعاني: «والأصح من الأقاويل أنه أضحك الخلق وأبكاهم»(٧).

لكن، إذا كان فعل الإضحاك والإبكاء موجها للإنسان، فما المراد بذلك؟

اختلف المفسرون أيضًا في تعيين المراد بذلك، وهذا جماع أقوالهم:

قال الهواري: «خلق الضحك والبكاء»(٨).

وقال الماتريدي: «قوله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ يخرج على

(١) التيسير في أحاديث التفسير، المكي الناصري ٦/ ١١٩.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ١٩.

(٣) تفسير مقاتل ٣/ ٢٩٤.

(٤) تفسير التستري، ص١٥٧.

(٥) تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٣٠١.

(٦) زاد المسير ابن الجوزي ٨/ ٨٣.

(٧) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٣٠١.

(٨) تفسير كتاب الله العزيز، الهواري ٤/ ٢٤٧. التفسير المظهري، محمد ثناء الله المظهري ٩/ ١٣١.

وجهين:

أحدهما: على الكناية والاستعارة؛ جعل الضحك كناية عن السرور، والبكاء كناية عن الحزن؛ وكذا العرف في الناس أنه إذا اشتد بهم السرور ضحكوا، وإذا اشتد بهم الحزن بكوا.

والثاني: على حقيقة الضحك والبكاء، فهو على وجهين:

أحدهما: أي أنشأهم بحيث يضحكون، ويبكون.

والثاني: يخلق منهم فعل الضحك والبكاء؛ فهو أشبه التأويلين عندنا»[١].

وقال مكي بن أبي طالب القيسي: أضحك من شاء في الدنيا بأن سره، وأبكى من شاء بأن غمه[٢].

وقال القرطبي: «قضى أسباب الضحك والبكاء»[٣].

وقال الزمخشري:« ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾، خلق قوتي الضحك والبكاء»[٤].

و أرى أن حمل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ على حقيقة الضحك والبكاء أولى؛ لأن حمل الألفاظ على حقيقتها أولى من صرفها إلى المجاز؛ ولذلك قال ابن حيان: «الظاهر حقيقة الضحك والبكاء»[٥].

وقال الماتريدي- بعد أن ذكر المعنى الحقيقي للإضحاك والإبكاء-: « فهو أشبه التأويلين عندنا»[٦]،

ثم إن باقي المعاني تؤول إليه؛ لأن الضحك والبكاء من القوى والاستعدادات الغريزية التي فطر الله عليها الإنسان؛ وجعلها مقترنة بأسبابها وبواعثها من السرور والحزن؛ ولذلك قال الطاهر ابن عاشور:» وإسناد الإضحاك والإبكاء إلى الله تعالى؛ لأنه خالق قوتي الضحك والبكاء في الإنسان، وذلك خلق عجيب؛ ولأنه خالق طبائع الموجودات، التي تجلب أسباب الضحك والبكاء من سرور وحزن»[٧].

ثانيا: البكاء نعمة ومنة كبرى على جنس الإنسان:

البكاء نعمة من النعم الكبرى التي امتن بها سبحانه على جنس البشر، واختصهم بها دون سائر مخلوقاته الأخرى، وهي آية معجزة دالة على انفراده سبحانه وتعالى بالإيجاد والقهر، وقد دل على إعجاز صفة البكاء في تكوين الإنسان، أن العلم لا يستطيع تعليله وفهم كيفية وقوعه، و لا تعيين مختلف المتغيرات المؤثرة في إنشائه

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٤/ ٦١٤ .
(٢) تفسير الهداية، مكي بن أبي طالب، ص ٧١٧٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ١٠٣.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٢٨.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان، ٨/ ١٦٥.
(٦) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٤/ ٦١٤.
(٧) التحرير والتنوير ٢٧/ ١٤٣.

وإحداثه.

قال الامام الرازي: «اختار هذين الوصفين للذكر والأنثى؛ لأنهما أمران لا يعللان، فلا يقدر أحد من الطبيعيين أن يبدي في اختصاص الإنسان بالضحك والبكاء وجها وسببا، وإذا لم يعلل بأمر، ولا بد له من موجد فهو الله تعالى، بخلاف الصحة والسقم فإنهم يقولون: سببهما اختلال المزاج وخروجه عن الاعتدال، ويدلك على هذا أنهم إذا ذكروا في الضحك أمرا له الضحك، قالوا: قوة التعجب، وهو في غاية البطلان؛ لأن الإنسان ربما يبهت عند رؤية الأمور العجيبة ولا يضحك، وقيل: قوة الفرح، وليس كذلك؛ لأن الإنسان يفرح كثيرا، ولا يضحك، والحزين الذي عند غاية الحزن يضحكه المضحك، وكذلك الأمر في البكاء، وإن قيل لأكثرهم علما بالأمور التي يدعيها الطبيعيون إن خروج الدمع من العين عند أمور مخصوصة لماذا ؟ لا يقدر على تعليل صحيح»[1].

وقد بين سيد قطب كثيرًا من حقائق الإعجاز في خلق الإنسان كائنا ضاحكا باكيا، بأسلوب بليغ وعبارة رشيقة فقال: «أضحك وأبكى.. فأودع هذا الإنسان خاصية الضحك وخاصية البكاء؛ وهما سر من أسرار التكوين البشري لا يدري أحد كيف هما، ولا كيف تقعان في هذا الجهاز المركب المعقد، الذي لا يقل تركيبه وتعقيده النفسي عن تركيبه وتعقيده العضوي، والذي تتداخل المؤثرات النفسية والمؤثرات العضوية فيه، وتتشابكان، وتتفاعلان في إحداث الضحك، وإحداث البكاء. وأضحك وأبكى.. فأنشأ للإنسان دواعي الضحك ودواعي البكاء، وجعله - وفق أسرار معقدة فيه - يضحك لهذا ويبكي لهذا، وقد يضحك غدا مما أبكاه اليوم، ويبكي اليوم مما أضحكه بالأمس، في غير جنون و لا ذهول؛ إنما هي الحالات النفسية المتقلبة، والموازين والدواعي والدوافع والاعتبارات التي لا تثبت في شعوره على حال!

وأضحك وأبكى.. فجعل في اللحظة الواحدة ضاحكين وباكين، كل حسب المؤثرات الواقعة عليه، وقد يضحك فريق مما يبكي منه فريق؛ لأن وقعه على هؤلاء غير وقعه على أولئك.. وهو هو في ذاته؛ ولكنه بملابساته بعيد من بعيد!

وأضحك وأبكى.. من الأمر الواحد صاحبه نفسه، يضحك اليوم من الأمر ثم تواجهه عاقبته غدا أو جرائره فإذا هو باك، يتمنى أن لم يكن، وأن لم يكن ضحك، وكم من ضاحك في الدنيا باك في الآخرة حيث لا ينفع البكاء !

(١) مفاتيح الغيب ٢٩/ ٢٠.

هذه الصور والظلال والمشاعر والأحوال.. وغيرها كثير، تنبثق من خلال النص القصير، وتتراءى للحس والشعور، وتظل حشود منها تنبثق من خلاله؛كلما زاد رصيد النفس من التجارب؛ وكلما تجددت عوامل الضحك و البكاء في النفوس؛ وهذا هو الإعجاز في صورة من صوره الكثيرة في هذا القرآن»[1].

فقد بين هذا النص أن قدرة الضحك و البكاء، من الخصائص المودعة في الإنسان، وهي سر من أسرار التكوين؛ إذ لا تعقل ماهيتهما و لا كيفية وقوعهما،كما لا يفهم سببهما ودواعيهما؛ إذ كيف يضحك قومٌ مما يبكي منه آخرون؟ وكيف يبكي الواحد اليوم ما كان أضحكه بالأمس القريب؟ وصدق الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات:٢١].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٤١٥-٣٤١٦.

أسباب البكاء

سبق القول إن البكاء عملية معقدة تتفاعل في إحداثها عوامل داخلية عضوية ونفسية وفطرية، وأخرى خارجية وفق سنة الله تعالى في ربط الأسباب بمسبباتها.

وإن تتبع جميع الأسباب التي تثير البكاء وتحمل عليه شأنه أن يحيد بنا عن صلب هذا البحث المخصص للمفهوم في القرآن، ولذلك سأقتصر على الأسباب الواردة في السياقات القرآنية المتضمنة للبكاء بلفظه أو بمعناه:

أولًا: البكاء لسماع آيات الله والتأثر بمواعظه:

يعد البكاء لسماع آيات الله تعالى من أعظم أوصاف أنبياء الله تعالى وعباده المتقين، ولذلك مدحهم الله به في مواضع من كتابه العزيز، منها:

قوله عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾

[مريم:٥٨].

فقد ذكر الله أن هؤلاء المنعم عليهم من النبيين إذا تتلى عليهم آيات الله خروا سجدًا وبكيًا، استكانة لله، وتذللًا وخضوعًا لأمره وانقيادًا.

والمراد بآيات الرحمن في هذا السياق: «أدلة الله وحججه التي أنزلها عليهم في كتبه»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝١٠٦ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨﴾ [الإسراء:١٠٦-١٠٨].

وقد وردت هذه الآيات في سياق محاجة الكفار المكذبين بالقرآن، و المطالبين بالآيات المعجزة، يأمر الله فيها نبيه عليه الصلاة والسلام بأن يقول لهم:» آمنوا بهذا القرآن - الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، لم يأتوا به ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا - أو لا تؤمنوا به، فإن إيمانكم به لن يزيد في خزائن رحمة الله، ولا ترككم الإيمان به ينقص ذلك، وإن تكفروا به، فإن الذين أوتوا العلم بالله وآياته -من قبل نزوله من مؤمني أهل الكتابين- إذا يتلى عليهم هذا القرآن يخرون تعظيما له وتكريما، وعلما منهم بأنه من عند الله، لأذقانهم سجدا بالأرض» [(٢)].

وقد ذكر مجاهد أن المراد بالذين ﴿أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ هم ناس من أهل الكتاب حين سمعوا ما أنزل الله على محمد قالوا سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولًا[(٣)].

وذكر مقاتل أنها نزلت في مؤمني أهل التوراة عبد الله بن سلام وأصحابه[(٤)].

أما المتلو فهو القرآن الكريم لدلالة السياق عليه.

وهو الذي رجحه ابن جرير الطبري فقال: «وإنما قلنا: عني بقوله: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن، لأنه في سياق ذكر القرآن لم يجر لغيره من الكتب ذكر، فيصرف الكلام إليه، ولذلك جعلت الهاء التي في قوله: ﴿مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ من ذكر القرآن؛ لأن الكلام بذكره جرى قبله، وذلك قوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ وما بعده في سياق الخبر عنه؛ فلذلك وجبت صحة ما قلنا، إذا لم يأت بخلاف ما قلنا فيه حجة يجب التسليم لها»[(٥)].

فهؤلاء الذين أوتوا العلم من مؤمني أهل الكتابين من قبل نزول الفرقان، تلين قلوبهم لسماع القرآن، ويخرون على وجوههم سجدا وبكيا، وهو «مشهد مصور لحالة شعورية غامرة، يرسم تأثير هذا القرآن في القلوب المتفتحة لاستقبال فيضه؛ العارفة بطبيعته وقيمته؛ بسبب ما أوتيت من العلم قبله»[(٦)]، خلافًا لمن يقابل آيات الله

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢١٤.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٧ / ٥٧٧.
(٣) انظر: المصدر السابق ١٧/ ٥٧٨.
(٤) تفسير مقاتل ٢/ ٢٧٦.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٧٨-٥٧٩.
(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٥٤.

بالإستهزاء والصدود، كأولئك المخاطبين بقوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ۝٦١ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ ۝٦٢﴾ [النجم:٥٩-٦٢].

إن هذه الآيات لما سمعها أهل الصفة بكوا حتى أخضلوا؛ فعن أبي هريرة قال: لما نزلت ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ الآية، بكى أصحاب الصفة حتى جرت دموعهم على خدودهم، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينهم بكى معهم، وبكينا لبكائه، فقال عليه الصلاة والسلام: (لا يلج النار من بكى من خشية الله تعالى، ولا يدخل الجنة مصر على معصية، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون، ثم يستغفرون، فيغفر لهم)[1].

وبهذا يتبين أن البكاء لسماع القرآن سمة العلماء وأمارة الشوق والمحبة، وحري بكل سالك إلى الله تعالى أن يجتهد في تحصيل وبلوغ هذه المنزلة.

ثانيًا: البكاء لمعرفة الحق:

ما أعظم فرح القلب سرورا بمعرفة الحق، وما أشد هذا الفرح إذا فاضت العين بالدمع تعبيرا عن تأثرها العميق بهذا الحق.

هذا مقام طائفة من النصارى حكى القرآن أحوالهم، فقال عز وجل: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ۝٨٣﴾ [المائدة:٨٢،٨٣].

وقد قال بعض المفسرين: إنها نزلت في النجاشي وأصحابه؛ لما كان جعفر وأصحابه رضوان الله عليهم يتلون عليهم بعض ما أنزل من القرآن على النبي عليه الصلاة والسلام؛ جعلت دموعهم تفيض بسبب ما عرفوا من الحق[2].

وقال غيرهم: إنها نزلت في الوفد من العلماء والقساوسة الذين بعثهم النجاشي إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ينظرون إليه ويسألونه، فلما لقوه فقرأ عليهم ما أنزل إليه، بكوا وأسفوا، فأنزل الله فيهم ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ إلى آخر الآية[3].

وقال آخرون: بل هذه صفة قوم كانوا على شريعة عيسى من أهل الإيمان، فلما

(١) أخرجه الترمذي في الجامع، رقم ١٦٣٣، ورقم ٢٣١١، والنسائي في السنن الصغرى، رقم ٣١٠٧-٣١٠٨.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٩٤.

(٣) انظر: المصدر السابق ٨/ ٥٩٤، وتفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٤/ ١١٨٤.

بعث الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم آمنوا به[1].

والآيات تحمل على عمومها؛ فتشمل كل من علم الحق من النصارى، فزاده ما نزل من القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم إيمانا وتصديقا.

ولذلك قال ابن جرير الطبري: «والصواب في ذلك من القول عندي: أن الله تعالى وصف صفة قوم قالوا: ﴿إِنَّا نَصَارَىٰ﴾، أن نبي الله صلى الله عليه وسلم يجدهم أقرب الناس ودادًا لأهل الإيمان بالله ورسوله، ولم يسم لنا أسماءهم؛ وقد يجوز أن يكون أريد بذلك أصحاب النجاشي، ويجوز أن يكون أريد به قومٌ كانوا على شريعة عيسى، فأدركهم الإسلام فأسلموا لما سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق، ولم يستكبروا عنه»[2].

وقد وصف القرآن الكريم أعين هذه الطائفة بأنها تفيض من الدمع، أي تمتلئ بالدمع حتى يسيل من جوانبها.

وذكر الإمام الرازي أن قوله تعالى: ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ فيه وجهان:

الأول: المراد أن أعينهم تمتلئ من الدمع حتى تفيض، لأن الفيض أن يمتلئ الإناء وغيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه.

الثاني: أن يكون المراد المبالغة في وصفهم بالبكاء فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها[3].

وسبب هذا البكاء العميق تأثرهم بالحق الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، وتطابقه مع ما أوتوه من العلم، وتيقنهم من صدقه عليه الصلاة والسلام.

قال أبو زهرة: «معناه أن سبب البكاء هو ما عرفوه من الحق، وهذا يدل على أمرين: أولهما: أنه تحقق لديهم ما وجدوه من أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم . ثانيهما: أنهم كانوا لنفاذ بصائرهم، وعظم مداركهم يحسون بأنهم كانوا في ضلال فعرفوا الطريق، وكانوا في ظلام فاستناروا وكانوا في حيرة فاطمأنوا»[4].

إن هذه الطائفة من النصارى استحقت التنويه والإشادة بحالها الخاشعة وهي لم تعلم إلا بعض الحق،كما هو واضح من حرف التبعيض المقرون بالحق ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، فكيف لو عرفوا الحق كله ؟

وهذا يبين مبلغ هؤلاء القساوسة والرهبان من الخشية والرهبة، واستعدادهم لتلقي الحق والانخراط مع أنصاره وأتباعه: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

(١) انظر: جامع البيان ٨/ ٥٩٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) مفاتيح الغيب ١٢/ ٧٢.
(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٥/ ٢٣٢٨.

ثالثًا: البكاء لفوات الخير وتحسرا عليه:

مشهد آخر من مشاهد البكاء يقصه القرآن الكريم عن نفر من المؤمنين[1]، جاؤوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام يسألونه نفقة تعينهم على الخروج إلى الجهاد وقتال العدو مع المؤمنين، لكنهم صادفوا شحة في الرواحل، ونقصا في النفقات، لم يستطع النبي عليه الصلاة والسلام - معها- أن يوفر لهم ما يطلبون من الحملان، فعذرهم في الخروج، وسامحهم في التخلف لهذا السبب.

ولكنهم من فرط حبهم للجهاد، وصدق رغبتهم في الخروج للقتال، لم يستسيغوا التخلف، ولم يطيقوا التأخر عن صفوف النافرين لقتال العدو، وإذ لم يجدوا حيلة ولا اهتدوا إلى سبيلٍ للجهاد، فقد تولوا وأعينهم تفيض من الدمع، حزنا على حالهم، وتحسرا على ما فاتهم من فضل الخروج مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة:٩٢].

إن مشهد التخلف عن صفوف الزاحفين إلى ذروة سنام الإسلام يفلق الأكباد ويقطع الأحشاء، ولو كان لعذر وضرورة، وهذا ما جعل هذه الطائفة المؤمنة المأذون لها بالقعود تعود إلى ديارها، والحزن يعتصر قلبها، ويفيض الدمع من أعينها، «وإنها لصورة مؤثرة للرغبة الصحيحة في الجهاد، والألم الصادق للحرمان من نعمة أدائه»[2].

ولذلك سمي هؤلاء النفر من المومنين (البكاؤون)[3]، واستحقوا أن يخصوا بالذكر رغم أنهم مندرجون مع أصحاب الأعذار- لاسيما الذين لا يجدون ما ينفقون- المذكورين في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ [التوبة:٩١].

« لأنهم بالغوا في تحصيل ما يخرجون به إلى الجهاد حتى أفضى بهم الحال إلى المسألة، والحاجة لبذل ماء وجوههم في طلب ما يحملهم إلى الجهاد، والاستعانة به حتى يجاهدوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا يفوتهم أجره»[4].

قال المراغي: «وهؤلاء -وإن دخلوا في

---

(١) لمعرفة اختلاف العلماء في تعين أسماء البكائين.
انظر: تفسير ابن جرير الطبري ١٤/ ٤٢١ وما بعدها.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٦٨٥.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام ٤/ ٣٩٩.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٨٨.

عموم الذين لا يجدون ما ينفقون للجهاد لفقدهم الرواحل- قد خصوا بالذكر اعتناء بشأنهم، وجعلهم كأنهم قسم مستقل»[1].

وفي ذلك تنويه بصدق البكائين وإخلاصهم وعلو مكانتهم عند الله.

رابعًا: البكاء بسبب نزول المصائب وتتالي الأحزان:

من أسباب البكاء الواردة في القرآن الكريم الحزن الشديد على فقد حبيب من الأحبة، وهذا كان حال نبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام؛ فقد فجع بفقد ولده يوسف عليه السلام، وظل يندبه لسنين طويلة، ثم تتالت عليه الأحزان بفقد ابنه الآخر، فثوى إلى معزل، واستأنف البكاء والتفجع حتى ابيضت عيناه.

قال الله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف:٨٤]. والأسف أشد الحزن.

قال البقاعي: «﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ أي يا أشد حزني، والألف بدل عن ياء الإضافة، لتدل على بلوغ الأسف إلى ما لا حد له»[2].

وهذا الحزن الشديد الطويل تسبب في ابيضاض عيني يعقوب عليه السلام، أي في إصابتها بالعمى، لأن الحزن الدائم يوجب

(١) تفسير المراغي ١٠/ ١٨٣.
(٢) نظم الدرر، البقاعي ٤/ ٨٩.

البكاء الدائم وهو يوجب العمى؛ وإنما كان البكاء الدائم يوجب العمى؛ لأنه يورث كدورة في سوداء العين.

قال الزمخشري: «إذا كثر الاستعبار محقت العبرة سواد العين، وقلبته إلى بياض كدر»[3]، لأن توالي إحساس الحزن على الدماغ يفضي إلى تعطيل عمل عصب الإبصار[4].

وهذا العمى حقيقي- كما قرره جمهور المفسرين- وليس مجرد امتلاء العين بالماء، لغلبة البكاء فتصير كأنها ابيضت من بياض ذلك الماء، لأن الله عز وجل حكى عن يوسف أنه قال لإخوته: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف:٩٣].

وقال تعالى كذلك: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [يوسف:٩٦].

و ورد ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ مقابلا ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ في آيات القرآن الكريم، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾ [فاطر:١٩].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ رجع وعاد مبصرًا بعينيه، بعد ما قد عمي»[5].

(٣) الزمخشري ٢/ ٤٦٨.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٤٣.
(٥) جامع البيان ١٣/ ٣٣٢.

وقال ابن كثير: «وكان قد عمي من كثرة البكاء»[1].

وقال ابن عاشور: «وعندي أن ابيضاض العينين كناية عن عدم الإبصار»[2].

ولا يتعارض هذا مع القول بعصمة الأنبياء، واستحالة اتصافهم بما ينفر، أو يمنع من التبليغ؛ لأن بياض عيني يعقوب حصل بعد التبليغ؛ و لم يكن أصليا في خلقته؛بل عرض له، وهو من البلاء الذي يشتد على الأنبياء؛ لرفعة قدرهم، وعلو شأنهم عند الله تعالى، والله تعالى أعلم.

وابيضاض عيني يعقوب عليه السلام ليس بسبب الحزن، ولكن بسبب توالي البكاء، فقوله ﴿مِنَ الْحُزْنِ﴾ تعليل بالأصل الذي نشأ منه البكاء وهو الحزن[3].

ويستفاد من قصة يعقوب وحزنه على ولده يوسف، جواز التأسف والبكاء عند النوائب؛ فإن الكف عن ذلك مما لا يدخل تحت التكليف؛ فإنه قل من يملك نفسه عند الشدائد، ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده إبراهيم، وقال: (إن العين تدمع، و القلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون)[4].

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠٩.

(٢) التحرير والتنوير ١٣/ ٤٣.

(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٣٣٣.

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٣٠٢.

والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنا بك لمحزونون»، رقم ١٣٠٣، عن أنس بن مالك.

خامسًا: بكاء الحسرة والندم ونزول العذاب:

توعد الله المنافقين بالبكاء المرير يوم القيامة، حسرة على تضييع حدود الله، وندامة على اتخاذ آياته هزؤا، ومعاقبة لهم على تخلفهم عن رسول الله، وفرحهم بخذلان المؤمنين.

قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة:٨١-٨٢].

عن ابن عباس قال: «الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاءوا ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله، استأنفوا بكاء لا ينقطع أبدا»[5].

وروى عبد الرزاق عن معمر عن الحسن في قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾، قال: «يضحكوا قليلًا في الدنيا، وليبكوا كثيرًا في الآخرة في نار جهنم، جزاء ما كانوا يكسبون»[6].

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٦/ ١٨٥٥.

(٦) تفسير الصنعاني ١/ ٢٤٨.

فالآيات القرآنية السابقة إذن متضمنة إخبارًا بحقيقة ضحك وبكاء المنافقين، فإنهم مهما ضحكوا وتمتعوا في هذه الدنيا، فإن ذلك يعد قليلًا، بالنظر إلى ما يتتظرهم من عذاب الآخرة، وما يعقبه من حسرة وبكاء دائم، لأن الدنيا «دار قلعة وزوال وانزعاج وارتحال»[1]، أما الآخرة فهي دار قرار ومقام وخلود.

وقد أخرج هذا الإخبار من الله تعالى بما سيؤول إليه حال المنافقين على صيغة الأمر، للدلالة على أنه حتم واجب.

قال رشيد رضا: «وإنما كان الأمر في الآية بمعنى الخبر؛ لأنه إنذار بالجزاء لا تكليف، وقد قيل في فائدة هذا التعبير عن الخبر بالإنشاء أنه يدل على أنه حتم لا يحتمل الصدق والكذب كما هو شأن الخبر لذاته في احتمالهما، لأن الأصل في الأمر أن يكون للإيجاب وهو حتم؛ ويمكن أن يقال: إن الأمر بما ذكر يتضمن الإخبار بسببه؛ فيكون مؤكدا للخبر ببناء الحكم عليه، ويقابله التعبير عن الأمر بصيغة الخبر للتفاؤل بمضمونه كأنه وقع بالفعل»[2].

ويستفاد من هذا الوعيد الموجه للمنافقين أنهم لن يطيب لهم فيها عيش بعد أن هتك الوحي أستارهم، وكشف عوارهم، وأمر الرسول والمؤمنون بمعاملتهم بما يقتضيه نفاقهم، وعدم الاعتداد بما يظهرون من إسلامهم، وأن فرحهم عاقبته الحزن والكآبة، والخيبة والندامة، في الدنيا ويوم القيامة[3].

في سياق هذا الوعيد أيضًا نفهم بعض الأحاديث الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم التي يأمر فيها بالإكثار من البكاء والتقليل من الفرح، كقوله عليه الصلاة والسلام:(**لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا)**[4].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: ما النجاة ؟ قال: (**أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك)**[5].

(١) نظم الدرر، البقاعي ٣/ ٣٦٩.

(٢) تفسير المنار ١٠/ ٤٩٨.

(٣) تفسير المنار ١٠/ ٤٩١-٤٩٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا»، رقم ٦٤٨٥- ٦٤٨٦، وأخرجه أيضًا في كتاب التفسير، باب (لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم)، رقم٤٦٢١، من حديث أنس بن مالك و أبي هريرة. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب توقيره صلى الله عليه وسلم وترك إكثار سؤاله، رقم ٢٣٥٩.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، ٤/ ٦٠٥. وقال حديث حسن، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٢٧٤١.

سادسًا: البكاء بسبب الكذب والمخادعة:

قال الله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ١٦﴾ [يوسف:١٦].

هذا كان شأن أبناء يعقوب لما ألقوا أخاهم يوسف في غيابات الجب، جاءوا أباهم باكين أو متباكين، ومعهم قميصه مضمخا بالدماء؛ ليوهموه أنهم صادقون في نسبة افتراسه للذئب؛ ولأنهم كاذبون، فقد «جاءوا في ظلمة العشاء ليكونوا أجرأ على الاعتذار بالكذب»[(١)].

والعشاء محل الظلمة، وهو ستر للانفعالات التي توجد على الوجوه من الاضطراب؛ ومن مناقضة كذب ألسنتهم؛ لأنهم لن يخبروا الأب بالواقع الذي حدث؛ بل بحديث مختلق، وقد تخدعهم حركاتهم، ويفضحهم تلجلجهم، وتنكشف سيماهم الكاذبة أمام أبيهم؛ فقالوا: الليل أخفى للوجه من النهار، وأستر للفضائح؛ وحين ندخل على أبينا عشاء؛ فلن تكشفنا انفعالاتنا؛ وبذلك اختاروا الظرف الزمني الذي يتوارون فيه من أحداثهم[(٢)].

وإذا كان البكاء انفعالًا غريزيًا يسيل معه الدمع من العينين عند ورود باعثه على القلب، فقد أطلق هنا على البكاء المصطنع وهو التباكي، «وإنما اصطنعوا البكاء تمويها على أبيهم لئلا يظن بهم أنهم اغتالوا يوسف عليه السلام، ولعلهم كانت لهم مقدرة على البكاء مع عدم وجدان موجبه، وفي الناس عجائب من التمويه والكيد»[(٣)].

ويستفاد من تباكي إخوة يوسف أمام أبيهم يعقوب عليه السلام أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله؛ لاحتمال أن يكون تصنعا[(٤)].

(١) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ١٤.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١١/ ٦٨٨٢.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٣٦.
(٤) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٣٨-٣٩.



أنواع البكاء

عدد ابن قيم الجوزية في كتابه (زاد المعاد)أنواع البكاء، وحصرها في عشرة أنواع:

أحدها: بكاء الرحمة والرقة.

والثاني: بكاء الخوف والخشية.

والثالث: بكاء المحبة والشوق.

والرابع: بكاء الفرح والسرور.

والخامس: بكاء الجزع من ورود المؤلم وعدم احتماله.

والسادس: بكاء الحزن.

والسابع: بكاء الخور والضعف.

والثامن: بكاء النفاق، وهو أن تدمع العين، والقلب قاسٍ.

والتاسع: البكاء المستعار والمستأجر عليه؛ كبكاء النائحة بالأجرة، فإنها - كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه-: «تبيع عَبْرَتَها، وتبكي شجو غيرها».

والعاشر: بكاء الموافقة، وهو أن يرى الرجل الناس يبكون لأمر ورد عليهم، فيبكي معهم، ولا يدري لأي شيء يبكون؛ ولكن يراهم يبكون، فيبكي[1].

ترى ما أنواع البكاء الواردة في القرآن الكريم؟

تبين من المبحث السابق أن أسباب البكاء في القرآن الكريم متعددة، و لا يخفى أن كل سبب من هذه الأسباب يرتبط به نوع أو أكثر من أنواع البكاء، فإذا كان سبب البكاء - على سبيل التمثيل - تأثرًا بسماع القرآن ومواعظه كان البكاء بكاء خشية أو خشوع أو فرح... وإذا كان السبب حزنا، كان البكاء من جنسه، إما بكاء حسرة وندم، أو بكاء تألم وكرب...

وعمومًا يمكن تقسيم أنواع البكاء الواردة في القرآن الكريم باعتبارات متعددة:

أولًا: باعتبار السبب الباعث عليه:

يمكن ترتيب البكاء الوارد في القرآن الكريم باعتبار السبب الباعث عليه والجالب له إلى الأنواع الآتية:

١ . بكاء الفرح.

البكاء الناشئ عن سرور القلب وبهجة النفس وانشراح الصدر.

٢ . بكاء الخشوع والإنابة.

وهو بكاء الأنبياء والرسل والصالحين والمهديين والمجتبين.

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم:٥٨].

و هو أيضًا بكاء الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا

(١) زاد المعاد ١/ ١٨٤.

﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٨].

٣. بكاء معرفة الحق.

وهو بكاء العارفين بالله تعالى، العالمين بأمره، المسارعين إلى مغفرته ورضوانه حينما تتجلى لهم الحقائق، وتلوح لهم البصائر.

و يأتي الموقف الذي حكاه الله تعالى عن بعض قساوسة ورهبان النصارى صورة مجلية لهذا النوع من البكاء، إذ لما سمعوا بينات القرآن وبصائره تتلى عليهم، فاضت أعينهم فرحًا وانشراحًا وحبورًا.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة:٨٢-٨٣].

٤. بكاء الحزن.

حينما تشتد الأحزان على القلب وتتوالى عليه المصائب وتنزل به الكروب، يفيض الدمع، ويبكي المحزون والمكروب،ويتخذ هذا النوع من البكاء صورا في القرآن الكريم منها:

- بكاء الحزن على فقد محبوب.

وأدق مثال له بكاء يعقوب عليه السلام على فقد فلذة كبده يوسف عليه السلام، فقد بكاه حتى شرق بماء دمعه،وشحب وجهه، وتقرحت أجفانه.

قال تعالى حكاية لشأنه: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف:٨٤].

ويمكن عد هذا البكاء أيضًا بكاء شوقٍ وحنينٍ للقاء المحبوب.

- بكاء الحزن على فوات مرغوب.

وأغلى مرغوب للمؤمن تحصيل الطاعات وعمل الصالحات، فإذا فاته شيئ من ذلك -لعجزه عنه مع حبه واشتياقه إليه- لم يجد ما يعبر به عن هذا الفوات إلا بإسبال العبرة و إذراء الدمعة، كما صنع البكاؤون لما فاتهم شرف الخروج مع الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الجهاد، قال عز وجل: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة:٩٢].

٥. بكاء الحسرة والندم على التفريط في جنب الله.

وهذا بكاء المنافقين المستهزئين بالحق، والمعرضين عن سبيل الله، يكثر بكاؤهم ويطول يوم القيامة، كما كثر

فرحهم وتخلفهم في الدنيا،قال الحق سبحانه وتعالى منذرا ومخبرا بمصيرهم: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة:٨٢].

٦. البكاء المصطنع.

وهو بكاء مفتعل، لم يصدر على السجية، ولم يبعث عليه باعث مقبول من فرح أو حزن، وإنما هو دمعة مختلقة، وعبرة مصطنعة، غايتها التضليل والخداع، وإخفاء الحقيقة؛كما هو حال بكاء إخوة يوسف، وقد أضاعوا أخاهم، وجاؤوا على قميصه بدم كذب، قال الله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يوسف:١٦].

٧. بكاء السماء والأرض.

قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان:٢٩].

نفت هذه الآية أن تكون السماء والأرض بكت على قوم فرعون، فاقتضى أن للسماء والأرض بكاء.

واختلف المتأولون في معنى ذلك، فحمله قوم على الحقيقة، وقالوا: إن الرجل المؤمن إذا مات بكى عليه من الأرض موضع عبادته أربعين صباحًا، وبكى عليه من السماء موضع صعود عمله، ولم يكن في قوم فرعون من هذه حاله.

وممن ذهب إلى هذا القول: علي بن أبي طالب، وابن عباس، ومجاهد، وابن جبير[(١)].

وقال ابن عطية: «والمعنى الجيد في الآية أنها استعارة باهية فصيحة تتضمن تحقير أمرهم،وأنهم لم يتغير عن هلاكهم شيء، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم:٤٦]»[(٢)].

ورجح القرطبي: القول الذي يحمل بكاء السماء والأرض على الحقيقة، إذ لا استحالة في ذلك، وكما أن السماوات والأرض تسبح وتسمع وتتكلم... فهي كذلك تبكي، مع ما جاء من الخبر في ذلك[(٣)].

فإذا كان الأمر كذلك، لم نحتج إلى

---

(١) «عن سعيد بن جبير، قال: أتى ابن عباس رجلٌ، فقال: يا ابن عباس، أرأيت قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾، فهل تبكي السماء والأرض على أحد ؟ قال: نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا له باب في السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله، وينزل منه رزقه، بكى عليه وإذا فقده مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها، ويذكر الله فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم يكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى السماء منهم خير، قال: فلم تبك عليهم السماء والأرض». أخرجه الصنعاني في تفسيره ٢/ ٢٠٨، والطبري في تفسيره ٢٢/ ٣٤،وابن أبي حاتم في تفسيره١٠/ ٣٢٨٨-٣٢٨٩.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٦٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ١٤٢.

تكلف كيفية هذا البكاء، كما فعله بعض المفسرين، لأن ذلك يتوقف على الخبر الصحيح المرفوع.

ويتحصل لنا من هذه الآية أن الدموع رحمة لا يستحقها إلا المطيعون والمخبتون، ولو صدرت من السماء والأرض.

ثانيًا: باعتبار القصد:

يقسم البكاء باعتبار قصد الباكي إلى قسمين:

١ . البكاء الممدوح.

وهو البكاء المحمود المشروع الذي يكون قصد صاحبه مشروعا وحسنا، «كالبكاء من خشية الله تعالى، وخوفا منه، وطمعا في رحمته، أو البكاء من سماع القرآن وما فيه بعد تدبره وتأمله، أو البكاء لمعنى إنساني نبيل؛ كما فعل سيد البشر صلى الله عليه وسلم حين مات ابنه إبراهيم»[(١)].

٢ . البكاء المذموم.

وهو ما كان قصد صاحبه سيئا ومنكرا، مثل «بكاء التصنع وما فيه، سواء أكان ذلك لإثبات صدق قول أم دعوى أم ما إلى ذلك، كما فعل إخوة يوسف، فهذا من البكاء المذموم؛ لأنه لا يكاد يدل على صدق الإنسان في فعله أو فعاله»[(٢)].

ثالثًا: باعتبار الموافقة أو المخالفة للشرع:

ينقسم البكاء باعتبار الموافقة والمخالفة إلى:

١ . بكاء موافق.

وهو ما كان الباعث عليه أمرا فطريا مقبولا، وكان القصد منه محمودا، و صدر عن صاحبه موافقا لشرع الله، ومنسجما مع هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢ . بكاء مخالف.

وهو البكاء الذي اختل فيه شرط إما في سببه، أو في قصد صاحبه، أو في كيفية وقوعه، ويدخل في ذلك البكاء النابع من تسخط النعمة، وعدم الرضا بالمقدور، أو كان قصد صاحبه إبطال الحق، وخداع الناظرين إليه، أو كان بكاء مقرونا بالعويل والصياح المنكر كما يفعله «جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير، ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير»[(٣)].

---

(١) انظر: نضرة النعيم ٣/ ٨٣٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: هذا المعنى في الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٦٦.

فوائد البكاء

فوائد البكاء كثيرة، واستقصاؤها جميعا ليس من مقاصد هذا البحث، وحسبي أن أورد نماذج منها، مرتبة في محورين هما:

أول: كيفية حدوث البكاء وفوائده الجسدية:

تتكون الدموع من ثلاثة مكونات:

١. الزيت.
٢. الماء.
٣. المخاط.

كما تحتوي الدموع على مواد معروفة باسم الأجسام المضادة التي تحمي من العدوى.

تصنع الدموع من قبل جهاز من الغدد والقنوات الخاصة تتوضع حول العينين،يعرف باسم الجهاز الدمعي.

توجد الغدد الدمعية، أو الغدد المنتجة للدمع:

- تحت عظم الحاجب خلف الجفن العلوي.
- عند حواف تجويف العين.
- في الجفون.

تنتقل الدموع من الغدد الدمعية إلى سطح العينين عبر قنوات صغيرة، كما أن هناك دورًا للجفون في الحفاظ على رطوبة العينين بنشر الدموع على امتداد العينين.

تصرف الدموع من العينين عبر ثقوب صغيرة جدًا اسمها النقاط الدمعية، وتعرف تلك الثقوب الصغيرة جدًا أيضًا باسم قنوات الدمع؛ وهي تتوضع عند الجفنين العلوي والسفلي، وتدخل الدموع من النقاط إلى أنابيب صغيرة اسمها النفيقات، توجد تلك الأنابيب عند الزاوية الداخلية للجفنين، ومن هناك، تعبر الدموع إلى كيس الدمع؛ يقع كيس الدمع بجوار الزاوية الداخلية للعينين (الموق)؛ بين العينين والأنف. عندما تطرف العين، تجبر الحركة كيسي الدمع على الانضغاط؛ وهذا يعصر الدموع لخارج كيسي الدمع، ويحركها بعيدًا عن العينين، ولداخل القناة الأنفية الدمعية.

تصرف القناة الأنفية الدمعية الدمع إلى مؤخرة الأنف، وتعرف القناة الأنفية الدمعية والقنوات الدمعية أيضًا باسم قنوات الدمع[(١)].

بعد هذا السرد الفيزيولوجي التشريحي، نجمل بعض الفوائد الصحية العضوية للدموع فيما يأتي:

- تساعد الدموع على مرونة حركة الجفون العلوية والسفلية.
- تساعد أيضًا على حمايتها كأداة لتطهيرها بصورة مستمرة.

(١) موسوعة الملك عبد الله بن عبد العزيز العربية للمحتوى الصحيح.

- تساعد على حمايتها من الإصابة بالجفاف.
- كما تساعد على طرد أي مواد مهيجة للعين، مثل الفلفل والدخان أو مواد صلبة كالأتربة.
- وتقوم عن طريق الغدة الدمعية بإدرار الدموع، وطرد هذه الأجسام الغريبة، لتعود إلى شفافيتها وتنظيفها.
- كما تقوم الدموع على شفافية القرنية وحمايتها من الجفاف.
- تساعد على وضوح الرؤية وقوة الابصار ودقتها.
- تخلص الجسم من المواد الكيماوية المتعلقة بالضغط النفسي[1].

ثانيًا: الفوائد النفسية و الروحية للبكاء:

الفوائد الروحية المعدودة في هذا المطلب مستندة إلى نصوص شرعية من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهي غيض من فيض، غايته التمثيل الباعث على الامتثال وسلوك هدي الشرع في البكاء:

١ . البكاء دليل الصدق والإخلاص.

أوضح مثال لذلك دموع البكائين المشار إليهم آنفًا التي فاضت شوقا للجهاد في سبيل الله، وتحسرا على فوات الطاعة.

٢ . البكاء من سمات الخاشعين، ومن علامات الخائفين.

ولقد حكى الله تعالى عن أنبيائه عليهم الصلاة و السلام أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن، خشعت قلوبهم، واهتزت جوارحهم، فخروا على أذقانهم ساجدين لعظمة الله، باكين من خوفه تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم:٥٨].

وكذلك يفعل المنعم عليهم من العلماء، والصالحين، والعارفين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكي حتى يسمع لصوته أزيز؛ فعن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه، قال: (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ولجوفه أزيزٌ كأزيز المرجل من البكاء)[2].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال:

---

(١) أسرار الدموع، محمد السقا عيد، ص ١٠، مقال منشور في مجلة حراء العدد: ٣٥ مارس، أبريل ٢٠١٣.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب البكاء في الصلاة، رقم ٩٠٤، والنسائي في الصغرى، كتاب الصلاة، باب البكاء في الصلاة، رقم ١٢١٤.
وصححه الشيخ الألباني في « صحيح الترغيب» رقم ٥٤٤ .

«لَأَنْ أَدْمَعَ دمعةً من خشية الله أحب إلي من أن أتصدق بألف دينارٍ»[(١)].

٣. البكاء دليل المعرفة و التبصر.

يتبوأ النبي عليه الصلاة والسلام مقامًا عليًا في المعرفة بالله والتبصر بحقائق الآخرة، ولذلك تعددت صور بكائه الشاهدة على هذا المقام السني،ومن ذلك حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه، قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: (اقرأ علي) قلت: يا رسول الله، أقرأ عليك، وعليك أنزل ؟ قال: (فإني أحب أن أسمعه من غيري) فقرأت عليه سورة النساء، حتى بلغت: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ۝٤١ ﴾ [النساء:٤١].

قال: (أمسك)، فإذا عيناه تذرفان)[(٢)].

وإنما بكيصلى الله عليه وسلم عند هذا «لأنه مثل لنفسه أهوال يوم القيامة وشدة الحال الداعية له إلى شهادته لأمته بتصديقه، والإيمان به وسؤاله الشفاعة لهم ليريحهم من طول الموقف وأهواله؛ وهذا أمر يحق له طول البكاء والحزن»[(٣)].

(١)أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٢ / ٢٥٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا)، رقم ٤٥٨٢، ومسلم في صحيحه، باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظ للاستماع والبكاء عند القراءة والتدبر، رقم ٨٠٠.

(٣)شرح صحيح البخاري ابن بطال ١٠/ ٢٧٩.

وعن أنس رضي الله عنه قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط فقال: (لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا)، فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم ولهم خنين[(٤)].

وإنما بكى النبي عليه الصلاة والسلام؛ لاطلاعه على ما ينتظر أمته من منازل الآخرة و أهوالها.

وسبق ذكر أحوال الرهبان والقساوسة، ومسارعتهم إلى الإنابة والخضوع لأمر الله، وقد دل فيض الدمع وسكب العبرات على امتلاء قلوبهم بالمعرفة، واستبصارهم للحقائق الإيمانية التي يتنكر لها كثير من عميان البصائر.

٤ . البكاء دليل الرحمة والرقة في قلب المومن.

إذا كانت الرحمة رقةً طبع الله تعالى قلوب عباده المومنين عليها، فإن البكاء أحد مظاهرها الخارجية.

ولذلك ثبت من حديث أسامة بن زيد (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع إليه ابن ابنته وهو في الموت؛ ففاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: هذه رحمةٌ جعلها الله تعالى في قلوب عباده؛ وإنما

(٤)سبق تخريجه.

يرحم الله من عباده الرحماء)[1].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص: (أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ [إبراهيم:٣٦].

وقول عيسى عليه السلام ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١١٨﴾ [المائدة:١١٨].

فرفع يديه وقال: اللهم أمتي أمتي، وبكى؛ فقال الله عز وجل: يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال - وهو أعلم - فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك)[2].

٥ . البكاء من سمات الشاكرين.

يعد البكاء الصادر من المؤمن شكرا عمليا؛ لأنه جمع رقة القلب، وعمل الجارحة، وهذا أبلغ الشكر وأعظمه؛ ولذلك حرم الله تعالى على النار عينا بكت من خشية الله؛ لأنها أدت شكر المنعم بفيض الدمع، وقد يفصح الدمع عما لا يستطيع القول كشفه وبيانه.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعبد ربه ويبكي حتى تخضل لحيته، إقرارًا بالعبودية الخالصة بين يدي الله تعالى، وشكرًا له عز وجل على جزيل العطاء وجميل الامتنان.

فعن عبيد بن عمير رحمه الله، أنه قال لعائشة رضي الله عنها: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: فسكتت ثم قالت: (لما كانت ليلة من الليالي، قال: يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي، قلت: والله إني أحب قربك، وأحب ما يسرك. قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي، حتى بل حجره ! قالت: وكان جالسًا فلم يزل يبكي صلى الله عليه وسلم حتى بل لحيته ! قالت: ثم بكى حتى بَلَّ الأرض! فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي، قال: يا رسول الله تبكي،وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟!، قال: أفلا أكون عبدًا شكورا ؟!، لقد أنزلت علي الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ! ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٩٠])[3].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه» إذا كان النوح من سنته، رقم ١٢٨٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، رقم ٩٢٣ ، من حديث أسامة بن زيد، .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لأمته وبكائه شفقة عليهم، رقم ٢٠٢.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٢ / ٣٨٦ .

٦. البكاء طريق موصل إلى محبة الله ورضوانه.

من الأشياء التي توصل إلى محبة الله تعالى، وتكسب رضوانه عبراتٌ تسكب من خشية الله، فعن أبي أمامة قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين: قطرة من دموع خشية الله، وقطرة دم تهراق في سبيل الله، وأما الأثران: فأثر في سبيل الله، وأثر في فريضة من فرائض الله)**[(١)].

٧. البكاء من طرق الفوز بظل عرش الرحمن.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سبعةٌ يظلهم الله: رجلٌ ذكر الله ففاضت عيناه)[(٢)].

٨. البكاء من خشية الله منجاة من النار.

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يلج النار رجل بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان نار جهنم)[(٣)].

وعن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله)[(٤)].

موضوعات ذات صلة:

الحزن، الغم، الفرح

قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.
وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب ٢/ ٨٨، رقم ١٤٦٨، والسلسلة الصحيحة، رقم ٦٨.

(١) أخرجه الترمذي في سننه،كتاب فضائل الجهاد عن رسول الله، رقم ١٦٦٩.
وقال: هذا حديث حسن غريب.
وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الترمذي رقم ١٣٦٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب البكاء من خشية الله، رقم ٦٤٧٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم ١٠٣١.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في فضل البكاء من خشية الله، رقم ١٦٣٣.
والنسائي في السنن كتاب الجهاد، فضل من عمل في سبيل الله على قدمه، رقم ٣١٠٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم ٧٧٧٨.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب فضائل الجهاد عن رسول الله صلى الله عليه و سلم، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله، رقم ١٦٣٩.
وقال الترمذي: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث شعيب بن زريق.
وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة ٦ / ٣٨٠ رقم ٢٦٧٣.





عناصر الموضوع

التعريف ببني إسرائيل

أولًا: التسمية:

يطلق المؤرخون أسماء العبرانيين واليهود وبني إسرائيل، ويريدون بها طائفة واحدة معينة من الناس وهم: أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

١ . العِبْرِيُون.

اختلفت الآراء في سب تسميتهم بهذا الاسم، فقيل: إنهم سموا بالعبريين نسبة إلى إبراهيم عليه السلام، فقد ذكر في سفر التكوين باسم (إبراهيم العبراني)؛ لأنه عبر نهر الفرات وأنهار أخرى، ورجحه أكثر العلماء، وقيل: إنهم سموا بالعبريين نسبة إلى (عبر) وهو الجد الخامس لإبراهيم عليه السلام، وقيل: إن كلمة (عبري) ترجع إلى الموطن الأصلي لبني إسرائيل، وذلك أنهم كانوا في الأصل من الأمم البدوية الصحراوية التي لا تستقر في مكان، وتتنقل من مكان إلى آخر بماشيتها بحثا عن الماء والمرعى، وكلمة عبري أصلها من العبور والتنقل، وكانوا يسمون بذلك تميزًا لهم عن أهل العمران، ثم لما عرفوا المدنية نفروا من هذه التسمية، وآثروا أن يعرفوا ببني إسرائيل(١).

٢ . بنو إسرائيل.

سموا بذلك نسبة إلى أبيهم إسرائيل، وهو إسحاق بن يعقوب بن إبراهيم عليهم السلام، وإسرائيل كلمة عبرانية مركبة من (إسرا) بمعنى عبد أو صفوة، ومن (إيل) وهو الله، فيكون معنى الكلمة عبد الله أو صفوة الله(٢).

٣. اليهود.

قيل إنهم سموا بذلك حين تابوا عن عبادة العجل، وقالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦]. أي: تبنا ورجعنا، وقيل: إنهم سموا بذلك لأنهم يتهودون، أي: يتحركون عند قراءة التوراة، وقيل: سُمُّوا بذلك نسبة إلى يهوذا بن يعقوب عليه السلام(٣).

---

(١) انظر: معجم الحضارات السامية، عبودي هنري ص: ٥٨٢، بنو اسرائيل في الكتاب والسنة، محمد سيد طنطاوي ص: ٩، بنو اسرائيل، مهران محمد بيومي ١ / ٢٩.

(٢) انظر: معجم الحضارات السامية، عبودي هنري ص: ٥٨٢، بنو اسرائيل في الكتاب والسنة، محمد سيد طنطاوي ص: ١١، بنو اسرائيل، مهران محمد بيومي ١ / ٣٥.

(٣) انظر: معجم الحضارات السامية، عبودي هنري ص: ٥٨٢، بنو اسرائيل في الكتاب والسنة، محمد



ثانيًا: المكان:

يذكر المؤرخون أن العبريين: وهم من نسل إسحاق ويعقوب عليهما السلام كانوا يسكنون في بلاد كنعان، وكانوا يسكنون في جنوبي بلاد الشام، فلسطين وشرق الأردن، وكانوا عبارة عن بدو رحل يهتمون بتربية المواشي[1].

ولما اشتد القحط في هذه البلاد هاجر يعقوب عليه السلام إلى أرض مصر، وقد ذكر القرآن الكريم هذه القصة وبين ما حدث بين يوسف عليه السلام وإخوته.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [يوسف:٨٨].

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف:٩٩-١٠٠].

عاش بنوا إسرائيل في مصر حياة كريمة آمنه في ظل يوسف عليه السلام، ويقال أن حكام مصر خلال هذه الفترة هم الهكسوس، وكان حكمهم في القرن السادس عشر ق.م.

ثم لما قامت الأسرة التاسعة عشرة والتي من ملوكها (رمسيس الثاني) جاهر المصريون بعداوتهم لبني إسرائيل وساموهم سوء العذاب، وقد ذكر القرآن الكريم هذا العذاب الذي حل على بني إسرائيل.

قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [إبراهيم:٦].

ثم من الله تعالى على بني إسرائيل فأرسل إليهم نبي الله موسى عليه السلام لإنقاذهم وهدايتهم، ثم استمر الأذى والهوان في عصر موسى عليه السلام حتى خرجوا من مصر بقيادة موسى عليه السلام إلى بلاد الشام، فتوجه بهم إلى مدينة أريحا، وأمرهم بدخولها.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة:٢٤].

سيد طنطاوي ص: ١٢، بنو اسرائيل، مهران محمد بيومي ١ / ٣٥.

(١) انظر: أطلس الأنبياء والرسل لسامي بن عبد الله المغلوث ص: ١٢١.

فلما أحجموا عن دخول الأرض المقدسة حل بهم عذاب الله فتاهوا في الصحراء أربعين سنة، وبعد ذلك بأعوام قلائل توفي هارون عليه السلام، ثم توفي بعده موسى عليه السلام[١].

وبعد وفاة موسى عليه السلام شعر بنو إسرائيل بسوء أعمالهم وقبح تصرفاتهم مع نبيهم، فنصبوا عليهم يوشع بن نون عليه السلام، وهو الذي عبر بهم نهر الأردن إلى أريحا، ثم انتصروا على الملوك العموريين ثم سيطروا بعد ذلك على كامل الأرض المقدسة (فلسطين)[٢].

بعد موت يوشع تقسم الأسباط أرض الشام، فسلط الله سبحانه وتعالى بعضهم على بعض، فانقسموا إلى مملكتين، مملكة (يهوذا) في الجنوب بقيادة داود عليه السلام، وتضم بيت المقدس، ومملكة (إسرائيل) في الشمال بقيادة إيشبعل وتضم سامريا، وبعد ذلك قتل إيشبعل، فبايع أهل الشمال داود عليه السلام وتوحدت دولة إسرائيل، وأصبحت أورشليم عاصمة دينية وسياسية لها، وبعد وفات داود عليه السلام خلفه في الملك سليمان عليه السلام، وكانت هذه المرحلة هي العصر الذهبي لدولة بني إسرائيل[٣].

وبعد موت سليمان عليه السلام انقسمت مملكة إسرائيل إلى مملكتين، مملكة (يهوذا) في الجنوب، وعاصمتها أورشليم، بقيادة (رحبعام)، وعمرت (٤٠٠ عام)، وكانت نهايتها على يد البابليين، ومملكة (إسرائيل) في الشمال وعاصمتها شكيم، بقيادة (يربعام)، وعمرت (٢٥٠) سنة، وكانت نهايتها على يد الأشوريين[٤].

قال عبد الكريم الخطيب: «ثم إذا أعدنا النظر إلى بني إسرائيل بعد الأسر البابلي، لم نجد لهم دولة ظاهرة ولا ملكا قائما، وإنما هم دويلات ممزقة، متقاتلة فيما بينها، تخرج من حكم البابليين لتقع تحت حكم الفرس في سنة (٥١٨ ق. م)، ثم تحت حكم الرومان، إلى أن جاء الفتح الإسلامي، الذي أدخل بيت المقدس في دولته، فأصبح المسجد الأقصى من مساجد الإسلام، ليس لبنو إسرائيل شأن به منذ ذلك الوقت إلى يوم الناس هذا»[٥].

ثالثًا: الزمان:

يمكن تلخيص الفترة الزمنية التي عاشها بنو إسرائيل كما يأتي:

---

(١) انظر: أطلس تأريخ الأنبياء والرسل، سامي بن عبد الله المغلوث ص: ١٤٧، معجم الحضارات السامية، عبودي هنري ص: ٥٨٢.
(٢) انظر: معجم الحضارات السامية، عبودي هنري ص: ٥٨٦.
(٣) انظر: معجم الحضارات السامية، عبودي هنري ص: ٥٨٦.
(٤) انظر: بنو اسرائيل في الكتاب والسنة، محمد سيد طنطاوي ص: ٤٨.
(٥) انظر: التفسير القرآني للقرآن ٨/ ٤٤٨.



أولًا: يذكر المؤرخون أن الفترة الزمنية التي عاشها بني إسرائيل في أرض كنعان كانت الفترة التي عاشها يعقوب عليه السلام، (١٨٣٧ - ١٦٩٠ ق. م).

ثانيًا: يرى كثير من المؤرخين أن استيطان بني إسرائيل في مصر كان خلال حكم الهكسوس لمصر (خلال السنوات ١٧٢٠ - ١٥٧٠ ق.م)[١]، وقيل: إن بني إسرائيل نزلوا إلى مصر (سنة: ١٦٧٨ ق.م)[٢].

ثالثًا: يرى بعض المؤرخين أن بني إسرائيل خرجوا من مصر بقيادة موسى عليه السلام في عهد (منفتاح بن رمسيس الثاني) حوالي (١٢١٣ ق.م)[٣].

رابعًا: دخل بنو إسرائيل فلسطين بقيادة يوشع بن نون لما خرجوا من التيه في صحراء سيناء بعد أربعين سنة، في القرن الثالث عشر قبل الميلاد[٤].

خامسًا: تأسست المملكة اليهودية حوالي (١٠٩٥ ق٠م)، وأبرز ملوكها الأول طالوت وداود وسليمان عليهم السلام، واستمرت هذه المملكة حتى تم القضاء عليها وزوالها على يد بختنصر (سنة ٥٨٦ ق٠م)[٥].

سادسًا: انقسمت مملكة بني إسرائيل بعد وفاة سليمان عليه السلام (سنة ٩٧٥ ق. م) إلى مملكتين:

- مملكة (يهوذا) في الجنوب، وعاصمتها أورشليم، بقيادة (رحبعام)، وقد تعاقب عليها من بعده عشرون ملكًا، وعمرت (٤٠٠ عام)، وكانت نهايتها على يد البابليين (سنة ٥٨٦ ق.م)[٦].
- مملكة (إسرائيل) في الشمال وعاصمتها شكيم، بقيادة (يربعام)، وقد تعاقب عليها من بعده حوالي تسعة عشر ملكًا، وعمرت (٢٥٠) سنة، وكانت نهايتها على يد الأشوريين (سنة ٧٢١ ق.م)[٧].

---

(١) انظر: العبرانيون وبني إسرائيل في العصور القديمة، إبراهام مالمات ص: ١٢١.
(٢) انظر: رحلة بني إسرائيل إلى مصر، غطاس بن عبد الملك ص: ١٥٢.
(٣) انظر: بنو اسرائيل في الكتاب والسنة، محمد سيد طنطاوي ص: ٢٣.
(٤) انظر: المصدر السابق.
(٥) انظر: المصدر السابق ص: ٢٦، أرض الميعاد، حسين فوزي النجار ص: ٤٤.
(٦) انظر: بنو اسرائيل في الكتاب والسنة، محمد سيد طنطاوي ص: ٤٨.
(٧) انظر: بنو اسرائيل في الكتاب والسنة، محمد سيد طنطاوي ص: ٤٩.

ذكر بني اسرائيل في القرآن

ورد ذكر (بني إسرائيل) في القرآن الكريم (٤١) مرة، في (١٦) سورة.

وأما قصة (بنو إسرائيل) فذكرت في السور الآتية:

السورة	الآيات
البقرة	٤٠-٤٧-٤٣-٨٣-٦١-٨٦- ٢٤٦-٢٤٨-
الأعراف	١٣٨-١٤١
الإسراء	٤-٨-١٠١-١٠٣
طه	٨٠-٨٢-٨٦-٩٧
الصف	٦-١٤

من نعم الله على بني اسرائيل

أنعم الله تعالى على بني إسرائيل بنعم عظيمة، حيث فضلهم على العالمين، وأنزل عليهم التوراة لهدايتهم، ومكن لهم في الأرض، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: التفضيل على عالمي زمانهم:

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى فضل بني إسرائيل على العالمين، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾ [البقرة:٤٧].

والتفضيل إنما أتاهم لتمسكهم بالفضائل وتركهم للرذائل، إذ من يرى نفسه مفضلا شريفا يترفع عن الدنايا، وذكرهم بهذا الفضل لينبههم إلى أن الذي فضلهم على غيرهم له أن يفضل غيرهم كمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته، وإلى أنهم أجدر من جميع الشعوب بالتأمل فيما أوتيه النبي صلى الله عليه وسلم من الآيات، فإن المفضل أولى بالسبق إلى الفضائل ممن فضل عليه، وهذا الفضل إن كان بكثرة الأنبياء فلا مزاحم لهم فيه، ولا تقتضي هذه الفضيلة أن يكون كل فرد منهم أفضل من كل فرد من غيرهم، ولا تمنع أن يفضلهم أخس الشعوب إذا انحرفوا عن جادة الحق وتركوا سنة أنبيائهم واهتدى بهديها غيرهم، وإن كان بالقرب من الله باتباع شرائعه، فذلك إنما يتحقق في أولئك الأنبياء والمهتدين من أهل زمانهم، ومن تبعهم بإحسان ما داموا على الاستقامة وسلكوا الطريق الذي استحقوا به التفضيل[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وتفضيل بني إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم، فأما بعد ما عتوا عن أمر ربهم، وعصوا أنبياءهم، وجحدوا نعمة الله عليهم، وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم، فقد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلة والمسكنة، وقضى عليهم بالتشريد وحق عليهم الوعيد، وتذكيرهم بتفضيلهم على العالمين، هو تذكير لهم بما كان لهم من فضل الله وعهده وإطماع لهم ليتهزوا الفرصة المتاحة على يدي الدعوة الإسلامية، فيعودوا إلى موكب الإيمان، وإلى عهد الله شكرًا على تفضيله لآبائهم، ورغبة في العودة إلى مقام التكريم الذي يناله المؤمنون[(٢)].

قال سيد قطب: «ومعنى هذا التفضيل أن الله قد جمع لهم من المحامد التي تتصف بها القبائل والأمم ما لم يجمعه لغيرهم، وهي شرف النسب، وكمال الخلق، وسلامة العقيدة، وسعة الشريعة، والحرية

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٢٥٢، تفسير المراغي ١ / ١٠٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٤٨٢.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٤٨٤.

والشجاعة، وعناية الله تعالى بهم في سائر أحوالهم، وقد أشارت إلى هذا آية: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة:٢٠].

وهذه الأوصاف ثبتت لأسلافهم في وقت اجتماعها، وقد شاع أن الفضائل تعود على الخلف بحسن السمعة وإن كان المخاطبون يومئذ لم يكونوا بحال التفضيل على العالمين، ولكنهم ذكروا بما كانوا عليه فإن فضائل الأمم لا يلاحظ فيها الأفراد ولا العصور»[(١)].

وقال محمد رشيد: «ثم طلب منهم أن يذكروا نعمته، وتفضيله إياهم على الناس، إحياء لشعور الكرامة في نفوسهم، ووصله بالأمر باتقاء يوم الدين والجزاء، وهذا أسلوب حكيم في الوعظ، فينبغي لكل واعظ أن يبدأ وعظه بإحياء إحساس الشرف وشعور الكرامة في نفوس الموعوظين لتستعد بذلك لقبول الموعظة، وتجد من ذلك الإحساس معونة من العزيمة الصادقة التي هي من خصائص النفوس الكريمة على عوامل الهوى والشهوة، فإن النفس إذا استشعرت كرامتها وعلوها إلى ما في الرذائل من الخسة أبى لها ذلك الشعور - شعور العلو والرفعة - أن تنحط إلى تعاطي تلك الخسائس، وكان ذلك من أقوى الوسائل لمساعدة الواعظ على بلوغ قصده من نفس من يوجه إليه وعظه، ثم إن في الوعظ ما يؤلم نفس الموعوظ، وحرجا يكاد يحملها على النفرة من تلقينه، والاستنكاف من سماعه، فذكر الواعظ لما يشعر بكرامة المخاطب ورفعة شأنه، وإباء ما ينمي إليه من الشرف أن يدوم على مثل ما يقترف يقبل بالنفس على القبول، كما يقبل الجريح على من يضمد جراحه ويسكن آلامه»[(٢)].

ثانيًا: إيتاء موسى التوراة لهداية بني إسرائيل:

ذكر القرآن الكريم أن من نعم الله تعالى على بني إسرائيل إعطاء موسى عليه السلام التوراة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [البقرة:٥٣].

هذا تذكير بنعمة نزول الشريعة التي بها صلاح أمورهم وانتظام حياتهم وتأليف جماعتهم، مع الإشارة إلى تمام النعمة، وهم يعدونها شعار مجدهم وشرفهم لسعة الشريعة المنزلة لهم حتى كانت كتابا فكانوا به أهل كتاب أي أهل علم تشريع، والكتاب والفرقان: اسمان لشيء واحدٍ لكن يقالان

(١) في ظلال القرآن ١ / ٦٩.

(٢) تفسير المنار ١ / ٢٥١.

باعتبارين مختلفين، أما الكتاب، فلجمع الأحكام المتفرقة فيه، وأما الفرقان: فلكونه مفرقًا بين الحق والشبهة وبين الأحكام المختلفة، وأتى باللفظين تنبيهًا على تضمين التوراة للمعنيين[(١)].

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، أي: ليعدكم بهذا العفو للاستمرار على الشكر ويعدكم بهذه الأحكام والشرائع للاهتداء ويهيئكم للاسترشاد، فلا تقعوا في وثنية أخرى، وإن من كمال الاستعداد للهداية بفهم الكتاب أن يعرفوا أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو هدى ونور يرجعهم إلى الأصل الذي تفرقوا عنه واختلفوا فيه، وكذلك اهتدى به منهم المستبصرون، وجاحده الرؤساء المستكبرون، والمقلدون الذين لا يعقلون، وهذا هو محل المنة؛ لأن إتيان الشريعة لو لم يكن لاهتدائهم وكان قاصرا على عمل موسى به لم يكن فيه نعمة عليهم[(٢)].

ثالثًا: التمكين في الأرض:

ذكر القرآن الكريم أن من نعم الله تعالى على بني إسرائيل التمكين في الأرض، قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ۝١٣٧﴾ [الأعراف:١٣٧].

بينت الآية نعمة الله العظيمة على بني إسرائيل، ولطفه بهم حيث رفعوا من حضيض المذلة إلى أوج العزة والكرامة، فتأسست لهم دولة عظيمة في بلاد الشام، وصاروا يتصرفون في أرض مصر كما شاءوا، ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾، أي: وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون في مصر بالاستعباد وقتل الأبناء واستحياء النساء وأخذ الجزية واستعمالهم في الأعمال الشاقة، والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار الاستضعاف وتجدده، وذكروا بهذا العنوان إظهارا لكمال اللطف بهم وعظم الإحسان إليهم حيث رفعوا من حضيض المذلة إلى أوج العزة، ولعل فيه إشارة إلى أن الله سبحانه عند القلوب المنكسرة[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾، قيل: أرض مصر، وقيل: أرض الشام، ومشارقها من حدود الشام، ومغاربها من حدود مصر، وقيل: جهاتها بما

(١) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١ / ١٩١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٠١.
(٢) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد ١ / ٢٦٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٠٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣ / ٧٦، مفاتيح الغيب، الرازي ١٤ / ٣٤٨، تفسير المراغي ٩ / ٤٨، روح المعاني، الألوسي ٥ / ٣٦.

فيها بيت المقدس ومصر والشام، وهذا أولى من الاقتصار على أرض مصر التي كانوا فيها عبيدا هم ونساؤهم، وهذه الأرض هي: ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾، بكثرة الثمار والزروع والأشجار والخصب وسعة الرزق وكونها مساكن الأنبياء والصالحين ومرقدهم، ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾، بسبب صبرهم، وحسبك به حاثًا على الصبر[1].

وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾، أي: ونفذت كلمة الله ومضت على بني إسرائيل تامة كاملة، بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه، وقد كان وعد الله تعالى إياهم مقرونا بأمرهم بالصبر والاستقامة، كما أمرهم نبيهم عليه السلام مبلغا عن ربه، ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف:١٢٨].

ومن قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر ضمن الله له الفرج، وقد تم وعد الله تعالى لهم بذلك، ثم سلبهم تلك الأرض بظلمهم لأنفسهم وللناس ولم يكن من مقتضى الوعد أن يعودوا إليها مرة أخرى[2].

وقوله تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾، أي: وخربنا ما كان يصنع فرعون وقومه من المباني والقصور التي كانوا يبنونها للمصريين، والمكايد السحرية والصناعية التي كان يصنعها السحرة لإبطال آياته والتشكيك فيها، وما كانوا يعرشون من الجنات والبساتين[3].

وقد جاء في آية أخرى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥﴾ [القصص:٥].

أي: ونريد أن نتفضل بإحساننا على من استضعفهم فرعون وأذلهم، وننجيهم من بأسه، ونريهم في أنفسهم وفي أعدائهم فوق ما يحبون، وأكثر مما يؤملون، ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾، مقتدى بهم في الدين والدنيا، ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾، لملك الشام لا ينازعهم فيه منازع[4].

---

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢ / ٢٥٤، الكشاف، الزمخشري ٢ / ١٤٩، بيان المعاني، عبد القادر ملا ١ / ٤١٠.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١ / ٥٩٩، تفسير المنار، محمد رشيد ٩ / ٨٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩ / ٧٦.

(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥ / ١٥٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩ / ٧٦.

(٤) انظر: تفسير المراغي ٢٠ / ٣٤.

صفات بني إسرائيل

تظهر صفات بني إسرائيل من خلال النقاط الآتية:

أولًا: التبديل والتحريف:

ذكر القرآن الكريم أن من صفات بني إسرائيل الاستهزاء ومخالفة الأوامر وتبديلها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة:٥٨-٥٩].

بينت الآية أن من صفات بني إسرائيل القبيحة تبديل آيات الله وتحريفها وفق رغباتهم وأهوائهم، فخاطب الله تعالى بهذه الآيات يهود بني إسرائيل الذين كانوا في المدينة بين ظهراني مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم لن يعدوا أن يكونوا في تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم وجحودهم نبوته كآبائهم وأسلافهم، الذين كذبوا الرسل السابقين وتمردوا عليهم واستهزؤا بهم، واستعمال ضمير المخاطب في توجيه الكلام حتى ليكاد يكون للسامعين، مع أنه في صدد اليهود القدماء، وذلك لبيان وتوكيد شدة اللحمة في الأخلاق والجبلة والمواقف بين القديمين والحاضرين، وهو بصدد التنديد بأفعال الأبناء المكروهة إذا كانت على وتيرة أفعال الآباء، وفي ذلك توكيد بأن اليهود السامعين هم أنسال بني إسرائيل القدماء كما هو المتبادر، وتحذيرهم أن يفعلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فعل أباءهم مع أنبيائهم[1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾، أي: وإذ أمرنا بني إسرائيل على لسان موسى عليه السلام فبلغه للقوم، والقرية: البلدة المشتملة على المساكن المبنية من حجارة وهي مشتقة من القري، وهو الجمع، يقال: قرى الشيء يقريه إذا جمعه، وهي تطلق على البلدة الصغيرة وعلى المدينة الكبيرة ذات الأسوار والأبواب، وهذه القرية: هي الأرض المقدسة، قال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة:٢١].

وهو أصح الأقوال، وقيل: هي حبرون، وقيل: هي أريحا، لتكون مركزًا أولًا لهم، والأمر بالدخول أمر بما يتوقف الدخول عليه وهو القتال كما دل عليه قوله: ﴿وَلَا

(١) انظر: التفسير الوسيط، محمد طنطاوي ١ / ١٣٥، التفسير الحديث، دروزة محمد عزت ٦ / ١٧٠.

﴿تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ﴾، فإن الارتداد على الأدبار من الألفاظ المتعارفة في الحروب.

قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥﴾ [الأنفال: ١٥][1].

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ أي: فكلوا من هذه القرية حيث شئتم عيشا هنيا واسعا بغير حساب، وفيه دلالة على أن المأمور به الدخول على وجه الاقامة والسكنى، ﴿وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾، أي: باب القرية، وقيل: هو باب الحطة من بيت المقدس.

وقوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، والمراد بالحطة: الدعاء بأن تحط عنهم خطايا التقصير وكفر[2].

وقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾، أي: فلما دخلوا الباب خالفوا أمر الله، وقالوا بخلاف ما قيل لهم، وتبديل القول تبديل جميع ما قاله الله لهم، وفائدة إظهار لفظ القول دون أن يقال فبدلوه، لدفع توهم أنهم بدلوا لفظ حطة خاصة وامتثلوا ما عدا ذلك لأنه لو كان كذلك لكان الأمر هينا، وقيل: قالوا: مكان حطة حنطة، وقيل قالوا: بالنبطية حطا سمقاثا، أي: حنطة حمراء، استهزاء وتبديلًا منهم بما قيل لهم، وعدولًا عن طلب ما عند الله إلى طلب ما يشتهون من أعراض الدنيا، وكان هذا رغبة في المخالفة وإصرارًا على العناد، ما يكشف عما في طبيعة القوم من عناد، وإنه عناد الأطفال، يأبون إلا ركوب رءوسهم، والاتجاه إلى غير ما يوجهون إليه، ولو كان في ذلك تلفهم وهلاكهم، وقد بينت السنة هذا التبديل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (قيل لبني إسرائيل: ﴿وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، فدخلوا يزحفون على أستاهم فبدلوا وقالوا: حطة حبة في شعرة)[3][4].

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا﴾، أي: عذابًا، وفي تكرير الذين ظلموا زيادة في تقبيح أمرهم وإيذان بإنزال الرجز عليهم لظلمهم، وإنما جاء بالظاهر

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١ / ١٤٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١ / ٢٧٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥١٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢ / ١٠٣، روح البيان، إسماعيل حقي ١ / ١٤٣، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١ / ٢٦٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥١٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، رقم ٣٤٠٣ ، ٤/ ١٥٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، رقم ٣٠١٥، ٤/ ٢٣١٢.

(٤) انظر: تفسير السمرقندي ١ / ٥٦، مدارك التنزيل، النسفي ١ / ٩٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥١٦، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١ / ٨٨.

في موضع المضمر، فقال: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾، ولم يقل: عليهم؛ لئلا يتوهم أن الرجز عم جميع بني إسرائيل، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، وإنما جعل من السماء لأنه لم يكن له سبب أرضي من عدوى أو نحوها، فعلم أنه رمتهم به الملائكة من السماء بأن ألقيت عناصره وجراثيمه عليهم فأصيبوا به دون غيرهم، ولأجل هذا خص التبديل بفريق معروف عندهم، فعبر عنه بطريق الموصولية لعلم المخاطبين به وبتلك الصلة، فدل على أن التبديل ليس من فعل جميع القوم أو معظمهم؛ لأن الآية تذكير لليهود بما هو معلوم لهم من حوادثهم، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾، بسبب فسقهم[(١)].

[انظر: اليهود: تحريفات اليهود]

ثانيًا: التعنت:

من صفات بني إسرائيل الذميمة التي ذكرها القرآن الكريم التعنت.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة:٦٧-٧٣].

بينت هذه الآيات قصة بني إسرائيل في تلقيهم لأوامر الله تعالى، وعدم التوقير لأنبيائهم، والتعنت في الأسئلة، وسوء الفهم في مقاصد الشريعة، وذلك أنه وجد قتيل فيهم، وكانوا يطالبون بدمه، فأمرهم الله تعالى بذبح بقرة، وأن يضربوه ببعضها ليحيى ويخبر بقاتله، فأخبرهم موسى عليه السلام بذلك.

وإنما أمر -والله أعلم- بذبح البقرة دون غيرها؛ لأنها من جنس ما عبدوه من العجل، ليهون عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه، وليعلم بإجابتهم زوال ما كان في نفوسهم من عبادته، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾.

وقدم هنا قول موسى عليه السلام؛ لأن خطاب موسى عليه السلام لهم قد نشأ

---

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١ / ٥٦، مدارك التنزيل، النسفي ١ / ٩٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥١٦.

عنه ضرب من مذامهم في تلقي التشريع، وهو الاستخفاف بالأمر حين ظنوه هزؤا، والإعنات في المسألة، فأريد من تقديم جزء القصة تعدد تقريعهم، ﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، أي: سخرية يهزأ بنا، وهذا القول من سفههم وخفة أحلامهم وجهلهم بعظمة الله تعالى وما يجب أن يقابل به أمره من الاحترام والامتثال، وإن لم تظهر حكمته[1].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، لأن الهزو في أثناء تبليغ أمر الله سبحانه جهل وسفه نفى عنه عليه السلام ما توهموه من قبله على أبلغ وجه وآكده، بإخراجه مخرج ما لا مكروه وراءه بالاستعاذة منه، استفظاعا له، واستعظاما لما أقدموا عليه من العظيمة التي شافهوه بها، والعوذ: اللجوء من متخوف لكاف يكفيه، والجهل: التقدم في الأمور بغير علم، وكان في هذا التوجيه كفاية ليثوبوا إلى أنفسهم، ويرجعوا إلى ربهم، وينفذوا أمر نبيهم[2].

ولما علم القوم أن ذبح البقرة عزم من الله عز وجل سألوه الوصف، ولو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم، وقالوا لموسى تماديًا في تعنتهم: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾، أي: ما حالها وصفتها، وكان حقهم أن يقولوا: أي بقرة هي؟ أو كيف هي؟ لأن ما يسأل به عن الجنس غالبًا.

لكنهم لما رأوا ما أمروا به على حال لم يوجد بها شيء من جنسه، أجروه مجرى ما لم يعرفوا حقيقته ولم يروا مثله.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾، أي: لا كبيرة ولا صغيرة، والفارض: المسنة التي لا تلد، يقال: منه فرضت تفرض فروضا، والبكر: الفتية الصغيرة التي لم تلد قط، وحذفت الهاء منهما للاختصاص بالإناث كالحائض.

﴿عَوَانٌۢ﴾، وسط نصف بين ذلك، أي: بين السنين، يقال: عونت المرأة تعوينا إذا زادت على الثلاثين، وقيل: العوان التي لم تلد قط، وقيل: العوان التي نتجت مرارًا.

وجاء في جوابهم بهذا الإطناب دون أن يقول من أول الجواب إنها عوان تعريضا بغباوتهم واحتياجهم إلى تكثير التوصيف حتى لا يترك لهم مجالًا لإعادة السؤال، وزجرهم عن التعنت والتمادي والمراجعة، بقوله: ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾، أي: كفاكم مجادلة ونفذوا أمر الله واذبحوا البقرة، ولكنهم لم يسكنوا أنهم يريدون أن

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١ / ١٣٧، محاسن التأويل، القاسمي ١ / ٣٢٥، تفسير المنار، محمد رشيد ١ / ٢٨٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٤٦.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١ / ١٣٧، محاسن التأويل، القاسمي ١ / ٣٢٥، في ظلال القرآن، سيد قطب ١ / ٧٨.

يحاوروا، ولذلك غيروا صيغة السؤال[(١)].

ومما يبين تعنت بني إسرائيل وسوء أدبهم مع نبيهم موسى عليه السلام، وهم يسألون: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾، وإضافة الرب إلى موسى عليه السلام، ولم يقولوا أدع لنا ربنا، فكأنه رب موسى عليه السلام، والسؤال بهذه الصيغة يشي بأنهم ما يزالون في شكهم أن يكون موسى هازئًا فيما أنهى إليهم! فهم أولًا: يقولون: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، فكأنما هو ربه وحده لا ربهم كذلك! وكأن المسألة لا تعنيهم هم إنما تعني موسى وربه![(٢)].

ثم تمادوا في تعنتهم وتماديهم بما يوحي أنه صفة من صفاتهم القبيحة وخلق من أخلاقهم المتجذرة في نفوسهم، ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾، أي: صاف لونها، ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾، أي: تعجب الناظرين، وكان يجب أن يكتفوا بهذه المميزات ولكنهم زادوا تنطعا إذ قالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ أي: لم يذللها العمل، ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾، أي: وليست بذلول تثير الأرض، ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾، يقول: ولا تعمل في الحرث، ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾، أي: مسلمة من العيوب، ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾، لا بياض فيها[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾، اعتذار عن إعادة السؤال، وإنما لم يعتذروا في المرتين الأوليين واعتذروا الآن؛ لأن للثالثة في التكرير وقعا في النفس في التأكيد والسآمة وغير ذلك، وقولهم: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾، تنشيط لموسى عليه السلام، ووعد له بالامتثال لينشط إلى دعاء ربه بالبيان، ولتندفع عنه سآمة مراجعتهم التي ظهرت بوارقها في قوله: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾، ولإظهار حسن المقصد من كثرة السؤال وأن ليس قصدهم الإعنات، تفاديا من غضب موسى عليهم، والتعليق بـ ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾، للتأدب مع الله في رد الأمر إليه في طلب حصول الخير[(٤)].

ولما استوفى جميع المميزات والمشخصات ولم يروا سبيلا إلى سؤال آخر، ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾، أي: وما قاربوا أن

---

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١ / ١٥٤، الكشاف، الزمخشري ١ / ١٤٨، أنوار التنزيل، البيضاوي ١ / ٨٦، معالم التنزيل، البغوي ١ / ١٢٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٥١، تفسير الشعراوي ١ / ٣٩٣.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١ / ٧٨.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١ / ١٢٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١ / ٢٩٥، تفسير المنار، محمد رشيد ١ / ٢٨٩.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٥٤.

يذبحوها إلا بعد أن انتهت أسئلتهم، وانقطع ما كان من تنطعهم وتعنتهم[1].

قال أبو زهرة: «إن الله تعالى يختبرهم في إيمانهم بأن يذبحوا بقرة، ولكنهم تأثرًا بالمصريين وما كانوا عليه من عبادة العجل، يترددون في ذبح البقرة، فيجادلون في ذبحها متجاهلين أمرها، ولو أتوا إلى أي بقرة فذبحوها لكان في ذلك الاستجابة الكاملة، ولكنهم يثيرون الريب حول الطلب، سألوا عن حقيقتها، وعن كونها صغيرة أو كبيرة، فأجيبوا، ثم سألوا عن لونها فأجيبوا، ثم سألوا عن كونها متخذة معلوفة للنماء والتوالد، أم هي ذلول عاملة، فذبحوها وما كادوا يفعلون تقليدًا للمصريين وتأثرًا بأفكارهم، وأوهامهم في دينهم»[2].

ثالثًا: التحايل على الأحكام:

ذكر القرآن الكريم تحايل بني إسرائيل على الأحكام.

قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف:١٦٣-١٦٥].

يقول الله تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾.

والسؤال فيه للتقرير المتضمن للتقريع، والإدلال بعلم ماضيهم، والمعنى: واسأل بني إسرائيل عن أهل القرية التي كانت حاضرة البحر، أي قريبة منه، راكبة لشاطئه.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾، أي: اسأل عن حالهم في الوقت الذي كانوا يعتدون في السبت، ويتجاوزون حكم الله بالصيد المحرم عليهم فيه[3].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾، أضيفت الحيتان إليهم لما كان من ابتلائهم بها، واحتيالهم على صيدها، وكانت تأتيهم يوم سبتهم، أي: تعظيمهم للسبت، فهو مصدر سبتت اليهود تسبت إذا عظمت السبت بترك العمل فيه وتخصيصه للعبادة.

﴿شُرَّعًا﴾، أي: ظاهرة من كل مكان، وهي جمع شارع، من شرع عليه إذا دنا وأشرف، وكانت الحيتان تأتي ظاهرة،

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد ١ / ٢٨٩.
(٢) المعجزة الكبرى القرآن ص: ١٣٧.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣ / ١٨٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣ / ٤٩٣، تفسير المنار، محمد رشيد ٩ / ٣١٧.

فكانوا يحتالون بحبسها في يوم السبت، ثم يأخذونها في يوم الأحد، ويقال: إنهم جاهروا بأخذها في يوم السبت.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾، أي: ولا تأتيهم يوم لا يعظمون السبت فعلا وتركا، قيل: إنها اعتادت ألا يتعرض أحد لصيدها يوم السبت، فأمنت وصارت تظهر فيه، وتختفي في الأيام التي لا يسبتون فيها لما اعتادت من اصطيادها فيها، فلما رأوا ظهورها وكثرتها في يوم السبت أغراهم ذلك بالاحتيال على صيدها ففعلوا[1].

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، أي: نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائه عنهم في اليوم المحلل لهم صيده.

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، أي: مثل هذا البلاء بظهور السمك لهم نبلوهم، أي نختبرهم أو نعاملهم معاملة المختبر لحال من يريد إظهار كنه حاله ليترتب الجزاء على عمله بسبب فسقهم المستمر عن أمر ربهم، واعتدائهم حدود شرعه، وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله، بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام[2].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور، واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك وأنكرت واعتزلتهم، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه.

ولكنها قالت للمنكرة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؟

أي: لم تنهون هؤلاء، وقد علمتم أنهم هلكوا واستحقوا العقوبة من الله؟ فلا فائدة في نهيكم إياهم.

قالت لهم المنكرة: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، قرأ بعضهم بالرفع، كأنه على تقديره: هذا معذرة وقرأ آخرون بالنصب، أي: نفعل ذلك ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾.

أي: نعظهم وعظ عذر نعتذر به إلى ربكم عن السكوت على المنكر، وقد أمرنا بالتناهي عنه، ورجاء في انتفاعهم بالموعظة، وحملها على اتقاء الاعتداء الذي اقترفوه.

أي: فنحن لم نيأس من رجوعهم إلى الحق يأسكم، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم[3].

(1) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد ٩ / ٣١٧.
(2) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣ / ٤٩٣.
(3) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣ / ٤٩٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢ / ٤٦٨، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣ / ٣٩، تفسير المنار، محمد رشيد ٩ / ٣١٧.

قال ابن عاشور: «إن صلحاء القوم كانوا فريقين، فريق منهم أيس من نجاح الموعظة وتحقق حلول الوعيد بالقوم، لتوغلهم في المعاصي، وفريق لم ينقطع رجاؤهم من حصول أثر الموعظة بزيادة التكرار.

فأنكر الفريق الأول على الفريق الثاني استمرارهم على كلفة الموعظة، واعتذر الفريق الثاني بقولهم: ﴿مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾.

فالفريق الأول: أخذوا بالطرف الراجح الموجب للظن.

والفريق الثاني: أخذوا بالطرف المرجوح جمعًا بينه وبين الراجح لقصد الاحتياط، ليكون لهم عُذرًا عند الله إن سألهم: لماذا أقلعتم عن الموعظة؟ ولما عسى أن يحصل من تقوى الموعوظين بزيادة الموعظة، فاستعمال حرف الرجاء في موقعه؛ لأن الرجاء يقال على جنسه بالتشكيك، فمنه قويٌّ، ومنه ضعيف»[1].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾، أي: فلما نسي العادون المذنبون، ما ذكرهم ووعظهم به إخوانهم المتقون، بأن تركوه وأعرضوا عنه حتى صار كالمنسي في كونه لا تأثير له.

﴿أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾، أي: عن العمل الذي تسوء عاقبته أي: أنجيناهم من العقاب الذي استحقه فاعلو السوء بظلمهم، ﴿وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، وحدهم، ﴿بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾، أي: شديد، من الباس وهو الشدة، أو البؤس، وهو المكروه أو الفقر، ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾، أي: بسبب فسقهم المستمر لا بظلمهم في الاعتداء في السبت فقط[2].

رابعًا: الحرص على الحياة:

ذكر القرآن الكريم أن بني إسرائيل أحرص الناس على حياة.

قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [البقرة:٩٦].

بينت الآية أن بني إسرائيل أحرص الخلق على حياة وأشدهم كراهة للموت، لما يعلمون من مآلهم السيء وعاقبتهم عند الله الخاسرة؛ لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر[3]، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم، وما يحذرون واقع بهم لا محالة، ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ﴾، أي: أنك تجدهم في حال دعائهم إلى تمني الموت أحرص الناس على حياة، وعطف هذه الآية على قوله تعالى:

---

(١) التحرير والتنوير ٩ / ١٥٢

(٢) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد ٩ / ٣١٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، رقم ٢٩٥٦ ٤ / ٢٢٧٢.

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝٩٥﴾ [البقرة:٩٥].

للإشارة إلى أن عدم تمنيهم الموت ليس على الوجه المعتاد عند البشر من كراهة الموت ما دام المرء بعافية، بل هم تجاوزوا ذلك إلى كونهم أحرص من سائر البشر على الحياة، ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي: حتى إنهم أحرص من جميع الناس حتى من الذين أشركوا، الذين لا يرجون بعثا ولا نشورا ولا نعيما فنعيمهم عندهم هو نعيم الدنيا، وفي هذا توبيخ وإيلام عظيم لهم، إذ أن المشركين لا يؤمنون ببعث ولا يعرفون إلا هذه الحياة، فحرصهم عليها ليس بالغريب، أما من يؤمن بكتاب ويقر بالجزاء فالأولى ألا يكون شديد الحرص عليها[1].

وقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي: يتمنى كل منهم أن يبقى على قيد الحياة ألف سنة أو أكثر، مع ما يعتري صاحب هذا العمر من سوء الحالة ورذالة العيش، لأنه يتوقع سخط الله وعقابه، فيرى أن الدنيا على ما فيها من الآلام والأكدار خير له مما يستيقن وقوعه في الآخرة، والعرب تضرب الألف مثلا للمبالغة في الكثرة، ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾، أي: وما بقاؤه فيها بمنجيه ولا بمبعده من العذاب المعد له، فإن العمر مهما طال فهو منته لا محالة، ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: والله عليم بخفيات أعمالهم، وبجميع ما يصدر منهم وهو مجازيهم به، فطول العمر لا يخرجهم من قبضته، ولا ينجيهم من عقابه، فالمرجع إليه، والأمر كله بيديه[2].

قال الشنقيطي: «فاعلم أن الله قد أوضح هذا المعنى مبينا أن الإنسان لو متع ما متع من السنين، ثم انقضى ذلك المتاع وجاءه العذاب أن ذلك المتاع الفائت لا ينفعه، ولا يغني عنه شيئا بعد انقضائه وحلول العذاب محله، وذلك في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧].

وهذه هي أعظم آية في إزالة الداء العضال الذي هو طول الأمل، كفانا الله والمؤمنين شره»[3].

وقال سيد قطب عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ [البقرة:٩٦]: «أية حياة، لا يهم أن تكون حياة كريمة ولا حياة مميزة على الإطلاق!

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣ / ٦٠٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١ / ٣٣٤، تفسير المراغي ١ / ١٧٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٦١٧.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١ / ١٧٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١ / ٣٣٤، تفسير المراغي ١ / ١٧٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٦١٧.

(٣) أضواء البيان ١ / ٤١.

حياة فقط! حياة بهذا التنكير والتحقير! حياة ديدان أو حشرات! حياة والسلام! إنها يهود، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء، وما ترفع رأسها إلا حين تغيب المطرقة، فإذا وجدت المطرقة نكست الرؤوس، وعنت الجباه جبنًا وحرصًا على الحياة.. أي حياة! ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٩٦].

يود أحدهم لو يعمر ألف سنة، ذلك أنهم لا يرجون لقاء الله، ولا يحسون أن لهم حياة غير هذه الحياة، وما أقصر الحياة الدنيا وما أضيقها حين تحس النفس الإنسانية أنها لا تتصل بحياة سواها، ولا تطمع في غير أنفاس وساعات على الأرض معدودة، إن الإيمان بالحياة الآخرة نعمة، نعمة يفيضها الإيمان على القلب، نعمة يهبها الله للفرد الفاني العاني، المحدود الأجل الواسع الأمل وما يغلق أحد على نفسه هذا المنفذ إلى الخلود، إلا وحقيقة الحياة في روحه ناقصة أو مطموسة، فالإيمان بالآخرة- فوق أنه إيمان بعدل الله المطلق، وجزائه الأوفى- هو ذاته دلالة على فيض النفس بالحيوية، وعلى امتلاء بالحياة لا يقف عند حدود الأرض إنما يتجاوزها إلى البقاء الطليق، الذي لا يعلم إلا الله مداه، وإلى المرتقى السامي الذي يتجه صعدًا إلى جوار الله»[1].

خامسًا: الإفساد في الأرض:

ذكر القرآن الكريم فساد بني إسرائيل في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧﴾ [الإسراء:٤-٧].

يخبر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه قضى إلى بني إسرائيل، أي: تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ويعلون علوًا كبيرًا، أي: يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس، ويعصون الله تعالى ويخالفون أوامره، وأنهم سيعلون في الأرض المقدسة ويسيطرون عليها، وكلما ارتفعوا زادوا في الإفساد في الأرض.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾، أي:

(١) في ظلال القرآن ١/ ٩٢.

أولي الإفسادتين، ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، أي: سلطنا عليكم جندا من خلقنا أولي بأس شديد، أي: قوة وعدة وسلطة شديدة، ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾، أي: تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أي: بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحدا، ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾، أي: مقضيا لا صارف له[(١)].

وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ﴾، أي: الدولة والغلبة بعد هذه العقوبة الشديدة، ﴿عَلَيْهِمْ﴾، على الذين بعثوا عليكم حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو، قيل: هي قتل بختنصر واستنقاذ بني إسرائيل أسراهم وأموالهم ورجوع الملك إليهم، وقيل: أعدنا لكم الدولة بملك طالوت وقتل داود جالوت.

﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾، مما كنتم وهو تمييز جمع نفر وهو من ينفر مع الرجل من قومه[(٢)].

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، أي: فعليها.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾، أي: المرة الآخرة، أي: إذا أفسدتم المرة الثانية وجاء أعداؤكم، ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾، أي: يهينوكم ويقهروكم، ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ أي بيت المقدس، ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: في التي جاسوا فيها خلال الديار، ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾، أي: يدمروا ويخربوا ما ظهروا عليه.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء:٨]، أي: فيصرفهم عنكم.

﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾، أي: متى عدتم إلى الإفساد الذي تقدم منكم، عدنا للعقوبة فعاقبناكم في الدنيا بمثل ما عاقبناكم به في المرتين الأوليين، مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء:٨]، أي: مستقرا وسجنا لا محيد لهم عنه[(٣)].

قال ابن كثير: «وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم: من هم؟

فعن ابن عباس وقتادة: أنه جالوت الجزري وجنوده، سلط عليهم أولًا ثم أديلوا عليه بعد ذلك، وقتل داود جالوت؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧ / ٣٥٦، مدارك التنزيل، النسفي ٢ / ٢٤٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥ / ٤٧.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣ / ٢٢٨، الكشف والبيان، الثعلبي ٦ / ٨٣، مدارك التنزيل، النسفي ٢ / ٢٤٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥ / ٤٨، روح المعاني، الألوسي ٨ / ٢١.

نَفِيرًا ﴿٦﴾ [الإسراء:٦].

وعن سعيد بن جبير: أنه ملك الموصل سنجاريب وجنوده، وعنه أيضا، وعن غيره: أنه بختنصر ملك بابل، ثم قال: وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها؛ لأن منها ما هو موضوع، من وضع بعض زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحا، ونحن في غنية عنها، ولله الحمد، وفيما قص الله تعالى علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم، وقد أخبر الله تعالى أنهم لما بغوا وطغوا سلط الله عليهم عدوهم، فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد؛ فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقا من الأنبياء والعلماء»[١].

والذي عليه أكثر المفسرين أن هاتين المرتين قد وقعتا بالفعل، وأن إحداهما كانت عند الأسر البابلي، على يد بختنصر، الذي استولى على دولة بني إسرائيل ودمرها تدميرا، وهدم بيت المقدس، وساق القوم أسرى إلى بابل، وأما المرة الثانية، فكانت بعد أن قتلوا النبي أرميا، وقيل بعد أن قتلوا النبي يحيا[٢].

ويرى بعض المفسرين المعاصرين أن المرة الأولى وقعت عند دخول المسلمين المسجد الأقصى في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد ظل في أيديهم إلى أن دخله بنو إسرائيل في هذه الأيام، من عام ألف وثلاثمائة وسبعة وثمانين للهجرة، واليوم المسجد الأقصى في يد بني إسرائيل ويعيثون فيه أنواع البغي والعدوان، والإفساد في الأرض، بنسف الدور، وبقتل الأطفال والنساء، بلا وازع من حياء أو ضمير، وبلا خوف من قوة رادعة في الأرض، أو في السماء! المرة الثانية إذن هي ما فيه إسرائيل الآن، من فساد في الأرض، وعلو واستكبار، فساد إلى أبعد مداه، وعلو واستكبار إلى غاية حدودهما[٣].

(١) تفسير القرآن العظيم ٥ / ٤٧.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٢ / ٣٠١، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٨ / ٤٤٥.
(٣) انظر: المصدر السابق ٨ / ٤٥١.

بنو إسرائيل مع موسى وفرعون

تظهر قصة بني إسرائيل مع موسى عليه السلام وفرعون من خلال النقاط الآتية:

أولًا: قصتهم مع فرعون:

١ . عذاب فرعون لهم.

ذكر القرآن الكريم تعذيب فرعون لبني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف:١٤١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص:٤].

بينت هاتان الآيتان الصورة القبيحة لفرعون، وهي أنه تجبر وطغى وجاوز الحد في الظلم، واستكبر وافتخر بنفسه ونسي العبودية، وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، معنى العلو هنا الكبر، وهو المذموم من العلو المعنوي، ومعناه: أن يستشعر نفسه عاليا على موضع غيره ليس يساويه أحد، فالعلو مستعار لمعنى التفوق على غيره، غير محقوق لحق من دين أو شريعة أو رعي حقوق المخلوقات معه، فإذا استشعر ذلك لم يعبأ في تصرفاته برعي صلاح وتجنب فساد وضر، وإنما يتبع ما تحدوه إليه شهوته وإرضاء هواه، وحسبك أن فرعون كان يجعل نفسه إلها وأنه ابن الشمس، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، في أرض مصر، وعلا أهلها وقهرهم، حتى أقروا له بالعبودية، وفي التعبير بالأرض تبكيت عليه، أي: علا في محل التذلل والانخفاض، وصورت عظمة فرعون في الدنيا، بقوله: ﴿عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، لتكون العبرة بهلاكه بعد ذلك العلو أكبر العبر[1].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، والشيع: جمع شيعة، والشيعة: الجماعة التي تشايع غيرها على ما يريد، أي تتابعه وتطيعه وتنصره على ما يريد، ولا يملك أحد منهم أن يلوي عنقه، أي: فرقًا مختلفة يكرم طائفة ويهين أخرى فأكرم القبطي وأهان الإسرائيلي وجعل كل طائفة تمتهن من هي تحتها، ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾، من أهل مصر هم بنو إسرائيل، وقد بالغ فرعون في استضعاف بني إسرائيل، فجعل بعضهم ينقل الحجارة من الجبل، وبعضهم يعملون له عمل النجارة، وبعضهم أعمال الطين، ومن كان لا يصلح لشيء من أعماله

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩ / ٥١٦، تفسير السمرقندي ٢ / ٥٩٧، الكشاف، الزمخشري ٣ / ٣٩١، مدارك التنزيل، النسفي ٢ / ٦٢٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠ / ٦٦.

يأخذ منه كل يوم ضريبة درهما، فإذا غربت الشمس، ولم يأت بالضريبة غلت عليه يده اليمنى إلى عنقه، ويأمره بأن يعمل بشماله هكذا شهرًا، وأشار بقوله: ﴿طَآئِفَةً﴾، إلى أنه استضعف بني إسرائيل كاملًا، فأفاد ذلك أن الاستضعاف ليس جاريا على أشخاص معينين لأسباب تقتضي استضعافهم ككونهم ساعين بالفساد، أو ليسوا أهلا للاعتداد بهم لانحطاط في أخلاقهم وأعمالهم، بل جرى استضعافه على اعتبار العنصرية والقبلية.

﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾، أي: يأمر بذبح الذكور، ويترك البنات أحياء للخدمة، وإسناد الذبح إليه مجاز عقلي، وقصده من ذلك أن لا تكون لبني إسرائيل قوة من رجال قبيلتهم، حتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة، وسبب ذبح الأبناء: أن كاهنا قال له: يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يده.

وفيه دليلٌ بَيِّنٌ على ثخانة حُمق فرعون، فإنه إن صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن، وإن كذب فما وجه القتل؟ ويستحيي النساء، أي يستبقي حياة الإناث من الأطفال، فأطلق عليهم اسم النساء باعتبار المآل إيماء إلى أنه يستحييهن ليصرن نساء فتصلحن لما تصلح له النساء، وهو أن يصرن بغايا إذ ليس لهن أزواج، وإذ كان احتقارهن بصد قومه عن التزوج بهن فلم يبق لهن حظ من رجال القوم إلا قضاء الشهوة، وباعتبار هذا المقصد انقلب الاستحياء مفسدة بمنزلة تذبيح الأبناء إذ كل ذلك اعتداء على الحق[1].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، أي: إن الفساد مستحكم متغلغل في أطواء نفسه، وقد بعثه على جعل الأمة متفرقة، وتحكيم طائفة من طائفة، فأغرى بينهم العداوة والبغضاء، يحس كل فريق منهم بأنه مظلوم، وظالمه هو الفريق الآخر، يتظالمون فيما بينهم ويتعادون؛ ليتمكن الظالم من ظلمهم والتحكم في رقابهم، وأن يقول لهم: أنا ربكم الأعلى، ولا ينكر أحد، ولو في قلبه؛ لأن كل فريق يتهم الآخر بأنه عين عليه، ويريد النكاية به، وقد أكد سبحانه وصف الإفساد فيهم بأن وبكان الدالة على أن الفساد كان في الماضي، ومستمر في الحاضر، ودال على شدة تمكن الإفساد من خلقه ولفعل الكون إفادة تمكن خبر الفعل من اسمه[2].

٢. نجاتهم منه.

ذكر القرآن الكريم نجاة بني إسرائيل من فرعون.

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩ / ٥١٦، تفسير السمرقندي ٢ / ٥٩٧، الكشاف، الزمخشري ٣ / ٣٩١، مدارك التنزيل، النسفي ٢ / ٦٢٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠ / ٦٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠ / ٦٨، المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ١٠٩.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الدخان: ٣٠-٣٣].

وقال سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٠-٨٢].

ذكر جل وعلا في هذه الآيات الكريمة امتنانه على بني إسرائيل في نجاتهم وهلاك عدوهم، فبعد تصوير الله تعالى طغيان فرعون، وأنه إذا وصل الطغيان إلى أقصى حده كانت النهاية؛ وإرادة الله سبحانه فوق كل إرادة، ولو كانت طغيان فرعون، ولا شك أن إزالة المضرة يجب أن تكون متقدمة على إيصال المنفعة، ولا شك أن إيصال المنفعة الدينية أعظم في كونه نعمة من إيصال المنفعة الدنيوية.

فلهذا بدأ الله تعالى بقوله: ﴿قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾، وهو إشارة إلى إزالة الضرر، فإن فرعون كان ينزل بهم من أنواع الظلم كثيرًا من القتل والإذلال والإخراج والإتعاب في الأعمال، ثم ثنى بذكر المنفعة الدينية وهي قوله: ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾.

ووجه المنفعة فيه أنه أنزل في ذلك الوقت عليهم كتابا فيه بيان دينهم وشرح شريعتهم، وتعدية واعدناكم إلى ضمير جماعة بني إسرائيل، وإن كانت مواعدة لموسى ومن معه الذين اختارهم من قومه، باعتبار أن المقصد من المواعدة وحي أصول الشريعة التي تصير صلاحا للأمة، فكانت المواعدة مع أولئك كالمواعدة مع جميع الأمة، ثم ثلث بذكر المنفعة الدنيوية، وهي قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

ثم زجرهم عن العصيان، بقوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾، ثم بين أن من عصى ثم تاب كان مقبولا عند الله، بقوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾، وهذا بيان المقصود من الآية[1].

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾، والمن: هو مادة حلوة تتجمع على أوراق الشجر، وقيل: هو الترنجين، وقيل: المن ما يمن الله به من غير تعب ولا نصب، والسلوى: طائر كالسماني، وذكر إنه كان يأتيهم من هذين ما فيه كفايتهم، والسلوى وهو طائر السماني يساق إليهم في الصحراء، قريب المتناول سهل التناول،

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢ / ٨٢، البحر المحيط، أبو حيان ٧ / ٣٦٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦ / ٢٧٤.

كان نعمة من الله ومظهرا لعنايته بهم في الصحراء الجرداء، وهو يتولاهم حتى في طعامهم اليومي فييسره لهم من أقرب الموارد[١].

قال الشنقيطي: «والأظهر عندي في المن: أنه اسم جامع لما يمن الله به على عبده من غير كد ولا تعب، فيدخل فيه الترنجبين الذي من الله به على بني إسرائيل في التيه، ويشمل غير ذلك مما يماثله، ويدل على هذا قوله: صلى الله عليه وسلم الثابت في الصحيحين: (الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين)[٢] والأظهر عندي في السلوى: أنه طائر، سواء قلنا إنه السمانى، أو طائر يشبهه، لإطباق جمهور العلماء من السلف، والخلف على ذلك. مع أن السلوى، يطلق لغة على العسل، كما بينا»[٣].

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾، أي: كلوا من هذا الرزق الذي رزقتكم، ولا تطغوا في رزقي، فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما آمركم به، ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾، يعني يجب عليكم غضبي، ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾، يعني هلك وسقط في النار، ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾، قال ابن عباس: تاب عن الشرك، ﴿وَءَامَنَ﴾، يعني وحد الله وصدق رسوله، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، يعني أدى الفرائض، ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾، قال ابن عباس: علم أن ذلك توفيق من الله تعالى، وقيل: لزم الإسلام حتى مات عليه، وقيل: علم أن لذلك ثوابا، وقيل: أقام على السنة[٤].

ثانيا: مواقف من قصتهم مع موسى عليه السلام:

من مواقف بني إسرائيل مع موسى عليه السلام ما يأتي:

١ . طلبهم اتخاذ الآلهة.

ذكر القرآن الكريم أن بني إسرائيل طلبوا من موسى اتخاذ آلهة.

قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف:١٣٨-١٤٠].

---

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١ / ١٣٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥ / ٣٠٨، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٣٤٥، أضواء البيان، الشنقيطي ٤ / ٧٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، بابٌ: وقوله تعالى: (وظللنا عليكم الغمام)، رقم ٤٤٧٨، ٦ / ١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب فضل الكمأة، ومداواة العين بها، رقم ٢٠٩٤، ٣ / ١٦١٩.

(٣) أضواء البيان ٤ / ٧٥

(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣ / ٢٠٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥ / ٣٠٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦ / ٢٧٤.

بَيَّنَتْ الآيات جهل بني إسرائيل وسفاهة عقولهم وأنهم قوم لا تؤثر فيهم الآيات والمواعظ والعبر، فيخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى عليه السلام، حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾، أي: إنهم تجاوزوه بعناية الله وتأييده، فكأنه معهم بذاته فجاوزه مصاحبا لهم.

﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾، فأتوا عقب تجاوزهم إياه ودخولهم في بلاد العرب من البحر الأسيوي، على قوم يعبدون أصناما لهم، والقوم هم الكنعانيون ويقال لهم عند العرب العمالقة.

والعكوف: الملازمة بنية العبادة.

واختير طريق التنكير في أصنام ووصفه بأنها لهم، - أي: القوم - دون طريق الإضافة ليتوسل بالتنكير إلى إرادة تحقير الأصنام وأنها مجهولة، لأن التنكير يستلزم خفاء المعرفة، وإنما وصفت الأصنام بأنها لهم ولم يقتصر على قوله: ﴿أَصْنَامٍ﴾، زيادة تشنيع بهم وتنبيه على جهلهم وغوايتهم في أنهم يعبدون ما هو ملك لهم فيجعلون مملوكهم إلاههم[1].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، حنينا منهم إلى ما ألفوا في مصر من عبادة المصريين وتماثيلها وأنصابها وقبورها، ونداؤهم موسى وهو معهم مستعمل في طلب الإصغاء لما يقولونه، إظهارا لرغبتهم فيما سيطلبون، وسموا الصنم إلاها لجهلهم، فهم يحسبون أن اتخاذ الصنم يجدي صاحبه، كما لو كان الإله معه.

وهذا يدل على أن بني إسرائيل قد انخلعوا في مدة إقامتهم بمصر عن عقيدة التوحيد وحنيفية إبراهيم ويعقوب التي وصى بها في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة:١٣٢]؛ لأنهم لما كانوا في حال ذل واستعباد ذهب علمهم وتاريخ مجدهم واندمجوا في ديانة الغالبين لهم، فلم تبق لهم ميزة تميزهم إلا أنهم خدم وعبيد.

والتشبيه في قوله: ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، أرادوا به حض موسى على إجابة سؤالهم، وابتهاجا بما رأوا من حال القوم الذين حلوا بين ظهرانيهم، وكفى بالأمة خسة عقول أن تعد القبيح حسنا، وأن تتخذ المظاهر المزينة قدوة لها، وأن تنخلع عن كمالها في اتباع نقائص غيرها[2].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾،

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد ٩ / ٩٣، تفسير المراغي ٩ / ٥١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩ / ٨٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩ / ٨١.

أي: تجهلون عظمة الله وقوة سلطانه ولا تقدرون نعمه، أتريدون أن تشركوا بالله وتكفروا نعمه بعد أن نجاكم.

وكان جواب موسى لهم بعنف وغلظة، لأن ذلك هو المناسب لحالهم، والجهل: انتفاء العلم، أو تصور الشيء على خلاف حقيقته، والمراد جهلهم بمفاسد عبادة الأصنام، وكان وصف موسى إياهم بالجهالة مؤكدا لما دلت عليه الجملة الاسمية من كون الجهالة صفة ثابتة فيهم وراسخة من نفوسهم، ولولا ذلك لكان لهم في بادئ النظر زاجر عن مثل هذا السؤال، فالخبر مستعمل في معنييه: الصريح والكناية، مكنى به عن التعجب من فداحة جهلهم.

وفي الإتيان بلفظ ﴿قَوۡمٞ﴾، وجعل ما هو مقصود بالإخبار وصفا لقوم، تنبيه على أن وصفهم بالجهالة كالمتحقق المعلوم الداخل في تقويم قوميتهم، وفي الحكم بالجهالة على القوم كلهم تأكيد للتعجب من حال جهالتهم وعمومها فيهم بحيث لا يوجد فيهم من يشذ عن هذا الوصف مع كثرتهم، ولأجل هذه الغرابة أكد الحكم (بإن)؛ لأن شأنه أن يتردد في ثبوته السامع[1].

وبعد أن بين لهم جهلهم وسفههم، بين لهم فساد ما طلبوه عسى أن تستعد عقولهم لفهمه واستبانة قبحه، فقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، أي: إن هؤلاء القوم الذين يعكفون على هذه الأصنام مقضى على ما هم فيه بالتبار بما سيظهر من التوحيد الحق في هذه الديار، وزائل ما كانوا يعملون من عبادة غير الله ذي الجلال، فإنما بقاء الباطل في ترك الحق له وبعده عنه.

وفي هذا بشارة منه عليه السلام بزوال الوثنية من تلك الأرض.

ثم انتقل إلى بيان أن العبادة لغير الله لا تصح، ﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: قال لهم موسى: أأطلب لكم معبودا غير الله رب العالمين وخالق السموات والأرض، وقد فضلكم على العالمين بما جدد فيكم من التوحيد وهداية الدين، فماذا تبغون من عبادة غيره معه أو من دونه؟

والاستفهام بقوله: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا﴾، للإنكار والتعجب من طلبهم أن يجعل لهم إلاها غير الله، وقد أولي المستفهم عنه الهمزة للدلالة على أن محل الإنكار هو اتخاذ غير الله إلاها، فتقديم المفعول الثاني للاختصاص، للمبالغة في الإنكار، أي: اختصاص الإنكار ببغي غير الله إلاها[2].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩ / ٨١، بيان المعاني، عبد القادر ملا ١ / ٤١٣.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٩ / ٥٣، التحرير

ثم بَيّنَ لهم إنكاره طلب آلهة غير الله بما يعرفون من فضل الله عليهم، بتفضيلهم على أهل زمانهم ممن كانوا أرقى منهم مدنية وحضارة وسعة ملك وسيادة على بعض الشعوب، وهم فرعون وقومه، بقوله: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، جملة في موضع الحال، وحين كان عاملها محل إنكار باعتبار معموله، كانت الحال أيضا داخلة في حيز الإنكار، ومقررة لجهته.

وظاهر صوغ الكلام على هذا الأسلوب أن تفضيلهم على العالمين كان معلوما عندهم لأن ذلك هو المناسب للإنكار، ويحتمل أنه أراد إعلامهم بذلك وأنه أمر محقق، ومجيء المسند فعليا: ليفيد تقديم المسند إليه عليه تخصيصه بذلك الخبر الفعلي، أي: وهو فضلكم، لم تفضلكم الأصنام، فكان الإنكار عليهم تحميقا لهم في أنهم مغمورون في نعمة الله ويطلبون عبادة ما لا ينعم.

والمراد بالعالمين: أمم عصرهم، وتفضيلهم عليهم بأنهم ذرية رسول وأنبياء، وبأن منهم رسلا وأنبياء، وبأن الله هداهم إلى التوحيد والخلاص من دين فرعون بعد أن تخبطوا فيه، وبأنه جعلهم أحرارًا بعد أن كانوا عبيدًا، وساقهم إلى امتلاك أرض مباركة وأيدهم بنصره وآياته، وبعث فيهم رسولا ليقيم لهم الشريعة، وهذه الفضائل لم تجتمع لأمة غيرهم يومئذ، ومن جملة العالمين هؤلاء القوم الذين أتوا عليهم، وذلك كناية عن إنكار طلبهم اتخاذ أصنام مثلهم، لأن شأن الفاضل أن لا يقلد المفضول، لأن اقتباس أحوال الغير يتضمن اعترافا بأنه أرجح رأيا وأحسن حالا، في تلك الناحية[1].

قال سيد قطب: عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف:١٣٨].

«إنها العدوى تصيب الأرواح كما تصيب الأجسام! ولكنها لا تصيبها حتى يكون لديها الاستعداد والتهيؤ والقابلية، وطبيعة بني إسرائيل - كما عرضها القرآن الكريم عرضًا صادقًا دقيقًا أمينًا في شتى المناسبات - طبيعة مخلخلة العزيمة، ضعيفة الروح، ما تكاد تهتدي حتى تضل، وما تكاد ترتفع حتى تنحط، وما تكاد تمضي في الطريق المستقيم حتى ترتكس وتنتكس.. ذلك إلى غلظ في الكبد، وتصلب عن الحق، وقساوة في الحس والشعور! وهاهم أولاء على طبيعتهم تلك، هاهم أولاء ما يكادون يمرون بقوم

والتنوير، ابن عاشور ٩ / ٨٣.

(١) انظر: تفسير المراغي ٩ / ٥٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩ / ٨٤.

يعكفون على أصنام لهم حتى ينسوا تعليم أكثر من عشرين عامًا منذ أن جاءهم موسى- عليه السلام- بالتوحيد- فقد ذكرت بعض الروايات أنه أمضى في مصر ثلاثة وعشرين عامًا منذ أن واجه فرعون وملأه برسالته إلى يوم الخروج من مصر مجتازًا ببني إسرائيل البحر- بل حتى ينسوا معجزة اللحظة التي أنقذتهم من فرعون وملئه وأهلكت هؤلاء أجمعين!»[1].

٢. عبادتهم للعجل.

ذكر القرآن الكريم عبادة بني إسرائيل العجل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [البقرة:٥١-٥٢].

وقال سبحانه: ﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة:٩٢-٩٣].

وقال جل وعلا: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأعراف:١٤٨-١٥٣].

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري، ونسب الاتخاذ إلى قوم موسى كلهم على طريقة المجاز العقلي، لأنهم الآمرون باتخاذه والحريصون عليه، وقد أضافهم الله إلى موسى هكذا: ﴿قَوْمُ مُوسَىٰ﴾، تذكيرًا لهم بتلك الآيات التي أجراها الله على يديه، تلك الآيات التي لم يكن لهم منها عبرة أو عظة.

(١) في ظلال القرآن ٣ / ١٣٦٦.

وفي هذا توبيخ لهم، واسترذال لعقولهم، وأنه ما كان لقوم ينتسبون إلى موسى الذي جاءهم بهذا الخير الكثير، وبتلك الآيات المشرقة، أن يفعلوا هذا الفعل المنكر الذي فعلوه.

﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾، من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم فشكل لهم منه عجلًا جسدًا لا روح فيه، وقد احتال بإدخال الريح فيه، حتى صار يسمع له خوار، أي صوت كصوت البقر، وإنما أضاف الصوت إليه، لأنه كان محله عند دخول الريح جوفه، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه:٨٥][1].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾، جملة استفهامية للتقرير وللتعجيب من حالهم، وقد سفه رأي الذين اتخذوا العجل إلاهًا، بأنهم يشاهدون أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا، ووجه الاستدلال بذلك على سفه رأيهم هو أنهم لا شبهة لهم في اتخاذه إلاهًا بأن خصائصه خصائص العجماوات، فجسمه جسم عجل، وهو من نوع ليس أرقى أنواع الموجودات المعروفة، وصوته صوت البقر، وهو صوت عمى الجهل والضلال.

وقوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: ندموا على ما فعلوا، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾، ولما اشتد ندمهم وازدادت حسرتهم على ما فرط منهم في جنب الله وعلموا أنهم قد ضلوا ضلالا بعيدا بعبادة العجل، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، أي: من الهالكين وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾، أي: حزينا على ما صنع قومه من بعده، ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾، أي: بئس خلافة خلفتمونيها حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله، أو حيث لم تكفوا من عبد غير الله، وقد كنت لقنتكم التوحيد، وكففتكم عن الشرك وبينت لكم فساده وسوء مغبته وحذرتكم صنيع القوم الذين كانوا يعكفون على أصنام لهم من تماثيل البقر، وقد كان من الحق عليكم أن تقتفوا أثرى، وتتبعوا سيرتى بيد أنكم سلكتم ضد ذلك، فصنعتم صنما كأحد أصنامهم فعبده بعضكم

(١) انظر: تفسير لقرآن العظيم، ابن كثير ٣ / ٤٢٧، محاسن التأويل، القاسمي ٥ / ١٨٤، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٥ / ٤٨٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩ / ١٠٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٢٧، تفسير المراغي ٩ / ٦٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩ / ١١٠.

ولم يردعكم عن ذلك باقيكم، ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾، أي: استعجلتم ميعاد ربكم، ويقال: أعصيتم أمر ربكم، ويقال: معناه أعجلتم بالفعل الذي استوجبتم به عقوبة ربكم، ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾، أي: وطرح الألواح من يديه وأخذ برأس أخيه يجره إليه بذؤابته ظنا منه أنه قد قصر في ردعهم وتأنيبهم وكفهم عن عبادة العجل كما فعل هو بتحريقه وإلقائه في اليم إن قدر، أو أن يتبعه إلى جبل الطور إن لم يستطع، كما حكى الله تعالى عنه: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾﴾ [طه:٩٢-٩٣].

أي: ما منعك أن تتبعني في الغضب لله وشدة الزجر عن الكفر والمعاصي؟ وهلا قاتلت من كفر بمن آمن؟ ومالك لم تباشر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهدًا؟[1].

ثم ذكر سبحانه جواب هارون لموسى فقال: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾، أي: يا ابن أمي لا تعجل بلومي وتعنيفي وتظنن تقصيري في جنب الله فإني لم آل جهدا في الإنكار على القوم والنصح لهم، لكنهم قد استضعفوني ولم يرعوا لنصحي ولم يمتثلوا لأمري بل أوشكوا أن يقتلوني.

﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، أي: فلا تفعل بي من اللوم والتقريع ما يجعل الأعداء يشمتون بي، ولا تجعلني في زمرة القوم الظالمين لأنفسهم، وهم الذين عبدوا العجل فتغضب مني كما غضبت منهم وتؤاخذني كما اخذتهم، فإني لست منهم في شيء، وفي هذا دليل على أن هرون كان دون موسى في شدة العزيمة وقوة الإرادة وأخذ الأمور بالحزم، وهذا ما أطبق عليه المسلمون وأهل الكتاب.

ثم أبان سبحانه أثر هذا الاستعطاف في قلب موسى عليه السلام، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، أي: قال رب اغفر لي ما فرط مني من قول وفعل فيهما غلظة وجفاء، واغفر له ما عساه يكون قد قصر فيه من مؤاخذة القوم على ما اجترموه من الآثام خوفا مما توقعه من الإيذاء الذي قد يصل إلى القتل.

﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾، التي وسعت كل شيء واغمرنا بجودك وفضلك فأنت أرحم بعبادك من كل رحم، والآية صريحة في براءة هرون من جريمة اتخاذ العجل وفي إنكاره على متخذيه[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨ / ٣٥٠، تفسير السمرقندي ١ / ٥٥٢، الكشاف، الزمخشري ٢ / ١٦٠، تفسير المراغي ٩ / ٧١.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٩ / ٧٢.

سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي: إن الذين بقوا على اتخاذ العجل واستمروا عليه كالسامري وأشياعه- سيصيبهم غضب من ربهم بألا يقبل توبتهم إلا إذا قتلوا أنفسهم، وذلة عظيمة في الحياة الدنيا بالخروج من الديار والغربة عن الوطن.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾، أي: ومثل هذا الجزاء في الدنيا نجزي المفترين على الله في كل زمان إذا فضحوا بظهور افترائهم كما فضح هؤلاء، قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على أكتافهم وإن هملجت بهم البغال وطقطقت بهم البراذين[(١)].

٣. طلبهم رؤية الله.

ذكر القرآن الكريم أن بني إسرائيل طلبوا من موسى عليه السلام أن يروا الله جهرة، وأن يشاهدوه بعيونهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝﴾ [البقرة:٥٥-٥٦].

بينت الآيتان عنجهية وعجرفة بني إسرائيل وتجرؤهم على الله تعالى، وأن النعم والآيات لم تزدهم إلا كبرًا وبطرًا، حيث طلبوا من موسى عليه السلام أن يروا الله تعالى جهرةً، وإنما قالوا: جهرة، توكيدًا للرؤية لئلا يتوهم متوهم أن المراد بالرؤية العلم، ووجه الخطاب ليهود المدينة وهم لم يفعلوا ذلك وإنما فعله أسلافهم، وذلك لمتابعتهم لهم على تصويبهم في تلك الأفعال.

وقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾، يحتمل أنهم توقعوا الكفر إن لم يروا الله تعالى، أي أنهم يرتدون في المستقبل عن إيمانهم الذي اتصفوا به من قبل، ويحتمل أنهم أرادوا الإيمان الكامل الذي دليله المشاهدة، أي: أن أحد هذين الإيمانين ينتفي إن لم يروا الله جهرة، وليس في الآية ما يدل على أنهم كفروا حين قولهم هذا، ولكنها دالة على عجرفتهم وقلة اكترائهم بما أوتوا من النعم وما شاهدوا من المعجزات حتى راموا أن يروا الله جهرة، وإن لم يروه دخلهم الشك في صدق موسى وهذا كقول القائل إن كان كذا فأنا كافر، وليس في القرآن ولا في غيره ما يدل على أنهم قالوا ذلك عن كفر، وإنما عدى نؤمن باللام لتضمينه معنى الإقرار بالله ولن نقر لك بالصدق والذي دل على هذا الفعل المحذوف هو اللام وهي طريقة التضمين[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾، أي: تموتون، والصاعقة: نار كهربائية من

(١) انظر: المصدر السابق ٩ / ٧٤.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩ / ٤٣٣، لباب التأويل، الخازن ١ / ٤٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٠٦.

السحاب تحرق من أصابته، وقد لا تظهر النار ولكن يصل هواؤها إلى الأحياء فيختنقون بسبب ما يخالط الهواء الذي يتنفسون فيه من الحوامض الناشئة عن شدة الكهربائية، وقد قيل: إن الذي أصابهم نار، وقيل: سمعوا صعقة فماتوا.

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، أي: وأنتم ينظر بعضكم إلى بعض، وقيل: تحدقون الأنظار عند رؤية السحاب على جبل الطور طمعا أن يظهر لهم الله من خلاله؛ لأنهم اعتادوا أن الله يكلم موسى كلاما يسمعه من خلال السحاب كما تقوله التوراة في مواضع، ففائدة الحال إظهار أن العقوبة أصابتهم في حين الإساءة والعجرفة إذ طمعوا فيما لم يكن لينال لهم[1].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، يرى بعض المفسرين أن الله أحياهم بعد أن وقع فيهم الموت بالصاعقة وغيرها ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم، وكانت تلك الموتة لهم كالسكتة القلبية لغيرهم، ويرى آخرون أن المراد بالبعث كثرة النسل، أي: إنه بعد أن وقع فيهم الموت بشتى الأسباب وظن أنهم سينقرضون، بارك الله في نسلهم ليعد الشعب بالبلاء السابق للقيام بحق الشكر على النعم التي تمتع بها الآباء الذين حل بهم العذاب بكفرهم لها.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، نعمة البعث بعد الموت، أو نعمة الله بعد ما كفرتموها إذا رأيتم بأس الله في رميكم بالصاعقة وإذاقتكم الموت[2].

قال سيد قطب عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦﴾ [البقرة:٥٥-٥٦]: «إن الحس المادي الغليظ هو وحده طريقهم إلى المعرفة، أم لعله التعنت والمعاجزة، والآيات الكثيرة، والنعم الإلهية، والعفو والمغفرة، كلها لا تغير من تلك الطبيعة الجاسية، التي لا تؤمن إلا بالمحسوس، والتي تظل مع ذلك تجادل وتماحل ولا تستجيب إلا تحت وقع العذاب والتنكيل، مما يوحي بأن فترة الإذلال التي قضوها تحت حكم فرعون الطاغية قد أفسدت فطرتهم إفسادًا عميقًا، وليس أشد إفسادًا للفطرة من الذل الذي ينشئه الطغيان الطويل، والذي يحطم فضائل النفس البشرية، ويحلل مقوماتها، ويغرس فيها المعروف من طباع العبيد: استخذاء تحت سوط الجلاد، وتمردًا حين يرفع

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١ / ١٤٠، معالم التنزيل، البغوي ١ / ١١٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٠٧.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١ / ١١٩، تفسير المراغي ١ / ١٢٠.

عنها السوط، وتبطرًا حين يتاح لها شيء من النعمة والقوة، وهكذا كانت إسرائيل، وهكذا هي في كل حين»[1].

ثالثًا: قصتهم مع التيه:

١. امتناعهم عن دخول الأرض المقدسة.

ذكر القرآن الكريم امتناع بني إسرائيل من دخول الأرض المقدسة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦].

إن هذه الآيات تصور اللحظات الأخيرة التي عاشها موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، فها هو ذا يدعوهم إلى خير ساقه الله إليهم، ويوجههم إلى دار أمن وقرار وعدهم الله بها، وقدم موسى عليه السلام أمره لبني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة بتذكيرهم بنعمة الله عليهم ليهيء نفوسهم إلى قبول هذا الأمر العظيم عليهم وليوثقهم بالنصر إن قاتلوا أعداءهم، فذكر نعمة الله عليهم، ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فقد جعل الله فيهم أنبياء وملوكا، وملوكا أنبياء، يجمعون بين سلطان الدنيا والدين، كما كان ذلك لداود وسليمان عليهما السلام، الأمر الذي لم يكن لأنبياء من قبل، ولا لملوك في الأرض، وموقع النعمة في إقامة الأنبياء بينهم أن في ذلك ضمان الهدى لهم والجري على مراد الله تعالى منهم، وفيه أيضا حسن ذكر لهم بين الأمم وفي تاريخ الأجيال[2].

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: أنه آتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين، أي عالمي زمانهم وشعوبه

(١) في ظلال القرآن ١ / ٧٢.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٦ / ٨٩، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٣/ ١٠٦٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ١٦١.

التي كانت مستعبدة للطغاة من الملوك فقد خصهم بأنواع عظيمة من الإكرام، فقد فلق البحر لهم وأهلك عدوهم، وأورثهم أموالهم، وأنزل عليهم المن والسلوى، وأظل فوقهم الغمام، وهذا من شأنه يقوى صلتهم بالله، ويوثق إيمانهم به، ولكن كانت هذه النعم أسلحة يحاربون بها الله، ومعاول يهدمون بها معالم الحق، ومنارات الهدى[(١)].

وبعد أن ذكرهم موسى بهذه النعم وشرحها لهم أمرهم بمجاهدة العدو، وأبان لهم أن الله ناصرهم ما نصروه، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، وكرر اللفظ الذي ابتدأ به مقالته وهو النداء بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾؛ لزيادة استحضار أذهانهم، والأمر بالدخول أمر بالسعي في أسبابه، أي تهيأوا للدخول، والأرض المقدسة المباركة المطهرة من الوثنية، لما بعث الله فيها من الأنبياء الدعاة إلى التوحيد، أو لأنها قدست بدفن إبراهيم الخليل عليه السلام، وهذه الأرض هي أرض فلسطين، وفي وصفها بـ ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ﴾، أي: كتب الله في اللوح المحفوظ إنها لكم مساكن، وقيل: فرض الله عليكم دخولها وأمركم بسكناها، يريد به ما وعد الله به إبراهيم من

(١) انظر: تفسير المراغي ٦ / ٨٩، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٣/ ١٠٦٧.

حق السكنى في تلك البلاد المقدسة، لا أن المراد أنها تكون كلها ملكا لهم لا يزاحمهم فيها أحد، لأن هذا مخالف للواقع، ولن يخلف الله وعده، فاستنباط اليهود من ذلك الوعد أنه لا بد أن يعود لهم ذلك الملك ليس بصحيح وذلك أن الله وعد إبراهيم أن يورثها ذريته، ووعد الله لا يخلف.

﴿وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾، تحذير مما يوجب الانهزام، لأن ارتداد الجيش على الأعقاب من أكبر أسباب الانخذال، والارتداد افتعال من الرد، يقال: رده، فارتد، والرد: إرجاع السائر عن الإمضاء في سيره وإعادته إلى المكان الذي سار منه[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾، وأرادوا بالقوم الجبارين في الأرض سكانها الكنعانيين، والعمالقة، والحثيين، واليبوسيين، والأموريين، والجبار لغة: الطويل القوى المستكبر العاتي المتمرد الذي يجبر غيره على ما يريد، فامتنعوا من اقتحام القرية خوفا من أهلها، وأكدوا الامتناع من دخول أرض العدو توكيدا قويا بمدلول (إن) و (لن) في إنا لن ندخلها

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢ / ٢٧، تفسير المراغي ٦ / ٩٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ١٦٢.

تحقيقا لخوفهم، وفي إجابتهم هذه دليل على منتهى الضعف وحور العزيمة، وعلى أنهم لا يريدون أن يأخذوا شيئا باستعمال قواهم البدنية ولا العقلية، ولا أن يدفعوا الشر عن أنفسهم ولا أن يجلبوا لها الخير، بل يريدون أن يعيشوا بالخوارق والآيات ما داموا في هذه الحياة ولا شك أن أمة كهذه لا تستحق أن تتمتع بنعيم الاستقلال، وتحيا حياة العز والكرامة، وتكون ذات تصرف مطلق في شئونها، ومن ثم لم تقم لها دولة بعد[1].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾، قوله: ﴿يَخَافُونَ﴾ أي: يخافون الله تعالى، وقيل: يخافون الخوف من العدو فيكون المراد باسم الموصول بني إسرائيل، جعل تعريفهم بالموصولية للتعريض بهم بمذمة الخوف وعدم الشجاعة.

وقوله: ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾، أي: بالطاعة والتوفيق لما يرضيه، ويسلب الخوف من نفوسهم وبمعرفة الحقيقة، والرجلين هما: يوشع بن نون وكالب بن يفنة، وأنهما كانا يحثان القوم على الطاعة ودخول أرض الجبارين، ثقة بوعد الله بالنصر وتأييده إياهم، وهذا يقتضي أن الشجاعة في نصر الدين نعمة من الله على صاحبها[2].

وقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، أي: ادخلوا عليهم باب المدينة فإذا فعلتم ذلك نصركم الله وأيدكم بروح من عنده، بعد أن تعملوا ما في طاقتكم من طاعة ربكم وتثقوا به فيما لا يصل إليه كسبكم، وبعد أن أمرا القوم باتخاذ الأسباب والوسائل أمراهم بالتوكل على الله والاعتماد على وعده ونصره وخبر رسوله.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، بأن وعد الله حق، وأنه قادر على الوفاء به، وإنما جزم هذان الرجلان بأنهم سيغلبون إذا دخلوا، ثقة بنبوة موسى، وهو قد أخبرهم بأن الله أمرهم بدخول الأرض المقدسة التي كتبها لهم، لا جرم قطعا بالنصر والغلبة على العدو[3].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، أي: إنهم أصروا على العناد والتمرد، وأكدوا الامتناع من الدخول بعد المحاورة أشد توكيد دل على شدته في العربية بثلاث مؤكدات: (إن)، و (لن)، وكلمة (أبدا).

﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾، تركوا آداب الخطاب فصرحوا ببيان الجحد ولم

(١) انظر: تفسير المراغي ٦ / ٩١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦ / ١٦٣.

(٢) انظر: المصادر السابقة.

(٣) انظر: المصادر السابقة.

يحتشموا من مجاهرة الرد، قيل: إنهم طلبوا منه معجزة كما تعودوا من النصر فطلبوا أن يهلك الله الجبارين بدعوة موسى، وقيل: أرادوا بهذا الكلام الاستخفاف بموسى، وهذا بعيد، لأنهم ما كانوا يشكون في رسالته، ولو أرادوا الاستخفاف لكفروا، وليس في كلام موسى الواقع جوابا عن مقالتهم هذه إلا وصفهم بالفاسقين، والفسق يطلق على المعصية الكبيرة، فإن عصيان أمر الله في الجهاد كبيرة، ولذلك قال تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾، أي: قال موسى باثا شكواه إلى ربه، معتذرا من فسق قومه عن أمره الذي يبلغه عنه، إني لا أملك أمر أحد أحمله على طاعتك إلا أمر نفسي وأمر أخي، ولا أثق بغيرنا أن يطيعك في اليسر والعسر والمنشط والمكره المحبوب والمكروه.

﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، أي: لا تؤاخذنا بجرمهم، لأنه خشي أن يصيبهم عذاب في الدنيا فيهلك الجميع فطلب النجاة، ولا يصح أن يريد الفرق بينهم في الآخرة لأنه معلوم أن الله لا يؤاخذ البريء بذنب المجرم، ولأن براءة موسى وأخيه من الرضا بما فعله قومهم أمر يعلمه الله، ويجوز أن يراد بالفرق بينهم الحكم بينهم وإيقاف الضالين على غلطهم[2].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، التيه: الحيرة، يقال تاه يتيه: إذا تحير ومفازة تيهاء إذا تحير فيها سالكها لعدم الأعلام التي يهتدى بها، والتحريم: المنع، أي: قال الله لموسى عليه السلام مجيبا دعوته: إن الأرض المقدسة محرمة على بني إسرائيل تحريما فعليا لا تكليفا شرعيا، مدة أربعين سنة.

﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يسيرون فيها في برية تائهين متحيرين لا يدرون أين مصيرهم.

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، الأسى: الحزن، يقال أسيت عليه أسى وأسيت له أي فلا تحزن عليهم، لأنهم فاسقون متمردون مستحقون لهذا التأديب الإلهي[3].

---

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ١ / ٤١٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦ / ١٦٦.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢ / ١٢٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦ / ١٦٧.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦ / ١٦٧.

٢. إنزال المن والسلوى.

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى أنزل على بني إسرائيل المن والسلوى.

قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة:٥٧].

بَيَّنَت الآية نعم الله تعالى على بني إسرائيل ورعايته لهم في الصحراء، حيث يسر لهم السحاب يظللهم من هجير الصحراء وحر الشمس المحرق بتدبيره، حين خرجوا إلى الأرض المقدسة، ويسر لهم طعامًا شهيًا لا يجهدون فيه ولا يكدون. ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾، والمن: هو مادة حلوة تتجمع على أوراق الشجر، وقيل: هو الترنجين، وقيل: المن ما يمن الله به من غير تعب ولا نصب، والسلوى طائر كالسماني، وذكر إنه كان يأتيهم من هذين ما فيه كفايتهم، والسلوى وهو طائر السماني يساق إليهم في الصحراء، قريب المتناول سهل التناول، كان نعمة من الله ومظهرا لعنايته بهم في الصحراء الجرداء، وهو يتولاهم حتى في طعامهم اليومي فييسره لهم من أقرب الموارد[1].

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، أي: وقلنا لهم كلوا من ذلك الرزق الطيب الحلال، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾، يعني بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا لأن الله لا تضره معصية العاصين، كما لا تنفعه طاعات الطائعين.

﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: فكفروا تلك النعم الجزيلة، وما عاد ضرر ذلك إلا عليهم باستيجابهم عذابي وانقطاع ذلك الرزق الذي كان ينزل عليهم بلا مئونة ولا مشقة، وفي هذا إيماء إلى أن كل ما يطلبه الله من عباده فإنما نفعه لهم، وما ينهاهم عنه فإنما ذلك لدفع ضر يقع عليه، والتعبير عن ظلمهم لأنفسهم بكلمة كانوا والفعل المضارع يظلمون يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان يتكرر منهم، لأنك لا تقول في ذم إنسان كان يسيء إلى الناس إلا إذا كانت الإساءة تصدر منه المرة تلو الأخرى[2].

٣. سقيا الماء.

ذكر القرآن الكريم أن موسى عليه السلام استسقى الماء لبني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ١٣٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٠٨، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٣٤٥، أضواء البيان الشنقيطي ٤ / ٧٤.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١ / ١٢٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص: ٥٣، التفسير الوسيط، محمد طنطاوي ١ / ١٣٩.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة: ٦٠].

بَيَّنَتْ هذه الآية نعمة أخرى من نعم الله تعالى التي آتاها بني إسرائيل فكفروا بها، وذلك أنهم حين خرجوا من مصر إلى التيه أصابهم ظمأ من لفح الشمس، فاستغاثوا بموسى، فدعا ربه أن يسقيهم فأجاب دعوته.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾، يفيد أن الذي سأل ربه السقيا هو موسى عليه السلام وحده، لتظهر كرامته عند ربه لدى قومه، وليشاهدوا بأعينهم إكرام الله تعالى له، حيث أجاب سؤاله، وفجر الماء لهم ببركة دعائه.

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾، أي: فأجبناه إلى ما طلب، وأوحينا إليه أن اضرب الحجر بعصاك، وقد أمره أن يضرب بعصاه التي ضرب بها البحر حجرا من أحجار الصحراء، قال الحسن: لم يكن حجرا معينا، بل أي حجر ضربه انفجر منه الماء، وهذا أظهر في حجة موسى عليه السلام، وأدل على قدرة الله تعالى [(١)].

وقوله تعالى: ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، أي: فضرب فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا بقدر عدد الأسباط، فاختص كل منهم بعين حتى لا تقع بينهم الشحناء.

(١) انظر: تفسير المراغي ١ / ١٢٦، روح المعاني، الألوسي ١ / ٢٧١.

وفيه إشارة إلى تدفق الماء بقوة وغزارة أكثر مما في قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

فالانبجاس دون الانفجار، قوة وأثرًا، وهذا الاختلاف في التعبير إنما هو لاختلاف الحال، فحين ضرب موسى الحجر كان الانبجاس أولا، ثم تلاه الانفجار، فكل من الانبجاس والانفجار وصف لحال من أحوال ضربة العصا، وأثر من آثارها، وذلك وجه مشرق من وجوه الإعجاز، في التكرار الوارد على الأحداث، في القصص القرآني.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾، أي: قد صار لكل سبط منهم مشرب يعرفه، لا يتعداه إلى مشرب غيره [(٢)].

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾، وبدأ بالأكل لأن قوام الجسد به، والاحتياج إلى الشرب حاصل عنه، ومن لابتداء الغاية، ويحتمل أن تكون للتبعيض، وفي ذكر الرزق مضافا تعظيم للمنة، وإشارة إلى حصول ذلك لهم من غير تعب ولا تكلف.

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، تحذير لهم من البطر والغرور واستعمال

(٢) انظر: تفسير المراغي ١ / ١٢٦، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١ / ٩٠.

النعمة في غير ما وضعت له، بعد أن أذن لهم في التمتع بالطيبات، لأن النعمة عند ما تكثر قد تنسي العبد حقوق خالقه فيهجر الشريعة، ويعيث في الأرض فسادا[1].

أخذ الميثاق على بني إسرائيل

تظهر المواثيق التي أخذها الله تعالى على بني إسرائيل من خلال النقاط الآتية:

أولًا: أخذ الميثاق على بني إسرائيل أن يأخذوا الكتاب بقوة:

ذكر القرآن الكريم أخذ الميثاق على بني إسرائيل لكي يأخذوا الكتاب بقوة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة:٦٣-٦٤].

يقول تعالى مذكرًا بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له واتباع رسله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾، أي: واذكروا يا بني إسرائيل وقت أخذنا العهد على أسلافكم بالعمل بما في التوراة وقبولهم ذلك، والميثاق في هذه الآية مراد به الشريعة ووعدهم بالعمل بها وقد سمته كتبهم عهدا، وهو إلى الآن كذلك في كتبهم، وهذه معجزة علمية لرسولنا صلى الله عليه وسلم.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾، والطور: علم على جبل ببرية سينا، وكانت هذه الآية بعد أخذ الميثاق لكي يأخذوا ما أوتوه من الكتاب بقوة واجتهاد، لأن رؤية ذلك مما

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥١٩، التفسير الوسيط، محمد طنطاوي ١ / ١٤٥، روح المعاني، الألوسي ١ / ٢٧٢.

يقوى الإيمان ويحرك الشعور والوجدان[١].

وقوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾، أي: وقلنا لهم خذوا الكتاب وهو التوراة بجد وعزيمة، ومواظبة على العمل بما فيه، والأخذ مجاز عن التلقي والتفهم، والقوة مجاز في الإيعاء وإتقان التلقي والعزيمة على العمل به، ويجوز أن يكون الذكر مجازا عن الامتثال، أي: اذكروه عند عزمكم على الأعمال حتى تكون أعمالكم جارية على وفق ما فيه، أو المراد بالذكر التفهم بدليل حرف (في) المؤذن بالظرفية المجازية أي استنباط الفروع من الأصول.

﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾، أي: وادارسوه ولا تنسوا تدبر معانيه واعملوا بما فيه من الأحكام، فإن العمل هو الذي يجعل العلم راسخا في النفس مستقرا عندها[٢].

ثم ذكر لهم فائدة ذكره فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، أي: ليعد نفوسكم لتقوى الله عز وجل: ذلك أن المواظبة على العمل تطبع في النفس سجية المراقبة لله، وبها تصير تقية نقية من أدران الرذائل راضية مرضية عند ربها[٣].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، أي: ثم أعرضتم وانصرفتم عن العمل بالميثاق الذي أخذه عليكم، ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾، أي: فلولا لطف الله بكم وإمهاله إياكم إذ لم يعاملكم بما تستحقون، لكنتم من الهالكين بالانهماك في المعاصي[٤].

يقول سيد قطب: «وتفصيل هذا الميثاق وارد في سور أخرى، وبعضه ورد في هذه السورة فيما بعد، والمهم هنا هو استحضار المشهد، والتناسق النفسي والتعبيري بين قوة رفع الصخرة فوق رؤوسهم وقوة أخذ العهد، وأمرهم أن يأخذوا ما فيه بقوة، وأن يعزموا فيه عزيمة، فأمر العقيدة لا رخاوة فيه ولا تميع، ولا يقبل أنصاف الحلول ولا الهزل ولا الرخاوة، إنه عهد الله مع المؤمنين، وهو جد وحق، فلا سبيل فيه لغير الجد والحق، وله تكاليف شاقة، نعم! ولكن هذه هي طبيعته، إنه أمر عظيم، أعظم من كل ما في هذا الوجود، فلا بد أن تقبل عليه النفس إقبال الجاد القاصد العارف بتكاليفه، المتجمع الهم والعزيمة المصمم على هذه التكاليف، ولا بد أن يدرك صاحب هذا الأمر أنه إنما يودع حياة الدعة والرخاء والرخاوة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نودي للتكليف: (مضى عهد النوم يا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٨٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٥٤٢.
(٢) انظر: تفسير المراغي ١ / ١٣٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٤٢.
(٣) انظر: تفسير المراغي ١ / ١٣٧.
(٤) انظر: تفسير المراغي ١ / ١٣٧، التفسير الوسيط، محمد طنطاوي ١ / ١٦٠.

خديجة)، وكما قال له ربه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل:٥].

وكما قال لبني إسرائيل: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، ولا بد مع أخذ العهد بقوة وجد واستجماع نفس وتصميم، لا بد مع هذا من تذكر ما فيه، واستشعار حقيقته، والتكيف بهذه الحقيقة، كي لا يكون الأمر كله مجرد حماسة وحمية وقوة، فعهد الله منهج حياة، منهج يستقر في القلب تصورًا وشعورًا، ويستقر في الحياة وضعًا ونظامًا، ويستقر في السلوك أدبًا وخلقًا، وينتهي إلى التقوى والحساسية برقابة الله وخشية المصير»[1].

ثانيًا: أخذ الميثاق على بني إسرائيل في العبادات والمعاملات:

ذكر القرآن الكريم أخذ المواثيق على بني إسرائيل في العبادات والمعاملات.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ۝٨٣﴾ [البقرة:٨٣].

يخبر تعالى أنه أخذ الميثاق على بني إسرائيل، وهذا الميثاق الذي أخذه عليهم في أصول الدين والمعاملات والأخلاق التي تنفعهم في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، أظهر هنا لفظ بني إسرائيل لأن ما سيذكر هنا لما كان من الأحوال التي اتصف بها السلف والخلف وكان المقصود الأول منه إثبات سوء صنيع الموجودين في زمن القرآن، تعين أن يعبر عن سلفهم باللفظ الصريح ليتأتى توجيه الخطاب من بعد ذلك إلى المخاطبين حتى لا يظن أنه من الخطاب الذي أريد به أسلافهم، ثم بين هذا الميثاق فقال: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، هذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تعالى، أن يعبد وحده لا شريك له، وهذا أصل الدين، فلا تقبل الأعمال كلها إن لم يكن هذا أساسها، فهذا حق الله تعالى على عباده، وقد نهوا عن عبادتهم غير الله مع أنهم كانوا يعبدون الله خوفا من أن يشركوا به سواه من ملك أو بشر أو صنم بدعاء أو غيره من أنواع العبادات، ودين الله على ألسنة الرسل جميعا فيه الحث على عبادة الله وعدم الشرك بعبادة أحد سواه، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦].

فالتوحيد عماده الأمران معًا[2].

وقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾،

---

(١) في ظلال القرآن ١ / ٧٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣١٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧، تفسير المراغي ١ / ١٥٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٨٢.

أي: أحسنوا إليهما، بأن تعطفوا عليهما وترعوهما حق الرعاية، وتنزلوا عند أمرهما فيما لا يخالف أوامر الله، وقد جاء في التوراة أن من يسب والديه يقتل، والحكمة في البر بهما أنهما قد بذلا للولد وهو صغير كل عناية وعطف بتربيته والقيام بشئونه، حين كان عاجزا ضعيفا لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، مع الشفقة التي لا مزيد عليها، أفلا يجب عليه بعدئذ مكافأتهما جزاء وفاقا لما صنعا؟ قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن:٦٠][1].

وقوله تعالى: ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، قدم ذا القربى لأنهم أقدم والشفقة عليهم أعظم أجرا منها على غيرهم لأن الإحسان إليهم مما يقوى الروابط بينهم، فما الأمة إلا مجموعة الأسر والبيوت، فصلاحها بصلاحها وفسادها بفسادها، ومن لا بيت له لا أمة له، ومن قطع لحمة النسب فكيف يصل ما دونها، وكيف يكون جزاء من الأمة، يسره ما يسرها ويؤلمه ما يؤلمها، ويرى في منفعتها منفعته، وفي مضرتها مضرته، ونظام الفطرة قاض بأن صلة القرابة أمتن الصلات، وجاء الدين حاثا عليها مؤكدا لأواصرها، مقويا لأركانها، مقدما لحقوقها على سائر الحقوق بحسب درجات القرابة[2].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ أي: أحسنوا إليهم لخلوهم عمن يقوم بمعاشهم ومصالحهم، وأخر المساكين لأنهم دون اليتامى القاصرين عن درجة البلوغ؛ لأنهم يقدرون على أن ينتفعوا بأنفسهم في الجملة، ويقدرون على نفع غيرهم بالخدمة، والإحسان إلى اليتيم بحسن تربيته، وحفظ حقوقه من الضياع، والكتاب والسنة مليئان بالوصية به، وحسبك من ذلك حديث سهل بن سعد، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا)**، وقال بإصبعيه السبابة والوسطى[3].

والسر في هذا أن اليتيم لا يجد في الغالب من تبعثه العاطفة على تربيته والقيام بشئونه وحفظ أمواله، والأم وإن وجدت تكون في الغالب عاجزة عن تنشئته وتربيته التربية المثلى، إلى أن الأيتام أعضاء في جسم الأمة، فإذا فسددت أخلاقهم وساءت أحوالهم، تسرب الفساد إلى الأمة جمعاء، إذ يصبحون قدوة سيئة بين نشئها، فيدب فيها الفساد ويتطرق إليها الانحلال، وتأخذ في الفناء، والإحسان إلى المساكين يكون بالصدقة عليهم ومواساتهم حين البأساء والضراء.

وقدم اليتيم على المسكين، لأن هذا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣١٦، تفسير المراغي ١ / ١٥٦.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١ / ١٥٧، بيان المعاني، عبد القادر ملا ٥ / ٥٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيما، رقم ٦٠٠٥، ٨/ ٩.

يمكنه أن يسعي بنفسه للحصول على قوته، بخلاف الأول فإن الصغر مانع له من ذلك[1].

وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، أمر الله أولًا بالإحسان بالمال لأقوام مخصوصين، وهم الوالدان والأقربون واليتامى والمساكين، إذ لا يمكن الشخص أن يحسن به إلى الناس جميعا، لأنه لا يسع كل الأمة، ومن ثم اكتفى في حقوق سائر أفرادها بحسن العشرة والقول الجميل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ونحو ذلك مما هو نافع لهم في الدين والدنيا، وفي القيام بهذه الفرائض إصلاح لحال المجتمع وسعي في رقيه وتقدمه حتى يبلغ ذروة المجد والشرف[2].

وبعد أن أمرهم سبحانه بعبادته وحده على سبيل الإجمال، فصل بعضا من ذلك مما لا يهتدى إليه إلا بهدى إلهي ووحي سماوي، فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، لأن الصلاة هي التي تصلح النفوس وتنقيها من أدران الرذائل، وتحليها بأنواع الفضائل، وروحها هو الإخلاص لله والخشوع لعظمته وسلطانه، فإن فقدته كانت صورا ورسوما لا تغنى فتيلا، وهم ما تولوا ولا أعرضوا عن تلك الصور والرسوم إلى عصر التنزيل، بل إلى يومنا هذا، ثم الزكاة لما فيها من إصلاح شئون المجتمع، وقد كان لهم ضروب من الزكاة منها مال خاص يؤدى لآل هارون، وهو إلى الآن في اللاويين (سبط من أسباطهم)، ومنها مال للمساكين، ومنها ما يؤخذ من ثمرات الأرض، ومنها سبت الأرض وهو تركها في كل سبع سنين مرة بلا حرث ولا زرع، وكل ما يخرج منها في تلك السنة فهو صدقة[3].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾، أي: توليتم عن جميع ما أخذ عليكم الميثاق به، فأشركتم بالله وعبدتم الأصنام وعققتم الوالدين وأسأتم لذوي القربى واليتامى والمساكين وقلتم للناس أفحش القول وتركتم الصلاة ومنعتم الزكاة، وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ﴾، إنصاف لهم في توبيخهم ومذمتهم وإعلان بفضل من حافظ على العهد، وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾، أي: وأنتم قوم عادتكم الإعراض والتولي عن المواثيق، وفي الجملة مبالغة في الترك المستفاد من التولي، لأن الإنسان قد يتولى عن شيء وهو عازم على أن يعود إليه ويؤدى ما يجب له، فليس كل من تولى عن شيء يكون معرضا عنه، والتعبير بالجملة الإسمية

(١) انظر: تفسير المراغي ١ / ١٥٧، بيان المعاني، عبد القادر ملا ٥ / ٥٦.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١ / ١٥٨.

(٣) انظر: المصدر السابق.

تفيد أن الإعراض وصف ثابت لهم وعادة معروفة منهم[١].

ثالثًا: أخذ الميثاق على بني إسرائيل ألا يقتل بعضهم بعضا، ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم:

ذكر القرآن الكريم أخذ الميثاق على بني إسرائيل ألا يقتل بعضهم بعضًا، ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة:٨٤-٨٦].

بَيَّنَت الآيات أن الله تعالى أخذ على بني إسرائيل العهد بالتضامن، فلا يقتل بعضهم بعضا ولا يظاهر أحد منهم غريبا على أحد منهم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ أي: وإذ أخذنا عليكم العهد: لا يريق بعضكم دم بعض، ولا يخرج بعضكم بعضا من ديارهم وأوطانهم، وقد جعل غير الرجل كأنه نفسه، ودمه كأنه دمه إذا اتصل به دينا أو نسبا، إشارة إلى وحدة الأمة وتضامنها، وأن ما يصيب واحدا منها فكأنما يصيب الأمة جمعاء، فيجب أن يشعر كل فرد منها بأن نفسه نفس الآخرين ودمه دمهم، فالروح الذي يحيا به والدم الذي ينبض في عرقه هو كدم الآخرين وأرواحهم، لا فرق بينهم في الشريعة التي وحدت بينهما في المصالح العامة.

ويجوز أن يكون المعنى: لا ترتكبوا من الجرائم ما تجازون عليه بالقتل قصاصًا، أو بالإخراج من الديار، فتكونون كأنكم قد قتلتم أنفسكم؛ لأنكم فعلتم ما تستحقون به القتل، كما يقول الرجل لآخر قد فعل ما يستحق به العقوبة: أنت الذي جنى على نفسه[٢].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾، أي: ثم أقررتم بهذا الميثاق أيها الحاضرون المخاطبون واعترفتم به سلفًا بعد خلف، ولم تنكروه بألسنتكم،

(١) انظر: تفسير المراغي ١ / ١٥٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٨٤، روح المعاني، الألوسي ١ / ٣١٠.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١ / ١٦٠، روح المعاني، الألوسي ١ / ٣١٠.

بل شهدتم به وأعلنتموه، فالحجة عليكم قائمة، وقيل: وأنتم أيها الحاضرون تشهدون على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق وقبوله، وشهودهم الوحي الذي نزل به على موسى عليه السلام.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: ثم أنتم بعد ذلك التوكيد في الميثاق تنقضون العهد فتقتلون أنفسكم: أي يقتل بعضكم بعضا كما كان يفعل من قبلكم، مع أنكم معترفون بأن الميثاق أخذ عليكم كما أخذ عليهم، ومن حديث ذلك أن بنى قينقاع من اليهود كانوا حلفاء الأوس وأعداء لإخوانهم في الدين بنى قريظة، كما كان بنو النضير حلفاء الخزرج، وكان الأوس والخزرج قبل الإسلام أعداء يقتتلون، ومع كل حلفاؤه.

﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، كان كل من اليهود يظاهر حلفاءه من العرب ويعاونهم على إخوانه من اليهود بالإثم كالقتل والسلب.

موقفهم من الأنبياء بعد موسى

من مواقف بني إسرائيل التي ذكرها القرآن الكريم مع أنبيائهم ما يأتي:

أولًا: القتل:

ذكر القرآن الكريم أن من مواقف بني إسرائيل مع أنبيائهم القتل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [آل عمران: ٢١-٢٢].

كشفت هذه الآية عن الجرائم العظيمة التي أرتكبها بنو إسرائيل في حق الأنبياء، حيث أقدموا على قتل الأنبياء والرسل، وذلك يدل على غاية قساوة قلوبهم ونهاية بعدهم عن طاعة الله تعالى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، وهى الكفر بآيات الله التي حملها إليهم رسل الله، وهى آيات لا يكذب بها إلا كل معتد أثيم، كفلق البحر بالعصا، وتفجير الماء من الصخر بها، على يد موسى عليه السلام، فكفروا بتلك الآيات وعبدوا العجل من دون الله، وكذلك فعلوا مع الآيات التي أجراها الله سبحانه على يد عيسى عليه السلام

من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، فكفروا بتلك الآيات، ورموا عيسى بالبهت والشعوذة، حتى دفعهم ذلك إلى السعي في قتله، وتقديمه للمحاكمة والصلب، ولكن الله أبطل كيدهم، وأفسد تدبيرهم، وهم يحسبون أنهم صلبوه: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء:١٥٧][1].

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، ويقتلون أنبياء الله الذين حقهم أوجب الحقوق على العباد بعد حق الله، الذين أوجب الله طاعتهم والإيمان بهم، وتعزيرهم، وتوقيرهم، ونصرهم وهؤلاء قابلوهم بضد ذلك، وقد قتل اليهود من الأنبياء أشعياء بن أموص قتله الملك منسي ملك اليهود (سنة ٧٠٠ ق. م)، نشر نشرًا على جذع شجرة، وأرمياء النبي، وذلك لأنه أكثر التوبيخات والنصائح لليهود فرجموه بالحجارة حتى قتلوه، وزكرياء، قتله هيرودس العبراني ملك اليهود من قبل الرومان؛ لأن زكرياء حاول تخليص ابنه يحيى من القتل وذلك في مدة نبوءة عيسى، ويحيى بن زكرياء قتله هيرودس لغضب ابنة أخت هيرودس على يحيى[2].

وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، أي: بدون وجه معتبر في شريعتهم، فإن فيها: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة:٣٢].

فهذا القيد من الاحتجاج على اليهود بأصول دينهم لتخليد مذمتهم، وإلا فإن قتل الأنبياء لا يكون بحق في حال من الأحوال، وأضاف القتل للنبيين، ولم تضاف إلى الرسل؛ لأن الرسل لا تسلط عليهم أعداؤهم لأنه مناف لحكمة الرسالة التي هي التبليغ.

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر:٥١].

ومن ثم كان ادعاء النصارى أن عيسى قتله اليهود ادعاء منافيا لحكمة الإرسال ولكن الله أنهى مدة رسالته بحصول المقصد مما أرسل إليه[3].

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص: ١٢٦، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٢ / ٤٢٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٣٠.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص: ١٢٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٣٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٣٠.

﴿يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾، إنهم لم يكتفوا بقتل النبيين، بل يقتلون أيضا كل من يأمر بالعدل، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهم مؤمنو بني إسرائيل يأمرونهم بالمعروف، فكانوا يقتلونهم، فعيرهم الله بذلك، وأوعدهم النار.

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: وجيع، ويقال: أليم: يعني مؤلم، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، أي: بطل ثواب حسناتهم، فلا ثواب لهم، ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾، أي: مانعين يمنعونهم من النار[1].

ثانيًا: التكذيب:

ذكره القرآن الكريم أن من مواقف بني إسرائيل مع أنبيائهم التكذيب.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة:٨٧].

ذم الله تعالى بني إسرائيل فيما ارتكبوه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله قديما وحديثا، التي بلغتهم إياها الرسل، استكبارا عليهم وعنادا لهم، وتعاظما على الحق واستنكافا عن اتباعه، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، أي: أعطينا موسى التوراة جملة واحدة ويقال: الألواح، ﴿وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾، أي: أتبعنا وأردفنا، معناه: أرسلنا رسولًا على أثر رسول، يقال: قفوت الرجل إذا ذهبت في أثره، ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾، أي: الآيات والعلامات مثل: إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، أي: إغاثة بجبريل حين أرادوا قتله فرفعه إلى السماء، وقال بعضهم: أيدناه أي قويناه وأعناه باسم الله الأعظم الذي كان يحيي به الموتى[2].

وقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ﴾، يقول: بما لا يوافق هواكم، ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾، تعظمتم عن الإيمان، وأنفتم أن تكونوا له أتباعًا؛ لأنهم كانت لهم رئاسة وكانوا متبوعين، فلم يؤمنوا مخافة أن تذهب عنهم الرياسة، ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾، فنشأ عن الاستكبار مبادرة فريق من الرسل بالتكذيب فقط، حيث لا يقدرون على قتله، وفريق بالقتل إذا قدروا على قتله، وتهيأ لهم ذلك، ويضمن أن من قتلوه فقد كذبوه، واستغنى عن التصريح بتكذيبه للعلم بذلك، فذكر أقبح أفعالهم معه، وهو قتله، وبدأ بالتكذيب لأنه أول ما يفعلونه من الشر، ولأنه المشترك بين الفريقين: المكذب والمقتول،

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١ / ٢٠٢، تفسير الشعراوي ٣ / ١٣٧٥.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ١ / ٧١، الكشف والبيان، الثعلبي ١ / ٢٣٢، التفسير الوسيط، الواحدي ١ / ١٧١.

﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، ونسب القتل إليهم مع أن القاتل آباؤهم لرضاهم به ولحوق مذمته بهم، وعبر بالمضارع حكاية للحال الماضية واستحضارا لصورتها لفظاعتها واستعظامها، أو مشاكلة للأفعال المضارعة الواقعة في الفواصل فيما قبل، أو للدلالة على أنكم الآن فيه فإنكم حول قتل محمد صلى الله عليه وسلم ولولا أني أعصمه لقتلتموه ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة، فالمضارع للحال ولا ينافيه قتل البعض[1].

وتقديم المفعول في قوله: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾، لما فيه من الدلالة على التفصيل، والتفصيل راجع إلى ما في قوله: رسول من الإجمال لأن ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ﴾، أفاد عموم الرسول وشمل هذا موسى عليه السلام، فإنهم وإن لم يكذبوه بصريح اللفظ لكنهم عاملوه معاملة المكذبين به، إذ شكوا غير مرة فيما يخبرهم عن الله تعالى، وأساءوا الظن به مرارا في أوامره الاجتهادية، وحملوه على قصد التغرير بهم والسعي لإهلاكهم كما قالوا حين بلغوا البحر الأحمر وحين أمرهم بالحضور لسماع كلام الله تعالى، وحين أمرهم بدخول أريحا، وغير ذلك، وأما بقية الرسل فكذبوهم بصريح القول، مثل عيسى، وقتلوا بعض الرسل مثل أشعياء وزكرياء ويحيى ابنه وأرمياء[2].

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١ / ٧١، البحر المحيط، أبو حيان ١ / ٤٨٣، روح المعاني، الألوسي ١ / ٣١٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٩٨.

عقوبات الله على بني إسرائيل

لقد عاقب الله تعالى بني إسرائيل على سوء أعمالهم القبيحة بصنوف العقوبات ومنها ما يأتي:

أولًا: تسليط العذاب عليهم:

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى سلط على بني إسرائيل من يسومهم سوء العاب.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف:١٦٧].

بينت هذه الآية خاتمة بني إسرائيل وإيلاء الله تعالى على نفسه بأن يبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة بسبب ما ارتكبوه من انحرافات دينية وأخلاقية واجتماعية، واقترفوه من آثام ونقضوه من مبادئ ووصايا، واستغرقوا فيه من أعراض الحياة الدنيا وبيعهم دينهم وكتابهم بالدنيا.

وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، أي: واذكر أيها الرسول إذ أعلم ربك هؤلاء القوم مرة إثر أخرى أنه قضى عليهم في علمه وفقا لما قامت عليه نظم الاجتماع، ليبعثن ويسلطن عليهم إلى يوم القيامة، ﴿مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، أي يريده ويوقعه بهم، عقابا على ظلمهم وفسقهم وفسادهم، وهو مجاز من سوم الشيء، كما يقال سامه خسفا، وسوء العذاب ما يسوء صاحبه ويذله، وهو هنا سلب الملك، وإخضاع القهر، وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا تلقيت باللام في قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾، أي: على اليهود، فسلط الله عليهم الملوك البابليين واليونانيين والكشدانيين والكلدانيين، فقهروهم وأذلوهم وشردوهم وأذاقوهم الويلات.

ثم سلط الله عليهم النصارى فسلبوا ملكهم الذي أقاموه بعد نجاتهم من السبي البابلي، وقهروهم واستذلوهم، ثم جاء الإسلام فعاداه منهم الذين كانوا هربوا من الذل والنكال، ولجئوا إلى بلاد العرب فعاشوا فيها أعزاء آمنين، ولم يفوا للنبي صلى الله عليه وسلم بما عاهدهم عليه إذ أمنهم على أنفسهم وحرية دينهم، بل غدروا به وكادوا له، ونصروا المشركين عليه، فسلطه الله عليهم فقاتلهم فنصره عليهم، فأجلى بعضهم، وقتل بعضا، وأجلى عمر من بقي منهم، ثم فتح عمر سورية، بعضها بالصلح كبيت المقدس، وبعضها عنوة، فصار اليهود من سيادة الروم الجائرة القاهرة فيها إلى سلطة الإسلام العادلة، ولكنهم ظلوا أذلة بفقد الملك والاستقلال[1].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣ /

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾، أي: لمن عصاه وخالف أمره وشرعه، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: لمن تاب إليه وأناب، وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة، لئلا يحصل اليأس، فيقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب كثيرا؛ لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف[1].

ثانيًا: تحريم بعض الطيبات:

ذكر القرآن الكريم تحريم الطيبات على بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء:١٦٠].

يخبر الله تعالى في هذه الآية أنه بسبب ظلم بني إسرائيل وكفرهم بآيات الله حرم عليهم طيبات كانت حلالًا لهم، وقوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾، يعني بشركهم حرمنا عليهم أشياء كانت حلالًا لهم، وهو كل ذي ظفر وشحوم البقر والغنم أحلت لهم، وقد أبهمها الله هنا، لأن الغرض من السياق العبرة بكونها عقوبة، لا بيانها في نفسها، كما أبهم الظلم الذي كان سببا في العقوبة، ليعلم أن أي نوع منه يكون سببا للعقاب في الدنيا قبل الآخرة، ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾، أي: صدوا الناس وصدوا أنفسهم عن اتباع الحق، وهذه سجية لهم متصفون بها من قديم الدهر وحديثه؛ ولهذا كانوا أعداء الرسل، وقتلوا خلقا من الأنبياء، وكذبوا عيسى ومحمدا، صلوات الله وسلامه عليهما[2].

والآية اقتضت: أن تحريم ما حرم عليهم إنما كان عقابا لهم، وأن تلك المحرمات ليس فيها من المفاسد ما يقتضي تحريم تناولها، وإلا لحرمت عليهم من أول مجيء الشريعة[3].

ثالثًا: المسخ:

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى مسخ العصاة من بني إسرائيل قردة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة:٦٥].

يخبر تعالى في هذه الآية ما حل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا

٤٩٧، تفسير المنار، محمد رشيد ٩ / ٣٢١، تفسير المراغي ٩ / ٩٧.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣ / ٤٩٧.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ١ / ٣٥٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٤٦٧، تفسير المراغي ٦ / ١٧.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦ / ٢٦.

﴿مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ﴾، أي: قد عرفتم الذين جاوزوا ما حدلهم في السبت من التجرد للعبادة فيه وتعظيمه واشتغلوا بالصيد، وذلك أن الله تعالى نهاهم أن يصيدوا في السبت، ثم ابتلاهم فما كان يبقى حوت في البحر إلا أخرج خرطومه يوم السبت فإذا مضى تفرقت، فحفروا حياضًا عند البحر، وشرعوا إليها الجداول فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت لأمنها من الصيد، فكانوا يسدون مشارعها من البحر فيصطادونها يوم الأحد، فذلك الحبس في الحياض هو اعتداؤهم، وهذه القصة غير مسطورة في الأسفار القديمة وكانت معروفة لعلمائهم وأحبارهم فأطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عليها وتلك معجزة غيبية وأوحى إليه في لفظها ما يؤذن بأن العلم بها أخفى من العلم بالقصص الأخرى فأسند الأمر فيها لعلمهم إذ قال: ولقد علمتم[1].

وقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾، أي: مبعدين من رحمة الله صاغرين ذليلين، وأصله في اللغة من البعد، يقال: خسأ الكلب إذا بعد، فجازاهم الله بأشد أنواع الجزاء، فخرج بهم من محيط النوع الإنساني وأنزلهم أسفل الدركات، فجعلهم يرتعون في مراتع البهائم، وليتهم كانوا في خيارها، بل جعلهم في أخس أنواعها، فهم كالقردة في نزواتها، والخنازير في شهواتها، مبعدين من الفضائل الإنسانية، يأتون المنكرات جهارا عيانا بلا خجل ولا حياء، حتى احتقرهم كرام الناس، ولم يروهم أهلا لمعاشرة ولا معاملة[2].

قال ابن عاشور: «وفي ذلك دليل على أن الله تعالى لا يرضى بالحيل على تجاوز أوامره ونواهيه، فإن شرائع الله تعالى مشروعة لمصالح وحكم، فالتحيل على خرق تلك الحكم بإجراء الأفعال على صور مشروعة مع تحقق تعطيل الحكمة منها جراءة على الله تعالى، ولا حجة لمن يتحل جواز الحيل، بقوله تعالى في قصة أيوب: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص:٤٤].

لأن تلك فتوى من الله تعالى لنبي لتجنب الحنث الذي قد يتفادى عنه بالكفارة، ولكن الله لم يرض أصل الحنث لنبيه؛ لأنه خلاف الأولى فأفتاه بما قاله، وذلك مما يعين على حكمة اجتناب الحنث؛ لأن فيه محافظة على تعظيم اسم الله تعالى، فلا فوات للحكمة في ذلك»[3].

---

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١ / ٩٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٥٤٣.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ١ / ٦١، تفسير المنار، محمد رشيد ١ / ٢٨٤، تفسير المراغي ١ / ١٣٨.

(٣) التحرير والتنوير ١ / ٥٤٥.

رابعًا: سخط الله عليهم ولعنهم:

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى لعن بني إسرائيل وغضب عليهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة:٦٠].

يخبر تعالى في هذه الآية عن غضبه على بني إسرائيل وأن جزاءهم على أعمالهم القبيحة هو اللعن والغضب، والمسخ.

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين عابوا على المؤمنين إيمانهم بالله وبما أنزله من كتب سماوية، والذين قالوا لكم: ما نعلم أهل دين أقل حظا في الدنيا والآخرة منكم، ولا دينا شرا من دينكم، قل لهم على سبيل التبكيت والتنبيه على ضلالهم: هل أخبركم بشر من أهل ذلك الدين عقوبة عند الله يوم القيامة؟ هو: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾، أي: أبعده من رحمته، ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾، أي: غضبا لا يرضى بعده أبدا، ﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾، فالقردة: أصحاب السبت، والخنازير: كفار مائدة عيسى عليه السلام، ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾، أي: جعل منهم عبد الطاغوت، أي: أطاع الشيطان فيما سول له، ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾، أي: أولئك المتصفون بما ذكر من الفسوق واللعن والطرد من رحمة الله أولئك المتصفون بذلك شرٌّ مكانًا من غيرهم وأكثر ضلالا عن طريق الحق المستقيم من سواهم، فهم في الدنيا يشركون بالله، وينتهكون محارمه وفي الآخرة مأواهم النار وبئس القرار[(١)].

خامسًا: ضرب الذلة والمسكنة عليهم:

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى ضرب الذلة والمسكنة على بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة:٦١].

بينت الآية قبائح اليهود ودناءة نفوسهم، وأن الله تعالى ضرب عليهم الذلة والمسكنة وهي محيطة بهم كما تظلل الخيمة من فيها، وكانوا نتانى أهل كراث وأبصال وأعداس فنزعوا إلى عكرهم عكر السوء

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢ / ٢٠٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣ / ١٤٢، التفسير الوسيط، محمد طنطاوي ٤ / ٢٠٨.

واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم فقالوا: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾، وذلك أنهم سئموا من المن والسلوى وملوه، فاشتهوا عليه غيره لأن المواظبة على الطعام الواحد تكون سببا لنقصان الشهوة، وإنما قالوا على طعام واحد وهما طعامان؛ لأنهم أرادوا بالواحد ما لا يتبدل ولو كان على مائدة الرجل ألوان عدة يداوم عليها كل يوم لا يبدلها، يقال لا يأكل فلان إلا طعامًا واحدًا ويراد بالوحدة نفي التبدل والاختلاف أو أرادوا أنهما ضرب واحد لأنهما معا من طعام أهل التلذذ والترف وكانوا من أهل الزراعات فأرادوا ما ألفوا من البقول والحبوب وغير ذلك.

﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا﴾، الفوم: الخبز، وقيل: هو الحنطة، وقيل: هو الثوم، ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾، إنما طلبوا هذه الأنواع لأنها تعين على تقوية الشهوة أو لأنهم ملوا من البقاء في التيه، فسألوا هذه الأطعمة التي لا توجد إلا في البلاد وكان غرضهم الوصول إلى البلاد لا تلك الأطعمة[1].

وقوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾، أي: الذي هو أخس وأردا وهو الذي طلبوه، ﴿بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾، يعني بالذي هو أشرف وأفضل وهو ما هم فيه، ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾، يعني إن أبيتم إلا ذلك، فأتوا مصرا من الأمصار، وقيل: بل هو مصر البلد الذي كانوا فيه، ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾، يعني من نبات الأرض[2].

وقوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾، أي: جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم وألزموا الذل والهوان، ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾، أي: الفقر والفاقة، وسمي الفقير مسكينًا؛ لأن الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة، فترى اليهود وإن كانوا أغنياء مياسير كأنهم فقراء، فلا ترى أحدا من أهل الملل أذل ولا أحرص على المال من اليهود.

﴿وَبَآءُو﴾، أي: رجعوا ولا يقال باء إلا بشر، ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وغضب الله إرادة الانتقام ممن عصاه ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: الغضب، ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي بصفة محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم التي في التوراة ويكفرون بالإنجيل والقرآن.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، النبي: معناه المخبر من أنبأ ينبئ، وقيل: هو بمعنى الرفيع مأخوذ من النبوة، وهو المكان المرتفع، ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، أي، بغير جرم[3].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١ / ٤٢٢، مدارك التنزيل، النسفي ١ / ٩٣، لباب التأويل، الخازن ١ / ٤٩.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ١ / ٤٩.

(٣) انظر: المصدر السابق.

سادسًا: تفريقهم في الأرض:

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى فرق بني إسرائيل في الأرض، قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف:١٦٨].

بينت الآية أن الله تعالى فرق بني إسرائيل في الأرض جماعات متفرقة، فقل أرض لا يكون منهم فيها شرذمة وهذا حالهم في كل مكان تحت الصغار والذلة، سواء كان أهل تلك الأرض مسلمين أم كفارا، وقوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾، وفرقناهم فيها، ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، أي: من هؤلاء الذين وصفهم الله من بني إسرائيل صالحون، وهم من آمن بالله ورسوله وثبت منهم على دينه، ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾، ومنهم ناس دون ذلك الوصف منحطون عنه، وهم الكفرة والفسقة، ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، بالنعم والنقم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، لكي يرجعوا إلى طاعة ربهم ويتوبوا إليه[(١)].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٧٣، مدارك التنزيل، النسفي ١ / ٦١٥.

الدروس المستفادة من قصة بني إسرائيل

إن قصة بني إسرائيل في القرآن الكريم فيها الدروس والعظات والعبر الكثير ومنها:

أولًا: إن قصة بني إسرائيل في القرآن الكريم تدور في جملتها حول قضية العقيدة وغرسها في نفوس بني إسرائيل، وإعدادهم للنهوض في حملها وقيادة البشرية، وفي ذلك إشارة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ودعوة لهم لحمل العقيدة بقوة ولا يكونوا كبني إسرائيل.

ثانيًا: إن قصة بني إسرائيل في القرآن الكريم تدور حول محور الأخلاق، فبينت أخلاق بني إسرائيل القبيحة والمهينة، أخلاقهم مع الله جل جلاله، وأخلاقهم مع أنبيائهم، أخلاقهم مع العلماء والدعاة، وفي هذا إشارة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يتجنبوا هذه الأخلاق القبيحة ويحذروا منها.

ثالثًا: إن قصة بني إسرائيل في القرآن الكريم ناقشت البعد الاجتماعي الطائفي الذي يدمر المجتمعات الإنسانية ويستعبدها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ

﴿ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص: ٤-٥].

وفي هذا تحذير للمؤمنين من أسباب الفرقة، ومحاربة الطائفية والحزبية التي تدمر المجتمعات.

رابعًا: إن الفساد والظلم والطغيان والتكبر ونسيان النعم من أسباب الزوال، ولقد ذكر القرآن الكريم نهاية بني إسرائيل، وأن سبب ذلك هو الفساد والعلو والتكبر والظلم والطغيان.

قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾

[الإسراء: ٤-٨].

وهذا يكشف عن العلاقة المباشرة بين مصارع الأمم وفشو الفساد فيها، وفاقا لسنة الله في هلاك الأمم، وذلك أنه إذا قدر الله الهلاك لقرية جعل إفساد المترفين فيها سببا لهلاكها وتدميرها، وفيه تحذير وعبرة لهذه الأمة[1].

خامسًا: إن قصة بني إسرائيل في القرآن الكريم تدور حول بعث موسى عليه السلام إلى فرعون وملأه، وكيف نصره الله على عدوه، ونصر قومه بني إسرائيل، وأهلك عدوهم كشأن سنة الله في نصر الحق على الباطل، وفي ذلك طمأنينة نفوس المؤمنين الصالحين والمستضعفين أن الله تعالى سوف ينصرهم، وتحذيرهم مما يرمي بهم إلى غضب الله فيما يحقرون من المخالفات، لما في ذلك كله من التشابه في تدبير الله تعالى أمور عبيده، وسنته في تأييد رسله وأتباعهم، وإيقاظ نفوس الأمة إلى مراقبة خواطرهم ومحاسبة نفوسهم في شكر النعمة ودحض الكفران[2].

سادسًا: والعبرة الاجتماعية في قصة بني إسرائيل أن الخطاب في كثير من الآيات كان موجها إلى الذين كانوا في عصر التنزيل، وأن الكلام عن الأبناء والآباء واحد لم تختلف فيه الضمائر حتى كأن الذين قتلوا أنفسهم بالتوبة والذين صعقوا بعد ذلك هم المطالبون بالاعتبار وبالشكر، وما جاء الخطاب بهذا الأسلوب إلا لبيان معنى وحدة الأمة، واعتبار أن كل ما يبلوها الله

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢١٢.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٧٩.

به من الحسنات والسيئات، وما يجازيها به من النعم والنقم، إنما يكون لمعنى موجود فيها يصح أن يخاطب اللاحق منها بما كان للسابق، كأنه وقع به؛ ليعلم الناس أن سنة الله تعالى في الاجتماع الإنساني أن تكون الأمم متكافلة، يعتبر كل فرد منها سعادته بسعادة سائر الأفراد وشقاءه بشقائهم، ويتوقع نزول العقوبة إذا فشت الذنوب في الأمة وإن لم يواقعها هو، ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وهذا التكافل في الأمم هو المعراج الأعظم لرقيها؛ لأنه يحمل الأمة التي تعرفه على التعاون على الخير والمقاومة للشر فتكون من المفلحين[(١)].

سابعًا: إن قصة بني إسرائيل في القرآن الكريم بينت عقاب الله تعالى لهم بسبب ما ارتكبوه من انحرافات دينية وأخلاقية واجتماعية، واقترفوه من آثام ونقضوه من مبادئ ووصايا، واستغرقوا فيه من أعراض الحياة الدنيا وبيعهم دينهم وكتابهم بالدنيا، وإن في هذا العقاب الإلهي لعبرة لأولي الألباب، ففي ذلك عظة وذكرى وإنذار للمسلمين ودعوة للاعتبار والازدجار.

كما يستفاد منها أن الشعوب التي تنشأ في مهد الاستعباد تذهب أخلاقها، ويذهب بأسها، وتضرب عليها الذلة والمسكنة وتأنس بالمهانة، وإذا طال عليها الأمد أصبحت تلك الصفات غرائز وطباعا خلقية لها، فإذا خرجوا من بيئتهم ورفع عنهم نير الظلم والاستعباد حنوا إلى ما كانوا فيه، وتاقت نفوسهم إلى الرجوع إليه، وهذا شأن البشر في جميع ما يألفون، ويجرون عليه من خير وشر[(٢)].

ثامنًا: إن قصة بني إسرائيل في القرآن الكريم بينت حال بني إسرائيل في مواجهة الرسل وكشفت مكرهم وكيدهم في إثارة النعرات، وعرت وسائلهم القبيحة وأظهرت نفاقهم والشكوك والتحريفات حول العقيدة، وفي ذلك كله كشف للمجتمع المسلم ليعرف من هم أعداءه، وما طبيعتهم؟ وما تاريخهم؟ وما وسائلهم؟ وما حقيقة المعركة التي تخوضها معهم؟

ولقد علم الله أنهم هم سيكونون أعداء هذه الأمة في تاريخها كله كما كانوا أعداء هدى الله في ماضيهم كله، فعرض لهذه الأمة أمرهم كله مكشوفًا ووسائلهم كلها مكشوفة. فاقتضى هذا أن تلم الأمة المسلمة- وهي وارثة الرسالات كلها وحاضنة العقيدة الربانية بجملتها -بتاريخ القوم، وتقلبات هذا التاريخ وتعرف مزالق

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد ١ / ٢٦٧.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٦ / ٩٤، التفسير الحديث، دروزة محمد عزت ٢ / ٥٢٣.



الطريق، وعواقبها ممثلة في حياة بني إسرائيل وأخلاقهم، لتضم هذه التجربة في حقل العقيدة والحياة - إلى حصيلة تجاربها وتنتفع بهذا الرصيد وتنفع على مدار القرون. ولتتقي -بصفة خاصة- مزالق الطريق، ومداخل الشيطان، وبوادر الانحراف، على هدى التجارب الأولى[1].

تاسعًا: ومن الدروس المستفادة في، قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [البقرة:٨٤].

أي: وإذ أخذنا عليكم العهد: لا يريق بعضكم دم بعض، ولا يخرج بعضكم بعضا من ديارهم وأوطانهم، وقد جعل غير الرجل كأنه نفسه، ودمه كأنه دمه إذا اتصل به دينا أو نسبا، إشارة إلى وحدة الأمة وتضامنها، وأن ما يصيب واحدا منها فكأنما يصيب الأمة جمعاء، فيجب أن يشعر كل فرد منها بأن نفسه نفس الآخرين ودمه دمهم، فالروح الذي يحيا به والدم الذي ينبض في عرقه هو كدم الآخرين وأرواحهم، لا فرق بينهم في الشريعة التي وحدت بينهما في المصالح العامة.

وهذا ما يومئ إليه الحديث: **(إنما المؤمنون في تراحمهم وتعاطفهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى بعضه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر)**[2][3].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢ / ٨٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم ٦٠١١، ٨/ ١٠.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٨٦٨.

موضوعات ذات صلة:

الإسراف، الاقتصاد، الزكاة، المال، المن





عناصر الموضوع

مفهوم البنوة

أولًا: المعنى اللغوي:

ابنٌ: جمعه: أبناءٌ، وبنون «الولد الذكر». والابن: الولد، ولامه في الأصل منقلبةٌ عن واوٍ عند البعض، وقيل في معتل الياء: الابن الولد، فعلٌ محذوفة اللام مجتلبٌ لها ألف الوصل، وإنما قضى أنه من الياء؛ لأن بنى يبني أكثر في كلامهم من يبنو، والجمع أبناء. والاسم البنوة، فالبنوة مصدر الابن. يقال: ابنٌ بين البنوة. ويقال: تبنيته أي ادعيت بنوته. وتبناه: اتخذه ابنًا[1]، وسمي بذلك لأنه بناءٌ للأب، فإن الأب هو الذي بناه، وجعله الله بناءً في إيجاده، ومؤنثه ابنة وبنت، وجمعه بنات[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال فيه الراغب: «يقال لكل ما يحصل من جهة شيء أو من تربيته، أو بتفقده أو كثرة خدمته له أو قيامه بأمره: هو ابنه»[3].

وذكر بعض المفسرين كالشوكاني قوله: «الابن: هو أخص القرابة، وأولاهم بالحماية، والدفع، والنفع، فإذا لم ينفع، فغيره من القرابة والأعوان بالأولى»[4]، وقال فيه الشعراوي: «الابن هو الإنسان الوحيد في الوجود الذي يود أبوه أن يكون الابن أفضل وأحسن حالًا منه، ويتمنى أن يعوض ما فاته في نفسه في ولده، ويتدارك فيه ما فاته من خير»[5].

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٤/ ٨٩.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٦٢- ٦٣.
(٣) المفردات، ص١٤٧.
(٤) فتح القدير، ٤/ ١٢٣.
(٥) تفسير الشعراوي، ١٩/ ١١٦٣٦.



البنوة في الاستعمال القرآني

وردت صيغ مادة «بنو» الدالة على بنوة الأبناء في القرآن الكريم (١٦٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	٤٠	﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ [هود:٤٢]
المثنى	٢	﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٢٧]
الجمع	١٢٠	﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۝١٤٩﴾ [الصافات:١٤٩]

وجاءت مادة (بنو) في القرآن الكريم بمعناها اللغوي، وهو الشيء يتولد عن الشيء، كابن الإنسان وغيره[٢].

قال الله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء:٢٣].

أي: وحلائل أبنائكم الذين ولدتموهم[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي ص١٣٦- ١٣٩.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٠٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٥٦٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الولد:

الولد لغةً:

الولد: كل ما ولد، ويطلق على الذكر والأنثى، والمثنى والجمع، وجمعه: أولادٌ، ولد الشيء من الشيء: أنشأه وأنتجه[١].

الولد اصطلاحًا:

قال الراغب: «الولد:المولود. يقال للواحد والجمع والصغير والكبير»[٢].

الصلة بين الولد والابن:

١. أن الابن يفيد الاختصاص ومداومة الصحبة، و لهذا يقال الناس بنو آدم؛ لأنهم منسوبون إليه، وكذلك بنو إسرائيل.

٢. الابن في كل شئ صغير فيقول الشيخ للشاب:يا بني، ويسمي الملك رعيته الأبناء.

٣. الولد يقتضي الولادة، ولا يقتضيها الابن، والابن يقتضي أبًا، والولد يقتضي والدًا، ولا يسمى الإنسان والدًا إلا إذا صار له ولد.

٤. يطلق اسم الولد حقيقة في ولد الصلب، واستعمال الابن والولد في ابن الابن مجاز.

٥. يطلق الابن على الذكر، ويطلق الولد على الذكر والأنثى، والنسل والذرية يقع على الجميع[٣].

٢ الطفل:

الطفل لغةً:

الطاء والفاء واللام أصله المولود الصغير؛ يقال هو طفلٌ، والأنثى طفلة[٤].

الطفل اصطلاحًا:

الولد الصغير من الإنسان والدواب. وقيل ويبقى هذا الاسم له حتى يميز[٥].

---

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٣/ ٢٨١.
(٢) المفردات، ص٨٨٣.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ١/ ١٢، الكليات، أبو البقاء الكفوي، ص٢٧.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٣٢٢.
(٥) انظر: التوقيف، المناوي، ص٢٢٧.

الصلة بين الطفل والابن:

يكون الابن طفلًا في فترة عمرية معينة، فالطفل يطلق على المولود منذ أن يولد إلى أن يميز.

٣ الصبي:

الصبي لغةً:

يقال:رأيته في صباه أي في صغره، والصبي:من لدن يولد إلى أن يفطم، والجمع أصبيةٌ وصبوةٌ وصبيةٌ[١].

الصبي اصطلاحًا:

قال الراغب: «الصبي:من لم يبلغ الحلم»[٢].

الصلة بين الصبي والابن:

يكون الابن صبيًا في فترة عمرية معينة، فالصبي يطلق على الإنسان منذ أن يميز إلى أن يبلغ الحلم.

٤ الغلام:

الغلام لغةً:

«هو من حين يولد إلى أن يشيب، والجمع أغلمةٌ وغلمةٌ وغلمانٌ»[٣].

الغلام اصطلاحًا:

«يقع هذا الاسم على الصبي من حين يولد على اختلاف حالاته إلى أن يبلغ»[٤].

الصلة بين الغلام والابن:

يكون الابن غلامًا حين تظهر عليه علامات البلوغ.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٤/ ٤٥٠.
(٢) المفردات، ص٤٧٥.
(٣) لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٤٤٠.
(٤) الكليات، أبو البقاء الكفوي، ص٦٧٢.

البنوة بين الفتنة والنعمة

أولًا: البنوة نعمة:

إن الأولاد نعمة عظيمة، وهبة من الله سبحانه قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى:٤٩-٥٠].

كما أن من أعظم نعم الله على الإنسان في هذه الحياة نعمة الأولاد، فهم منحة إلهية، وهبة ربانية، يختص الله بها من يشاء من عباده ولو كان فقيرا، ويمنعها عمن يشاء من خلقه ولو كان غنيًا، والأولاد نعمة يتضح من عدة أوجه:

١. إن من سنن الله تعالى في الأنبياء والرسل أن جعل لهم أزواجًا وذرية.

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد:٣٨].

والله تعالى لا يختار لرسله إلا أكمل الأحوال وأفضلها.

قال ابن كثير رحمه الله: «وكما أرسلناك يا محمد رسولًا بشريًا، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشرًا، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجًا وذرية»[1].

٢. حب الأبناء فطرة.

كما أن النفس الإنسانية مفطورة على حبهم وطلبهم، وقد ذكر سبحانه الأولاد في سياق ذكر النعم فقال سبحانه ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح:١٠-١٢].

٣. الأولاد زينة الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦]فهم زهرتها، يخففون عن آبائهم متاعب الحياة وهمومها، وجودهم في البيت كالأزهار في الحدائق، يضفون عليهم البهجة والسرور، تسر الفؤاد مشاهدتهم، وتقر العين رؤيتهم، وتبتهج النفس بمحادثتهم، وهم بسمة الأمل، وأريج النفس، وريحان القلب، وهم أكبادنا التي تمشي على الأرض.

وقد توجه بعض الأنبياء إلى الله بالدعاء في أن يرزقه الولد وألا يدعه فردًا بلا خلف، فقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء:٨٩].

وقد أثنى الله على نبيه زكريا عليه السلام حيث قال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٦٨.

[مريم:٣]والنداء هنا بمعنى الدعاء.

فالولد نعمة ومتعة من متع هذه الحياة، وهم كما قال عنهم الأحنف بن قيس: «ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة»(١)

ومن تمام النعمة على أهل الجنة أن يلحق الله تعالى بهم ذريتهم وإن قصر عملهم، قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور:٢١].

قال ابن كثير رحمه الله: «يخبر تعالى عن فضله وكرمه وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه، أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بآبائهم في المنزلة، وإن لم يبلغوا عملهم لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته للتساوي بينه وبين ذاك»(٢).

ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾ [غافر:٨].

ومع هذا تكون النعمة ممزوجة بالفتنة، قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ [آل عمران:١٤].

قال ابن كثير رحمه الله: «يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء؛ لأن الفتنة بهن أشد...، وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل في هذا، وتارة يكون لتكثير النسل، وتكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ممن يعبد الله وحده لا شريك له، فهذا محمود ممدوح»(٣)

يقول الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف:٤٦].

يقول الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران:١٤].

يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾ [المدثر:١٢-١٣].

فالأولاد هبة من الله للإنسان يسر الفؤاد بمشاهدتهم وتقر العين برؤيتهم وتبتهج النفس بمحادثتهم فهم زهرة الحياة الدنيا وزينتها، ولكي نعرف قيمة هذه النعمة لننظر

(١) انظر: زهر الآداب، أبو إسحاق القيرواني، ١/ ٦٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤٣٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ١٩ باختصار.

فيمن حرمها ممن ابتلاه الله بالعقم كيف يبذل المستحيل لعله أن يظفر ولو بطفل واحد ليملأ عليه دنياه بهجة وسرورًا.

كما أن الأموال والأولاد نعمة يسبغها الله على عبد من عباده؛ حين يوفقه إلى الشكر على النعمة، والإصلاح بها في الأرض، والتوجه بها إلى الله؛ فإذا هو مطمئن الضمير، ساكن النفس، واثق من المصير؛ فكلما أنفق احتسب وشعر أنه قدم لنفسه ذخرًا، وكلما أصيب في ماله أو بنيه احتسب؛ فإذا السكينة النفسية تغمره. والأمل في الله يسري عنه.

ولقد قرن الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم الأموال والأولاد في أربعة وعشرين موضعًا قدمت فيها الأموال على الأولاد، وفي موضعين قدم الأولاد على الأموال.

وإن المتأمل في الحكم والأسرار ليستنتج أن المال والبنون زينة وتفاخر في الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[الكهف:٤٦].

وقال سبحانه: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾[الحديد:٢٠].

وقال تعالى: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[الكهف:٣٤].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾ [مريم:٧٧].

قال القرطبي رحمه الله: إنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا؛ لأن في المال جمالًا ونفعًا، وفي البنين قوة ودفعًا، فصارا زينة الحياة الدنيا»[1].

وقال السعدي رحمه الله: «أخبر تعالى أن المال والبنين، زينة الحياة الدنيا؛ أي: ليس وراء ذلك شيء، وأن الذي يبقى للإنسان وينفعه ويسره: الباقيات الصالحات»[2].

فالمال والبنون زينة الحياة، والإسلام لا ينهى عن التمتع بالزينة في حدود الطيبات. ولكنه يعطيهما القيمة التي تستحقها الزينة في ميزان الخلود ولا يزيد.

إنهما زينة ولكنهما ليستا قيمة؛ فما يجوز أن يوزن بهما الناس ولا أن يقدروا على أساسهما في الحياة؛ إنما القيمة الحقة للباقيات الصالحات من الأعمال والأقوال والعبادات[3].

وإن من وجوه الإعجاز البياني في القرآن الكريم أن كل لفظة موضوعة بما يتناسب مع سياقها وموضوعها، فترى الكلمة قدمت في موضع وأخرت في موضع آخر تناسبًا مع سياقها وموضوعها وغرضها، فليس التقديم والتأخير والتكرار عبثًا أو هدرًا، ومن ذلك

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٤١٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ٤٧٩.
(٣) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٧٢.

قوله تعالى في آية الكهف: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦].

ونظير ذلك قوله تعالى في آية التغابن: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن:١٥].

في حين أنك تجد تقديم البنين على المال في آية آل عمران في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران:١٤].

والحكمة في هذا التأخير وذاك التقديم أن السياق يقتضيه، فنجد تقديم المال على الولد حيث تكون الفتنة والإغراء والزينة والاستعانة، وذلك لأن المال قوام الحياة والزينة أشد فتنة من فتنة الولد فقدم عليه.

وحينما يكون السياق عن الحب والمحبة يقدم الولد على المال لأنه الأحب إلى الرجل، ولذلك تجد تقديمه على المال في آية آل عمران حيث قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران:١٤].

كما أن من دقائق التعبير القرآني في سورة الإسراء أنه تعالى قدم رزق الأبناء على الآباء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء:٣١].

وفي سورة الأنعام قدم رزق الآباء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:١٥١].

والسر في ذلك أن قتل الأولاد في سورة الإسراء كان خشية وقوع الفقر بسببهم، فقدم تعالى رزق الأولاد.وفي سورة الأنعام كان قتلهم بسبب فقر الآباء فعلا، فقدم رزق الآباء. فلله در التنزيـل ما أروع أسراره![1]

إن سنة الأنبياء والفضلاء التحرز في الدعاء بطلب الولد: فهذا زكريا عليه الصلاة والسلام تحرز فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران:٣٨].

وقال: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم:٦].

وتحرز إبراهيم فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات:١٠٠]

وتحرز المؤمنون فقالوا ما حكى الله تعالى عنهم، ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان:٧٤].

وتحرز الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوته لأنس بن مالك رضي الله عنه فدعا له بالبركة في ماله وولده فقال: **(اللهم أكثر ماله وولده وبارك له في ما أعطيته)**[2].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ١٩٨٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء بكثرة المال مع البركة، رقم ٦٣٧٨.

والولد إذا كان بهذه الصفة كان نفعًا لأبويه في الدنيا والآخرة، وخرج من حد العداوة والفتنة إلى حد المسرة والنعمة.

ثانيًا: البنوة فتنة:

ورد التحذير من فتنة الأبناء في أكثر من موضع من القرآن الكريم منها قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾ [التغابن:١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨﴾ [الأنفال:٢٨].

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾ [التغابن:١٤-١٥].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ [المنافقون:٩].

والمتأمل في كلمة فتنة نجد أنها تحتمل معان منها:

الأول: أن الله يفتنكم بالأموال والأولاد بمعنى يختبركم، فانتبهوا لهذا، وحاذروا وكونوا أبدًا يقظين لتنجحوا في الابتلاء وتخلصوا وتتجردوا لله.

الثاني: أن هذه الأموال والأولاد فتنة لكم توقعكم بفتنتها في المخالفة والمعصية.

والفتنة ليست مذمومة في ذاتها؛ لأن معناها اختبار وامتحان، وقد يمر الإنسان بالفتنة وينجح؛ كأن يكون عنده الأموال والأولاد، وهم فتنة بالفعل فلا يغره المال؛ بل إنه استعمله في الخير، والأولاد لم يصيبوه بالغرور بل علمهم حمل منهج الله، وجعلهم ينشؤون على النماذج السلوكية الصحيحة في الدين؛ لذلك فساعة يسمع الإنسان أي أمر فيه فتنة فلا يظن أنها أمر سيئ؛ بل عليه أن يتذكر أن الفتنة هي اختبار وابتلاء وامتحان، وعلى الإنسان أن ينجح مع هذه الفتنة؛ فالفتنة إنما تضر من يخفق ويضعف عند مواجهتها.

والكافرون لا ينجحون في فتنة الأموال والأولاد، ويأتي يوم لا يملكون فيه هذا المال، ولا أولئك الأولاد؛ وحتى إن ملكوا المال فلن يشتروا به في الآخرة شيئًا، وسيكون كل واحد من أولادهم مشغولًا بنفسه.

يقول الإمام البغوي عند تفسير آية التغابن: «وقال عطاء بن يسار: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، كان ذا أهل وولد، وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورققوه، وقالوا: إلى من تدعنا؟ فيرق لهم ويقيم،

فأنزل الله ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن:١٥].

بلاء واختبار وشغل عن الآخرة، يقع بسببها الإنسان في العظائم ومنع الحق وتناول الحرام»[١].

ويعلق سيد قطب رحمه الله على آية التغابن ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن:١٥].

ويقول: « التنبيه هنا إلى أن من الأزواج والأولاد من يكون عدوًا.. إن هذا يشيرإلى حقيقة عميقة في الحياة البشرية، ويمس وشائج متشابكة ودقيقة في التركيب العاطفي فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله، كما أنهم قد يكونون دافعا للتقصير في تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه فلقي ما يلقاه المجاهد في سبيل الله! والمجاهد في سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير، وتضحية الكثير كما يتعرض هو وأهله للعنت، وقد يحتمل العنت في نفسه ولا يحتمله في زوجته وأولاده فيبخل ويجبن ليوفر لهم الأمن والقرار أو المتاع والمال! فيكونون عدوًا له، لأنهم صدوه عن الخير، وعوقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنساني العليا»[٢].

ومن معان الفتنة في الأولاد أن تكون نقمة يصيب الله بها عبدًا من عباده؛ لأنه يعلم من أمره الفساد والدخل؛ فإذا القلق على الأموال والأولاد يحول حياته جحيمًا، وإذا الحرص عليها يؤرقه ويتلف أعصابه، وإذا هو ينفق المال حين ينفقه في ما يتلفه ويعود عليه بالأذى، وإذا هو يشقى بأبنائه إذا مرضوا ويشقى بهم إذا صحوا. وكم من الناس يعذبون بأبنائهم لسبب من الأسباب! وهؤلاء الذين يملكون الأموال ويرزقون الأولاد، يعجب الناس ظاهرها، وهي لهم عذاب[٣]

وتظهر معالم الفتنة بالأولاد في الصور الآتية:

١ . الانشغال بها عن الآخرة، والاستعداد لها.

فالتفريط في الصالحات، والحرص على المال والأولاد والمحبة الشديدة لهما تدفع إلى الوقوع في المحرمات، التحاسد والتدابر والتباغض، التقاتل على الدنيا وأموالها. ومعها الوقوع في صفتين ذميمتين بسبب الأموال والأولاد هما. البخل والجبن. وقد نبه الرسول صلى الله عليه وسلم عليهما بقوله: (إن الولد مبخلة مجبنة)[٤].

والبخل يدفع إلى الوقوع في المال

(١) معالم التنزيل ٨/ ١٤٣.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧٤.
(٣) انظر: المصدر السابق ٣/ ١٦٦٦.
(٤) المسند الجامع ٢٧ / ١٥٣.

الحرام، وإلى أن تمنع الحقوق الواجبة، وهذا هو الشح المذموم الذي قال الله تعالى عنه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن:١٦].

٢ . البغي والتكبر على الناس.

قال الله عز وجل: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ۝٢٧﴾ [الشورى:٢٧].

وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق:٦-٧].

كما أن هناك من الناس من يعذب بماله وولده في الدنيا قبل الآخرة، وتتحول عنده الأمور التي يحبها الناس ويحرصون على تكثيرها من كونها مصدر نعمة وسعادة إلى أن تكون مصدر نقمة وشقاء وعذاب.

وصدق الله العظيم: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝٨٥﴾ [التوبة:٨٥].

وهذه الآية وإن كانت في المنافقين الكافرين إلا أنه يمكن الاستشهاد بها في هذا المقام للحذر من هذه النهاية.[1]

ولقد حذر الله سبحانه وتعالى من هذه الفتنة في آيتي الأنفال والتغابن.

قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾ [الأنفال:٢٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٥﴾ [التغابن:١٥].

وكلمة ﴿فِتْنَةٌ﴾ تأتي في مثل هذه الموارد بمعنى وسيلة الامتحان، والحقيقة أن أهم وسيلة لامتحان الإيمان والكفر والشخصية وفقدانها وميزان القيم الإنسانية للأفراد هي (المال والأولاد). فكيفية جمع المال وكيفية إنفاقه والمحافظة عليه.

وميزان التعلق به ميزان لامتحان البشر، فكم من أناس يلتزمون بظاهر العبادة وشعائر الدين حتى المستحبات يلتزمون بأدائها، لكنهم إذا ما ابتلوا بقضية مالية تراهم ينسون كل شئ، ويدعون الأوامر الإلهية، ومسائل الحق والعدل والإنسانية جانبًا، هذا من جانب المال.

أما عن الأبناء فهم ثمار قلب الإنسان ويراعم حياته المتفتحة، ولهذا نجد الكثير من الناس المتمسكين بالدين والمسائل الأخلاقية والإنسانية لا يراعون الحق والدين بالنسبة للمسائل المتعلقة بمصلحة أبنائهم، فكأن ستارًا يلقى على أفكارهم فينسون كل الأمور ويصير حبهم لأبنائهم سببًا ليحلوا الحرام ويحرموا الحلال، ومن

(١) انظر: ففروا إلي الله. أبو زر القلموني، ص ٢١٦

أجل توفير المستقبل لأبنائهم يمنعون كل حق ويقدمون على كل منكر، فيجب علينا الاعتصام بالله العظيم في هذين الميدانين العظيمين للامتحان، وأن نحذر بشدة، فكم من أناس زلت أقدامهم وسقطوا فيهما وظلت لعنة التأريخ تلاحقهم أبدًا، فإذا زلت لنا قدم يومًا وجب علينا الإسراع إلى تصحيح المسير.

٣. تحول الأبناء إلى أعداءً

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾[التغابن:١٤].

ربما يكون من الأولاد والنساء من هو عدو للإنسان، فيجب الحذر منهم.

ومعنى ﴿مِنۡ﴾ في ﴿مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ﴾ للتبعيض، وسياق الخطاب بلفظ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وتعليق العداوة بهم يفيد التعليل أي أنهم يعادونهم بما أنهم مؤمنون، والعداوة من جهة الايمان لا تتحقق إلا باهتمامهم أن يصرفوهم عن أصل الايمان، أو عن الأعمال الصالحة كالانفاق في سبيل الله والهجرة من دار الكفر، أو أن يحملوهم على الكفر، أو المعاصي الموبقة كالبخل عن الانفاق في سبيل الله شفقة على الأولاد والأزواج، والغصب واكتساب المال من غير طريق حله. فالله سبحانه يعد بعض الأولاد والأزواج عدوًا للمؤمنين في إيمانه، حيث يحملونهم على ترك الايمان بالله أو ترك بعض الأعمال الصالحة أو اقتراف بعض الكبائر الموبقة، وربما أطاعوهم في بعض ذلك شفقة عليهم وحبًا لهم، فأمرهم الله بالحذر منهم.

فعن أبي جعفر رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ [التغابن:١٤] «وذلك أن الرجل إذا أراد الهجرة تعلق به ابنه وامرأته وقالوا: ننشدك الله أن تذهب عنا فنضيع بعدك، فمنهم من يطيع أهله فيقيم، فحذرهم الله من أبنائهم ونسائهم ونهاهم عن طاعتهم، ومنهم من يمضي ويذرهم ويقول: أما والله لئن لم تهاجروا معي ثم جمع الله بيني وبينكم في دار الهجرة لا أنفعكم بشيء أبدًا»[١].

٤. منع الأبناء عن ذكر الله.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾

[المنافقون:٩].

فلقد خاطب سبحانه المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ﴾ أي لا تشغلكم ﴿أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن الصلوات الخمس المفروضة.

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ص ٢٧١

وقيل. ذكر الله جميع طاعاته، عن أبي مسلم. وقيل: ذكره شكره على نعمائه والصبر على بلائه والرضا بقضائه، وهو إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يغفل المؤمن عن ذكر الله في بؤسٍ كان أو نعمةٍ، فإن إحسانه في الحالات لا ينقطع، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي من يشغله ماله وولده عن ذكر الله ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ: ٣٧].

فإن كثرة الأولاد والأموال لا تعني القرب من الله. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم﴾، خطاب إلى عامة الناس من الكفار وغيرهم، والوجه فيه أن ما ذكره من الحكم - حكم الأموال والأولاد - سواء في ذلك المؤمن والكافر، فالمال والولد إنما يؤثران أثرهما الجميل إذا كان هناك إيمان وعمل صالح وإلا فلا يزيدان الإنسان إلا وبالًا.

كما تكون الأموال والأولاد استدراج وإملاء للكافرين ليزدادوا إثمًا.

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥ - ٥٦].

وعن قتادة رحمه الله قال: (مكر - والله - بالقوم في أموالهم وأولادهم فلا تعتبروا الناس بأموالهم وأولادهم ولكن اعتبروهم بالإيمان والعمل الصالح)[١].

وذلك لأنهم استخدموا أموالهم وأولادهم لأجل الطغيان والاستكبار عن الحق؛ كما قال تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القلم: ١٤].

وأغروا بهما الناس وصدوهم عن سبيل الله؛ كما قال تعالى: عن قوم نوح ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

فذكر أنهم أهل أموال وأولاد؛ إيماء إلى أن ذلك سبب نفاذ قولهم في قومهم وائتمار القوم بأمرهم؛ فأموالهم إذ أنفقوها لتأليف أتباعهم، وأرهبوا بأولادهم من يقاومهم، والمعنى: واتبعوا أهل الأموال والأولاد التي لم تزدهم تلك الأموال والأولاد إلا خسارًا؛ لأنهم استعملوها في تأييد الكفر والفساد فزادتهم خسارًا إذ لو لم تكن لهم أموال ولا أولاد لكانوا أقل ارتكابًا للفساد[٢].

الأموال والأولاد اختبار وامتحان في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: ٢٨].

فهذا تنبيه على الحذر من الخيانة التي يحمل عليها المرء حب المال؛ وهي خيانة

(١) انظر: الدر المنثور، السيوطي ١٠/ ٥٨٢.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ١٩٢.

الغلول وغيرها؛ فتقديم الأموال لأنها مظنة الحمل على الخيانة في هذا المقام، وعطف الأولاد على الأموال لاستيفاء أقوى دواعي الخيانة فإن غرض جمهور الناس في جمع الأموال أن يتركوها لأبنائهم من بعدهم.

وجعل نفس (الأموال والأولاد) فتنة لكثرة حدوث فتنة المرء من جراء أحوالهما؛ مبالغة في التحذير من تلك الأحوال وما ينشأ عنها، فكأن وجود الأموال والأولاد نفس الفتنة، وعطف قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ على قوله: ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ للإشارة إلى أن ما عند الله من الأجر على كف النفس عن المنهيات هو خير من المنافع الحاصلة عن اقتحام المناهي لأجل الأموال والأولاد[١].

والفتنة: هي البلاء والمحنة؛ لأنهم يوقعون في الإثم والعقوبة، ولا بلاء أعظم منهما، وقدمت الأموال على الأولاد لأنها أعظم فتنة[٢].

إن فتنة الأموال والأولاد عظيمة لا تخفى على ذوي الألباب؛ إذ أموال الإنسان عليها مدار معيشته وتحصيل رغائبه وشهواته، ودفع كثير من المكاره عنه؛ من أجل ذلك يتكلف في كسبها المشاق ويركب الصعاب ويكلفه الشرع فيها التزام الحلال واجتناب الحرام ويرغبه في القصد والاعتدال، ويتكلف العناء في حفظها، وتتنازعه الأهواء في إنفاقها، ويفرض عليه الشارع فيها حقوقًا معينة وغير معينة: كالزكاة ونفقات الأولاد والأزواج وغيرهم. ويقول الحق سبحانه عن هذا المغتر بالمال والأولاد وهو كافر بالله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، وهذا مصير يليق بمن يقع في خديعة نفسه بالمال أو الأولاد[٣].

وقال السمرقندي رحمه الله: «إنما ذكر الأموال والأولاد؛ لأن أكثر الناس يدخلون النار لأجل الأموال والأولاد، فأخبر الله تعالى أنه لا ينفعهم في الآخرة؛ لكيلا يفني الناس أعمارهم لأجل المال والولد؛ وإنما ذكر الله تعالى الكفار، لكي يعتبر بذلك المؤمنون»[٤].

فعلى العاقل أن يعتبر بالآيات ولا يغتر بكثرة الأعداد من الأموال والأولاد وعدم اجتهاده؛ لمعاده فإن الله يمتعه قليلًا ثم يضطره إلى عذاب غليظ[٥].

الأموال والأولاد قد تقعد المسلم عن العمل لدين الله والاستجابة خوفًا وبخلًا. والحياة التي يدعو إليها الإسلام حياة كريمة، لا بد لها من تكاليف، ولا بد لها من تضحيات؛ لذلك يعالج القرآن هذا الحرص

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٧٩.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٢٠٩.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي ١١٤٢
(٤) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٢٢١.
(٥) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ١/ ١٢.

بالتنبيه إلى فتنة الأموال والأولاد - فهي موضع ابتلاء واختبار وامتحان - وبالتحذير من الضعف عن اجتياز هذا الامتحان، ومن التخلف عن دعوة الجهاد وعن تكاليف الأمانة والعهد والبيعة؛ واعتبار هذا التخلف خيانة لله والرسول، وخيانة للأمانات التي تضطلع بها الأمة المسلمة في الأرض؛ وهي إعلاء كلمة الله وتقرير ألوهيته وحده للعباد، والوصاية على البشرية بالحق والعدل ومع هذا التحذير التذكير بما عند الله من أجر عظيم يرجح على الأموال والأولاد، التي قد تقعد الناس عن التضحية والجهاد[1].

فإذا انتبه القلب إلى موضع الامتحان والاختبار، كان ذلك عونًا له على الحذر واليقظة والاحتياط؛ أن يستغرق وينسى ويخفق في الامتحان والفتنة. ثم لا يدعه الله بلا عون منه ولا عوض... فقد يضعف عن الأداء بعد الانتباه؛ لثقل التضحية وضخامة التكليف وبخاصة في موطن الضعف في الأموال والأولاد؛ إنما يلوح له بما هو خير وأبقى، ليستعين به على الفتنة ويتقوى.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. إنه سبحانه هو الذي وهب الأموال والأولاد... وعنده وراءهما أجر عظيم لمن يستعلي على فتنة الأموال والأولاد، فلا يقعد أحد إذن عن تكاليف الأمانة وتضحيات الجهاد[2].

ومن أجل ذلك حذر الله المؤمنين من الاشتغال بالأموال والأولاد عن ذكره فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون:٩].

خص الأموال والأولاد بتوجه النهي عن الاشتغال بها اشتغالًا يلهي عن ذكر الله؛ لأن الأموال مما يكثر إقبال الناس على إنمائها والتفكير في اكتسابها؛ بحيث تكون أوقات الشغل بها أكثر من أوقات الشغل بالأولاد. ولأنها كما تشغل عن ذكر الله بصرف الوقت في كسبها ونمائها، تشغل عن ذكره أيضًا بالتذكير لكنزها؛ بحيث ينسى ذكر ما دعا الله إليه من إنفاقها.

وأما ذكر الأولاد فهو إدماج؛ لأن الاشتغال بالأولاد والشفقة عليهم وتدبير شؤونهم وقضاء الأوقات في التأنس بهم من شأنه أن ينسي عن تذكر أمر الله ونهيه في أوقات كثيرة فالشغل بهذين أكثر من الشغل بغيرهما.

وفيه أن الاشتغال بالأموال والأولاد الذي لا يلهي عن ذكر الله ليس بمذموم[3].

وهنا نلحظ أنه قدم في سورتي آل عمران والتوبة البنون على الأموال، قال تعالى في

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٩٧.

(٢) انظر: المصدر السابق ٣/ ١٥١٧

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٢٢٥.

آل عمران: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران:١٤].

وقال في التوبة: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾ [التوبة:٢٤]

فعندما يذكر سبحانه الحب الفطري يؤخر الأموال؛ لأن الأموال تترك للأبناء؛ يعمل ويكد ويعلم أنه ميت ويترك الأموال للأبناء.

أما في مواطن الإلهاء فقدم الأموال على الأولاد مع أن حب الأولاد أكثر لكن الالتهاء بالمال يكون أكثر؛ لذا قدم الأموال على الأولاد للتحذير.

قال أبو حيان رحمه الله: (لما كان المال في باب المدافعة والتقرب والفتنة أبلغ من الأولاد قدم، بخلاف قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ﴾؛ فإنه ذكر هنا حب الشهوات، فقدم فيه البنين على ذكر الأموال)[1]. فالفتنة بالمال أكثر؛ لأنه يعين على تحصيل الشهوات المحرمة بخلاف الأولاد، فإن الإنسان قد يفتن بهم ويعصي الله من أجلهم، ولكن الفتنة بالمال أكثر وأشد، ولهذا بدأ سبحانه بالأموال قبل الأولاد كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ [سبأ:٣٧].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [التغابن:١٥].

وقوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ [المنافقون:٩].

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٢٩٥.

حقوق الأبناء

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء:١].

الأولاد أمانة ومسؤولية عند الوالدين، كلفهما الله بحفظها ورعايتها، وأوصاهما بتربيتهم تربية صالحة في دينهم ودنياهم، وهم أولى الناس بالبر وأحقهم بالمعروف، والأبوان مسؤولان بين يدي الله عن تربية أبنائهم، قال صلى الله عليه وسلم: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالرجل راع في بيته وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها، وهي مسؤولة عن رعيتها)[1]

وما دام الأولاد نعمة ومتعة وزينة، فإن الإسلام رتب لهؤلاء الأبناء حقوقًا من قبل الآباء، وهي حقوق تقضي بها الفطرة السوية، ولكن الإسلام مع هذا وضع الضوابط والقواعد التي تحافظ عليها، وتحول دون التفريط فيها أو إساءة القيام بها»[2]

والعناية بها في ظلال القرآن والسنة، منذ كان نطفة ثم جنينا ثم بعد الولادة حتى البلوغ، ومنها حق النسب، وحق اختيار الاسم الحسن، وحق الرضاع والحضانة، وحق التربية، وحق النفقة، وغيرها مذكرا أنه تعالى خلق الجميع من نفس واحدة نصت عليه الآية السابقة.

وعندما أرسل الله تعالى الرسل جعل لهم أزواجًا وذرية، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد:٣٨].

وقد بين القرآن الكريم أن الأبناء زينة الحياة الدنيا ومتاعها، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «المال والبنون حرث الدنيا والأعمال الصالحة حرث الآخرة، وقد يجمعها لأقوام».

وأخبرنا المولى تعالى أن بعض الأنبياء توجه إليه بالدعاء في أن يرزقه الولد وألا يدعه فردًا بلا خلف، فقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء:٨٩].

وقد أثنى الله على نبيه زكريا عليه السلام حيث قال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، ٢/ ٥، رقم ٨٩٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، ٣/ ١٤٥٩، رقم ١٨٢٩.

(٢) انظر: حقوق الأولاد قبل الوالدين، بحث أعده د. عبد الحميد الأنصاري، بحولية كلية الشريعة، جامعة قطر، العدد الثاني عشر ١٤١٥هـ، ص ٣١١.

[مريم:٣]. والنداء هنا بمعنى الدعاء.

أولاً: حقوق مادية:

١ . حق الحياة.

قال تعالى: و ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩﴾ [التكوير:٨-٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٥٩﴾ [النحل:٥٨-٥٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ﴾ [الأنعام:١٥١].

وقال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ [النساء:٩٢].

والإجهاض من أنواع قتل الولد، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩﴾ [التكوير:٨-٩].

وفي الحديث الصحيح سئل عليه الصلاة والسلام أي الذنب أعظم؟ قال (أن تجعل لله ندًا وهوالذي خلقك، ثم قيل أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك)[1].

وأن الله سبحانه وتعالى حينما أمر النبي أن يبايع النساء بايعهن على أن: ﴿لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾ [الممتحنة:١٢].

٢ . حق رضاعة الطفل.

قال تعالى: ﴿۞وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝٢٣٣﴾ [البقرة:٢٣٣].

ومنه إحضار مرضعة إذا لم ترض الأم المطلقة أن ترضع طفلها.

قال تعالى: ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ۝٦﴾ [الطلاق:٦].

التشاور مع الأمهات في عملية الفطام، أي: الفصال التي يحكمها ألا تقل عن عامين.

وفي هذا قال تعالى ﴿فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا﴾ [البقرة:٢٣٣].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (فلا تجعلوا لله أندادا)، ٦/ ١٨، رقم ٤٤٧٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، ١/ ٩٠، رقم ٨٦.

٣. حق الإنفاق عليهم.

ويشمل الطعام والكسوة.

قال تعالى ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٣٣].

٤. حق الميراث.

وقد شرع الله عز وجل في ذلك نظامًا فريدًا، يحفظ لكل ذي قرابة حقه دون نقص أو زيادة.

ثانيًا: حقوق معنوية:

لقد عني القرآن بتنمية الشعور الفطري الذي ينشأ من خلال الرابطة الأسرية والمحافظة عليها وتقويتها فحدد دائرة معينة من الأقارب حرم فيها الزواج سموًا بهذه القرابة ووقاية لهذه القلوب المتآلفة من شواهد الخصومة والبغضاء التي تنشأ من خلال الممارسات اليومية.

فقال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء:٢٣].

١. حق النسب.

فإن الإسلام يقرر حفظ الأنساب، لذلك أمر الله بالزواج وحرم السفاح.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾﴾ [النور:٦-٩].

كما قرر القرآن تحريم التبني في موضعين:

أحدهما: بسلوك النبي العملي ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

والآخر: توجيهي في قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾﴾ [الأحزاب:٥].

كما منع الإسلام الزواج من زوجات الأبناء.

قال تعالى: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ

﴿مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء:٢٣].

دققوا في تشديد الإسلام على صفاء النسب، وعلى عدم اختلاط الأنساب.

٢. حق صلة الأرحام.

وقرر استمرارها بالبر والزيارة والتعهد والرعاية فقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء:٣٦].

وجعل قطيعتها من خصال الكافرين، ومن الفساد الذي نهى عنه الإسلام.

قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محمد:٢٢].

٣. حق التربية.

ويتاكد هذا في أكثر من موضع، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣].

ولهذا فإن من أعظم الأعمال التربية الصحيحة للأبناء، لأنهم استمرار للمرء، وله صدقة جارية لا تنقطع.

واجبات الأبناء

أوصى الله تعالى بالآباء خيرًا، وأوجب لهم على أبنائهم حقوقًا، منها معنوية؛ كتوقيرهما، والتلطف في مخاطبتهما، وعدم التأفف منهما، وأخرى ومادية؛ كالنفقة بالمعروف على الموسر.

وإن كان الله تعالى قد أمر: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء:٢٣].

فإنه يجمع بين الحق المعنوي والمادي للآباء على الأبناء، وورد النص بأن لهم حقًا ثابتًا في أموال أبنائهم، حيث إن حصولهم على هذا الحق وتمكينهم منه واجب ماديٌ على الأبناء، وجعل ذلك لهم بمثابة الكسب الحلال الذي لا ينازعون في أخذه، ولا فضل ولا منة لأحدٍ فيه عليهم يترك أثرًا معنويًا حسنًا في نفوسهم.

قال تعالى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء:١١].

أولًا: واجبات مادية:

وقد قضت الشريعة الغراء بأن للأب أن يأخذ من مال ابنه مقدار حاجته بكرامةٍ وعزة نفس لا يتبعها أذىً ولا منة، كيف وهو في ذلك إنما يأكل من كسبه الطيب، ويأخذ من حقه الثابت.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أن

رجلًا قال: يا رسول الله إن لي مالًا وولدًا، وإن أبي يريد أن يجتاح مالي. فقال عليه الصلاة والسلام: (**أنت و مالك لأبيك**)[1].

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أن رجلًا أتى النبي صلى الله عليه و سلم، فقال: إن لي مالًا، وإن والدي يحتاج إلى مالي، قال: (**أنت ومالك لوالدك، إن أولادكم من أطيب كسبكم، كلوا من كسب أولادكم**)[2].

ولا فرق بين الأب والأم في أن لكل منهما الحق في أن يأخذ من مال ولده، لما روي عن عمارة بن عمير، عن عمته، أنها سألت عائشة رضي الله عنها: في حجري يتيم أفآكل من ماله؟ فقالت أم المؤمنين: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**إن من أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وولده من كسبه**)[3].

أما وقد تقرر ذلك فلا بد من الإشارة إلى أن بعض أهل العلم ذهبوا إلى أن للأب الأخذ من مال ولده بدون قيدٍ أو حدٍ، لحاجته وفوق حاجته، سواء رضي بذلك الابن أم لم يرض.

قال الشوكاني رحمه الله في شرح حديث أم المؤمنين رضي الله عنها: «يدل على أن الرجل مشاركٌ لولده في ماله، فيجوز له الأكل منه سواء أذن الولد أو لم يأذن، ويجوز له أيضًا أن يتصرف به كما يتصرف بماله، ما لم يكن ذلك على وجه السرف والسفه»[4].

واعترض على من ذهب هذا المذهب بما رواه الحاكم بإسنادٍ صححه، وقال: هو على شرط الشيخين، عن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**إن أولادكم هبة الله لكم، يهب لمن يشاء إناثًا، ويهب لمن يشاء الذكور، فهم وأموالهم لكم إذا احتجتم إليها**)[5].

وإن كان العقل والاعتبار يشهدان لمذهب تقييد حق الأب في مال ابنه بمقدار الحاجة لا غير، إذ لو كان معنى قوله: (**أنت ومالك لأبيك**) على ظاهره وإطلاقه لاستحق الأب الاستئثار بمال ولده بعد وفاته

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، ٢/ ٧٦٩، رقم ٢٢٩١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣١١، رقم ١٤٨٦.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١١/ ٢٦١، رقم ٦٦٧٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣١١، رقم ١٤٨٧.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، أبواب الإجارة، باب في الرجل يأكل من مال ولده، ٣/ ٢٨٨، رقم ٣٥٢٨.

(٤) نيل الأوطار ٥/ ٣٩.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٢/ ٢٨٤.
قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٥٦٤.

لا يشركه فيه غيره من الورثة، و لكانت عليه زكاته في حياته إن قصر في أدائها الولد، و ليس الأمر كذلك.

قال ابن الهمام الحنفي بعد ذكر حديث عائشة المتقدم: (ومما يقع بأن الحديث يعني أنت ومالك لأبيك ما أول أنه تعالى ورث الأب من ابنه السدس مع ولد ولده، فلو كان الكل ملكه لم يكن لغيره شيء مع وجوده)[1].

قال ابن قدامه رحمه الله: «وللأب أن يأخذ من مال ولده ما شاء مع غناه وحاجته بشرطين:

أحدهما: أن لا يجحف بالإبن، و لا يأخذ ما تعلقت به حاجته.

الثاني: أن لا يأخذ من مال أحد ولديه فيعطيه لآخر؛ لأن تفضيل أحد الولدين غير جائز، فمع تخصيص الآخر بالأخذ منه أولى. فإذا وجد الشرطان جاز الأخذ»[2].

فليتق الأبناء والآباء ربهم فيما أعطوا و ما تركوا، و لا يجاوزن أحدهم حدود ما شرعه الله تعالى له، فإنه ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء:١٤].

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٢٩].

(١) انظر: فتح القدير، ابن الهمام ص٢٣٥.
(٢) انظر: الكافي ٢ / ٤٧١.

واجبات معنوية:

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء:٢٣]

يتناول القرآن الكريم كيفية تعاطي الأبناء مع الوالدين، كشكلٍ من أشكال العلاقات التي يبنيها الإنسان في حياته، فهناك من ينفتح على الله وعلى أجواء الصلاح في علاقته بهما، ليبقى معهما في خط الصلاح في شبابه، كما كان كذلك في طفولته، وهناك من ينغلق عن الله ويصم أذنيه عن سماع ندائهما الذي يدعوه إليه.

يقول تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف:١٥].

أن يحسن إليهما، وأن يتطلع، بعمقٍ وانفتاح وإنسانيةٍ، إلى الجهد الذي بذلاه في تربيته، بما لم يبذله أحدٌ معه، ولم يقدمه إليه إنسانٌ، ولا سيما الأم التي تتحمل الجهد الجسدي الشاق في حمله وولادته ورضاعه، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف:١٥].

فكان حملها له مشقة ومعاناة ثقيلة تواجه فيها حالة صحية صعبة، حيث يتغير مزاجها، ويضطرب وضعها الجسدي بكل أجهزته، وكانت ولادته حركة آلام قاسية في مكابدة

الجهد والخطر على الحياة، ولكنها بالرغم من حالة الكره الطبيعي للإحساس الجسدي بالثقل والألم والمعاناة، تتقبل ذلك كله بالرضى والحنان والعاطفة، فتحتضن ولدها بالعاطفة الدافقة الطاهرة، وتستمر في رعايته في حمله ورضاعه.

وتستمر الرعاية مدة طويلةً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾، عندما تشتد قواه ﴿وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾، وهي المدة التي يقوى فيها جسده، ويكمل فيها عقله، وتهدأ فيها شهواته، وتتوازن فيها انفعالاته، ويبدأ بالتطلع إلى نعمة الله عليه في حركة وجوده، بكل تفاصيلها الصغيرة والكبيرة، ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [النمل:١٩].

أي: اجعلني أعيش وعي النعمة، إلهامًا روحيًا، يلزمني بمسؤولية الشكر لك قولًا وفعلًا يلتزمان سبل رضاك ومواقعه وغاياته، وبما يحولها إلى طاقةٍ حيةٍ منفتحةٍ على مواقع القرب منك والحب والصدق لك.

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، الأخوة، الأمومة، التبني





عناصر الموضوع

مفهوم بيت النبوة

أولًا: المعنى اللغوي:

بالنظر في مصطلح (بيت النبوة) نجد أنه مركبٌ إضافي يتكون من كلمة (بيت) وكلمة (النبوة) ولا بد من تعريف كل كلمة على حدة، ثم يعرف المركب كله بعد ذلك.

أما كلمة (بَيْت) فأصلها: مأوى الإنسان بالليل؛ لأنه يقال: بات: أقام بالليل، كما يقال: ظل بالنهار، ثم قد يقال للمسكن بيت من غير اعتبار الليل فيه، وجمعه أبيات وبيوت، لكن البيوت بالمسكن أخص، والأبيات بالشِعْر... وعبر عن مكان الشيء بأنه بيته، وصار أهل البيت متعارفًا في آل النبي صلى الله عليه وسلم[1]

وأما النبوة فمختلف فيها، هل هي من النبأ أو من النبوة؟ فإن كانت من النبأ فهي متروكة الهمزة، وإن كانت من النبوة فهي على أصلها، قال ابن السكيت: «النبي وهو من أنبأ عن الله عز و جل فترك همزه، وإن أخذته من النبوة وهو الارتفاع من الأرض، أي: شرف على سائر الناس، فأصله غير الهمز»[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفها ابن حزم بأنها «الوحي من الله تعالى بأن يعلم الموحى إليه بأمرٍ ما يعلمه لم يكن يعلمه قبل»[3]

أقول: وإذا كانوا عرفوا النبي بأنه «من اختصه الله سبحانه و تعالى بسماع وحي بحكم شرعي تكليفي سواء أمر بتبليغه أم لا»[4] فإنه يمكن أن تعرف النبوة بأنها إيحاء الله تعالى إلى نبي من الأنبياء بأي طريقٍ من طرق الوحي بحكم أو شرعٍ، أمر بتبليغه أو لم يؤمر.

بيتُ النبوة كمركب إضافي:

أما إذا أردنا تعريف مصطلح (بيت النبوة) باعتباره مركبًا إضافيًا، فيكون تعريفه باعتبار مفرداته؛ فهو المنزل الذي كان ينزل فيه الوحي على أي نبي من الأنبياء.

وشاع إطلاقه على أسرة نبينا صلى الله عليه وسلم من شخصه وأقاربه.

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٥.

(٢) إصلاح المنطق ص ١٥٨.

(٣) المحلى، ١/ ٥٠.

(٤) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١/ ١٦٢.

بيت النبوة في الاستعمال القرآني

لم يرد مصطلح (بيت النبوة) في الاستعمال القرآني.

وقد عبّر عن القرآن عن معناه بألفاظ أخرى، وهي:

١. **بيوت النبي**: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب:٥٣].

٢. **أهل البيت**: قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب:٣٣].

٣. **نساء النبي**: قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [الأحزاب:٣٢].

الألفاظ ذات الصلة

١ أهل البيت:

أهل البيت لغة:

«أهل الرجل: من يجمعه وإياهم نسب أو دين، أو ما يجري مجراهما من صناعة وبيت وبلد، وأهل الرجل في الأصل: من يجمعه وإياهم مسكن واحد، ثم تجوز به فقيل: أهل الرجل لمن يجمعه وإياهم نسب، وتعورف في أسرة النبي صلى الله عليه وسلم مطلقًا -إذا قيل: أهل البيت- لقوله عز و جل ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب:٣٣]. وعبر بأهل الرجل عن امرأته»[(١)].

بل صرح بعضهم بأن أهل البيت «عبارة عن النساء، الواحد والجمع فيه سواء. ولكن الضمير الذي يرجع إليه يكون جمعًا ومذكرًا اجتنابًا عن التصريح، لأجل حرمة النساء»[(٢)].

أهل البيت اصطلاحًا:

«كل من يكون من ألزام النبي صلى الله عليه وسلم من الرجال والنساء والأزواج والإماء والأقارب، وكلما كان الإنسان منهم أقرب وبالنبي صلى الله عليه وسلم أخص وألزم كان بالإرادة أحق وأجدر»[(٣)].

الصلة بين بيت النبوة وأهل البيت:

لفظان مترادفان، فأهل البيت، هم بيت النبوة.

٢ آل البيت:

آل البيت لغة:

الآل: «أهل الرجل وعياله أيضًا: أتباعه وأولياؤه»... وأصله أهلٌ، أبدلت الهاء همزةً، فصارت: أألٌ، توالت همزتان، فأبدلت الثانية ألفًا فصار: آل. وتصغيره: أويلٌ وأهيلٌ»[(٤)].

«وقد ورد الآل في القرآن على ثلاثة أوجهٍ:

الأول: بمعنى القوم والتبع: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١﴾ [القمر:٤١]

الثاني: بمعنى أهل البيت والحاضرين من أهل القوت والنفقة: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ [القمر:٣٤]

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٩.
(٢) مفردات القرآن، الفراهي، ص ٢٥٩.
(٣) نظم الدرر، البقاعي ٦/ ١٠٢، السراج المنير، الشربيني ٣/ ٣٠٦.
(٤) تاج العروس، الزبيدي ٢٨/ ٣٧.



الثالث: بمعنى القرابة والذرية الكلية: ﴿وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ﴾ [آل عمران: ٣٣]. ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ [مريم: ٦].

ويستعمل فيمن يختص بالإنسان (اختصاص ذاته) إما بقرابة قريبة، أو بموالاة.

آل البيت اصطلاحًا:

وآل النبي: أقاربه. وقيل: المختصون به من حيث العلم. وذلك أن أهل الدين ضربان: ضرب مختص بالعلم المتقن والعمل المحكم. فيقال لهم: آل النبي وأمته وضرب مختصون بالعمل على سبيل التقليد.

ويقال لهم: أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولا يقال لهم: آل النبي. وكل آل النبي أمته، وليس كل أمته آله. وقيل لجعفر الصادق: الناس يقولون: المسلمون كلهم آل النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال: صدقوا وكذبوا. فقيل: ما معناه؟ قال: (كذبوا في أن الأمة كافتهم آله، وصدقوا أنهم إذا قاموا بشرائط شريعته فهم آله»[1] وآل البيت أصبح علمًا على آل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

الصلة بين بيت النبوة والآل البيت:

آل البيت أعم من بيت النبوة، فـ(آل البيت) يشمل زوجاته صلى الله عليه وسلم، وقرابته، سواء الذي كانوا في حياته، أو الذين جاؤوا بعد مماته.

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ١٦٢ .

رعاية الله تعالى لبيت النبوة

بيت النبوة محط أنظار الأمة، وموطن قدوتها، لذلك حظي برعاية خاصة من المولى عز و جل، تتمثل هذه العناية في إرادة الله تعالى تطهيرهم، وفي مجموعة وصايا أمر الله بها أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.

أولًا: إرادة الله تعالى تطهير بيت النبوة:

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣].

هذا جزء آية، بدايتها ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ جاءت ضمن مجموعة وصايا وتوجيهات لنساء النبي صلى الله عليه وسلم فجاءت هذه في خاتمتها لتكون بمثابة التعليل لها، فكأنه قال: إنه أمركم بهذه الأوامر إرادة إذهاب الرجس عنكم، وإرادة تطهيركم. ولئلا يقارف أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم المآثم، ولتصونوا عنها بالتقوى[1].

فيخبر المولى عز و جل بأسلوب الحصر أنه يريد إذهاب الرجس عن أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ويريد تطهيرهم، والقصر قصر قلب، والمعنى: «ما يريد الله لكن مما أمركن ونهاكن إلا عصمتكن من النقائص وتحليتكن بالكمالات ودوام ذلك، أي: لا يريد من ذلك مقتًا لكن ولا نكاية»[2].

بعد جملة توجيهات لهذا البيت الطاهر، بيت النبي صلى الله عليه وسلم تأتي هذه الجملة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا﴾ فالتكاليف فيها مشقة على النفس الإنسانية، فتأتي مثل هذه التعليلات لتخففها على النفس، فالإنسان إذا علم الحكمة من التكليف، والغاية السامية التي ترتب عليه خفت شدته عليه، ويسر أمره، «وفي التعبير إيحاءاتٌ كثيرةٌ، كلها رفاف، رفيق، حنون؛ فهو يسميهم ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ بدون وصفٍ للبيت ولا إضافة. كأنما هذا البيت هو البيت الواحد في هذا العالم، المستحق لهذه الصفة. فإذا قيل: «البيت» فقد عرف وحدد ووصف... فالتعبير عن بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك تكريم وتشريف واختصاص عظيم.

وهو يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا﴾.. وفي العبارة تلطف ببيان علة التكليف وغايته. تلطفٌ يشي بأن الله سبحانه و تعالى يشعرهم بأنه بذاته العلية يتولى تطهيرهم وإذهاب الرجس عنهم. وهي

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٤٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٤٦.

رعاية علوية مباشرة بأهل هذا البيت»[١].

وأهل البيت في هذه الآية يشمل أزواجه صلى الله عليه وسلم ومن ذكر في الحديث من ذريته وقرابته، فعن عائشة قالت: (خرج النبي صلى الله عليه وسلم غداة وعليه مرط مرحل [٢] من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾)[٣].

وعن عمر بن أبي سلمة ربيب النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ في بيت أم سلمة، فدعا فاطمة وحسنًا وحسينًا فجللهم بكساء[٤] وعليٌّ خلف ظهره، فجللهم بكساء، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا، قالت: أم سلمة وأنا معهم يا نبي الله؟ قال: أنت على مكانك، وأنت على خير)[٥].

قيل: «لم يدخلها لاستغنائها بظاهر الكتاب، فليطمئن قلبها»[٦].

وفي بعض الروايات تقول السيدة أم سلمة رضي الله عنها: (فأدخلت رأسي البيت، فقلت: وأنا معكم يا رسول الله، قال: إنك إلى خير، إنك إلى خير)[٧].

وقد اختلف العلماء في ذلك، فذهب بعضهم إلى أن الآية خاصة بأزواجه صلى الله عليه وسلم لأن الآية نزلت فيهن ابتداءً، وذهب آخرون إلى أنها خاصة بذريته صلى الله عليه وسلم للحديث المتقدم.

و«توسطت طائفةٌ بين الطائفتين فجعلت هذه الآية شاملةً للزوجات ولعليٍ وفاطمة والحسن والحسين؛ أما الزوجات فلكونهن المرادات في سياق هذه الآيات، ولكونهن الساكنات في بيوته النازلات في منازله، وأما دخول عليٍ وفاطمة والحسن والحسين فلكونهم قرابته وأهل بيته في النسب، ويؤيد ذلك ما ورد من الأحاديث المصرحة بدخولهم»[٨].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٦٢.

(٢) المرط: كساء من صوف أو غيره كانوا يأتزرون بها.
انظر: غريب الحديث، ابن الجوزي ٢/ ٣٥٣.
المرحل: الذي قد نقش فيه تصاوير الرحال.
انظر: غريب الحديث، ابن الجوزي ١/ ٣٨٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضائل أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، ٤/ ١٨٨٣، رقم ٢٤٢٤.

(٤) ألبسهم إياه.
انظر: غريب الحديث، الحربي ١/ ١١٧.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب سورة الأحزاب، ٥/ ٣٥١، رقم ٣٢٠٥.
وقال: هذا حديث غريب من حديث عطاء عن عمر بن أبي سلمة.

(٦) درج الدرر، الجرجاني ٣/ ١٤٠٨.

(٧) أخرجه أحمد، ٦/ ٢٩٢، رقم ٢٦٥٥١.

(٨) انظر: تحفة الأحوذي، المباركفوري ٩/ ٤٩.

ودخول أزواجه فيهم أمر لم يخالف فيه إلا الرافضة، وهم مردود عليهم، «والتحقيق أنهن داخلات في الآية، وإن كانت الآية تتناول غيرهن من أهل البيت. أما الدليل على دخولهن في الآية، فهو أن سياق الآية صريحٌ في أنها نازلة فيهن، والتحقيق: أن صورة سبب النزول قطعية الدخول.

وأما الدليل على دخول غيرهن في الآية، فهو الأحاديث التي تنص على دخول علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنه. وبما ذكر من دلالة القرآن والسنة، تعلم أن الصواب شمول الآية الكريمة لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ولعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنه كلهم»[1].

وقد اختلف في المراد بالرجس هنا على أقوال كثيرة، فقيل: «الإثم، وقيل: الشرك، وقيل: الشيطان، وقيل: المعاصي، وقيل غير ذلك»[2].

والمعاني كلها متقاربة، ولا يوجد تعارض بينها، ولعلها كلها مرادة.

فإذهاب الرجس إزالة الأقذار العالقة، والتطهير: صيانة عن الأقذار التي يمكن أن تلحق الإنسان، وفي الجمع بين إرادة إذهاب الرجس وإرادة التطهير «لطيفة، وهي أن الرجس قد يزول عينًا ولا يطهر المحل؟

فقوله تعالى: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي: يزيل عنكم الذنوب، ويطهركم أي يلبسكم خلع الكرامة»[3]

ثانيًا: وصايا الله تعالى لنساء بيت النبوة:

وإذا كان للبيت النبوي الشريف خصوصياته وفضائله فإن عليه أيضًا تكاليف كثيرة، وقد ذكر في سورة الأحزاب مجموعة من التكاليف والوصايا التي أمر بها نساء هذا البيت الشريف.

ذكرت هذه التكاليف في قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب: ٣٢-٣٤].

وهذه التكاليف وإن كانت عامة في كافة النساء إلا أنها أكدت في حق نساء هذا البيت لمكان القدوة عندهن.

ولنتناول هذه التكاليف بشيء من

---

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٢٣٧.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٠١.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٨١.

الإيضاح الذي يجليها.

١ . النهي عن إلانة القول، والأمر بالقول المعروف.

تبدأ الآية الكريمة بنداء أمهات المؤمنين بأفضل وصف لهن، وهو وصفهن بـ ﴿يَنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ ثم تذكرهن بمكانتهن، وتخبرهن أن مكانتهن عالية جدًا، ومنزلتهن رفيعة وذلك في حال ما إذا التزمن التقوى، ثم ينهاهن ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ ويأمرهن ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ وفي تذكيرهن بهذه المكانة وأنهن لسن كبقية لنساء لتنبيههن إلى أنه ينبغي أن يبالغن في امتثال هذه التكاليف، فهو توجيه لهيئة الكلام بأن يكون في غير ميوعة ولينٍ، ولموضوع الكلام، فيما هو متعارف عليه بين الناس.

والمعنى «لا تلين القول، فيطمع الذي في قلبه فجور ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ صحيحًا لا يطمع فاجرًا»[١].

وهذا تحذير من هيئة الكلام «فإن الناس متفاوتون في لينه، والنساء في كلامهن رقةٌ طبيعيةٌ وقد يكون لبعضهن من اللطافة ولين النفس ما إذا انضم إلى لينها الجبلي قربت هيئته لهيئة التدلل لقلة اعتياد مثله إلا في تلك الحالة. فإذا بدا ذلك على بعض النساء ظن بعض من يشافهها من الرجال أنها تحبب إليه، فربما اجترأت نفسه على الطمع في المغازلة فبدرت منه بادرة تكون منافية لحرمة المرأة»[٢].

وفي الإتيان بقوله ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ بعد فاء السببية لطيفة، وهي أنه سبحانه و تعالى ينفي التهمة عنهن، فنهيهن عن إلانة القول أمام الأجانب ليس اتهامًا لهن، وإنما حفاظًا عليهن من الفساق مرضى القلوب.

وبهذا يرد على أذناب الغرب الذين يعيشون بيننا، فهم يقولون: أنتم ضعاف القلوب، ولهذا تسترون نساءكم وتنهونهن عن مخاطبة الرجال، وأما نحن فلسنا بحاجة إلى مثل هذه الأمور لأنا أقوياء النفوس، لا يتطرق إلى أذهاننا ما يتطرق إلى أذهانكم من الفحشاء.

فنقول لهم: إننا لا نتهمكم، ولكن نحافظ على نسائكم، فلنفترض جدلًا أنا ضعاف النفوس سيئي القصد، ألا تخاف على زوجتك وابنتك منا -إن كنا بهذه الصفات-!

ثم إننا إذا نظرنا إلى مجتمعاتكم لا نرى فيه الطهر الذي تزعمون، والعفاف الذي تدعون، بل نرى فحشًا وخيانات، ونرى اغتصابًا واعتداءً على الأعراض، كم من حالات الخيانة حدثت عندكم من خلال غنج النساء ولينهن بالقول،! رأينا انطلاق

(١) معاني القرآن، الفراء ٢/ ٣٤٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٤٠.

سعار الشهوات، سعارٌ حيواني لا يخبو ولا ينطفأ، بل أدى بكم إلى عقد وأمراض نفسية، أدى بكم إلى الشذوذ بكافة أشكاله.

والمرض نوعان:

١. مرض القلوب.

٢. مرض الأبدان.

ومرض القلوب: مرض شبهة وشك، ومرض شهوة وغي.

وأما مرض الأبدان: فمثل قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[1] [النور:٦١].

والمراد هنا مرض الشهوة الذي يعتري القلوب.

«وعطف ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ على ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ بمنزلة الاحتراس، لئلا يحسبن أن الله كلفهن بخفض أصواتهن كحديث السرار»[2].

يقول صاحب الظلال: «ومن هن اللواتي يحذرهن الله هذا التحذير؟ إنهن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأمهات المؤمنين، اللواتي لا يطمع فيهن طامع، ولا يرف عليهن خاطر مريض، فيما يبدو للعقل أول مرة. وفي أي عهدٍ يكون هذا التحذير؟ في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعهد الصفوة المختارة من البشرية في جميع الأعصار.. ولكن الله الذي خلق الرجال والنساء يعلم أن في صوت المرأة حين تخضع بالقول، وتترقق في اللفظ، ما يثير الطمع في قلوب، ويهيج الفتنة في قلوب. وأن القلوب المريضة التي تثار وتطمع موجودة في كل عهد، وفي كل بيئة، وتجاه كل امرأة، ولو كانت هي زوج النبي الكريم، وأم المؤمنين. وأنه لا طهارة من الدنس، ولا تخلص من الرجس، حتى تمتنع الأسباب المثيرة من الأساس. فكيف بهذا المجتمع الذي نعيش اليوم فيه»[3] في عصر الفتن والشهوات يجب على المرأة أن تحتشم في زيها وصوتها وحركاتها وسكناتها حتى تبقى نبعًا للطهر والنقاء في مجتمع يغرق الكثير منه في الرذيلة.

٢. القرار في البيوت.

ثم يأتي هذا الأمر الإلهي لهن بالقرار في البيوت ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ وقد قرئت بفتح القاف وكسرها «فمن كسر جعله من الوقار. ومن فتح جعله من الاستقرار»[4].

فهو «من وقر يقر وقارًا في المكان: إذا ثبت فيه، وقيل: هو من قررت في المكان أقر، والأصل واقررن، حذفت الراء الأولى وألقيت حركتها على القاف فصار وقرن.

(١) انظر: الطب النبوي، ابن القيم ٢/ ٢.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٤١.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٥٩.
(٤) الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه ص ٢٩٠.

قال النحاس: يجوز أن يكون ﴿وَقَرْنَ﴾ من قررت به عينًا أقر، فيكون المعنى: واقررن به عينًا في بيوتكن»[1].

قال ابن فارس: «الواو والقاف والراء: أصلٌ يدل على ثقل في الشيء. منه الوقر: الثقل في الأذن. يقال منه: وقرت أذنه توقر وقرًا. والوقر: الحمل. ويقال نخلةٌ موقرةٌ وموقرٌ، أي: ذات حملٍ كثير»[2].

وأيًا كان أصله فإن المقصود الأمر لهن بملازمة البيت إشارة إلى أن البيت هو المهمة الأولى للمرأة، وليس المراد نهيهن عن الخروج من البيوت على الإطلاق.

قيل: هو أمر وجوب لهن «خصصن به، وهو وجوب ملازمتهن بيوتهن توقيرًا لهن. وتقويةً في حرمتهن، فقرارهن في بيوتهن عبادة، وأن نزول الوحي فيها وتردد النبي صلى الله عليه وسلم في خلالها يكسبها حرمة... وهذا الحكم وجوب على أمهات المؤمنين وهو كمال لسائر النساء»[3].

و«إضافة البيوت إليهن لأنهن ساكنات بها، أسكنهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت بيوت النبي صلى الله عليه وسلم يميز بعضها عن بعضٍ بالإضافة إلى ساكنة البيت، يقولون: حجرة عائشة، وبيت حفصة، فهذه الإضافة كالإضافة إلى ضمير المطلقات في قوله تعالى ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١].

وذلك أن زوج الرجل هي ربة بيته، والعرب تدعو الزوجة البيت، ولا يقتضي ذلك أنها ملك لهن، لأن البيوت بناها الرسول صلى الله عليه وسلم تباعًا تبعًا لبناء المسجد، ولذلك لما توفيت أزواجه كلهن أدخلت ساحة بيوتهن إلى المسجد في التوسعة التي وسعها الخليفة الوليد بن عبد الملك في إمارة عمر بن عبد العزيز على المدينة، ولم يعط عوضًا لورثتهن»[4].

أقول: كأني بالآية تشير إلى أمرين اثنين يجب أن تتحلى بهما المرأة المسلمة:

الأول: الوقار والاحترام، فلا تتميع ولا تتسكع كما تفعل المستهترة.

الثاني: أن المهمة الأساسية للمرأة المسلمة هي بيتها، فيلزمها الاعتناء به أولًا، وهي مهمة شاقة ليست بالهينة، فهو مصنع الرجال.

ولصاحب الظلال كلام رائع في هذا الأمر، أذكر بعضه -خشية الإطالة- يقول: «وليس معنى هذا الأمر ملازمة البيوت فلا يبرحنها إطلاقًا. إنما هي إيماءة لطيفة إلى أن يكون البيت هو الأصل في حياتهن، وهو المقر وما عداه استثناء طارئًا لا يثقلن فيه ولا يستقررن. إنما هي الحاجة تقضى، وبقدرها.

(١) معاني القرآن، النحاس: ٥/ ٣٤٦.
(٢) مقاييس اللغة ٦/ ١٣٢.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٤٢.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٤٣.

والبيت هو مثابة المرأة التي تجد فيها نفسها على حقيقتها كما أرادها الله تعالى غير مشوهة ولا منحرفة ولا ملوثة، ولا مكدودة في غير وظيفتها التي هيأها الله لها بالفطرة»[1].

٣. النهي عن التبرج.

لما كان الغرض من أمرهن بملازمة البيوت هو الستر عليهن، وألا يفتح سبيلٌ للفساق للنيل منهن، وكان هناك حاجات تحملهن على الخروج نهاهن عن إظهار زينتهن فقال سبحانه و تعالى ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: لا تظهرن زينتكن.

والتبرج أصله التباعد والظهور، فـ«البرج: تباعد ما بين الحاجبين، وكل ظاهر مرتفع فقد برج... والتبرج: إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال. وتبرجت المرأة: أظهرت وجهها. وإذا أبدت المرأة محاسن جيدها ووجهها قيل: تبرجت، وترى مع ذلك في عينيها حسن نظرٍ»[2].

واختلف في صفة التبرج المذكور في الآية، فقيل: «التبختر، وقيل: كانت لهن مشية تكسرٍ وتغنجٍ، فنهاهن عن ذلك، وقيل: كانت المرأة تمشي بين يدي الرجل، فذلك هو التبرج، وقيل: هو أن تلقي الخمار على رأسها ولا تشده ليواري قلائدها وعنقها وقرطها، ويبدو ذلك كله منها، فذلك هو التبرج، وقيل: أن تبدي من محاسنها ما أوجب الله تعالى عليها ستره»[3].

وأرى أنه لا يوجد تعارض بين هذه الأقوال، ولعلها كلها صور لما كان يحدث في الجاهلية من تبرج.

و﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ اختلفوا فيها؛ قيل: ما بين عيسى ومحمد عليهما السلام وقيل: هي زمن داود وسليمان عليهما السلام وكانت المرأة تلبس قميصًا من الدر غير مخيط الجانبين فيرى خلفها فيه. وقيل: الجاهلية التي هي الزمان الذي فيه ولد إبراهيم عليه السلام، وكانت المرأة من أهل ذلك الزمان تتخذ الدرع من اللؤلؤ فتلبسه ثم تمشي وسط الطريق ليس عليها شيء غيره، وتعرض نفسها على الرجال. وقيل: هي ما بين آدم ونوح ثمانمائة سنة، وكان نساؤهم أقبح ما يكون من النساء ورجالهم حسان. فكانت المرأة تريد الرجل على نفسها. وقيل: هي ما قبل الإسلام[4].

ورجحه ابن عطية، فقال: «والذي يظهر عندي أنه أشار للجاهلية التي لحقنها، فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة، لأنهم كانوا لا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٥٩.
(٢) التفسير البسيط، الواحدي ١٨/ ٢٣٦.
(٣) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٠٠.
(٤) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ٣٥.

غيرة عندهم وكان أمر النساء دون حجاب، وجعلها أولى بالنسبة إلى ما كن عليه، وليس المعنى أن ثم جاهليةً أخرى»[1].

«ووصفها بـ﴿الْأُولَىٰ﴾ وصف كاشف، لأنها أولى قبل الإسلام وجاء الإسلام بعدها، وليس ثمة جاهليتان. ومن المفسرين من جعلوه وصفًا مقيدًا، وجعلوا الجاهلية جاهلتين، فمنهم من قال: الأولى هي ما قبل الإسلام وستكون جاهلية أخرى بعد الإسلام، يعني حين ترتفع أحكام الإسلام -والعياذ بالله-»[2].

أقول: ما المانع من كونه وصفًا مقيدًا، فالجاهلية وصف لحالة معينة، وليست فترةً زمنيةً بعينها، وإن كان الميل إلى أن هذا الوصف متحقق في الفترة التي سبقت الإسلام مباشرة، وإذا نظرنا في أوصاف هذه الفترة التي استحقت أن توصف بالجاهلية لأجلها نجد أننا في عصرنا هذا نعيش جاهليةً لا تقل في عنفوانها وقوتها عن تلكم الفترة، بل قد تكون أشد منها.

ولن نطيل بالمقارنة بين الفترتين من جميع الجوانب، ولكن نقارن بينهما في الجانب الذي نتحدث فيه، وهو جانب التبرج، فإذا نظرنا إلى تلكم الحقبة من الزمان نجد أن التبرج الذي كانت تفعله المرأة أنها كانت تمشي ضاربة بصدرها مظهرة لنحرها حتى يراها الرجال، أو كانت تضرب الأرض برجلها حتى يسمع الرجال قرع خلخالها، وما جاء من تعرٍ زائدٍ عن ذلك فإنما هو تعرٍ مؤقت مرتبط بعبادة الحج، لغرض ديني عندها، فكانت تتعرى من ثيابها متفائلة بالتعري من ذنوبها، ومع ذلك كانت تأخذ خرقة تضعها على فرجها تستره بها.

أما عن ما أحدثه نساء زماننا من تبرجٍ وتعرٍ، فحدث ولا حرج، أظهرت جميع جسدها بلا استثناء، معلنة أن ذلك حرية، بل اعتبرت أن ممارسة الرزيلة حرية شخصية، وأن عفتها تخلفٌ ورجعية، في حين أن الجاهلية الأولى كانت تنظر إلى فعل الرزيلة على أنه يتنافى مع الحرية، يتجلى ذلك في عبارة هند زوج أبي سفيان رضي الله عنهما في قصة مبايعتها الشهيرة (أو تزني الحرة)[3] فاعتبرت الزنا منافيًا للحرية.

ويؤيد ما ذكرته قول ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية: (وهل كانت من أولى إلا ولها آخرة؟)[4].

قال المهدوي: «وقوله: ﴿الْجَٰهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ يدل على أن ثم جاهليةً أخرى في الإسلام»[5].

فـ«الجاهلية ليست فترة معينة من الزمان.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٨٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٨٠.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٤٥.
(٣) أخرجه أبو يعلى، ٨/ ١٩٤، رقم ٤٧٥٤.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٢٦٢.
(٥) الهداية، مكي بن أبي طالب ٩/ ٥٨٣٢.

إنما هي حالة اجتماعية معينة، ذات تصورات معينة للحياة. ويمكن أن توجد هذه الحالة، وأن يوجد هذا التصور في أي زمان وفي أي مكان، فيكون دليلًا على الجاهلية حيث كان! وبهذا المقياس نجد أننا نعيش الآن في فترة جاهلية عمياء، غليظة الحس، حيوانية التصور، هابطة في درك البشرية إلى حضيض مهين»[(١)].

٤ . الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

يأتي بعد هذا الأمر لهن بأداء أصول العبادات، إقامة الصلاة وأداء الزكاة، ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وذلك أنه سبحانه و تعالى لما قال لهن ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ...﴾ قد يتطرق إلى أذهانهن أنهن مأمورات بالأشياء المذكورة فقط، ولسن مأمورات ببقية العبادات الأخرى، فأمرهن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ليدفع هذا الوهم.

ومن المعلوم أن الصلاة أصل العبادات البدنية، والزكاة أصل العبادات المالية.

والمراد بالصلاة والزكاة الواجبتان، وإقامة الصلاة: الإتيان بها كاملة الأركان والهيئات في أوقاتها التي حددها الشرع. وإيتاء الزكاة: دفع ما أوجبه الشرع الحنيف في الأموال على الوجه الذي بينته الشريعة الغراء.

و«أريد بهذه الأوامر الدوام عليها، لأنهن متلبسات بمضمونها من قبل، وليعلم الناس أن المقربين والصالحين لا ترتفع درجاتهم عند الله تعالى عن حق توجه التكليف عليهم. وفي هذا مقمعٌ لبعض المتصوفين الزاعمين أن الأولياء إذا بلغوا المراتب العليا من الولاية سقطت عنهم تكاليف الشريعة»[(٢)].

ونلحظ هنا أنه أتى بالأمر بالصلاة والزكاة بعد أوامر ونواهٍ تتعلق بالنواح السلوكية، وكأنه يعطي إشارة إلى أن العبادات في الإسلام ليست بمعزل عن سلوكيات الإنسان وحياته، فلا يأتي متنطع يزعم أنه يلزم فصل الدين عن الحياة، فالدين كلٌ لا يتجزأ، يشمل سلوكيات الإنسان، وجميع جوانب الحياة.

يقول صاحب الظلال: «وعبادة الله ليست بمعزل عن السلوك الاجتماعي أو الأخلاقي في الحياة؛ إنما هي الطريق للارتفاع إلى ذلك المستوى؛ والزاد الذي يقطع به السالك الطريق. فلا بد من صلة بالله يأتي منها المدد والزاد. ولا بد من صلة بالله تطهر القلب وتزكيه. ولا بد من صلة بالله يرتفع بها الفرد على عرف الناس وتقاليد المجتمع وضغط البيئة؛ ويشعر أنه أهدى وأعلى من الناس والمجتمع والبيئة.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٦١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٤٥.

وأنه حري أن يقود الآخرين إلى النور الذي يراه؛ لا أن يقوده الآخرون إلى الظلمات وإلى الجاهلية التي تغرق فيها الحياة، كلما انحرفت عن طريق الله... ومن ثم كان الأمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله، هو خاتمة التوجيهات الشعورية والأخلاقية والسلوكية لأهل البيت الكريم. لأنه لا يقوم شيء من تلك التوجيهات بغير العبادة والطاعة»[1].

٥. الأمر بطاعة الله ورسوله.

وبعد أن أمرهن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وكانت العبادات غير مقتصرة على هاتين الشعيرتين، بل هي أعم من ذلك، فهي امتثال جميع الأوامر، واجتناب جميع النواهي، جاء هذا الأمر العام بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فهو عطف للعام على الخاص.

وقد «جاء الأمر عامًا بالطاعة لأن هاتين الطاعتين البدنية والمالية هما أصل سائر الطاعات، فمن اعتنى بهما حق العناية جرتاه إلى ما وراءهما، قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]»[2].

٦. تعليم ما يتلى من القرآن والسنة.

وبعد أن أمرهن بما تقدم يأتي الأمر لهن بتذكر النعمة الكبرى والمنة العظمى، ألا وهي نزول الوحي في بيوتهن، فلذا يجب عليهن شكرها بالعمل بما جاء به من أحكام، وبالقيام بتبليغ الوحي للأمة كلها ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب:٣٤].

الفعل ﴿وَٱذْكُرْنَ﴾ «يجوز أن يكون من الذكر -بضم الذال- وهو التذكر، وهذه كلمة جامعة تشمل المعنى الصريح منه، وهو أن لا ينسين ما جاء في القرآن ولا يغفلن عن العمل به، ويشمل المعنى الكنائي، وهو أن يراد مراعاة العمل بما يتلى في بيوتهن مما ينزل فيها وما يقرأه النبي صلى الله عليه وسلم فيها، وما يبين فيها من الدين، ويشمل معنًى كنائيًا ثانيًا وهو تذكر تلك النعمة العظيمة أن كانت بيوتهن موقع تلاوة القرآن»[3].

«ويجوز أن يكون من الذكر -بكسر الذال-، وهو إجراء الكلام على اللسان، أي: بلغنه للناس بأن يقرأن القرآن، ويبلغن أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته. وفيه كناية عن العمل به»[4].

قلت: ولا مانع من إرادة المعنيين، فيكون

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٦١.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٤٥.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٤٩.
(٤) انظر: المصدر السابق.

من قبيل ما يسمى عند البلاغيين بأسلوب الاستخدام، وما يسمى عند الأصوليين استخدام المشترك في معنييه، ويكون هذا من الإعجاز القرآني، إذ يشمل اللفظ القليل المعاني الكثيرة.

وآيات الله لا خلاف في أن المراد بها القرآن الكريم. واختلف في المراد بالحكمة «قيل: هي السنة. وقيل: هي أحكام القرآن ومواعظه»[(١)].

والمعنى عليه «من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله البينة الدالة على صدق النبوة بنظمه المعجز وكونه حكمة منطوية على فنون العلوم والشرائع»[(٢)].

والميل إلى أن المراد بها السنة، وذلك حتى يكون هناك مغايرةٌ بين المعطوف والمعطوف عليه. ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تزوجهن بأمر الله تعالى ؛ لحاجة أرادها الله تعالى فقد يتصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم تصرفًا عند إحداهن لم يتصرفه عند غيرها، فتبلغه وتذكره، كزاوجه من أمنا ميمونة رضي الله عنها.

وجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ «تعليل للأمر وتذييل للجمل السابقة، والتعليل صالح لمحامل الأمر كلها لأن اللطف يقتضي إسداء النفع بكيفية لا تشق على المسدى إليه.

وفيما وجه إلى نساء النبي صلى الله عليه وسلم من الأمر والنهي ما هو صلاح لهن وإجراء للخير بواسطتهن، وكذلك في تيسيره إياهن لمعاشرة الرسول صلى الله عليه وسلم وجعلهن أهل بيوته، وفي إعدادهن لسماع القرآن وفهمه، ومشاهدة الهدى النبوي، كل ذلك لطف لهن هو الباعث إلى ما وجهه إليهن من الخطاب ليتلقين الخبر ويبلغنه، ولأن الخبير، أي العليم إذا أراد أن يذهب عنهن الرجس ويطهرهن حصل مراده تامًا لا خلل ولا غفلة»[(٣)].

٧. ارتداء الحجاب.

من الأشياء المهمة للمرأة المسلمة، بل وللمجتمع كله ستر العورات، لمنع إثارة الشهوات، لذلك حرص الإسلام الحنيف على ستر جسد المرأة، حفاظًا عليها، وحفظًا للمجتمع كله، لذا يأتي هذا التوجيه الإلهي للنبي صلى الله عليه وسلم أن يأمر أزواجه وبناته وجميع المؤمنات بستر العورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٩].

عن عائشة: (أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع -وهو صعيد أفيح- فكان عمر

(١) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٤٢٥.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٠٣.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٥٠.

يقول للنبي صلى الله عليه وسلم: احجب نساءك، فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ليلة من الليالي عشاء، وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر: ألا قد عرفناك يا سودة -حرصًا على أن ينزل الحجاب- فأنزل الله آية الحجاب)[1].

ومن المعلوم أن ارتداء المرأة المسلمة للحجاب فريضة عليها، لا تقل في وجوبها عن الصلاة والصيام، وإن كان هناك خلاف بين العلماء في القدر الواجب ستره من بدنها، والخلاف مشهور في عورة المرأة، ولسنا بصدد الحديث عن الخلاف في المسألة، وإنما يعنينا القول بوجوب ستر العورة.

وفي هذه الآية الكريمة ينادي المولى عز و جل نبيه صلى الله عليه وسلم آمرًا إياه أن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيبهن. والجلباب: كل ما يستر الكل، مثل الملحفة، والمعنى: قل للحرائر يرخين أرديتهن وملاحفهن، ليعلم أنهن حرائر فلا يؤذين. ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾ أي: أقرب وأجدر ﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ من الإماء ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ وذلك أن النساء في أول الإسلام كن على زيهن في الجاهلية متبذلات، لا فصل بين الحرة والأمة. وكان الفتيان يتعرضون للإماء، إذا خرجن بالليل لقضاء حاجتهن، وكن يخرجن مختلطات مع الحرائر، فربما تعرضوا للحرة، يحسبونها أمة، فأمرن أن يخالفن بزيهن عن زي الإماء بلباس الجلابيب.

قال ابن عباس رضي الله عنه: «أمر الله تعالى نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب، ويبدين عينًا واحدة»[2].

«وابتدئ بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم وبناته لأنهن أكمل النساء»[3].

وعندما نزلت الآية سارع النساء وقت نزولها إلى الامتثال، فعن أم سلمة قالت: «لما نزلت ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٩]. خرج نساء الأنصار كأن على رءوسهن الغربان من الأكسية»[4].

وعن عائشة أنها قالت: «يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور:٣١]. شققن أكنف -قال ابن صالحٍ أكثف- مروطهن فاختمرن بها»[5].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب خروج النساء للبراز، ١/ ٦٧، رقم ١٤٦. والصعيد: وجه الأرض. أفيح: واسع.

(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٦/ ٥٣.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٣٢٨.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب في قوله تعالى: (يدنين عليهن من جلابيبهن)، ٤/ ١٠٥، رقم ٤١٠٣.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب في قوله تعالى: (وليضربن بخمرهن على

خصوصيات بيت النبوة

أولًا: النهي عن دخول بيوت النبي صلى الله عليه وسلم إلا بدعوة:

ذكر الله تعالى عدة أحكام لبيت النبوة، منها ما ذكره في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾ [الأحزاب:٥٣].

في الآيات السابقة بين تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ما ينبغي له مراعاته من شأن أزواجه، فجاءت هذه الآية لتبين ما يجب على المؤمنين مراعاته أيضًا نحو أزواج النبي أمهاتهم[١].

والآية تتضمن من الأدب ما يتعلق بالطعام وما يتعلق بالحجاب، فأما ما يتعلق بالطعام فيتفرع عنه أمران، الأدب قبل تناول الطعام، والأدب بعد تناوله، فأول هذه الآداب ما قبل الطعام، فنهوا عن دخول بيوته إلا بدعوة، فقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ «حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير إذن، كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام، حتى غار الله لهذه الأمة، فأمرهم بذلك، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة»[٢].

وذلك أن البيوت أماكن راحة لأصحابها وسكن لهم، فينبغي مراعاة أحوال أهلها، لذلك كان هذا التوجيه الإلهي.

والسبب في ذلك ما روي عن أبي بن كعب قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نهض إلى بيته بادروه فأخذوا المجالس فلا يعرف ذلك في وجه رسول الله ولا يبسط يده إلى الطعام استحياءً منهم، فعوتبوا في ذلك، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾[٣].

ومعنى ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ إلا أن تقدم لكم دعوةٌ إلى طعام، وقد ضمن ﴿يُؤْذَنَ﴾ معنى: تُدْعَوا، «للإشعار بأنه لا ينبغي أن يدخلوا على الطعام بغير دعوة وإن تحقق الإذن، كما يشعر به قوله ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾»[٤]. أي: غير منتظرين بلوغه وإنضاجه[٥]، وكأنه نهيٌ عن دخول بيوت النبي إلا بشرطين: «الإذن بالدخول، وأن

جيوبهن)، ٤/ ١٠٥ رقم ٤١٠٣.

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١١٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٥٤.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ١٧٤. في إسناد ابن سعد الواقدي، وهو ضعيف. انظر: النكت على ابن الصلاح: ٢/ ٦٦٦.

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١١٢.

(٥) انظر: ياقوتة الصراط ص٤١١، تفسير غريب القرآن، ابن الملقن ص٢٦٢.

يكون الجلوس بمقدار الحاجة»[(١)].

وفي هذه الآية «دليل على تحريم التطفيل، وهو الذي تسميه العرب الضيفن»[(٢)].

وهذه الآية قد يفهم منها عدم جواز دخول بيوته صلى الله عليه وسلم إلا بعد الدعوة إلى طعام، ولا يجوز الدخول لطلب علم ونحو ذلك، وهذا الفهم باطل، لأنه «قد دلت الأدلة على جواز دخول بيوته صلى الله عليه وسلم بإذنه لغير الطعام، وذلك معلوم لا شك فيه، فقد كان الصحابة وغيرهم يستأذنون عليه لغير الطعام فيأذن لهم، وذلك يوجب قصر هذه الآية على السبب الذي نزلت فيه، وهو القوم الذين كانوا يتحينون طعام النبي صلى الله عليه وسلم فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه وأمثالهم، فلا تدل على المنع من الدخول مع الإذن لغير ذلك، وإلا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته بإذنه لغير الطعام، واللازم باطل فالملزوم مثله»[(٣)].

ثم إنه «لا يشترط في الإذن التصريح به بل إذا حصل العلم بالرضا جاز الدخول ولهذا قال ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ﴾ من غير بيان فاعلٍ، فالأذن إن كان الله أو النبي أو العقل المؤيد بالدليل جاز، والنقل دالٌ عليه حيث قال ﴿أَوۡ صَدِيقِكُمۡ﴾ [النور:٦١].

فلو جاء الرجل وعلم أن لا مانع في البيت من تكشف أو بحضور غير محرم، أو علم خلو الدار من الأهل وهي محتاجة إلى إطفاء حريقٍ فيها أو غير ذلك جاز الدخول»[(٤)].

ثم أمرهم أن ينصرفوا بعد تناول الطعام، فقال سبحانه و تعالى ﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾ «أي: فاخرجوا، فدل على أن الدخول للأكل يمنع من المقام بعد الفراغ من الأكل»[(٥)] والسبب في الأمر بالانصراف بعد تناول الطعام ما رواه البخاري وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام من قام، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا، فانطلقت فجئت فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٧٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٥٤. والضيفن: الذي يحضر مع الضيف ليأكل ما يقرى الضيف. انظر: المخصص:٣/ ٤٦٩.
(٣) فتح البيان، القنوجي ١١/ ١٢٨.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ١٥/ ٥٨٢.
(٥) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤١٨.

﴿تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ الآية»[1].

ثانيًا: النهي عن الانتظار للاستئناس والتسلية:

بعد أن بين سبحانه و تعالى أنه يجب عليهم الانصراف بعد تناول الطعام الذي دعوا إلى تناوله نهاهم عن الجلوس للسمر والتسلية، فقال ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ فلا «تطيلوا الجلوس ليستأنس بعضكم بحديث بعضٍ، وكانوا يجلسون بعد الطعام يتحدثون فنهوا عن ذلك»[2].

أقول: هذا المعنى يفهم من الأمر بالانتشار بعد تناول الطعام، ولكنه أعاده لكي لا يفهم أن الجلوس للسمر بعد تناول الطعام مباح، وأن الأمر بالانتشار مشروط بما إذا لم يكن هناك سمر.

ثم علل لكل ما تقدم بقوله ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾ «لتضييق المنزل عليه وعلى أهله وإيجابه للاشتغال بما لا يعينه وصده عن الاشتغال بما يعنيه»[3] وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحتمل إطالتهم كرمًا منه، فيصبر على الأذى في ذلك، فعلم الله من يحضره الأدب، فصار أدبًا لهم ولمن بعدهم»[4].

أقول: جرى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ مجرى المثل، وذلك لأن فيه لطيفة ذكرها ابن عاشور، وهي «أن من واجبات دين الله على الأمة أن لا يستحيي أحدٌ من الحق الإسلامي في إقامته، وفي معرفته إذا حل به ما يقتضي معرفته، وفي إبلاغه وهو تعليمه، وفي الأخذ به، إلا فيما يرجع إلى الحقوق الخاصة التي يرغب أصحابها في إسقاطها أو التسامح فيها مما لا يغمص حقًا راجعًا إلى غيره، لأن الناس مأمورون بالتخلق بصفات الله تعالى اللائقة بأمثالهم بقدر الإمكان.

وهذا المعنى فهمته أم سليم وأقرها النبي صلى الله عليه وسلم على فهمها، فقد جاء في الحديث الصحيح: جاءت أم سليم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: (يا رسول الله؛ إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت)[5].

فهي لم تستح في السؤال عن الحق

---

(1) أخرجه البخاري، في صحيحه، واللفظ له، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأحزاب، ٤/ ١٧٩٩ ، رقم ٤٥١٣، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحشٍ ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس، ٢/ ١٠٤٦ ، رقم ١٤٢٨ .

(2) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٤٣٤ .

(3) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٣٨٣، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١١٢ .

(4) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ١٧٨ .

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الحياء في العلم، ١/ ٦٠ ، رقم ١٣٠ ، ومسلم في صحيحه، كتاب الحيض ، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، ١/ ٢٥١ ، رقم ٣١٣ .

المتعلق بها، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يستح في إخبارها بذلك. ولعلها لم تجد من يسأل لها أو لم تر لزامًا أن تستنيب عنها من يسأل لها عن حكم يخص ذاتها»[(١)].

ويمكن القول مثل ذلك عن قول الله تعالى ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾ أيضًا ذهبت مثلًا بين الناس، فإذا بقي بعض الناس في المجلس بعد الأكل قال أحدهم، فذكر الآية ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾.

وهذه الآية وإن كانت تشتمل على أدب يتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم إلا أن فيها حفظًا للأدب وتعليمًا «أن الرجل إذا كان ضيفًا لا ينبغي أن يجعل نفسه ثقيلًا، ولكنه إذا أكل ينبغي أن يخرج»[(٢)].

«وما أحوج المسلمين اليوم إلى هذا الأدب الذي يجافيه الكثيرون، فإن المدعوين إلى الطعام يتخلفون بعده، بل إنهم ليتخلفون على المائدة، ويطول بهم الحديث؛ وأهل البيت الذين يحتفظون ببقية من أمر الإسلام بالاحتجاب متأذون محتبسون، والأضياف ماضون في حديثهم وفي سمرهم لا يشعرون! وفي الأدب الإسلامي غناءٌ وكفاءٌ لكل حالة، لو كنا نأخذ بهذا الأدب الإلهي القويم»[(٣)].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٣١٣.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي٣/ ٦٦.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب٥/ ٢٨٧٨.

ثالثًا: مخاطبة نساء أهل البيت من وراء حجاب:

نص غير واحد من العلماء على أن من فضائل نبينا صلى الله عليه وسلم أنه لا يحل أن يسأل زوجاته صلى الله عليه وسلم إلا من وراء حجاب[(٤)].

ثم إن نساء النبي صلى الله عليه وسلم «أمهات المؤمنين في التحريم والحرمة فقط لا في المحرمية فليس لأحد أن يخلو بهن ولا ينظر إليهن بل قد أمرهن الله بالاحتجاب عمن حرم عليه نكاحهن من غير أقاربهن ومن بينهن وبينه رضاعٌ»[(٥)].

بل إنهن خصصن بهذا الحكم الزائد عن بقية النساء، فلا يجوز مخاطبتهن ومشافهتهن إلا من وراء سترٍ، مع وجوب ارتدائهن للحجاب، هذا التوجيه الإلهي مذكور في قوله ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي: و«كما نهيتكم عن الدخول عليهن، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب»[(٦)].

(٤) انظر: غاية السول في خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم، ابن الملقن ص ٦٣، سبل الهدى والرشاد، الصالحي ١٠/ ٤٤٨.
(٥) زاد المعاد، ابن القيم ٥/ ٤٩١.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٥٥.

﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾ أنتم أيها الرجال وقلوبهن أيتها الأمهات؛ أنقى من الخواطر التي تعرض للرجال في أمر النساء وللنساء في أمر الرجال[1].

«وهذا يدل على أنه لا ينبغي لأحدٍ أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له؛ فإن مجانبة ذلك أحسن لحاله، وأحصن لنفسه، وأتم لعصمته»[2].

والآية «تقرر أن هذا الحجاب أطهر لقلوب الجميع: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ فلا يقل أحدٌ غير ما قال الله، لا يقل أحدٌ إن الاختلاط وإزالة الحجب، والترخص في الحديث واللقاء والجلوس والمشاركة بين الجنسين أطهر للقلوب، وأعف للضمائر، وأعون على تصريف الغريزة المكبوتة، وعلى إشعار الجنسين بالأدب وترقيق المشاعر والسلوك.. إلى آخر ما يقوله نفر من خلق الله الضعاف المهازيل الجهال المحجوبين. لا يقل أحدٌ شيئًا من هذا والله يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

يقول هذا عن نساء النبي الطاهرات. أمهات المؤمنين. وعن رجال الصدر الأول من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن لا تتطاول إليهن وإليهم الأعناق!

وحين يقول الله قولًا ويقول خلق من خلقه قولًا. فالقول لله سبحانه و تعالى وكل قولٍ آخر هراءٌ، لا يردده إلا من يجرؤ على القول بأن العبيد الفانين أعلم بالنفس البشرية من الخالق الباقي الذي خلق هؤلاء العبيد!

والواقع العملي الملموس يهتف بصدق الله، وكذب المدعين غير ما يقوله الله. والتجارب المعروضة اليوم في العالم مصدقة لما نقول. وهي في البلاد التي بلغ الاختلاط الحر فيها أقصاه أظهر في هذا وأقطع من كل دليل. وأمريكا أول هذه البلاد التي آتى الاختلاط فيها أبشع الثمار»[3].

بينما فهم فريق آخر من العلماء أن المراد هو الحجاب الشرعي للمرأة المسلمة، وعليه يكون لفظ الآية خاصًا بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، إلا أن حكمها عام لجميع المسلمات، فإن تعليله تعالى لهذا الحكم الذي هو إيجاب الحجاب بكونه أطهر لقلوب الرجال والنساء من الريبة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ قرينة واضحة على إرادة تعميم الحكم، إذ لم يقل أحد من جميع المسلمين إن غير أزواج النبي صلى الله عليه وسلم لا حاجة إلى أطهرية قلوبهن وقلوب الرجال من الريبة منهن.

(1) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٩٦، أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٢٨٨.

(2) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٦١٦.

(3) في ظلال القرآن، سيد قطب٥/ ٢٨٧٨.

وقد تقرر في الأصول: أن العلة قد تعمم معلولها، ففيها إذًا الدليل الواضح على أن وجوب الحجاب حكم عام في جميع النساء، وليس خاصًا بأزواجه صلى الله عليه وسلم وإن كان أصل اللفظ خاصًا بهن؛ لأن عموم علته دليل على عموم الحكم فيه[(١)]. ويكون وجه الخطاب لهن لمكان القدوة بالنسبة لهن، فهن قدوة لبقية نساء الأمة.

رابعًا: النهي عن نكاح نساء رسول الله بعد وفاته:

النبي صلى الله عليه وسلم له مكانته الخاصة، فهو ﴿أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦].

أمهاتهم في المكانة والمنزلة، والتوقير والاحترام، وحرمة الزواج بهن، وحرمة الزواج بهن مراعاةً لحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه، فإن الرجل الغيور يأنف أن تتزوج امرأته برجل آخر، ولذلك لما نزلت آية القذف ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٤﴾ [النور:٤].

قال سعد بن عبادة -وهو سيد الأنصار-: **أهكذا نزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا معشر الأنصار ألا تسمعون إلى ما يقول سيدكم؟! قالوا: يا رسول الله؛ لا تلمه، فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرًا، وما طلق امرأة له قط فاجترأ رجلٌ منا على أن يتزوجها من شدة غيرته...»**[(٢)] فمن غيرة سعد لم يجرؤ رجل على أن يتزوج بامرأة طلقها، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أشد غيرةً منه، كما قال في القصة ذاتها **(أتعجبون من غيرة سعد؟! لأنا أغير منه، والله أغير مني)**[(٣)].

فلكي يطمئن الله رسوله من هذه الجهة حرم على جميع الأمة الزواج بأمهات المؤمنين فقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٣].

وكأن هذا تقريرٌ لحكم أمومتهن للمؤمنين المتقدم ذكره في أول السورة، وبيانٌ لهذه الأمومة، فهو في أشياء خاصةٍ، في المكانة والاحترام وحرمة التزوج بهن، أما بالنسبة للخلوة بهن وحجابهن أمام الرجال فيعاملن كبقية النساء، بل أشد من بقية النساء-كما تقدم-.

---

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٢٤٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١/ ٢٣٨ رقم ٢١٣١ قال الأرنؤوط: حسن.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة باب من رأى مع امرأته رجلا فقتله، ٦/ ٢٥١١، رقم ٦٤٥٤.

وقد «شرعت الآية أن حكم أمومة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين حكم دائم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده، ولذلك اقتصر هنا على التصريح بأنه حكم ثابت من بعد، لأن ثبوت ذلك في حياته قد علم من قوله ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦]»[1].

وقوله ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ «العظم هنا في الإثم والجريمة، وتقييد العظيم بكونه عند الله «للتهويل والتخويف، لأنه عظيم في الشناعة. وعلة كون تزوج أحد المسلمين إحدى نساء النبي صلى الله عليه وسلم إثمًا عظيمًا عند الله: أن الله جعل نساء النبي صلى الله عليه وسلم أمهات للمؤمنين، فاقتضى ذلك أن تزوج أحد المسلمين إحداهن له حكم تزوج المرء أمه، وذلك إثمٌ عظيمٌ»[2].

وهنا مسألة ذكرها العلماء وأطالوا فيها الكلام، لا أرى في إطالة الكلام فيها كبير فائدةٍ، حيث إنهن كلهن قد توفين، وهي أنه هل يدخل في أزواجه اللاتي يحرمن على الأمة من طلقها النبي صلى الله عليه وسلم ؟

لذا فإني أكتفي بنقل كلام الإمام ابن كثير في المسألة، قال رحمه الله: «أجمع العلماء قاطبةً على أن من توفي عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أزواجه أنه يحرم على غيره تزويجها من بعده؛ لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين. واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته هل يحل لغيره أن يتزوجها؟ على قولين، مأخذهما: هل دخلت هذه في عموم قوله ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أم لا؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فما نعلم في حلها لغيره -والحالة هذه- نزاعًا»[3].

فأزواجه اللاتي مات عنهن وهن في عصمته يحرم على الأمة الزاج بواحدة منهن، بلا خلاف بين العلماء. ومن تزوجها وطلقها قبل أن يدخل بها فلا تحرم على غيره من الأمة بلا خلاف، وإنما الخلاف فيمن طلقها بعد أن دخل بها، والبحث في المسألة قليل الجدوى لأمرين:

الأول: ما تقدم من أنهن كلهن قد توفين.

والثاني: أنه لم يوجد واحدة من نسائه بهذه الصفة، فهي مسألة افتراضية.

قلت: ذكر بعض المفسرين هنا قصة كسببٍ لنزول هذه الآية، ولم أرها تروى من طريق صحيح، لذا أعرضت عن ذكرها، إذ لا حاجة بها، ولا يلزم أن تكون الآية نزلت على سبب، فإن كثيرًا من آي القرآن نزل ابتداءً بدون سبب.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٣١٧.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٥٥.

خامسًا: مضاعفة الأجر أو العقوبة لآل البيت:

ولأهل البيت خصيصة أخرى، وهي مضاعفة العذاب لمن يفعل فاحشة، وبما أن الغنم بالغرم، فإنه في المقابل من يفعل حسنة يضاعف له ثوابها.

قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝٣١﴾ [الأحزاب: ٣٠-٣١].

الضعف: «من الألفاظ المتضايفة التي يقتضى وجود أحدهما وجود الآخر، كالنصف والزوج، وهو تركب قدرين متساويين، ويختص بالعدد، فإذا قيل أضعفت الشيء وضعفته وضاعفته ضممت إليه مثله فصاعدًا»[(١)].

والمراد بمضاعفة العذاب: «مثليه»[(٢)].

وقيل: «﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أي: يجعل لها العذاب ثلاثة أعذبة، لأن ضعف الشيء مثله، وضعفي الشيء مثلا الشيء، ومجاز ﴿يُضَٰعَفْ﴾ أي: يجعل الشيء شيئين حتى يكون ثلاثة»[(٣)].

والأول أظهر لمقابلته بإعطاء الأجر مرتين.

قال الزجاج عن هذا القول: «وليس هذا بشيء؛ لأن معنى ﴿يُضَٰعَفْ﴾ يجعل عذاب جرمها كعذاب جرمين. الدليل عليه قوله ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾، فلا يكون أن تعطى على الطاعة أجرين وعلى المعصية ثلاث أعذبة»[(٤)].

وجه تضعيف العذاب لهن على الفاحشة:

- «شرف منزلتهن، وفضل درجتهن، وتقدمهن على سائر النساء أجمع؛ وقد ثبت في الشريعة أنه كلما تضاعفت الحرمات فهتكت تضاعفت العقوبات؛ ولذلك ضوعف حد الحر على حد العبد، والثيب على البكر؛ لزيادة الفضل والشرف فيهما على قرينهما»[(٥)].
- «أنهن لما شاهدن من الزواجر وما يروع من الذنوب ينبغي أن يمتنعن منها أكثر مما يمتنع من لا يشاهد ذلك ولا يحضره، فإذا لم يمتنعن استحققن تضعيف العذاب»[(٦)]، و«ليست المعصية في القرب كالمعصية في

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٩٩.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٣٧٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٠١.
(٣) مجاز القرآن، أبو عبيدة ٢/ ١٣٧.
(٤) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ١٧١، وانظر: التفسير البسيط، الواحدي ١٨/ ٢٢٩.
(٥) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٥٦٧.
(٦) التفسير البسيط، الواحدي ١٨/ ٢٣١.

البعد»[1].

- أنه «إن حدث من إحداهن ذنبٌ بينها وبين نفسها فهو ذنبٌ واحدٌ مقصورٌ عليها، فإن كان علانيةً فهو مضاعفٌ؛ لأنهن أسوة وقدوة تتطلع العيون إلى سلوكهن، فإن ظهرت منهن فاحشة كان تشجيعًا للأخريات، ولم لا وقد جاءت الفاحشة من زوجة النبي صلى الله عليه وسلم ، فمضاعفة العذاب -إذن- لأن الفساد تعدى الذات إلى الآخرين، وأحدث قدوة سوء في بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستحقت مضاعفة العذاب، فإن ضاعف لها الله العذاب ضعفين فحسب فهو رفق بها، ومراعاة لماضيها في زوجية رسول الله»[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ «إيذان بأن كونهن نساءً للنبي صلى الله عليه وسلم ليس بمغنٍ عنهن شيئًا، وكيف يغني عنهن وهو سبب مضاعفة العذاب، فكان داعيًا إلى تشديد الأمر عليهن غير صارف عنه»[3].

ثم وعد من تفعل طاعة لله تعالى بمضاعفة الثواب، فتؤتى مثلي ثواب غيرها، «وإنما ضوعف أجرهن لطلبهن رضا رسول الله، بحسن الخلق وطيب المعاشرة والقناعة والتوقر على عبادة الله»[4].

والقنوت: «لزوم الطاعة مع الخضوع»[5].

والرزق الكريم، وهو «رزق الجنة قال تعالى ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾ [البقرة:٢٥]. ووصفه بالكريم لأنه أفضل جنسه»[6].

أو أنه منازلهن في الجنة «فإنهن في منازل رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى عليين، فوق منازل جميع الخلائق، في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش»[7].

---

(١) البحر المديد، ابن عجيبة ٦/ ٣٥.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١٩/ ١٢٠١١.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٤٤، السراج المنير، الشربيني ٣/ ٢٩٨، روح المعاني، الألوسي ٢١/ ١٨٤.
(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٢٢١، وانظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٠٢.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤١٤.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٣٩.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٠٨.

قصص من بيت النبوة

البيت النبوي الشريف شأنه شأن أي بيت له واقعه المعاش، وما الواقع إلا أحداثٌ تصير قصصًا بعد ذلك، إلا أن كثيرًا من البيوت يطوي قصصها الأيام، وينساها الزمان، بيد أن بيت النبوة لا يمكن أن يحدث له ذلك، فهو محط أنظار المسلمين، وموضع اهتمامهم، لذلك فإنه عرف عنه كل صغيرة وكبيرة، وسجل التاريخ عنه كل شيء، كيف لا وهذا البيت قدوتهم الذي به يقتدون، ونورهم الذي به يهتدون؟! وقد ذكر القرآن الكريم بعض هذا القصص، ونذكر بعضًا منه في المطالب الآتية-إن شاء الله-.

أولًا: قصة الغيرة بين نساء بيت النبوة:

الغيرة المعتدلة خلق محمود، فقد روي (الغيرة من الإيمان)[1] .

خلق محمود إذا دفعت صاحبها للذود عن الحرمات والابتعاد عن المحرمات، ولم تؤد إلى الشك في سلوك الآخرين، أو إلى فعل مذمومٍ، فإذا أدت إلى ذلك تكون خلقًا مشينًا، وسلوكًا بغيضًا، وغالبًا ما يحدث هذا النوع بين النساء، ولا سيما إن كن ضرائر، ونساء النبي صلى الله عليه وسلم باعتبار أنهن ضرائر كن-أحيانًا- يغلب عليهن الطبع النسوي، فيقعن في شيءٍ من هذا النوع، رغم مكانتهن، والتزامهن بالآداب الإسلامية الرفيعة.

ورغم أن الوحي كان ينزل في بيوتهن، وقد عاتبهن الله تعالى على شيءٍ فعلنه من هذا النوع، فقد صحبن النبي صلى الله عليه وسلم الكريم وعاونه على أداء رسالته وارتفعن إلى ما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة.

وقد آخذهن الله بأمرين معروفين في السيرة:

الأول: اتفاقهن على مطالبة النبي بالمزيد من النفقة، وضيقهن بالمعيشة الناشفة التي التزمها. وقد رضين جميعًا بالبقاء معه عندما أكد لهن أنه ما بدٌّ من هذه الحياة لمن يريد الله ورسوله والدار الآخرة!

أما الأمر الثاني: فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان لطيف العشرة لين الجانب دمث الأخلاق، فأطمع ذلك بعض نسائه في الجراءة عليه. وكانت الغيرة هي السبب.

فزعمت إحداهن أنها شمت منه رائحةً غير طبيعية، فقال: شربت عسلًا عند زينب! فقالت: لعل نحله وقع على نباتٍ سيءٍ.

(١) أخرجه البيهقي عن زيد بن أسلم، مرسلاً، في السنن الكبرى: ١٠/ ٢٢٥ رقم ٢٠٨١٢، وفي شعب الإيمان: ٧/ ٤١١ رقم ١٠٧٩٧ ووصله الشهاب في مسنده عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري، مرفوعًا، انظر: مسند الشهاب: ١/ ١٢٣ رقم ١٥٤ وهو ضعيف. انظر: لسان الميزان: ٤/ ٧، السلسلة الضعيفة مختصرة ٤/ ٢٨٩.

فقال: (لا أعود إليه ولا تخبري أحدًا). ثم ظهر أن القصة مفتعلة، وأنها مؤامرة لتزهيده في فلانة! وغضب الرسول لما وقع، وهجر نساءه جميعًا حتى شاع أنه طلقهن! ونزلت سورة التحريم تطفئ هذه الفتنة وتؤدب من أحرج الرسول وأساء المسلك»[1].

والقصة كما رواها أصحاب الصحاح عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلًا، فتواصيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل: إني أجد فيك ريح مغافير[2] أكلت مغافير، فدخل على إحداهما فقالت له ذلك، فقال (بل شربت عسلًا عند زينب بنت جحش ولن أعود له) فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [التحريم:١-٤]. لعائشة وحفصة)[3].

القصة أشارت إليها الآيات الأولى من سورة التحريم، فالسورة تبدأ بالإنكار على النبي صلى الله عليه وسلم لتحريمه شرب العسل على نفسه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «استفهام فيه إنكار، والإنكار من الله عز و جل نهيٌ، وتحريم الحلال مكروه، ولا يحرم الحلال إلا بتحريم الله عز و جل»[4].

وهذا التحريم من النبي صلى الله عليه وسلم «تحريم امتناع عن الانتفاع بها أو بالعسل لا تحريم اعتقاد بكونه حرامًا بعد ما أحله الله فالنبي صلى الله عليه وسلم امتنع عن الانتفاع بذلك مع اعتقاده أن ذلك حلال»[5].

ثم يذكر سبحانه و تعالى أنه شرع لنا تحلة القسم، ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [التحريم:٢].

فمن حلف على يمين ورأى غيره خيرًا منها فليفعل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم ، فعن عبد الرحمن بن سمرة، قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: (وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرًا منها فكفر عن يمينك وأت الذي هو خير)[6].

(١) انظر: نحو تفسير موضوعي، محمد الغزالي ١/ ٤٦٩.

(٢) شيءٌ شبيه بالصمغ ينضجه شجر العرفط، حلوٌ له ريحٌ منكرةٌ، واحدها مغفور. انظر: غريب الحديث، ابن سلام ٢/ ٢٥٦، النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير ٣/ ٧٠٣، غريب الحديث، ابن الجوزي ٢/ ١٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب الطلاق باب : يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك)، ٥/ ٢٠١٦ ، رقم ٤٩٦٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق، ٢/ ١١٠٠ ن رقم ١٤٧٤ .

(٤) التفسير البسيط، الواحدي ٢٢/ ٨.

(٥) لباب التأويل، الخازن ٤/ ٣١٢.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان، ٦/ ٢٤٤٣ ، رقم ٦٢٤٨ ، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب ندب من حلف يمينًا فرأى

ثم يخبر سبحانه وتعالى ما تسارت به حفصة وعائشة ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

«وإنما نبأها النبي صلى الله عليه وسلم بأنه علم إفشاءها الحديث بأمر من الله ليبني عليه الموعظة والتأديب فإن الله ما أطلعه على إفشائها إلا لغرض جليل.

ولم يختلف أهل العلم في أن التي أسر إليها النبي صلى الله عليه وسلم الحديث هي حفصة ويأتي أن التي نبأتها حفصة هي عائشة»[1].

ثم يرغبهما في التوبة ويرهبهما من الاستمرار على حالهما ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾ من التعاون على النبي صلى الله عليه وسلم بالإيذاء: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ عدلت ومالت عن الحق[2].

قوله ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ تعاونا على إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ أي: وليه وناصره ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ وليه وناصره أيضًا ﴿وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصون من المؤمنين الذين ليسوا بمنافقين ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ بعد نصر الله وجبريل وصالح المؤمنين أعوان للنبي صلى الله عليه وسلم ينصرونه[3].

ثم خوف نساءه بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ [التحريم:٥].

المعنى: واجب من الله إن طلقكن رسوله أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن، والله تعالى كان عالمًا أنه لن يطلقهن، ولكن أخبر عن قدرته أنه إن طلقهن أبدل خيرًا منهن؛ تخويفًا لهن[4].

وقد اختلف المفسرون هل المذكور في الآيات الخمس قصة واحدة، أم أنهما قصتان انتهت أولاهما مع الآية الثانية، وبقية الآيات تذكر قصة أخرى؟

فذهب بعضهم إلى الأول، وقالوا: إن الحديث الذي أسره النبي صلى الله عليه وسلم إلى حفصة تحريم ما حرمه على نفسه، فلما ذكرته لعائشة وأطلع الله نبيه على ذلك عرفها بعض ما ذكرت، وأعرض عن بعضه. بينما ذهب فريق آخر إلى الثاني، وقالوا إن الحديث الذي أسره النبي صلى الله عليه وسلم إلى حفصة تحريم مارية، وقال لها: اكتميه عن عائشة وكان يومها منه، وأسرك أن أبا بكر الخليفة من بعدي، وعمر

غيرها خيرًا منها أن يأتي الذي هو خيرٌ ويكفر عن يمينه، ٣/ ١٢٦٨، رقم ١٦٥٢.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٣١٣.

(٢) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ٢٢/ ١٦.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٨/ ١٦٨، لباب التأويل، الخازن ٤/ ٣١٥.

(٤) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ٢٢/ ٢٠.

الخليفة من بعده، فذكرتها لعائشة، فلما أطلع الله نبيه ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ فكان الذي عرف ما ذكره من التحريم، وكان الذي أعرض عنه ما ذكره من الخلافة لئلا ينتشر[(١)].

والظاهر أن الآيات كلها تتحدث عن قصة واحدة، وكأن قوله ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ بيان لبعض تفاصيل القصة التي حرم النبي صلى الله عليه وسلم بسببها بعض ما أحله الله له. لما في الصحيح عن عبيد الله بن عمير يقول سمعت عائشة: تزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلًا، فتواصيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل: إني أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير! فدخل على إحداهما، فقالت ذلك له، فقال: (لا بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود له) فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى قوله ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لعائشة وحفصة ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ لقوله: (بل شربت عسلًا)[(٢)].

تنبيه: ما تقدم من أن الآيات نزلت بسبب القصة المذكورة هو أصح ما قيل فيها، وهناك أقوالٌ أخرى مبنية على روايات دون المذكورة في الصحة، منها، ما روي عن ابن عباس: في قوله عز و جل ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ قال: اطلعت حفصة على النبي صلى الله عليه وسلم مع أم إبراهيم عليه السلام، فقال: لا تخبري عائشة وقال لها: إن أباك وأباها سيملكان، أو سيليان بعدي، فلا تخبري عائشة، فانطلقت حفصة فأخبرت عائشة فأظهره الله عليه، فعرف بعضه وأعرض عن بعضٍ، قال أعرض عن قوله إن أباك وأباها يكونان بعدي، كره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينشر ذلك في الناس فأعرض عنه)[(٣)].

---

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٤٠.

(٢) أخرجه البخاري، في صحيحه، واللفظ له، كتاب الأيمان والنذور باب إذا حرم طعامًا، ٦/ ٢٤٦٢ ، رقم ٦٣١٣ ، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق ٢/ ١١٠٠ ، رقم ١٤٧٤.

(٣) أخرجه الدارقطني في سننه كتاب الوصايا ٤/ ١٥٣ ، رقم ١٥ ، وبنحوه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ١٨٥، والطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ١١٧ ، رقم ١٢٦٤٠ وفي إسناد الدارقطني الكلبي عن أبي صالح، قال ابن حجر: «الكلبي هو محمد بن السائب متروك الحديث بل كذاب. تلخيص الحبير:١/ ١٢٨. وفي إسناد ابن سعد الواقدي، وهو ضعيف. انظر: النكت على ابن الصلاح:٢/ ٦٦٦. وفي رواية الطبراني الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس، والضحاك لم يثبت له سماع من ابن عباس، بل قال العجلي: ليس بتابعي. تهذيب التهذيب:٤/ ٣٩٧.

ولكن ما في الصحيح أصح.

ثانيًا: قصة الإفك:

الإفك: «الكذب»[1] ولكنه ليس أي كذبٍ، بل هو «أسوأ الكذب وأقبحه»[2].

فيفرق بينه وبين الكذب: «أن الكذب اسم موضوع للخبر الذي لا مخبر له على ما هو به، والإفك هو الكذب الفاحش القبح، مثل الكذب على الله ورسوله أو على القرآن ومثل قذف المحصنة وغير ذلك مما يفحش قبحه»[3].

وأصبح الإفك علمًا بالغلبة على اتهام أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها العفيفة البريئة ورميها بالزنا. وتعد حادثة الإفك من أشهر الأحداث التي مر بها البيت النبوي الشريف، وهي حادثة كان لها أكبر الأثر على هذا البيت، بل وعلى المجتمع المسلم كله، كادت تودي ببعض المسلمين الذين خاضوا فيها، والقصة كما ترويها السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: **كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سفرًا أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فأقرع بيننا في غزاة غزاها، فخرج سهمي، فخرجت معه بعد ما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجٍ وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدري فإذا عقدٌ لي من جزع أظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه، فأقبل الذين يرحلون لي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه -وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يثقلن ولم يغشهن اللحم، وإنما يأكلن العلقة من الطعام- فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج فاحتملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منزلهم وليس فيه أحد فأممت منزلي الذي كنت به، فظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي، فبينا أنا جالسة غلبتني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسانٍ نائم، فأتاني وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته، فوطئ يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا معرسين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي ابن**

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٥/ ٤١٦، لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٣٩٠، تاج العروس، الزبيدي ٢٧/ ٤٤.

(٢) التفسير البسيط، الواحدي ١٦/ ١٥١.

(٣) الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٥٠.

سلول، فقدمنا المدينة فاشتكيت بها شهرًا يفيضون من قول أصحاب الإفك، ويريبني في وجعي أني لا أرى من النبي صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت أرى منه حين أمرض، وإنما يدخل فيسلم ثم يقول: كيف تيكم؟ لا أشعر بشيء من ذلك حتى نقهت.

فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع متبرزنا لا نخرج إلا ليلًا إلى ليلٍ، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبًا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في البرية أو في التنزه، فأقبلت أنا وأم مسطح بنت أبي رهم نمشي، فعثرت في مرطها: فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت؛ أتسبين رجلًا شهد بدرًا! فقالت: يا هنتاه؛ ألم تسمعي ما قالوا؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضًا إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم فقال: كيف تيكم؟ فقلت: ائذن لي إلى أبوي، قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتيت أبوي فقلت لأمي: ما يتحدث به الناس؟ فقالت: يا بنية؛ هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأةٌ قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها. فقلت: سبحان الله، ولقد يتحدث الناس بهذا؟ قالت: فبت الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمعٌ ولا أكتحل بنومٍ، ثم أصبحت، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة فأشار عليه بالذي يعلم في نفسه من الود لهم؛ فقال أسامة: أهلك يا رسول الله، ولا نعلم والله إلا خيرًا، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله؛ لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة؛ فقال: يا بريرة هل رأيت شيئًا يريبك؟ فقالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت منها أمرًا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن العجين فتأتي الداجن فتأكله. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، وقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي) فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله أنا والله أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك. فقام سعد ابن عبادة وهو سيد الخزرج –وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا ولكن احتملته الحمية– فقال: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر

على ذلك. فقام أسيد بن الحضير؛ فقال: كذبت لعمر الله، والله لتقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر، فنزل فخفضهم حتى سكتوا وسكت، وبكيت يومي لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، فأصبح عندي أبواي قد بكيت ليلتين ويومًا حتى أظن أن البكاء فالقٌ كبدي، قالت: فبينا هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنت امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينا نحن كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس، ولم يجلس عندي من يوم قيل في ما قيل قبلها، وقد مكث شهرًا لا يوحى إليه في شأني شيء، قالت: فتشهد، ثم قال: (يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئةً فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بشيءٍ فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه).

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، وقلت لأبي: أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال، قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ كثيرًا من القرآن، فقلت: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس ووقر في أنفسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئة -والله يعلم إني لبريئة- لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر -والله يعلم أني بريئة- لتصدقني، والله ما أجد لي ولكم مثلًا إلا أبا يوسف إذ قال ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨].

ثم تحولت إلى فراشي وأنا أرجو أن يبرئني الله، ولكن والله ما ظننت أن ينزل في شأني وحيًا، ولأنا أحقر في نفسي من أن يتكلم بالقرآن في أمري، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله، فو الله ما رام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه الوحي، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شاتٍ، فلما سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي: (يا عائشة، احمدي الله فقد برأك الله) فقالت لي أمي: قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ [النور:١١].

الآيات، فلما أنزل الله هذا في براءتي

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه -وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه-: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد ما قال لعائشة. فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إلى قوله ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٢].

فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش عن أمري فقال: (يا زينب ما علمت ما رأيت؟) فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيرًا. قالت: وهي التي كانت تساميني فعصمها الله بالورع)[١]

وقد ذكرت حادثة الإفك في القرآن الكريم، في حديث مستفاضٍ عنها وعن براءة السيدة عائشة رضي الله عنها وبراءة الصحابي الجليل صفوان بن المعطل رضي الله عنه، وعن الوعيد والتهديد لمن خاض في الأمر، وعن تحذير المؤمنين من الانجراف إلى مثل هذه الأمور، ثم إلى الحديث عن موقف الصديق رضي الله عنه حين حلف أن لا ينفق على مسطح، وحثه على الإنفاق عليه، ثم تعود الآيات لذكر الأدلة على براءة السيدة عائشة رضي الله عنها، ويمكن إيجاز الحديث القرآني في النقاط التالية:

- تبدأ الآيات بالإخبار أنه خاض في هذا الأمر جماعة من المؤمنين، ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ «والذين ذكروا منهم مسمى في الآثار: حسان ابن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش أخت عبد الله بن جحش الأسدي، والمنافق عبد الله بن أبي»[٢].
- ثم ثنى بالإخبار بأن هذا الأمر فيه خير كثير للرسول عليه الصلاة والسلام، وأبي بكر، وعائشة، وصفوان رضي الله عنهم «لاكتسابهم الثواب العظيم، وظهور كرامتهم على الله عز وجل بإنزال القرآن الذي يتلى إلى يوم الدين في نزاهة ساحتهم وتعظيم شأنهم، وتشديد الوعيد فيمن تكلم فيهم، والثناء على من ظن خيرًا بهم، مع ما فيه من صدق الرجعى إلى الله، والافتقار إليه، والإياس مما سواه»[٣].
- ثم ذكر وبال من وقع فيها بقوله: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم﴾ من أولئك العصبة ﴿مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ له من الجزاء بقدر

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضًا:٢/ ٩٤٢ ، رقم ٢٥١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف:٤/ ٢١٢٩ رقم ٢٧٧٠ .

(٢) التفسير البسيط، الواحدي ١٦/ ١٥٢ .

(٣) البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٥٦ .

ما خاض فيه، وكان بعضهم ضحك، وبعضهم تكلم، وبعضهم سكت[١].

❁ ثم ذكر عقابًا خاصًا لعبد الله بن أبي بن سلول -قبحه الله ولعنه -[٢] الذي تولى معظمه ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

❁ ثم ذكر سبحانه و تعالى ما يجب أن يتأدب به المؤمنون في قضية عائشة رضي الله عنها «حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السيئ، وما ذكر من شأن الإفك، فقال: ﴿لَوْلَا﴾ بمعنى: هلا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي: ذلك الكلام، أي: الذي رميت به أم المؤمنين ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى، وهلا ظنوا الخير، فإن أم المؤمنين أهله وأولى به، هذا ما يتعلق بالباطن»[٣] أو «ظن بعضهم ببعض خيرًا، والبعض هاهنا الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين، وصفوان بن المعطل رضي الله عنه»[٤].

❁ «﴿وَقَالُوا﴾ بألسنتهم ﴿هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ كذب ظاهر على أم المؤمنين، فإن الذي وقع لم يكن ريبة، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرةً على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة، والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، لو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان يكون هذا -لو قدر- خفية مستورا، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت، والقول الزور، والرعونة الفاحشة الفاجرة والصفقة الخاسرة»[٥].

❁ ثم يذكر دليلًا على كذب القائلين، وهو أنهم لم يحضروا شهداء على قولهم، ولن يستطيعوا، لأنه لم يقع ﴿لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

❁ ثم يذكر بعض نعمه تعالى عليهم، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ «أيها الخائضون في شأن عائشة، بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى

(١) المصدر السابق.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٦.
(٤) درج الدرر، الجرجاني ٣/ ١٢٨٢.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٦.

الدار الآخرة ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾، من قضية الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا فيمن عنده إيمان رزقه الله بسببه التوبة إليه، كمسطح، وحسان، وحمنة بنت جحش، فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي بن سلول وأضرابه، فليس أولئك مرادين في هذه الآية؛ لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه. وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين، يكون مطلقًا مشروطا بعدم التوبة، أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجح عليه»[1].

- ثم يصور حالهم وقت خوضهم في هذا الجرم، بحيث استحقوا العقوبة فعلًا ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ «تلقفونه، ويلقيه بعضكم إلى بعض، وتستوشون حديثه، وهو قول باطل ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ والأمران محظوران، التكلم بالباطل، والقول بلا علم»[2] ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾: «تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين، وتحسبون ذلك يسيرًا سهلًا، ولو لم تكن زوجة النبي صلى الله عليه وسلم لما كان هينا، فكيف وهي زوجة النبي الأمي، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين»[3].

- ثم يوجههم إلى أمر آخر كان ينبغي أن يفعلوه ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ فهو «عتاب لجميع المؤمنين، أي: كان ينبغي عليكم أن تنكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه عليه الصلاة والسلام وأن تحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان»[4].

- ثم يحذرهم من الوقوع في مثل هذا الأمر مرة أخرى ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

- ثم بين سبحانه و تعالى ما يترتب على إشاعة الفحشاء ونشرها بين الذين آمنوا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وذلك لأنها إذا شاعت في الأتقياء ذوى المكانة سهل ارتكاب الفاحشة، فإذا تسامع من يكون في قلبه نزغة أن فلانة من أزواج الكبراء، قد ارتكبتها فلا تجد حرجًا أو لائمةً أن ترتكبها، فكان الذين يلوكون بألسنتهم اتهام أزواج الكبراء قاصدين إليها غير

(١) المصدر السابق ٦/ ٢٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٦٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٨.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي١٢/ ٢٠٥.

متأثمين من ترويجها يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا؟ لأنهم إذا علموا النتائج المترتبة على قولهم، واستمروا في غيهم، فهم يحبون هذه النتيجة ويسعون بعملهم إليها، وقد ذكر سبحانه و تعالى ذلك ليعلم العابثون أنهم إن استمروا أنهم يحبون هذا الفساد، وقد ذكر سبحانه و تعالى جزاءهم، فقال ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أما عذاب الدنيا فهو العقاب الصارم وهو الحد، والحد يتضمن ثلاثة أنواع لا يكفر إلا آخرها، وهي الجلد ثمانين جلدة، والثاني: ألا تقبل لهم شهادة أبدًا، والثالث: الحكم عليهم بأنهم فاسقون، وهذا ما تكفره التوبة. وأما عذاب الآخرة فإن الله تعالى اختصه بعلمه، حتى نراه يوم القيامة عيانا، ثم قال تعالى مؤكدا العواقب الوخيمة من رمى البريئات والبرآء ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ الله وحده يعلم صحة الاتهام إن كان صحيحًا، ومواضع التهمة، ويعلم أثر ذلك في الجماعات من إشاعة الفساد، وانحلال الرابطة الاجتماعية، وإشاعة الأقوال الباطلة ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ هو أسرار البيوت ودخائلها، فإن ذلك في كنٍ مستورٍ، ومن المصلحة ستره»[1].

❁ ثم يذكر المؤمنين مرة أخرى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ «إن الحدث لعظيم، وإن الخطأ لجسيم، وإن الشر الكامن فيه لخليق أن يصيب الجماعة المسلمة كلها بالسوء. ولكن فضل الله ورحمته، ورأفته ورعايته، ذلك ما وقاهم السوء، ومن ثم يذكرهم به المرة بعد المرة»[2].

❁ ثم يصور «لهم عملهم بأنه اتباع لخطوات الشيطان. وما كان لهم أن يتبعوا خطوات عدوهم وعدو أبيهم من قديم. وحذرهم ما يقودهم الشيطان إليه من مثل هذا الشر المستطير ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وإنها لصورة مستنكرة أن يخطو الشيطان فيتبع المؤمنون خطاه، وهم أجدر الناس أن ينفروا من الشيطان وأن يسلكوا طريقًا غير طريقه المشؤوم!... ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾.. وحديث الإفك نموذج

---

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥١٦٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب٤/ ٢٥٠٤.

من هذا المنكر الذي قاد إليه المؤمنين الذين خاضوا فيه. وهو نموذج منفر شنيع. وإن الإنسان لضعيف، معرضٌ للنزعات، عرضةٌ للتلوث. إلا أن يدركه فضل الله ورحمته. حين يتجه إلى الله، ويسير على نهجه»[1].

- ثم يوجه الأغنياء أن لا يعبؤوا بمثل هذه الأمور، ولا تمنعهم من فعل الخيرات ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لا يحلف أصحاب الفضل والسعة ألا يؤتوا أولى القربى كمسطح[2]. «ولما كان النهي عن ذلك غير صريح في العفو، عطف عليه مصرحًا بالمقصود قوله: ﴿وَلْيَعْفُوا﴾ عن زللهم بأن يمحوه ويغطوه بما يسبلونه عليه من أستار الحلم حتى لا يبقى له أثر. ولما كان المحو لا ينفي التذكر قال ﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾ أي يعرضوا عنه أصلًا ورأسًا، فلا يخطروه لهم على بال ليثمر ذلك الإحسان، ولما كانت لذة الخطاب تنسي كل عتاب، أقبل سبحانه و تعالى بفضله ومنه وطوله على أولي الفضل، مرغبًا في أن يفعلوا بغيرهم ما يحبون أن يفعل بهم، مرهبًا من أن يشدد عليهم إن شددوا فقال ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ يا أولي الفضل ﴿أَن يَغْفِرَ اللَّهُ﴾ الملك الأعظم ﴿لَكُمْ﴾ ما قصرتم في حقه ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إن شاء يغفر لكم ذنوبكم بأن يمحوها فلا يدع لها أثرًا ويرحمكم بعد محوها بالفضل عليكم كما فعلتم معهم، فإن الجزاء من جنس العمل»[3].

- ثم يبين سبحانه وتعالى جزاء من يرمي عفيفة بريئة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور:٢٣-٢٥].

- لهم الطرد من رحمة الله في الدنيا والآخرة، ولهم عذاب عظيم يوم القيامة، حين تشهد عليهم جوارحهم، فيعطيهم الله تعالى جزاءهم الذي يستحقونه، ووقتها يوقنون أن الله تعالى هو الحق الواضح.

- ثم يذكر سبحانه و تعالى أنه لا يتكلم بالكلمات الخبيثات إلا الخبيث من

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥٠٤.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٤٨٦.
(٣) نظم الدرر، البقاعي ٥/ ٢٤٨.



الرجال والنساء، ولا يتكلم بالطيبات إلا الطيب من الرجال والنساء، وأن الكلمات الخبيثات إنما تلصق بالخبيثات من النساء، والرجال، فأما الطاهرات الطيبات فلا يلصق بهن السب[1]. ثم يأتي النص على براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها صراحة، وبراءة صفوان رضي الله عنه ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور:٢٦].

- «وما في اسم الإشارة من معنى البعد، للإيذان بعلو رتبة المشار إليهم، وبعد منزلتهم في الفضل، أي: أولئك الموصوفون بعلو الشأن: مبرؤون مما يقوله أهله الإفك في حقهم من الأكاذيب الباطلة»[2].

ثالثًا: قصة التخيير بين متاع الدنيا والآخرة:

وهي من القصص ذات الأثر الكبير على البيت النبوي الشريف.

ذكرها الله تعالى في سورة الأحزاب في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب:٢٨-٢٩].

«لقد اختار النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه ولأهل بيته معيشة الكفاف، لا عجزًا عن حياة المتاع، فقد عاش حتى فتحت له الأرض، وكثرت غنائمها، وعم فيؤها، واغتنى من لم يكن له من قبل مال ولا زاد! ومع هذا فقد كان الشهر يمضي ولا توقد في بيوته نار. مع جوده بالصدقات والهبات والهدايا. ولكن ذلك كان اختيارًا للاستعلاء على متاع الحياة الدنيا ورغبة خالصة فيما عند الله. رغبة الذي يملك ولكنه يعف ويستعلي ويختار.. ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكلفًا من عقيدته ولا من شريعته أن يعيش مثل هذه المعيشة التي أخذ بها نفسه وأهل بيته، فلم تكن الطيبات محرمةً في عقيدته وشريعته؛ ولم يحرمها على نفسه حين كانت تقدم إليه عفوًا بلا تكلف، وتحصل بين يديه مصادفة واتفاقًا، لا جريًا وراءها ولا تشهيًا لها، ولا انغماسًا فيها ولا انشغالًا بها.. ولم يكلف أمته كذلك أن تعيش عيشته التي اختارها لنفسه، إلا أن يختارها من يريد، استعلاء على اللذائذ والمتاع؛ وانطلاقًا من ثقلتها إلى حيث الحرية التامة من رغبات النفس وميولها، ولكن نساء النبي صلى الله عليه وسلم كن نساءً من البشر، لهن مشاعر البشر. وعلى

(١) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ١٦/ ١٨٤.
(٢) البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٦٣.

فضلهن وكرامتهن وقربهن من ينابيع النبوة الكريمة، فإن الرغبة الطبيعية في متاع الحياة ظلت حية في نفوسهن»[1].

ولما فتحت البلدان، ووجدن سعة سبل سألنه في عرض الدنيا ومتاعها أشياء، وطلبن منه زيادة في النفقة، وآذينه بغيرة بعضهن بعضًا، فهجرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآلى -أي حلف- لا يقربهن شهرًا[2] فعن جابر بن عبدالله قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجد الناس جلوسًا ببابه لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر، فدخل، ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم جالسًا حوله نساؤه واجمًا ساكتًا، قال: فقال: لأقولن شيئًا أضحك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال: هن حولي كما ترى يسألنني النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده، فقلن: والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا أبدًا ليس عنده، ثم اعتزلهن شهرًا أو تسعًا وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ حتى بلغ ﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قال: فبدأ بعائشة فقال: يا عائشة؛ إني أريد أن أعرض عليك أمرًا أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك؛ قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نساءك بالذي قلت. قال: لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها؛ إن الله لم يبعثني معنتًا ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا ميسرًا)[3].

وعن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخيير أزواجه بدأ بي، فقال: (إني ذاكرٌ لك أمرًا، فلا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك) قالت: وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: إن الله جل ثناؤه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ إلى ﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قالت: فقلت: ففي أي هذا أستأمر أبوي، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. قالت: ثم فعل

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٥٣.

(٢) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ١٨/ ٢٢٥، معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٣٤٥، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٤٢٣، سبل الهدى والرشاد، الصالحي ٩/ ٦٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية، ٢/ ١١٠٤، رقم ١٤٧٨.

أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مثل ما فعلت)[١].

والأمر في قوله: ﴿قُل﴾ للوجوب ووجوب التخيير خاص به صلى الله عليه وسلم، ولا يجب ذلك على غيره[٢].

«وكان تحته يومئذٍ تسع نسوةٍ: عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وأم حبيبة، وسودة، وزينب بنت جحشٍ، وميمونة بنت الحارث، وجويرية بنت الحارث، وصفية بنت حيي»[٣].

ومعنى ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ «التوسعة في الدنيا وكثرة الأموال والحلل، ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ أقبلن بإرادتكن واختياركن. ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أعطكن متعة الطلاق»[٤]. «والتمتيع: أن يعطي الزوج امرأته حين يطلقها عطية جبرًا لخاطرها لما يعرض لها من الانكسار»[٥] ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ أطلقكن ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ لا ضرر فيه»[٦].

ولما خيرهن صلى الله عليه وسلم «فآثرن الله ورسوله والدار الآخرة. وعشن مع النبي صلى الله عليه وسلم معينات على الحق، راغبات في الثواب. وبهذا التفاني في خدمة الرسالة، والإهمال لمطالب النفس، رفع الله درجاتهن، فلم يصبحن زوجات رجل يطلبن في ظله المتاع. بل صرن شريكات في حياة فاضلة غالية، واستحققن قول الله عز وجل: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦]»[٧].

وهذا التخيير كان سنة تسع[٨]، وبدأ بعائشة رضي الله عنها على غيرها من أزواجه صلى الله عليه وسلم لفضلها[٩].

وقد اختلف العلماء في كيفية تخيير النبي صلى الله عليه وسلم أزواجه على قولين:

الأول: أنه خيرهن بإذن الله تعالى في البقاء على الزوجية أو الطلاق، فاخترن البقاء.

ومنهن من قال: إنما خيرهن بين الدنيا فيفارقهن، وبين الآخرة فيمسكهن، لتكون لهن المنزلة العليا كما كانت لزوجهن، ولم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب التفسير، باب سورة الأحزاب، ٤/ ١٧٩٦، رقم ٤٥٠٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية، ٢/ ١١٠٣، رقم ١٤٧٥.

(٢) انظر: الخصائص الكبرى، السيوطي ٢/ ٣٤٧، غاية السول في خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم، ابن الملقن ص ١٤، سبل الهدى والرشاد، الصالحي ١٠/ ٤٠٦.

(٣) معرفة الصحابة، أبو نعيم ٦/ ٣٢٤٤.
وانظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٨١، التفسير البسيط، الواحدي ١٨/ ٢٢٥.

(٤) البحر المديد، ابن عجيبة ٦/ ٣٣.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٣٤.

(٦) البحر المديد، ابن عجيبة ٦/ ٣٣.

(٧) فقه السيرة، الغزالي ص٣٤٧.

(٨) الإصابة، ابن حجر ٨/ ٢٠٩.

(٩) انظر: إرشاد الساري، القسطلاني ٧/ ٢٩٥.

يخيرهن في الطلاق.

والقول الأول أصح[1].

وفي هذا التخيير فوائد عديدة:

منها: الاعتناء برسوله، وغيرته عليه، أن يكون بحالة يشق عليه كثرة مطالب زوجاته الدنيوية. ومنها: سلامته صلى الله عليه وسلم بهذا التخيير من تبعة حقوق الزوجات، وأنه يبقى في حرية نفسه، إن شاء أعطى، وإن شاء منع.

ومنها: تنزيهه عما لو كان فيهن من تؤثر الدنيا على الله ورسوله والدار الآخرة، وعن مقارنتها.

ومنها: سلامة زوجاته رضي الله عنهن عن الإثم، والتعرض لسخط الله ورسوله، فحسم الله بهذا التخيير عنهن، التسخط على الرسول، الموجب لسخطه، المسخط لربه، الموجب لعقابه.

ومنها: إظهار رفعتهن، وعلو درجتهن، وبيان علو هممهن، أن كان الله ورسوله والدار الآخرة، مرادهن ومقصودهن، دون الدنيا وحطامها.

ومنها: استعدادهن بهذا الاختيار، للأمر الخيار للوصول إلى خيار درجات الجنة، وأن يكن زوجاته في الدنيا والآخرة.

ومنها: ظهور المناسبة بينه وبينهن، فإنه أكمل الخلق، وأراد الله أن تكون نساؤه كاملات مكملات، طيبات مطيبات.

ومنها: أن هذا التخيير داع، وموجب للقناعة، التي يطمئن لها القلب، وينشرح لها الصدر، ويزول عنهن جشع الحرص، وعدم الرضا الموجب لقلق القلب واضطرابه.

ومنها: أن يكون اختيارهن هذا سببًا لزيادة أجرهن ومضاعفته، وأن يكن بمرتبةٍ ليس فيها أحد من النساء[2].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٧٠.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦٢.

حقوق بيت النبوة

أهل البيت النبوي رضي الله عنه لهم على الأمة حقوق كثيرة، يجب أن تؤدى إليهم، هذه الحقوق منها ما هو عام يشتركون فيه مع بقية المؤمنين، وهي حقوق الأخوة الإيمانية، ومنها ما هو خاص لقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحقوق الخاصة منها حقوق مادية ومنها حقوق معنوية، ونحاول أن نذكر بعض هذه الحقوق في النقاط الآتية:

أولًا: الحقوق المعنوية:

من أبرز حقوقهم المعنوية: المحبة.

يقول تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى:٢٣]

في هذه الآية يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم أنه لم ولن يطلب أجرًا منهم على تبليغ رسالة ربه إليهم، ولكنه يطلب منهم المودة في القربى، وفي معنى ذلك أربعة أقوال:

الأول: إلا أن تودوني في قرابتي التي بيني وبينكم، فتكفوا عني أذاكم وتمنعوني من أذى الناس، كما تمنعون كل من بينكم وبينه مثل قرابتي منكم.

الثاني: لا تؤذوا قرابتي وعترتي واحفظوني فيهم.

الثالث: إلا أن تتوددوا إلى الله وتتقربوا إليه بالطاعة والعمل الصالح.

الرابع: إلا أن تتوددوا إلى قراباتكم وتصلوا أرحامكم[١].

أقول: ذكر العلماء هذه الأقوال، وأخذ كل واحدٍ منهم يرجح قولًا ويضعف بقية الأقوال، ولا أرى مانعًا من إرادتها كلها، فكلها مطالب شرعية، والذي يعنينا هنا هو القول الثاني، فمودة آل البيت ومحبتهم محبة للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ قال ابن كثير-بعد أن رجح القول الأول-: «ولا تنكر الوصاة بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخرًا وحسبًا ونسبًا، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيه، وعلي وأهل بيته وذريته رضي الله عنه.

و قد ثبت في الصحيح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبته بغدير خم: (**إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي، وإنهما لم يفترقا حتى يردا علي الحوض**)[٢].

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٦٩.
(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه، واللفظ له، كتاب معرفة الصحابة، رضي الله تعالى عنهم، باب من مناقب أهل رسول الله صلى

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «ارقبوا محمدًا صلى الله عليه وسلم في أهل بيته»[1] .

وفي الصحيح: أن الصديق قال لعلي رضي الله عنهما: «والله لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلي أن أصل من قرابتي»[2] .

وعن زيد بن أرقم قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا فينا خطيبًا بماءٍ يدعى خمًا بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: (أما بعد؛ ألا أيها الناس فإنما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تاركٌ فيكم ثقلين؛ أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور؛ فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به -فحث على كتاب الله ورغب فيه- ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، فقال له حصين: ومن أهل بيته؟ يا زيد؛ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده قال: وهم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس، قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم)[3] .

ومن حقوقهم أيضًا الدعاء لهم والثناء عليهم والصلاة عليهم، وما زال المسلمون يصلون عليهم مع الصلاة والسلام على المصطفى صلى الله عليه وسلم فقد أمر الله تعالى بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب:٥٦].

الصلاة: من الله الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أراد أن الله يرحمه والملائكة يدعون له[4] .

وقد اتفق العلماء على وجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم اختلفوا، فقيل: تجب في العمر مرة، وهو الأكثر، وقيل: تجب في التشهد الأخير، وهو مذهب الشافعي، وإحدى الروايتين عن أحمد، وقيل: تجب كلما ذكر، واختاره الطحاوي

الله عليه وسلم:٣/ ١٦٠ رقم ٤٧١١ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وأخرجه أحمد:٣/ ١٧ رقم ١١١٤٧، قال شعيب الأرنؤوط: صحيح بشواهده.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٣/ ١٣٦١، رقم ٣٥٠٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٣/ ١٣٦٠، رقم ٣٥٠٨ . وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٠١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ٤/ ١٨٧٣، رقم ٢٤٠٨.

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١١٣.

من الحنفية، والحليمي من الشافعية»[(١)] «وقيل: تجب في كل مجلس مرة، وإن تكرر ذكره، والذي يقتضيه الاحتياط الصلاة عليه عند كل ذكر»[(٢)].

ولها صيغ كثيرة واردة في أحاديث صحيحة، منها: عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ قال: قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»[(٣)].

فالآل مشمولون معه صلى الله عليه وسلم في الصلاة لا خلاف في ذلك، وإنما الخلاف في إفرادهم بالصلاة، فقد وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم، فقال قائلون: يجوز ذلك، وقال الجمهور من العلماء: لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة، لأن هذا قد صار شعارًا للأنبياء إذا ذكروا، فلا يلحق بهم غيرهم، فلا يقال: قال: علي صلى الله عليه، وإن كان المعنى صحيحًا، كما لا يقال: قال محمد عز وجل، وإن كان عزيزًا جليلًا، لأن هذا من شعار ذكر الله عز و جل، وحملوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم[(٤)].

قال ابن حجر: «ذلك كله وقع من النبي صلى الله عليه وسلم ولصاحب الحق أن يتفضل من حقه بما شاء وليس لغيره أن يتصرف إلا بإذنه ولم يثبت عنه إذن في ذلك»[(٥)].

ثانيًا: الحقوق المادية:

يقول تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال: ٤١].

ويقول: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر: ٧].

«الغنيمة: هي المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب. و«الفيء»: ما أخذ

(١) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٤٣٥.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢٧٣.
(٣) أخرجه: البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب التفسير، باب (إن الله وملائكته يصلون على النبي)، ٤/ ١٨٠٢، رقم ٤٥١٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد التشهد، ١/ ٣٠٥، رقم ٤٠٥.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٧٨.
(٥) فتح الباري، ابن حجر ٨/ ٥٣٤.

منهم بغير ذلك، كالأموال التي يصالحون عليها، أو يتوفون عنها ولا وارث لهم، والجزية والخراج ونحو ذلك. هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف. ومن العلماء من يطلق الفيء على ما تطلق عليه الغنيمة»[1].

«والغنيمة يأخذ الإمام الخمس منها، والباقي يقسم بين المجاهدين، والفيء يأخذه الإمام فيضعه في مصلحة المسلمين، وليس فيه الخمس»[2].

وقد جعل الله تعالى نصيبًا من الغنائم ونصيبًا من الفيء لآل البيت رضي الله عنه وذلك نظير أنهم حرموا من الصدقات، فهم لا يجوز التصدق عليهم، كما قال صلى الله عليه وسلم: (**إن الصدقة لا تنبغي لآل محمدٍ، إنما هي أوساخ الناس**)[3].

فالغنيمة تقسم خمسة أخماس، يعطى أربعة أخماسها للمجاهدين، واختلف في كيفية تقسيم الخمس الباقي، «فقال مالك: الرأي للإمام، يلحقه ببيت الفيء، ويعطي من ذلك البيت لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رآه، كما يعطي منه اليتامى والمساكين، وغيرهم، وإنما ذكر من ذكر على جهة التنبيه عليهم، لأنهم من أهم ما يدفع إليهم. وقال الشافعي: يعطي للخمسة المعطوفة على الله، ولا يجعل لله سهمًا مختصًا، وإنما ذكر ابتداءً تعظيمًا، لأن الكل ملكه، وسهم الرسول يأخذه الإمام، يصرفه في المصالح، فيعطي للأربعة المعطوفة على الرسول، ويفضل أهل الحاجة. قال مالك: لا يجب التعميم، فله أن يعطي الأحوج، وإن حرم غيره. وقال أبو حنيفة: على ثلاثة أسهم، لليتامى والمساكين وابن السبيل، قال: وسقط الرسول وذوو القربى بوفاته صلى الله عليه وسلم . وقال أبو العالية: يقسم على ستةٍ، أخذًا بظاهر الآية، ويصرف سهم الله إلى الكعبة، وسهم الرسول في مصالح المسلمين، وسهم ذوي القربى لأهل البيت الذين لا تحل لهم الزكاة، ثم يعطى سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل»[4].

وهذا الأخير هو القول الأوفق بظاهر الآية الكريمة.

ومذهب الشافعي رضي الله عنه أن الفيء يقسم خمسة أقسام، فقسم منها يقسم خمسة أقسام للرسول صلى الله عليه وسلم ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وأربعة أقسام لرسول الله خاصة فيكون له من الفيء أربعة أخماس وخمس خمس، وهو أحد وعشرون سهمًا من خمسة

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٩.
(٢) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٥/ ٢٠٥.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ترك استعمال آل النبي على الصدقة، ٢/ ٧٥٦، رقم ١٠٧٢ .
(٤) البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ٣٠.

وعشرين سهمًا، فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم انتقل السهم الذي كان له من الخمس إلى المصالح، وأما الأربعة الأخماس ففيها قولان: أحدهما: أنها انتقلت إلى الغزاة المرصدين للجهاد. والثاني: أن ترصد لمصالح المسلمين كخمس الخمس، وذلك بأن تصرف إلى الغزاة والقضاة وأهل العلم وبناء المساجد والقناطر والسقايات ونحو ذلك. قال أبو حنيفة: الفيء لا يخمس ويصرف جميعه مصرف الخمس[(١)].

ولا يعنينا الدخول في تفصيل الخلاف بين الفقهاء في هذه المسألة، فهي مسألة متشعبة الفروع، تطلب من مظانها، وإنما يعنينا الاستدلال على أن لآل البيت نصيبًا من الغنيمة ونصيبًا من الفيء.

موضوعات ذات صلة:

البيوت، محمد صلى الله عليه وسلم، النبوة

(١) الشافي في شرح مسند الشافعي، ابن الأثير ٤/ ٢٦٤.
وانظر: أحكام القرآن، الشافعي ١/ ١٥٤، أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٣١٨.